محمد عبد المنعم خفاجي

فصول من الثقافة المعاصرة

الطبعة الأولى

الكتاب به صفحات مائلة من الأصل

بسم الله الرحمن الرحيم

دار الطباعة المحمدية - درب الأتراك بالأزهر بالقاهرة

مقدمة

هذا الكتاب « فصول من الثقافة المعاصرة » كان المقدر له أن يظهر منذ عام فى أكثر من ألف صفحة ، ولكن أزمة الورق أدت إلى ظهوره اليوم فى أربعمائة صفحة ، أما باقى أصوله فقد أبقيتها لتنشر بعد ذلك فى كتاب إذا أراد الله .

وكتاب « فصول من الثقافة المعاصرة » يشتمل على تمهيد وثمانية فصول :

فالتمهيد فى النزعات الأدبية التى هى أثر للثقافات الحديثة .

والفصل الأول يحتوى على موضوعات موجهة فى التاريخ العربى ، والقومية العربية . . وفى منابع المجد من كياننا الإسلامى .

والفصل الثانى يحتوى على دراسات عن الوحدة العربية والأدب العربى المعاصر فى سوريا . . وعن جهد بعض المستشرقين فى الدراسات العربية مثل الدكتور بارت .

والفصل الثالث يشتمل على بحوث عن شعراء من العالمين العربى والإسلامى ، من مثل : إقبال والشابى والتيجانى والأيوبى وسواهم ، وشعراء آخرين من مصر .

والفصل الرابع فى دراسات عن شعراء آخرين من مختلف أقطار العالم العربى .

والفصل الخامس فى بحوث عن أدباء عرب مشهورين وعن آراء فى الأدب وواجبنا حياله .

والفصل السادس دراسة واسعة للأدب المهجرى والمؤثرات فيه وأشهر أعلامه .

والفصل السابع تناولت فيه تحليل حياة المستشرق الدكتور جرمانوس، وعدة آراء فى النقد، ومطالعات فى الأدب الحجازى وأشهر الآثار الأدبية لكثير من الأدباء الحجازيين المعاصرين.

والفصل الثامن والأخير تناولت فيه بعض الشخصيات الأدبية المعاصرة من مصريين وغير مصريين.

وبذلك ينتهى هذا الكتاب الضخم، الذى استغرق وقتا طويلا، وجهدا طائلا.

والكتاب على أية حال يصور كثيرا من معالم الثقافة المعاصرة، الثقافة العقلية عامة، والثقافة الأدبية على وجه الخصوص.

وإنى لأقدم هذا الكتاب إلى القارىء العربى، راجيا أن يكون موضع التقدير، وأن يتلقاه بقبول حسن يكون كفاء ما بذلت فيه من جهد، وما استغرق إعداده منى من وقت.

وأرجو أن يتيح لى الحظ نشر باقى أصول هذا الكتاب فى وقت قريب، وإلى الملتقى، والله الموفق إلى الخير والسداد؟

فهرست الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	تصدير
٥ - ١٦	تمهيد
١٧ - ٥٨	الفصل الأول
١٨	اكتبوا التاريخ من جديد
٢٠	فلسفة التاريخ العربي
٢٤	فلسفة التشريع عند العرب
٢٨	إيديولوجية عربية جديدة
٣٢	من كفاحنا
٣٨	حول مستقبل المدنية
٤٣	شهر النصر والحرية
٤٥	الصوم تعبير عن إرادة الحياة
٤٧	المعجزة الخالدة
٥٥	رسالة الأزهر
٥٩ - ٩٣	الفصل الثاني
٦٠	أمل طالما انتظرناه
٦٢	الوحدة بين مصر وسوريا
٦٥	مستقبل الأدب في بلادنا
٦٨	أديب من سوريا
٧٤	صفحة من الأدب السوري
٨٦	أنور العطار
٨٨	المستشرق بانرت
٩٤ - ١٤٣	الفصل الثالث
٩٥	إقبال
١١٠	فن الشابي
١١٦	التيجاني بشير
١٢٠	شخصية لا تنسى
١٢٣	موسى الطالقاني
١٢٨	شاعر ثائر
١٣١	محمود شوقي الأيوبي
١٣٥	شاعر وديوان
١٣٩	ألحان من الشرق
١٤٤ - ١٩٥	الفصل الرابع
١٤٥	شعر الوطنية في ديوان الأجنحة البيضاء

الصفحة	الموضوع
١٤٩	حول قضايا الشعر الجديد
١٥٥	الشعر والتجديد
١٧٢	فى ذكرى شاعر
١٧٤	شاعر ثائر على مجتمعه
١٧٩	شاعر من السودان
١٨١	النار والزيتون فى الجزائر
١٩٢	العالم الشاعر
١٩٦ - ٢١٦	الفصل الخامس
١٩٧	قضايا الفكر فى الأدب المعاصر
٢٠٣	النثر الفنى عند العرب
٢٠٨	نحو أدب جديد
٢١٢	الأدب والدولة
٢١٣	النزعة الأوربية فى الأدب
٢١٧ - ٣٣٥	الفصل السادس
٢١٧	الأدب المهجرى
٢١٨	أعلام من أدباء المهجر
٢٢١	هيئات أدبية مهجرية
٢٢٢	بماذا تأثر الأدب المهجرى
٢٢٣	خصائص للأدب المهجرى
٢٢٧	أبو شادى والأدب المهجرى
٢٣٤	فنون الشعر المهجرى
٢٣٨	الشعر فى رأى المهجريين
٢٣٩	رأى أدباء المشرق فى الشعر المهجرى

الصفحة	الموضوع
٢٤١	أعلام شعراء المهجر
٢٤٧	الشعر المهجرى وخصائصه
٢٥٠	قيمة الأدب المهجرى
٢٥٢	صور من الشعر المهجرى
٢٨٨	الشاعر القروى
٣٠٧	القروى الشاعر كما عرفته
٣١٣	إيليا أبو ماضى
٣١٨	حكاية مغترب
٣٢٣	شاعر من عبقر
٣٣٢	نظير زيتون
٣٣٥ - ٣٨٥	الفصل السابع
٣٣٥	المستشرق جرمانوس
٣٤٨	هؤلاء يكتبون فى النقد
٣٥٤	التيارات الأدبية
٣٦٠	وحى الشاطىء
٣٦٦	حيرة
٣٧٣	أغاريد الصحراء
٣٧٩	أين نحن اليوم
٣٨١	قصص مختارة
٣٨٦	الفصل الأخير
٣٨٧	الشيخ عبد الله بن ترك
٣٨٩	تطورات الأدب العربى
٣٩٥	السحرتى وجماعة أبوللو

تمهيد

النزعات الأدبية الحديثة

مدارس الأدب فى مصر :

الأدب المصرى الحديث الذى يبتدىء بقيام الثورة العرابية عام ١٨٨٢م والذى بشر به محمد عبده وحمل راية الشعر فيه البارودى مجددا وملقحا له بالشعر العباسى وبلاغاته ، والذى لم يكن يعرف الأدباء والدارسون منهجا فى دراسته غير المنهج القديم الذى اختطه الشيخ سيد ابن على المرصفى ، حتى نقل حسن توفيق العدل بعد عودته من ألمانيا منهج المستشرقين فى دراسات تاريخ الأدب ونقده . . هذا الأدب قد تعددت بيئاته ومدارسه فى مصر منذ مطلع القرن العشرين .

فمن بيئة الأزهر خرج : المنفلوطى ، وحمزة فتح الله ، والغاياتى ، وعبد الرحمن البرقوقى ، وطه حسين ، وعبد العزيز البشرى ، ومصطفى عبد الرازق ، وعلى عبد الرازق ، وزكى مبارك ، والأسمر .

ومن بيئة مدرسة القضاء الشرعى : خرج عبد الوهاب النجار ، وأحمد أمين ، وأمين الخولى .

ومن بيئة دار العلوم : خرج عبد العزيز جاويش ، والشيخ الخضرى ، والجارم . . ومن مدرسة المعلمين العليا خرج : عبد الرحمن شكرى وإبراهيم المازنى والدكتور أحمد زكى ، ومحمد فريد أبو حديد .

ثم قامت الجامعة وخرج من صفوفها : الدكتور هيكل ومنصور فهمى وأحمد ضيف ، وعبد الحميد بدوى ، ثم توفيق الحكيم ، والدكتور محمد مندور ، ومصطفى السحرتى ، وإسماعيل أدهم ، ومحمد لطفى جمعة ، وشوقى ضيف ، وسواهم .

وكانت هناك مدرسة أدبية أخرى خرجت من بيئة الصحافة وفى مقدمتها

العقاد . . ومن الصحف المشهورة جريدة اللواء التى صدر العدد الأول منها فى أول يناير عام ١٩٠٠ ، والجريدة التى أصدرها لطفى السيد ، ومجلة البيان التى أصدرها عبد الرحمن البرقوقى عام ١٩١١ وتوقفت عن الصدور عام ١٩٢٣ ، ومجلة الزهور التى كان يصدرها أنطون الجميل ، وسواها .

وكان هناك جماعات من أعلام الأدب فى مصر تتلمذت عليها هـــذه الطبقات ، وفى مقدمتهم : محمد وإبراهيم المويلحيان ؛ وعبد العزيز جاويش وعلى يوسف ، وسيد المرصفى ، ومحمد المهدى ؛ ومحمد السباعى ، ثم مصطفى المنفلوطى .

وقد أثرت هذه الحركة الأدبية فى النثر ، الذى انتقل من الأسلوب القديم الذى كان يمثله عبدالله فكرى فى رسالته « السفر إلى المؤتمر » ، وتوفيق البكرى فى كتابه « صهاريج اللؤلؤ » ، ومحمد المويلحى فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » إلى الأسلوب الاجتماعى الوجدانى ممثلا فى كتابة المنفلوطى ، ثم طه حسين .

وأحدثت طبقة رجال الصحافة أثراً كبيراً فى تطور أساليب النثر وفى مقدمتهم : عبدالقادرحمزة ، وأنطون الجميل ، وصروف ، وجورجى زيدان وخليل مطران ، وأحمـــد حافظ عوض ، وسواهم ، وكان لمجلة المقتطف (١٨٧٦ - ١٩٥٣) ، ولمجلة الهلال (١٨٩٢ -) ، ثم الرسالة ومجلة أبولو ومجلة العصور لاسماعيل مظهر ، ومجلة الثقافة ، كما كان للسياسية أثر عميق فى النهضة الأدبية . . وقامت فى الهلال والسياسة عام ١٩٢٥ معركة حول القديم والجديد . اشترك فيها الرافعى وطه حسين وسلامة موسى ورفيق العظم وسواهم . . وقد نشأت المدرسة الجديدة فى الشعر والنثر بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة كما ذهب إليـــه بعض الكتاب ، أو عام ١٩٣٢ م كما أرجح .

وفى القصة تطور أسلوبها من السجع ممثلا فى حديث عيسى بن هشام

للمويلحى إلى أسلوب متحرر مثلا وفى زينب لهيكل، وفى قصص محمود تيمور وطاهر لاشين وإبراهيم المصرى .

وكان إحياء التراث القديم والأخذ من الآداب الغربية منبعين أصيلين من منابع الأدب فى مطلع القرن العشرين .

وكان الشعر بعد البارودى يتجه إلى الجانب الاجتماعى الذى مثله حافظ وشوقى .

وقد ظهرت مدرسة شعراء الديوان: العقاد وشكرى والمازنى عام ١٩١٣ تندد بمدرسة شوقى وحافظ وتدعو إلى التجديد على أوسع نطاق وظهر الجزء الأول من ديوان شكرى عام ١٩١٣ ، والجزء الأول من ديوان المازنى عام ١٩١٤ ، والجزء الأول من ديوان العقاد عام ١٩١٦ ، كما ظهر الجزء الأول من الديوان عام ١٩٢١ ، ويجعل بعض الكتاب شكرى بدء المدرسة الحديثة المعاصرة فى الشعر ، من حيث يجعل العقاد نفسه هو بدء هذه الانطلاقة . . ومهما كان فقد انفصل شكرى عن هذه المدرسة ، ولذلك نقده المازنى فى الجزء الأول من الديوان ، ثم تنكر عام ١٩٣٠ لآرائه التى أعلنها فى هذه المدرسة ووقف العقاد وحده .

ولكن فريقا من النقاد يجعلون مطران هو بدء حركة التجديد فى الشعر وكان ديوانه ، أو الجزء الأول منه قد صدر عام ١٩٠٨ ، ويعتد الدكتور أبو شادى بمطران اعتداداً كبيراً ، ويتابعه فى ذلك مندور والسحرتى . . وقد ظهر أول ديوان لأبى شادى ممثلا لاتجاهات أستاذه مطران فى الشعر والتجديد فيه عام ١٩١٢ .

وممن يعتدون بشكرى رمزى مفتاح فى « رسائل النقد » وأنور الجندى فى « نزعات التجديد فى الأدب العربى المعاصر » .

وقامت معارك جديدة حول الشعر وحول حافظ وشوقى ، وكان من أبطالها العقاد وطه حسين وسواهم .

وفى عام ١٩٢٥ قامت فى الهلال معركة حول القديم والحديث اشترك فيها : سلامة موسى وطه حسين وهيكل . . كما قامت من قبل معركة بين طه حسين ورفيق العظم فى السياسة حول حديث الاربعاء وآراء طه حسين فيه

وفى عام ١٩٣٢ ظهرت مدرســـة أبولو ومدرستها الشعرية بريادة الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، وكان من أنصاره فى هذه المدرسة الدكتور ابراهيم ناجى ومصطفى السحرتى وسواهما ، وتعد مدرسة أبولو انتصارا للمدرسة الرومانسية فى الشعر المعاصر التى كان من أعلامها : مطران وشكرى والمازنى والعقاد ، ومثلها أتم تمثيل الدكتور أحمد زكى أبو شادى والدكتور إبراهيم ناجى . . وتابعهم فى هذه الحركة الشابى والتيجانى بشير ، وكان من أنصارها السحرتى ومن الذين تابعوها الصيرفى وصالح جودت ومختار الوكيل وعبد العزيز عتيق وجليلة رضا ، وسواهم . . وقد أثرت هذه المدرسة فى طبقة الكلاسيكيين فظهرت الكلاسيكية الجديدة ممثلة فى شعر محمود غنيم وعلى الجندى ومحمود الأسمر ومحمود أبو الوفا وعزيز أباظة وعبدالله شمس الدين وسواهم .

واستمر صدى مدرسة أبولو إلى نهاية الحرب العالميـة الثانيـة عام ١٩٤٥ حيث ظهرت المدرسة الواقعية ممثلة فى شعر : كمال عبد الحليم صاحب ديوان « إصرار » والفيتورى والجيـلى وتاج السر ومحيى الدين فارس وسواهم . . .

مدارس الشعر الحديث :

يقسم أبو شادى المدارس الشعرية المعاصرة فى العالم العربى إلى ثلاث مدارس رئيسية :

١ — المدرسة الكلاسيكية المجددة تحت الراية الابتداعية وهى التى كان يتزعمها مطران ، ومن أعلامها : الأخطل الصغير ، وبدوى الجبل ، والشاعر

القروى ، وشفيق المعلوف ، وإيليا أبو ماضى ، وميخائيل نعيمة ، وعبد الرحمن شكرى ، وإبراهيم ناجى ، وسواهم .

٢ - المدرسة التجديدية المتطرفة ، ومن أعلامها : نزار قبانى ، ونازك الملائكة .

٣ - المدرسة الوسط التى تحفل أشد ما تحفل بالموسيقى الاتباعية وبجزالة الألفاظ وبالصيغ العريقة المأثورة ، والإشراق الغامر ، ويمثل هذه المدرسة عزيز أباظة ، وكان يمثلها من قبل على محمود طه .

ونستطيع نحن أن نقسم الشعراء إلى مدارس هى :

١ - المدرسة الكلاسيكية وفى مقدمتها : البارودى وحافظ وشوقى والجارم والجندى وغنيم والاسمر وسواهم .

٢ - المدرسة الرومانسية ، وفى مقدمتها : مطران وشكرى والعقاد والمازنى وأبو شادى وإبراهيم ناجى .

٣ - المدرسة الواقعية وشعراؤها عديدون من شعراء الشباب اليوم ، وفى مقدمتهم : صلاح عبد الصبور ومحمد مفتاح الفيتورى وكمال عبد الحليم وسواهم .

مدرسة مطران

فى عام ١٩٠٨ أصدر مطران الجزء الأول من ديوانه ، فكان فاتحة لدعوة التجديد فى الشعر المصرى الحديث ، ويصور خليل مطران رأيه فى التجديد فى الشعر فيقول : أريد التجديد يتمثل فى التفكير بمعناه البعيد الغور الذى هو منبع الابتكار ، ليحل ذلك التفكير تدريجا محل الخيال المشتت الذاهب فى تشتيت الذهن ضروب المذاهب ، الخيال الذى لا يصدر عن الحقيقة غالبا التى هى مصدر كل جمال ثابت .

ومذهب مطران فى الشعر يجمعه قوله فى تصدير « ديوان الخليل » : هذا شعر عصرى ، وفخره أنه عصرى وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر . هذا شعر ليس ناظمه بعبده ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده ، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الصحيح ، وينظر فيه إلى جمال البيت ذاته وفى موضعه وإلى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها وفى تناسق معانيها وتوافقها ، مع ندور التصور ، وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعر الحر ، وتحرى دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر .

وقد تتلمذ أحمد زكى أبو شادى وشعراء مدرسة أبولو على وجه العموم فى الشعر والنقد على مطران ، فنظم أبو شادى الشعر القصصى والتمثيلى ، ولقح شعره بأخيلة ومعانى الشعراء الأوربيين ، ودعا إلى التجديد فى الشعر دعوة جريئة ، وكان أكثر شعرائنا فهما لأصول الأدب والشعر والنقد ، كما كان أعظمهم دعوة إلى التجديد ، وإلى الشعر المرسل والحر ، وأنشأ جمعية أبولو ومجلتها الشعرية الذائعة . . وكان أبو شادى يعد مطران أول شاعر ابتداعى فى الأدب العربى الحديث . . ويبسط أبو شادى شعوره الشديد بأستاذية مطران له فى الشعر فى ديوانه « أنداء الفجر » إذ يقول : فما نشوء الشعر المرسل ولا الشعر الحر ، ولا ما بلغناه من الحركة التحريرية للنظم ، ولا ما نتناوله من الموضوعات الإنسانية والعالمية إلا الرقى الطبيعى لرسالة مطران ، وأول تعاليم مطران ترك النفس على سجيتها ، وترك التصنع . . ويؤمن أبو شادى بأن مذهبه فى الشعر هو وحده التطور الطبيعى لمذهب مطران . وقد زاد أبو شادى على أستاذه تطور لغته وأخيلته وتعابيره ومثله العليا وتجاوبه مع الطبيعة . . ويقول أبو شادى : إن الشخصية الفنية الحرة هى أهم ما يقدسه مطران ، وهى ما تعودت أن أقدسه فى ذاتى وفى غيرى ، وهذه الشخصية الحرة هى روح شعرى ، وقد عشت تلميذا على الطبيعة وعلى الثقافة الإنسانية . . ويقول أبو شادى فى أنداء الفجر : إن

مذهبي في الشعر يمثل الاطراد الطبيعي للتعاليم الفنية التي تشربتها نفسي الصبية من مطران .

ومطران هو رائد الحركة الابتداعية في الشعر الحديث ، ويقول الدكتور مندور عنه في محاضرته عن خليل مطران : «مطران شاعر رومانتيكي أصيل»

مدرسة شعراء الديوان

في عام ١٩١٣ كان عبد الرحمن شكرى وإبراهيم عبد القادر المازني وعباس محمود العقاد يتلاقون على أفكار جديدة في الأدب والشعر والنقد وإعلان الخصومة الأدبية على المدارس القديمة ، وأخرج شكرى ديوانه الأول عام ١٩٠٩ ، وأصدر المازني ديوانه الأول عام ١٩١٣ ، وتبعهما العقاد فأخرج ديوانه الأول عام ١٩١٦ . . وفي عام ١٩٢١ ترك شكرى هذه المدرسة . . ولما صدر الجزء الأول من الديوان في أبريل عام ١٩٢١ كان من ضمن بحوثه مقالة عن شكرى بقلم المازني وعنوانها «صنم الألاعيب» ، وفي عام ١٩٣٠ ترك المازني هذه المدرسة وتنصل من آرائه فيها . . وصار العقاد وحده هو يمثل هذه المدرسة :

والجزء الأول من الديوان تناول فيه العقاد والمازني شوقي وشكري بالنقد اللاذع المرير .

ويقص الدكتور رمزي مفتاح قصة شكرى مع المازني والعقاد في كتابه رسائل النقد الذي أخرجه عام ١٩٢٩ ، ووصف شكرى فيه بأنه زعيم الشعراء المجددين أو زعيم مدرسة الجديد ، وأنه رأس المدرسة الحديثة وقال عن العقاد والمازني إنهما تلميذان لشكرى . . وكذلك فعل مختار الوكيل في كتابه «رواد الشعر الحديث»

والشعراء الثلاثة : شكرى والعقاد والمازني من أثر الأدب الإنجليزي

فى أخيلتهم ومعانيهم وفى شعرهم عامة . . والشعر عند شكرى هو وصف الحالات النفسية والمواقف العاطفية والإحساسات المختلفة وكل ما يتفاعل به العقل المفكر مع الشعور الحى المثقف ، وقصائد شكرى صور كاملة لرسم النفس وحالاتها ، والوحى أو الهاتف عند شكرى معناه استكمال المعنى فى ذهن الشاعر ونضوجه فى نفسه واستيفاء الإحساس به . .

والشعر عند مدرسة الديوان تغلب عليه النزعة الوجدانية الذاتية بينما تغلب على مدرسة خليل مطران النزعة الموضوعية .

والعقاد لا يقر لشوقى بأية موهبة فى الشعر كما تطالع ذلك فى الديوان بجوأبه ، إنه لا يريد أن يعترف بشاعر لا تطالعنا شخصيته ومزاجه الخاص ونظرته إلى الحياة وفلسفته فيها من خلال شعره ، ولا تتكامل وحـــدة القصيدة فى شعره .

ويؤمن أصحاب مدرسة الديوان بأن الشعر يجب أن يكون تعبيرا عن وجدان الشاعر وحياته الباطنية ، أى أن يكون صورة لنفسه ، وصادرا عن نفس الشاعر وطبعه . إن مدرسة الديوان تدعو إلى صدق الشاعر فى الإحساس والتعبير .

وقد مات المازنى فى أغسطس عام ١٩٤٩ ومات شكرى عام ١٩٥٩

مدرسة أبوللو

فى عام ١٩٣٢ كون أبو شادى مدرسة أدبية سماها « مدرسة أبولو » نسبة لإله الشعر عند الإغريق ، وأصدر مجلة أدبية خاصة بالشعر ونقده ، وسماها « مجلة أبولو » .

وكانت رسالة مدرسة أبولو هى الثورة على القديم ، والدعوة إلى الحرية الفكرية والأدبية والفنية ، وإلى تمثيل الشعر لخلجات النفوس وتأملات

الفكر وبضات الأفئدة وهزات العواطف والمشاعر ،. وكانت مجلة أبولو أول مجلة تقف نفسها على الشعر العربى المعاصر ، من أجل النهوض به وإحياء روح الشعر الأصيل ، وتهذيبه مما علق به من أوهام التقليد والصنعة والابتذال . . ورسالة الشعر عنــــده هى أداء رسالة « الشعر بالشعر للشعر » .

وقد ظل أبو شادى يعلن الثورة عـلى التقليد والجمود والرجعية ، ويدعو إلى الأصالة والفطرة وإلى الوحدة التعبيرية ، وإلى التناول الفنى السـليم للفكرة والموضـوع والمعـانى ، وأسمى رسالة للشعر عنـده هى النهوض بالإنسانية عن طريق هـذا الفن الجميـل . . ويرى أبو شادى أن الطلاقة الفنية هى صفة فطرية فى كل فنان موهوب .

وكان أبو شادى من أشد الشعراء تحمسا وفهما للتجديد ودعوة إليه ، وحرصا عليه ، وقد طاف بكثير من بلاد أوربا ، وقرأ الآداب العالمية ، ووقف على الفـكر الإنسانى فى مختلف العصور ، وله ثلاثة وعشرون ديوانا شعريا ، وهى ثروة ضخمة لا مثيل لها فى الشعر الحديث .

وأغراض مدرسة أبولو هى كما رسمها وحددها أبو شادى .

١ ـــ السمو بالشعر العربى وتوجيه جهود الشعراء توجيها شريفا :

٢ ـــ مناصرة النهضات الفنية فى عالم الشعر .

٣ ـــ ترقية مستوى الشعراء أدبيا واجتماعيا وماديا والدفاع عن كرامتهم

وكانت عضوية الجمعية مفتوحة للشعراء خاصة والأدباء عامة فى جميع الأقطار العربية .

وفى سبتمبر عام ١٩٣٢ صدر العدد الأول من مجلة أبولو فى القاهرة وظلت تصـــدر أعدادها كل شهر حتى توقفت عام ١٩٣٥ ، وتولى

أبو شادى رياسة تحرير المجلة ، وسكرتيرية الجماعة ، واختير لرياسة الجماعة أحمد شوقى ، ولما توفى شوقى فى الرابع عشر من اكتوبر ١٩٣٢ اختير مطران رئيسا لها ؛

وكان من أعضائها : أحمد محرم ، وإبراهيم ناجى ، وعلى محمود طه ، ومحمود أبو الوفا ، والصيرفى، ومصطفى السحرتى وسواهم .

هذه هى أهم مدارس الأدب ومذاهب الشعر فى مصر ، وقد كان ولا يزال لها صدى عميق فى الأدب والشعر فى شتى أنحاء العالم العربى .

الفصل الأول

اكتبوا التاريخ من جديد

إن التاريخ الإسلامى والعربى لم يكتب بعد ، فكتبه ومصادره على أهمية بعضها لا تزال تولى عنايتها لأشياء تافهة لا تمت إلى التاريخ نفسه بصلة كبيرة ، وعندما نقرؤها لانخرج منها بكبير فائدة ، ولا بصورة واسعة لتاريخنا القومى ، ومفاخرنا الإسلامية العربية .

إن قصص البطولة الإسلامية العربية لم تدون بعد ، ومواكب الحرية الزاحفة الثائرة عبر الأجيال والعصور لم تدون مشاهدها بعد ، وتاريخ الشعوب العربية نفسها ليس عنه إلا القليل من المواد .

إن ماضينا وحاضرنا حافلان بالبطولة والأبطال ، ولكن أين صور هذه البطولة فى تاريخنا ؟

ونحن بعد لم نعمد إلى قصص الحرية والبطولة فى تاريخنا فنخرجها « فيلما » يشاهد ، أو ملحمة تمثل على رؤوس الأشهاد .

بل إنه ليس هناك معجم أو كتاب يتحدث عن أشهر الأبطال الإسلاميين ، والعرب فى شتى العصور ، وليس هناك دائرة معارف تعنى بمثل ذلك ، ولم نفكر بعد فى شىء من هذا .

ولدينا الإمكانيات الكثيرة ، ولكن ليس لدينا الأفكار الجريئة ، أوالقدرة على تنفيذها .

وقد اعترضتنى صعوبات كثيرة وأنا أكتب قصص التاريخ المصرى فى كتابى « مواكب الحرية فى مصر الإسلامية » ، وقضيت وقتا طويلا ، واجتزت مشقات جساما ، حتى كتبت نحو ثلاثين صورة تمثل مفاخر التــاريخ المصرى والبطولة القومية ، وضمنتها هذا الكتاب .

إنى أقترح أن يكتب التاريخ العربى والإسلامى من جديد ، كتابة تتضمن تصوير الشعب وحركات الحرية والبطولة التى انبثقت منه ، وتتضمن كذلك صياغة مفاخرنا وتراثنا الخالدين فى صورة زاهية يقبل عليها أبناؤنا وشبابنا ، حتى يشبوا على البطولة وحب الكفاح :

وأنا أعلم أن لجنة من أساتذة الجامعات عهد إليها كتابة التاريخ المصرى ، ولكننى عجبت للطريقة التى سيكتب بها هذا التاريخ ، فقد عهد إلى أستاذ بكتابة تاريخ الدولة الفاطمية ، وإلى آخر بكتابة تاريخ الدولة الأيوبية ، وإلى ثالث بكتابة تاريخ عصر المماليك . . وهكذا .

وكان من الواجب أن يعهد إلى لجنة كبيرة مختارة لايقل أعضاؤها عن عشرين بكتابة تاريخ كل دولة من هذه الدول ، بحيث يعهد إلى فريق منهم بكتابة تاريخها الروحى ، وإلى فريق آخر بكتابة تاريخها الاقتصادى ، وإلى ثالث بكتابة تاريخها السياسى ، وإلى رابع بكتابة تاريخها العسكرى ، وإلى خامس بكتابة تاريخها الأدبى ، وإلى آخر بكتابة تاريخها الفنى . وهكذا بحيث يدون تاريخها الثورى ، وتاريخ البطولة والأبطال فيها ، وبحيث يكون المختصون دون غيرهم هم الذين يتولون ذلك ، ثم تؤلف لجنة لتهذيب هذه المواد والإشراف على نشرها بحيث تكون هذه المواد تاريخ الدولة التى جعلت موضوع البحث ، وفى الوقت نفسه يعهد إلى لجان أخرى بكتابة تاريخ سائر الدول التى قامت فى مصر والشرق العربى بالطريقة نفسهـــا ، ويتكون من ذلك كله سلسلة جديدة من مصادر التاريخ العربى الحديث .

على أن من الواجب أن تختار هذه اللجان على أساس من الكفاية والنزاهة ، والإخلاص للبحث وللتاريخ القومى أيضا .

لقد عجبت عندما قرأت ملخصا للتاريخ الأمريكى مكتوبا ببساطة وبالصور الفنية ليصلح للأطفال والصغار . فهل صنعنا مثل ذلك فى تاريخنا وصياغته ؟

ثم إن أبطالنا كلهم لم يكتب تاريخهم للسينما بعد ، فقوادنا العسكريون ، وأبطالنا الثوار ، وانتصاراتنا العسكرية المجيدة ، كل ذلك لم يعرض بعد فى أفلام على الشعب ولو للدعاية لنا فى الخارج .

إننا إذا فشلنا فى ذلك ، فسننطوى مرة أخرى على كتب التاريخ القديمة التى نقرؤها ونعود إلى قراءتها كلما أردنا أن نطالع سير تاريخنا المجيد وبطولاته النادرة .

إن عندنا من أمثال جان دارك وابرهام لنكلن وجورج واشنطون وبسمارك وروميل ، الآلاف من الأبطال .

وبقى على علماء التاريخ أن يعرفوا واجبهم ، ويؤدوا رسالتهم ، وبقى على المسئولين أن يمهدوا لهم فى ذلك السبيل .

فلسفة التاريخ العربى

ماذا أكتب عن هذا التاريخ الخالد الممثل لقصص البطولة والمجد والكفاح من أجل المثل الإنسانية الرفيعة ، ومن أجل مستقبل البشر وإسعادهم ، ومن أجل تأثيل الحضارة والمدنية والمعرفة ، وإتاحة كل الفرص الممكنة المواتية أمام بنى البشر جميعا ؟

نعم ماذا أكتب عن تاريخ قد نسيناه ونسينا أمجاده ، وعمل الاستعمار بكل وسائله على أن ينسينا إياه ، فبدد مصادره ، وأخفى معالمه ، ومنع تدريسه فى جامعاتنا ومعاهدنا مدة طويلة ، كان الشرق الإسلامى خلالها خاضعا لنفوذه ، وسلطانه ، بل لقد صادر الاستعمار كل مايكتب عن هذا التاريخ الحى المشرق التليد ، حتى عهد قريب ؟

ماذا أقول عن هذا التاريخ ، وكله مآثر ومفاخر لو وزعت على أمم الأرض جميعا لوسعتها بطولة وكفاحا ومدنية وحضارة ومعرفة ؟

ولو كنا نعى ونقدر تاريخنا ونضالنا خلال عصور التاريخ ، لرأينا أمجاده ممثلة فى تماثيل جليلة تهتز بها الميادين، وفى قصص بليغة يحفظها النشء ويرددونها ، وفى قصائد قصيرة وملاحم طويلة ، وتمثيليات مثيرة إذاعية وغير إذاعية، وفى أفلام، تطول وتقصر يشاهدها الشباب فى كل وقت ، وفى كتب مصورة للأطفال ، وفى موسوعات مطولة للباحثين والدارسين ، وفى أغانى وقصص شعبية تلقيها الفرق المختلفة على أهل المدن والريف كما يفعلون بقصص عنترة وأبى زيد الهلالى وفيروز شاه .

ولو كنا حريصين على تاريخنا نقدره ونعيه لصنعنا منه المعجزات ، كما يفعل الغربيون والأمريكيون ، بل لجعلناه أساطير منسوجة من خيوط الحقيقة ، لامن خيوط الخيال الذى ينسج منه الأوربيون تاريخهم .

وأعجب مآسى تاريخ الشرق الإسلامى أن الاستعمار استطاع أن يلقننا أن تاريخنا كله خلو من الحياة والروح والتضحيات والبطولات ، وأنه تاريخ ميت ، لا يسعى إلى هدف، ولا يسير إلى غاية، وأنه تاريخ لم يفد الحضارة ولا الإنسانية شيئا ، وأنه كله منازعات بين الطوائف والجماعات والعصبيات ، وأننا لا بأس

أن نسدل عليه الستار ، فلن نستفيد من المعرفة به شيئا !

ومن المآسى الدامية التى أحاط بها الاستعمار تاريخنا أنه سرق كل أمجادنا ، وبطولاتنا واختراعاتنا وأعمالنا . فأخذها وادعاها لنفسه ، بعد أن أصبح لدول الاستعمار السيطرة على العالم الإسلامى ، ثم لقننا أن المسلمين لم يصنعوا شيئا ، ولم يكن لهم فى مجال البحث والاختراع والحضارة جهد ما ! .

والأدهى من ذلك أنه عاد بجهل كثيراً من الدول الإسلامية التى كانت تعيش فى قلب أفريقية أرضا مجهولة ، وأن « المكتشفين » الغربيين قاموا بعدة رحلات لاكتشاف هذه البلاد النائية حتى عثروا عليها ، وأطلعوا العالم على خريطتها !!

هذه كلها أشياء من صنع الاستعمار وكيده ومكره ودهائه ، وما أفظع ماصنع الاستعمار بنا من مآس ومكائد .

وعندما نعى أحداث التاريخ الإسلامى نعرف هذه الحقائق المذهلة :

١ - تاريخ المسلمين فى جميع العصور مملوء بالبطولات وروائع التضحيات ، وهو غنى بأمجاده ومفاخره .

٢ - تاريخنا هو تاريخ الحضارة والمدنية والمعرفة ، وتاريخ الكفاح من أجل تقدم الإنسانية ، ومن أجل النهوض بمستوى الحياة البشرية ، ومن أجل المثل والقيم الرفيعة .

٣ - عرف المسلمون كثيراً من أصول المخترعات الحديثة التى نسب الأوربيون لأنفسهم فضل معرفتها والكشف عنها .

٤ - ابتكر المسلمون النظام الديمقراطى النيابى ، وطبقوه فى الأندلس تطبيقا كاملا ، وكان الذين قاموا بتطبيقه هم بنو عباد ملوك أشبيلية .

٥ - اكتشف المسلمون القارات كلها ، وقاموا برحلات علمية إلى جميع أطراف الأرض والمحيطات والبحار ، وإلى أواسط أفريقية ، وإلى شمالى أوربة .

٦ - قامت الدول الإسلامية فى أنحاء العالم الإسلامى ، بأعمال مجيدة فى خدمة الشعوب ، والترفيه عنها ، ودفع عجلة الإصلاح فيها ، وابتكرت الكثير من هذه الدول الإسلامية نظام مجانية التعلم ، ومجانية العلاج ، والضمان الاجتماعى ، والنظام الاشتراكى التعاونى فى رؤوس الأموال ، وأقامت الملاجىء والمستشفيات

والجامعات ودور العلم ودور الضيافة ، وأسست الكثير من المصانع ، وابتكرت أدق النظم فى تطبيق العدالة وفى القضاء .

٧ ـ ألغت الدول الإسلامية الحواجز الجركية بينها ، وجعلت الشرق الإسلامى كله شبيها بولايات متحدة إسلامية ، بل كان النظام فيها يسير نحو هدف إنشاء حكومة عالمية موحدة .

٨ ـ أنشأت الدول الإسلامية فيما بينها أحدث نظم البريد ، وأنشأت خطوطا منظمة لقوافل التجارة فى البر والبحر .

٩ ـ صاحب التاريخ الإسلامى فى جميع عصوره حركات ثقافية وروحية وفكرية واسعة النطاق فى جميع أنحاء بلاد المسلمين ، وعكف العلماء والمفكرون على البحث والتأليف ، فأنتجوا لنا ثروة ذهنية ليس لها نظير فى التاريخ الثقافى لأى شعب من الشعوب .

١٠ ـ حاربت أوربا بوسائلها المختلفة الإسلام ، وعملت على تعويق النهضة الإسلامية والزحف الإسلامى الأكبر .

ومعركة بواتييه ، ومعارك الحروب الصليبية ، ومعارك المسيحيين مع المسلمين فى الأندلس ، هى أمثلة واضحة لذلك .

بل إن أوربا قد سعت فى القرن السابع والثامن الهجرى للتحالف مع مغول آسيا للقضاء على العالم الإسلامى وتدميره ، ولولا مصر ووقفاتها الرائعة فى حطين وعين جالوت لدمر العالم الإسلامى تدميرا .

١١ ـ أوربا لاتزال حتى اليوم تحارب الانبعاث العربى ، وموقفها اليوم فى حرب القومية العربية أصدق شاهد على ما نقول . بل إن موقفها من مأساة فلسطين وصنعها هى لهذه المأساة لهو أوضح دليل على ما نقول .

ومن قبل طرد المسلمون من الأندلس عام ٨٩٧ هجرية ، ثم أنهى الانجليز الحكم الإسلامى فى الهند عام ١٨٥٧ ميلادية ، وقبضوا على آخر الملوك المسلمين فى الهند من الأسرة المغولية ، وهو الملك بهادور شاه ، وقتلوا كل أعوانه وأنصاره ، وأهل بيته ، وأقاموا المذابح العامة فى الشوارع والميادين وقتلوا أولاده أمامه ، ونفوه إلى رانجون عاصمة بورما ، حيث توفى وحيدا فيها فى ٧ نوفمبر ١٨٦٢ ؛

وكتب فى مذكراته قبل وفاته بقليل يقول :

« من يوقد الشمع على قبرى ؟ ومن يأتو اليه بالورد ؟ نعم لاورد ولا شموع ، حتى لا تأتى فراشة تحوم حولى ، ولا يصدح بلبل غريد فوق قبرى » .

وكتب أيضا يقول : « يا رسول الله ، كانت أمنيتى أن يكون بيتى فى المدينة بجوارك ، ولكنه أصبح فى رانجون ، وبقيت أمنياتى مدفونة فى صدرى . يارسول الله كانت أمنيتى أن أمرغ عينى فى تراب أعتابك ، ولكن ها أنذا أتمرغ فى تراب رانجون ، وبدلا من أن أشرب من ماء زمزم بقيت هنا أشرب الدموع الدامية ، فهل تنجدنى يا رسول الله ، ولم يبق من حياتى غير عدة أيام »!!.

هذه مأساة وأى مأساة صنعها الانجليز كما صنعوا مأساة فلسطين الدامية !

فهل من معتبر ؟

مواكب الحرية فى مصر الاسلامية

كتاب جديد للاستاذ محمد عبد المنعم الخفاجى تناول فيه سيرة الابطال الذين عملوا فى سبيل سيادة مصر ، منذ الفتح الإسلامى حتى عهد الشرقاوى وعمر مكرم والسادات ابطال المقاومة الشعبية للغزو الافرنسى .

والأستاذ الخفاجى يجمع بين نزعة الاديب وطبيعة المؤرخ ، وفى بحوثه دلفها حرارة المكافح الثائر على كل ما يمس قدسية الحرية :

ومع تقديرنا لنشاطه الادبى نشكر له جهده فى خدمة العروبة والاسلام .

مجلة الحديث ـ عدد ٢ عام ١٩٥٨ ـ .

فلسفة التشريع عنـــد العرب

لم تقم للعرب حضارة إلا بالدين ، إنهم فى مجموعهم جماعات متكافئة ، ما بين بدو وحضر ، عاشوا خلال السنين مؤمنــين برسالة الحب والوفاء والتعاون والكرامة والحرية . . دينهم قبل أن يبعث اليوم الأنبياء مستمد من الفطرة الإنسانية السليمة ، المحبة والصفاء والسلام والتسامح والشرف ، فلما نزلت على رسلهم رسالات السماء أخذوا يفهمون أسس الحضارة والاجتماع والعمران والثقافة ، التى يمكن أن تكون دعائم قوية لحضارة عربية زاهية .

وهكذا قامت فى ربوع الشرق العربى حضارة مسيحية ، ثم قامت بعـــدها حضارة إسلامية مشرقة ، استمرت قرونا وأجيالا طوالا .

وحضارة الإسلام فى بلاد الشرق العربى كان لها مصدران : مصـدر روحى مستمد من فلسفة الإسلام وتعاليمه وسماحته ، ومصدر مادى تمثل فى كل ما ابتكره العقل العربى من الأصول المادية التى تقوم عليها الحضارة ، وتزهو بها المادية ، وقد اقتبس العرب كثيرا من هذه الأصول المادية من حضارات الشرق والغرب القديمة المعروفة . والطابع العام لهذه الحضارة فى عصر ازدهارها ويقظتها هو التسامح الفكرى والدينى والايمان بالمثل ، والمحافظة على كرامة الرجل وشرفه وكيانه . .

ولقد قام المفكرون العرب بوضع أصول التشريع العربى فى مختلف العصور ، ونبغ منهم طائفة من أشهر أعلام الفكر وأعظم فحول الإسلام .

وفى العصر الحديث ، نهض فحول من أئمة التشريع العربى ، وقاموا برسالة كبرى فى دعم فلسفة التشريع وصبغه بصبغة عربية قومية ، أساسها قومية العرب وهدفها المعاونة على نشر روح الثورة ، والكفاح من أجل عزة العرب وسيادتهم وحريتهم .

وعندما نبحث عن فلسفة التشريع عند العرب نجد أن أهم شىء يميز العرب فى تشريعاتهم هو :

١ – الايمان بالمثل والأهداف الكريمة فى الحياة .

٢ ـ غلبة الطابع الروحي والإنساني على التشريع عند العرب ، وذلك لأنهم متدينون مؤمنون متمسكون بتعاليم أديانهم السماوية المنزلة من السماء .

٣ ـ التسامح هو شعار العرب في كل عصر وكل مكان ، هذا التسامح يطبقه العربي حتى مع خصومه وأعدائه ، بعكس الغربي الذي لا يفهم التسامح حتى مع أصدقائه وأهله .

٤ ـ طابع التشريع العربي هو : شرع لغيرك ماتحب أن يطبق عليك ، فكر في أخيك قبل أن تفكر في نفسك ، ضح بما تستطيع لتسعد أنت ويسعد غيرك معك

٥ ـ الأداة المنفذة للتشريع عند العرب هي الضمير قبل كل شيء :

٦ ـ التشريع العربي مبني على أسس حقيقية أو متخيلة ، حتى لا يبقى هناك مجال لتأويل المتأولين ولا لزيف المزيفين . ولا لاستنباطات المضللين .

٧ ـ التشريع العربي في أغلب أمره محافظ متدين ، يستمد منه الكثير من العرف والتقاليد والعادات الموروثة

٨ ـ عنصر الابتكار والتجديد ظاهر تمام الظهور في كل ما استنبطه العقل العربي في باب التشريع .

٩ ـ التشريع عند العرب أساسه وضع قوانين توافق حاجاتهم وتلائم استعدادهم ، وقديما قال سولون المشرع اليوناني القديم : أنا لم أشرع لأهل أثينا شريعة كاملة مصدرها الخيال وإنما وضعت لهم قوانين توافق حاجتهم واستعدادهم.

من هذا وغيره من مقومات التشريع العربي القديم والحديث كانت فلسفة التشريع عند العرب ، وهو طابع ظهر في المجموعات الإسلامية التشريعية القديمة والحديثة على السواء ، وظهر كذلك في المدارس العربية الفكرية المتعددة ، وظهر كذلك في المدارس العربية الفكرية المتعددة ، وظهر كذلك في ابتكار العقل العربي التشريعي لكثير من النظريات والمبادىء والأصول التي قامت عليها الحضارة العربية .

ولما ألف الدكتور محمود فتحي رسالته في مذهب الاعتساف في استعمال الحق والخروج عن حدود الحق في غير ما شرع له الحق ، وذلك عند فقهاء الإسلام ، كتب «كهلر» الألماني يقول : إن الألمان كانوا يتيهون عجبا على غيرهم في ابتكار نظرية الاعتساف والتشريع لها في القانون المدني الألماني الذي وضع عام ١٧٨٧م

أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحى وأفاض فى شرح هذا عند رجال التشريع الإسلامى ابتداء من القرن الثامن الميلادى، فانه يجدر بالعلم القانونى الألمانى أن يترك مبدأ هذا العمل لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون. ويقول فبرى من رسالة خاطب بها أحد الأتراك نشرتها مجلة « وقت » التركية فى عدد أول رجب ١٣٤٣ هـ: إن فقهكم الإسلامى واسع إلى درجة أننى يأخذنى العجب كلما فكرت فى أنكم لم تستنبطوا منه الانظمة والأحكام المتوافقة لزمانكم ومكانكم.. ويقول لميمى أو لميان:

يجب اعتبار الشريعة الإسلامية فى المعاملات مصدرا حيا للقانون العصرى، ومناطا للحق فى أدواره المختلفة، ولقد عقد البحاثه الامريكى، هوكنج، أستاذ الفلسفة بجامعة هارفرد فصلا مستفيضا عن « مصير الثقافة الإسلامية » فى كتابه « روح السياسة العالمية » المطبوع سنة ١٩٣٢ فبعد أن تكلم باسهاب عن أصول الفقه الإسلامى وعن المذاهب الأربعة، قال: إن سبيل تقدم الممالك الإسلامية ليس فى اتخاذ الأساليب الغربية التى تدعى أن الدين ليس له أن يقول شيئا عن حياة الفرد اليومية، وعن القانون والنظم السياسية، وإنما يجب أن يجد المرء فى الدين مصدراً للنمو والتقدم. وأحيانا يتساءل البعض عما إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة وإصدار أحكام مستقلة تتفق وما تطلبه الحياة العصرية. فالجواب عن هذه المسألة هو أن فى نظام الإسلام كل استعداد داخلى للنمو، بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيرا من النظم المماثلة، والصعوبة لم تكن فى وسائل النمو والنهضة فى الشرع الإسلامى، وإنما فى انعدام الميل إلى استخدامها، وإنى أشعر بكونى على حق حين اقدر أن الشريعة الإسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض. ويقول شيرل: إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد اليها، إنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفى سنة.

وقال جيبون: القرآن مسلم بأنه الدستور الأساسى، ليس لأصول الدين فحسب، بل وللأحكام الجنائية والمدنية، وللشرائع التى عليها مدار حياة النوع الإنسانى، وترتيب شؤونه، وبعبارة أخرى هو القانون العام للعالم الإسلامى، فهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية.

ويقول جوستاف لوبون: إن القرآن وما اشتق منه هو إلى الفطرة بحيث يلتئم

مع حاجات الشعوب ، حتى إن قبوله آخذ حكمه على مر الأيام ، لا يعوقه عائق : وقال جوته : إن هذا الكتاب سيحافظ على تأثيره إلى الأبد ، لأن تعاليمه عملية مطابقة للحاجات الفكرية ، لقوم معتزين بتقاليدهم متمسكين بعاداتهم القديمة .

وقال كارليل : إن عـلوية القرآن فى حقيقته العالية ، فهو حافل بالعدل والإخلاص ، والدعوة التى بلغها محمد إلى العالم حق وحقيقة ، وقال سديو فى كتابه « تاريخ بلاد العرب » : القرآن جامع لكل أسس الأخلاق والفلسفة . وقال الفيلسوف الفرنسى آلكسى لوازون : خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة ، وسجل الاخلاق ، وهو كتاب مقدس . وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية ، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية ، وقال الكاتب الامريكى وشنطن أيرونج : يحوى القرآن أسمى المبادىء وأكثرها فائدة واخلاصاً .

تفسير القرآن الحكيم

ان الذين تطلعوا إلى كتاب تفسير الكتاب الكريم ليسوا قليلين لكن الكثرة منهم قد نهجوا نهجا واحدا فى التفسير لا يختلف أحدهم عن الآخر إلا من حيث الأسلوب فقط . ولقد غير الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى هذا الاتجاه ، فكتب تفسيره للقرآن الكريم بطريقة البحث عن الحقائق العلمية والعملية فى الكتاب المقدس دون التقيد بالروتين القديم . وان كان قد اعتمد فى تفسيره على تفاسير الأئمة الأقدمين . . وهو بذلك يجمع فى تفسيره بين القديم والحديث . ويقدم لنا فى الجزء الأول من تفسيره طرازا شيقا من التفسير .

القاهرة ٤ أغسطس سنة ١٩٥٨ :

أيدلوجية عربية جديدة

- ١ -

تاريخ الشعوب العربية حافل بالتطورات والمؤثرات الكبيرة ، وبآثار الحضارات القديمة الباهرة كما يحفل حاضرها اليوم بعديد الاتجاهات والمذاهب والآراء ولكن اتجاها واحدا هو الذي ترده اليوم شعوب هذه المنطقة المهمة بين مناطق العالم الحساسة ، ووعيا جديدا هو الذي ينتشر صداه فى كل مكان من ارجائها ، هو دعوة القومية العربية ، هذه الدعوة التى تعد امتدادا لتاريخنا ، واحياء لقوميتنا ، وتثبيتا لعناصر شخصيتنا واستقلالنا ، بين شعوب العالم .

والقومية العربية هى نداء الايديولوجية العربية الجديدة المتحررة المتحفزة لبناء حاضر عزيز ، ومستقبل شامخ للعرب والعروبة والشعوب العربية فى كل مكان . ولا بد لنا فى خلال هذا الصراع العالمى والمذاهب الفكرية المتضاربة من أيديولوجية عربية جديدة لان الأيدلوجية - كما يقول السحرتى - هى بمثابة المعلم الذى نسير على هداه ، ولا مفر من استمدادها من تطورات تاريخنا ، ومن خصائصها الوجدانية الروحية والثقافية ومن واقعنا القومى الحى ، ومن آمالنا فى مستقبل وضىء مزدهر (١) والمقصود بالأيدلوجية هنا الأصول الجوهرية الكبيرة التى تستمد جذورها من تاريخ الأمة وفلسفتها وروحها العربى المتميز القسمات ، والتى تتغير وتتطور بتطور العصر وتقدمه ، وتصير عقيدة متأصلة فيها يقوم على أضوائها منهاج النهوض الإجتماعى والسياسى والاقتصادى والعلمى والأدبى والفنى (٢) .

- ٢ -

ويحتم وجود أيديولوجية عربية جديدة لنا فى هذه الفترة الحافلة من تاريخ حياتنا تعارض المذاهب والآراء والأفكار التى تعمل فى محيطنا ، وتمد نفوذها

---

(١) ص ٥ أيدلوجية عربية جديدة ، للسحرتى - جماعة البعث الجديد :
(٢) ص ١٠ المرجع .

فى بيئتنا وتحاول أن تخضع العرب لنفوذها وهيمنتها بما فيها من مذاهب يسارية متطرفة ، ومن أيديولوجيات مختلفة متصارعة .

ولقد شهد جيلنا الحالى عملين ضخمين فى مصر : الأول قيام ثورة مصر ، وما نهضت به من رسالة ضخمة تمتد حتى تتناول كل إصلاح ، وتتسع حتى تشمل كل بناء ، وتكافح فى المحيط السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، ثم تحاول أن تخطط فى الميدان الثقافى والفكرى . والعمل الثانى هو مجهود فريد فى بابه قام به أستاذ ملهم هو مصطفى عبداللطيف السحرتى بتأليفه كتابه القيم الفريد « أيديولوجية عربية جديدة »

ونحن لا ننسى كيف قامت رابطتنا ، رابطة الأدب الحديث ، بطبع هذا الكتاب . وفى أى الظروف تم نشره . فلقد بدأنا فكونا داخل الرابطة جماعة البعث الجديد لتقوم بعبء توجيه الثقافة فى مصر ، والدعوة إلى الأعمال العلمية ذات الطابع المتميز البناء ، ثم جمعنا من بيننا أموالا قليلة بدأنا فنشرنا بها كتابا للدكتور محمد مندور ثم نشرنا كتاب « أيديولوجية عربية جديدة » .

— ٣ —

يقول السحرتى فى صدر كتابه : الملحوظ فى شرقنا العربى ، توزعه بين فكريات متضاربة ، تختلف قوة ووهنا فهناك اتجاه ثيوقراطى طائفى ، ينزع الى مجاراة التقليديين والسير على منوالهم ، واتجاه ديمقراطى يجارى الغربيين وينبع من تقاليدهم ، واتجاه اشتراكى متطرف ، أو مادى ثورى ينزع إلى مسايرة الكتلة الشرقية ، وانتهاج نهجها فى كل صغيرة أو كبيرة (١) .

ويبحث السحرتى فى كتابه عن : الفكرية الديمقراطية الغربية وخصائصها ، ويصيح قائلا : إنه من الخير لنا اعتماد الروح الديمقراطى الذى ، الذى يحترم كرامة الإنسان العربى ، ويقر مبدأ الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص فى تهذيب الشخصية الفردية . . ولما كان تراثنا الثقافى بالمعنى الواسع قد تأثر إلى حد ما بالايدلوجية الغربية ، فجدير بنا أن لا نتجاهل خير ما فى هذه الايديولوجية من اتجاه عقلى علمى ، واتجاه ديمقراطى سليم ، يشكلان عنصرا من عناصر الايديولوجية العربية التقدمية التى ننادى بها .

(١) ص ١١ و ١٢ المرجع نفسه .

ويمضى السحرتى فيتحدث عن الفكرية الطائفية فى مصر وبعض البلاد العربية ، ويرد عليها ردا منطقيا ، ويسمها بأنها فكرية رجعية لا يرضى عنها الفكريون المصريون ، ولا الدينيون الذين يدركون جــوهر الدين النقى ، ويعرفون روحه المتطور (١) .

ثم يعرض للفكرية المادية ومساوئها : من الدكتاتورية ومحاربة العنصر الروحى فى حياة الإنسان ، ومسوى ذلك . . ويرى أنها لا تصلح مجـــال لمجتمعنا العربى .

ويخصص فصلا للأيديولوجية الجديدة التى يمكن أن نتخذها مذهبا فكريا لنا ، وعناصر هذه الأيديولوجية ، وينادى فى حشد من الأفكار الجديدة الحصيفة إلى أنه « لن تقوم وحدة قومية فى ظل أيديولوجية ثيوقراطية لاختلاف الأديان فى كل أمة عربية » (٢) ، ويبدو أن السحرتى كان يقصد الطوائف الرجعية المتزمتة لا الدين نفسه ، وإلا فإنه يصرح فى أكثر من موضع فى الكتاب بأن عنصر الدين من أهم العناصر اللازمة لنا فى بناء مجتمع عربى متحرر ، وبأن الإسلام وحد قومية العرب والمسلمين فى العالم أكثر من ألف قرن من الزمان .

ويعرض السحرتى لديناميكية الأيديولوجية الجديدة، أى حركة التغير السريع الواثب الذى يعتمد على كل العوامل لإحداث التغير ، ومن بينها : العامل المكانى والوراثى والعامل الثقافى والروحى والأدبى . . ويفيض فى ذكر شواهد حضارية تؤيد ما يمكن أن يقوم فى البيئة العربية من تطورات كبيرة ، منوها بأثر الحضارة الفرعونية واليونانية والاسلامية فى تاريخ العرب والعالم . . وحديثه عن الحضارة الإسلامية وأثر الدين الإسلامى فى ديناميكية التطور جــدير بالاعتبار والتقدير .

ثم يتحدث عن المدنية الغربية الحديثة ودورها فى التطور ، ومذاهب هذه المدنية : كالعقيدة الاشتراكية والمذهب الديمقراطى والعقيدة الإنسانية منوها بالثورة الصناعية ، وبدور العلم الحديث فى البناء .

ويمضى فى تحليل جذور الأيديولوجية الجديدة التى يدعو إليها ، ودور مصر بين الجزر والمد ، وفى أركان الأيديولوجية الجديدة : من الثقافة الروحية البناءة

---

(١) ص ٢٦ المرجع نفسه (٢) ص ٣٧ المرجع نفسه

المتحررة من روح الطائفية ، وأروع ماينادى به السحرتى فى هذا الفصل هو قوله: ليس التدهور الحضارى راجعا إلى الدين ، إنما يرجع إلى التعصب الضيق الأفق ، والتفسير المنحرف للدين (١) »

ويحلل الركن الثانى من أركان الإيديولوجية الجديدة ، وهو الديمقراطية الموجهة ، وفى هذا المقام يتحدث عن الاتحاد القومى فى مصر ودوره ورسالته ، ويرى السحرتى فى هذا المقام ضرورة نشر الوعى الديمقراطى استخداما فعالا مؤثرا .

ثم يذكر الركن الثالث من أركان الأيديولوجية الجديدة وهو الاشتراكية الموجهة التى يقوم عليها اقتصاد موجه ، يكون غايته رفع مستوى المعيشة فى مصر والعالم العربى .

والركن الأخير من أركان الأيديولوجية الجديدة هو نشر الروح الإنسانى .

وبهذا البحث الفريد القيم يحتل السحرتى مكان الرائد الوطنى المفكر الحر ، كما مثل فى النقد دور الرائد الأدبى الحر .

---

(١) ص ٩٩ المرجع نفسه .

من تاريخنا المعاصر

الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجى رجل سخى الفكر والنفس معا . . فهو دائم التأليف والإخراج . ، لا يكاد موسم دون أن يخرج كتابا ،، هو يقدم لك فى كتبه ذات نفسه وفاء ،، وفاء يدفعه لان يذكر المعاصرين وغير المعاصرين من قادة الفكر من أى بلد عربى كانوا وأى مذهب كانوا .

وكتابه من « تاريخنا المعاصر » هو عنوان على هذا الاتجاه ،، فى هذا الكتاب ترجمات لاربع وثلاثين شخصية من شخصيات المفكرين ،، بعضهم ساسة وبعضهم شعراء وبعضهم كتاب ،، بعضهم من مصر وبعضهم من المهاجر وبعضهم من مختلف البلاد الشقيقة . ، ـ وأنت لهذا كله تقرؤ هذا بشىء من الشغف ، لانه يعرفك بأناس قد لا تعرف الكثير عنهم ، وقد تعرف عنهم الكثير لكن لم تر منه مسجلا فى الكتب إلا النادر ،

جريدة القاهرة ـ ٩ مارس ١٩٥٨ :

من كفاحنا

— ١ —

كافحت مصر طول عصور التاريخ فى سبيل العروبة والإسلام ، وكان كفاحها مضرب الأمثال فى قوة العقيدة ، وعزة النفس ، وصدق الإيمان . ونحن نذكر هنا أمثلة حية ، وصفحات مجيدة من تاريخ مصر ، ومن كفاح المصريين من تقدم المسلمين ورفاهيتهم ومجدهم .

كان أبو الحسن (١) بنان الزاهد من الصوفيين الأحرار فى عهد ابن طولون ، وكان ذا منزلة عظيمة فى النفوس ، وكان يعد من كبار مشايخ مصر وأعلامها ، وكان ينكر على والى مصر أحمد بن طولون أشياء استنكرها ، وفى يوم ذهب إلى ابن طولون يأمره بالمعروف فغضب عليه ، وأمر به أن يلقى بين يدى أسد عظيم ، وألقى هذه الصوفى الورع بين يدى الأسد ، ووقعت المعجزة فلم يلتهم الأسد الشيخ ، إنما أخذ يشمه ، يقبل عليه ، ثم يحجم عنه ، وظل كذلك ساعة كاملة ، فرفعه ابن طولون من بين يدى الأسد ، وزاد تعظيم الناس له . . وسأله بعض مريديه : كيف كان حالك وأنت فى الأغلال قد ألقى بك بين يدى الأسد ، فقال: لم يكن على بأس ، ولكنى كنت أفكر فى سؤر الأسد : أهو طاهر أم نجس ؟

ومن المصريين الأحرار أبو عبد الله القضاعى الفقيه المحدث ، الذى أوفده الخليفة المستنصر بالله الفاطمى سفيرا إلى القسطنطينية عام ٤٤٧ هـ وقد طارت شهرته فى عصره بالزهد والتصوف .

وفى عام ٦٤٧ هـ انضم العلماء والفقهاء والصوفية إلى الجيش المصرى ، وحاربوا فى صفوفه ، فى معركة المنصورة التى أسر فيها لويس التاسع ملك فرنسا هو وكبار قواده وأركان حربه ، وكان من المشتركين فى هذه المعركة الخالدة : الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ، والشيخ مكين الأسمر ، والشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، والشيخ أبو الحسين الشاذلى ، وسواهم .

(١) صـ ٢١٩ : ١ حسن المحاضرة ، ٨٤ : ١ الطبقات الكبرى ، ٤٧ و ٤٨ التراث الروحى لخفاجى .

وكان العز بن عبد السلام - الذى سنتحدث عنه طويلا - لا يبالى بشىء فى سبيل كلمة الحق يقولها ، ومما يؤثر عنه قبل قدومه إلى مصر ، أن سلطان بلده استنجد بالصليبيين ضد سلطان مصر ، الملك نجم الدين أيوب فغضب العز بن عبد السلام غضباً شديداً ، وأسقط اسم سلطان بلده من الخطبة ، وأعلن الثورة عليه والكفاح ضده فعزله سلطانه من مناصبه ، وأرسل إليه السلطان من يقول له : ما بينك وبين أن تعود إلى وظائفك ، وما كنت عليه وأكثر مما كنت عليه إلا أن تتخشع للسلطان وتقبل يده ، فقال الشيخ فى جرأة وقوة : يا مسكين أنا لا أرضى أن يقبل سلطانكم يدى ، أنتم فى واد وأنا فى واد .

ومن الأحرار المصريين : شمس الدين الحنفى المتوفى عام ٨٤٧ هـ ، ومما يؤثر عنه أن سلطان مصر الملك فرج بن برقوق بعد أن هزم التتار فى أرض الشام كان يظلم الرعية ويجور فى حكمها ، فكان الإمام شمس الدين الحنفى يعارضه ويندد به ويجمع الناس على عصيان أوامره ، فأخذ فرج يضطهد الشيخ ويضيق عليه الخناق ، ويغلظ له القول ، ويعنف فى معاملته ، وتلاقيا - السلطان والشيخ - فى يوم من الأيام فقال السلطان للشيخ : المملكة لى أولك فقال الشيخ : إنها ليست لى ولا لك ، إنها لله الواحد القهار ، وقام الشيخ متغيرا ثائرا ومرض السلطان ، وعجز الأطباء عن علاجه ، فطلب الشيخ ليدعو له بالشفاء ، وأرسل خلفه الأمراء يبحثون عنه فوجدوه خارج القاهرة بنواحى المطرية ، وطلبوا منه العودة معهم تنفيذا لأمر السلطان ، فأبى ، فأخذوا يتلطفون بالشيخ حتى دعا للسلطان ، وقال لهم : قد برىء ، فاذهبوا إليه وقولوا له : لا تعد إلى قلة الأدب .

وذهب الملك المؤيد إلى الشيخ مرة ليزوره فى زاويته ، فوجد الشيخ فوق سطح الزاوية ، فصعد أتباع الملك يخبرونه بقدومه ، ففاجأهم بقوله : قولوا له إنه لا يحب أن يجتمع بأحد فى هذا الوقت ، فعاد المؤيد من حيث أتى . وبعث أحد الأمراء إلى الشيخ مرة بأموال من فضة ، فوزعها الشيخ كلها على الفقراء ، وبلغ الأمير ما صنع الشيخ فلبس ملابسه وذهب متعجبا ليزور الشيخ ، ودخل عليه ، ولم يملك إلا أن انحنى وقبل يدى الشيخ ، فبادره الشيخ قائلا : اذهب إلى هذا البئر ، فاملأ منه الفسقية للوضوء فيصير ثواب ذلك فى صحيفتك يوم القيامة ، فخلع الأمير ثيابه وملأ الدلو وأخذ يخرجه من البئر فلم يخرج إلا بجهد ومشقة ، وعالج الدلو حتى أخرجه من البئر ، فوجده مملوءاً ذهبا ، فأقبل على الشيخ

يريه الذهب ، فقال له الشيخ : مالنا وللذهب مالنا حاجة إلا إلى الماء .

ومن أعلام المصريين الأحرار : شمس الدين الديروطى ، وكان واعظا فى الجامع الأزهر فى عهد الغورى ، كما كان مجاهدا صائما قائما آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر ، ويصف الإمام الشعرانى مجلس وعظه فى الأزهر الشريف فيقول : كان مجلسا تفيض فيه العيون ، إذا تكلم أنصت الناس بأجمعهم ، وكان يجلس فى المجلس أكابر الدولة والأمراء والقواد ، وكان رحمه الله مع ذلك شجاعا مقداما لا يهاب شيئا أو أحداً ، وفى عهد الغورى فقدت مصر السيطرة البحرية لأن الغورى أهمل العناية بالأسطول المصرى حتى تفوقت عليه أساطيل البرتغال . وأخذت منه زمام السيطرة على البحار ، فذهب الشيخ شمس الدين الديروطى إلى الغورى وألقى عليه تحية الإسلام فلم يرد عليه فقال له الشيخ إن لم ترد السلام فسقت وعزلت فقال الغورى : وعليكم السلام ورحمة الله ، ثم التفت الغورى إلى الشيخ قائلا :

لماذا تعيب على وتحرض ضدى ، تريد أن نجاهد وتحط علينا بين الناس فى ترك الجهاد ، وعلى أى شىء نجاهد ، وليس لنا أسطول نجاهد فيه ؟ ، فبادره الشيخ قائلا :

عندك الأموال الذى تعمر بها الأسطول وطال بينهما الجدل والحوار ، فاحتد الشيخ على السلطان ، وقال له :

قد نسيت ياغورى نعم الله عليك وقابلتها بالعصيان ، أما تذكر حين كنت نصرانيا ، ثم أسروك وباعوك ، ثم من الله عليك بالحرية والإسلام ، ثم صرت سلطانا على الخلق ، وعن قريب تموت ، ويحفرون لك قبرا مظلما ، ثم يدسون أنفك هذا فى التراب ثم تبعث عريانا عطشان جوعان ثم توقف بين يدى الحكم العدل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، ثم ينادى المنادى : من كان له حق أو ظلمة على الغورى فليأت فيأتى خلائق لا يعلم عددها إلا الله تعالى ، فذهل الغورى من كلامه وخرج الشيخ ، فلما أفاق السلطان من تأثره دعا بالشيخ ، فجاء فعرض عليه الغورى عشرة آلاف دينار يستعين بها على بناء الحصن الذى بناه على شاطىء مصر عند دمياط فردها الشيخ عليه ، وقال : أنا رجل ذو مال ، ولا أحتاج إلى مساعدة أحد ، ولكن إن كنت أنت محتاجا أقرضتك وصبرت عليك ، فما رؤى أعز من الشيخ فى ذلك المجلس ، ولا أذل من السلطان فيه .

والشيخ العدوى والشرقاوى والدردير وعمر مكرم وسواهم أمثلة حية فى

مقاومة الظلم والظالمين وفى الدفاع عن الحريات ، وفى الوقوف فى وجه الطغيان ، وهم خير صورة للحرية والأحرار ومنزلتهم ومكانتهم وكفاحهم وجهادهم فى سبيل الله والإسلام والمسلمين .

— ٢ —

ونقف مرة أخرى عند علم من أعلام الصوفية ، وشيخ من مشايخ الإسلام هو الإمام العز بن عبد السلام (٥٧٧ - ٦٦٠ هـ) الذى كان مفخرة من مفاخر الإسلام وأحد الأئمة الأعلام فى عصره ، وحامل راية التصوف والصوفية طول حياته ، وكان تلميذه شيخ الإسلام ابن دقيق العيد يلقبه بسلطان العلماء .

ولد الشيخ بالشام عام ٥٧٧ هـ ، وكانت مصر والشام تكونان فى ذلك التاريخ دولة واحدة يحكمها ملوك مصر من سلاطين الدولة الأيوبية .

وتولى الشيخ الخطابة والإمامة بالجامع الأموى فى دمشق ، وكان يلقى دروسه فيه وفى زاوية الإمام الغزالى وغيرها ، وحدث أن طمع أحد أمراء الشام فى الحكم وخان بلاده ، وأرسل إلى الصليبيين يستعين بهم ضد سلطان مصر فأنكر عليه الشيخ ذلك ، وقطع الدعاء له فى الخطبة ، وهاجر من ولايته إلى مصر عام ٦٣٩ هـ ، فخرج لاستقباله سلطان مصر الملك الصالح ، نجم الدين أيوب ، وأكرمه وولاه الخطابة والإمامة بجامع عمرو بن العاص ، وأسند اليه قضاء مصر والجيزة وغيرها ، وعهد اليه تدريس الفقه الشافعى بالمدرسة الصالحية ، ولبس خرقة التصوف ، وذاعت ولايته وصلاحه وتقواه بين الناس .

أفتى الشيخ مرة بشىء ثم ظهر له أنه أخطأ ، فبعث مناديا ينادى فى الناس من أفتى له عز الدين بن عبد السلام بكذا فلا يعمل به فانه أخطأ .

وكان الشيخ شديدا فى الحق آمرا بالمعروف لا يترك النهى عن المنكر ولو كان فى ذلك حتفه . صعد مرة إلى القلعة فى يوم عيد لتهنئة السلطان ، فشاهد السلطان وقد أبطرته النعمة ، وزينت له نفسه الغرور ، والأمراء تقبل الأرض بين يديه كأنه إله يعبد من دون الله ، فصاح الشيخ بالسلطان وناداه . يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوىء لك ملك مصر ، والمعاصى ترتكب علنا بجوار قصرك وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة ، فوجم السلطان ولم ينبس ببنت شفة . وسأله أحد تلاميذه لما جاء من عند السلطان : ياسيدى الشيخ ، كيف حالك مع

السلطان ؟ . فقال يا بنى ؟ رأيته فى تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه ، فقال التلميذ له : ياسيدى أما خفته ؟ قال : والله يا بنى لقد استحضرت عظمة الله تعالى فصار السلطان أمامى وكأنه ذرة حقيرة .

وكان العز مثلا رفيعا من أمثلة الإسلام العالية فى الجرأة وكان مع فقره كريما جوادا لا يلحق شأوه ، حتى ليروى أنه لما كان بدمشق وقع غلاء كبير ورخصت أسعار الأرض ، فأعطته امرأته مصاغا لها ، وقالت له : اشتر لنا به قطعة نبنى عليها بيتا ونغرس حوله الأشجار لنصيف فيه ، فأخذ تلك الحلى منها وباعها وتصدق بثمنها على الفقراء وعاد إلى المنزل فسألته امرأته : هل اشتريت لنا شيئا ؟ فقال نعم . اشتريت بستانا فى الجنة ، إنى وجدت الناس فى شدة فتصدقت بثمن حليك ، فقالت له : جزاك الله خيرا :

وغضب عليه السلطان يوما ، وبعث اليه من يقول له . لا تفت فى الناس ، ولا تجتمع بأحد : والزم بيتك ، فرد عليه الشيخ قائلا : الحمد لله إن ذلك من نعم الله الجزيلة على ، الموجبه للشكر لله تعالى على الدوام ، أما الفتيا فانى كنت والله متبرما منها كارها لها اعتقد أن المفتى على شفير جهنم ، ولولا أنى أعتقد أن الله أوجبها على لما قمت بها ، وأما ترك اجتماعى بالناس ولزوم بيتى فأمرهما إلى الله ، إن شاء فعلت وإن شاء لم أفعل ، وإن من سعادتى لزومى لبيتى وتفرغى لعبادة ربى ، والسعيد من لزم بيته ، وبكى على خطيئة ، واشتغل بطاعة الله تعالى ، وإن هذا الهدية من الله تعالى إلى أجراها على يد السلطان وهو غضبان ، وأنا بها فرحان ، وسكت الشيخ ثم التفت إلى رسول السلطان وقال له : لوكانت عندى هدية تصلح لك على هذه الرساله المتضمنة لهذه البشارة لأهديتها لك ، خذ هذه السجادة صل عليها ، فأخذها الرسول وانصرف إلى السلطان وذكر له ماجرى بينه وبين الشيخ ، فقال السلطان لحاشيته : قولوا لى ماذا أفعل بهذا الرجل ، الذى يرى العقوبة نعمة ، اتركوه ، بيننا وبينه الله تعالى :

وفى آخر عهد الدلة الأيوبية استكثر السلطان الصالح نجم الدين أيوب من شاء من المماليك ، وأعتقهم وأمرهم على البلاد ، ونصبهم أمراء وقوادا فى الجيش المصرى ، يحكمون الجيش والبلاد ، وزاد ظلم هؤلاء الامراء للشعب ، واستبدادهم بمصالحه ، فغضب الشيخ عز الدين بن عبد السلام غضبا شديدا ، وقال . إن هؤلاء

الأمراء الأتراك أرقاء بحكم الشرع للشعب المصرى الذى هو سيدهم الأكبر ، إن السلطان قد اشتراهم بمال الدولة، وإنه لا يملك عتقهم ، وما زال حكم الرق مستصحبا عليهم لبيت مال المسلمين ، وأخذ الشيخ يكتب فتوى شرعية بذلك ، يقول فيها : « إنه لم يثبت عنده أن هؤلاء الأمراء الأتراك أحرار ، إن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، وإنه لا بد من بيعهم وصرف ثمنهم فى وجوه الخير ومصالح الأمة . وبلغت الفتوى هؤلاء الأمراء ، وكان من بينهم نائب السلطان ، وكلهم من أصحاب النفوذ والحكم والسلطان ، وثار الأمراء ، وامتلأوا غيظا ، وعجبوا مما صنعه العز بن عبد السلام ، وأرسلوا اليه ليكف عن صنيعه الذى لا يليق أن يصنعه معهم وهم أصحاب النفوذ والسلطان فى مصر ، ولم يبال الشيخ بذلك وصمم على فتواه ، وأذاعها فى الناس ، وامتنع عن أن يصحح لهم بيعا أوشراء أو زواجا ، فتعطلت مصالحهم ، وصاروا حديث الشعب وموضع سخطه وسخريته ، واجتمعوا وأرسلوا للشيخ يرجون منه أن يحل هذه الأزمة المعقدة ، فبعث إليهم يقول : لا بأس ، نعقد لكم مجلسا ، وننادى عليكم ببيعكم لبيت مال المسلمين وتدفعون ثمن رقابكم ليحصل عتقكم بطريق شرعى ، فرفعوا الأمر إلى السلطان ، فأرسل إلى الشيخ فطلب منه أن يصرف نظره عن ذلك الأمر ، وبين له ما فى فتوى الشيخ من الإضرار بأولئك الأمراء الذين لهم مكانتهم فى الدولة ، ورد الشيخ على السلطان يقول له : إنه لا بد له من أن ينفذ فتواه ، لأنها كلمة الشرع ، وإرادة الشعب ، وحق الإسلام ، وإنه سينادى على أولئك الأمراء بالبيع ويقبض ثمنهم ، وإلا فانه سيعزل نفسه من منصب القضاء ، ويترك فتواه قائمة فى البلاد الإسلامية ، فأغاظ السلطان على الشيخ غلظة شديدة وأنكر عليه دخوله فى هذا الأمر الذى لا ناقة له فيه ولا جمل ، وان هذا الأمر ليس من اختصاصه حتى يقحم نفسه فيه ، فغضب الشيخ ، ووضع كتبه على حمار وامرأته على حمار آخر ، ومشى خلفهم خارجا من القاهرة ، قاصدا نحو الشام ، وسار قليلا ، وإذا الخبر ينتشر بين الشعب فخرج الآلاف من الناس وراءه يهاجرون لهجرته ، وخرج العلماء والصالحون والتجار حتى النساء والصبيان والجميع يبكون ، وبلغ السلطان ذلك وقيل له : إن الشيخ إن ذهب فسيذهب ملكك ، وستقوم الثورة عليك فى كل مكان . فركب السلطان بنفسه ، ولحق به واسترضاه ، وطيب قلبه ، فرجع العز وسط الجموع الحاشدة من هذا الشعب المجيد .

وسكت السلطان ، وأخذ نائبه يتودد للشيخ ، وأرسل إليه يستعطفه فلم يبال بذلك كله ، وأصر على موقفه فى عناد وشجاعة وجرأة نادرة .

وغضب نائب السلطان ، وقال : كيف ينادى علينا هذا الشيخ ، ويبيعنا ونحن ملوك الأرض ، والله لأضربنه بسيفى هذا ، وركب جواده ، وشهر السيف فى يده وحوله أعوانه ، وطرق باب الشيخ ، فشاهد ابن الشيخ هذا المنظر الرهيب وعاد إلى والده يخبره الخبر : نائب السلطان على فرسه ، والسيف فى يده ، وهو يطرق الباب طرقا شديدا ، إنه يريد شرا .

ورد الشيخ على ابنه يقول : يابنى أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله ، وخرج خارج البيت وكأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطان ، الذى يبست يده وسقط منها السيف ، وارتعدت مفاصله ، وبكى بكاء شديدا ، وانحنى يقبل يد الشيخ وهو يسأل أن يصفح عنه ، ويدعو له ، وقال : ياسيدى الشيخ أى شىء تعمل ، قال : أنادى عليكم بالبيع وأبيعكم ، قال : ففيم تصرف ثمننا ؟ قال : فى مصالح المسلمين ، قال : فمن يقبضه ؟ قال الشيخ : أنا .

وفى الصباح عقد مجلس كبير وحضر السلطان ، وحشد الأمراء الأتراك جميعا وأخذ الشيخ ينادى عليهم بالبيع واحدا واحدا ، ويغالى فى ثمنهم لأنهم أمراء ولأنهم أصحاب السلطان ، وغالى أكثر ماغالى فى ثمن نائب السلطان ، فدفع السلطان إلى الشيخ كل ما أراد من مال ، وأخذه الشيخ فوزعه فى وجوه الخير ومصالح الشعب ، ثم أعتق الأمراء الأرقاء ، ومنحهم حق الحرية فى التصرف والبيع والشراء

هذا هو الصوفى الورع الإمام الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، الذى كانت صلابته فى الحق وفى رضاء الله مضرب الأمثال .

ولما توفى الشيخ فى اليوم التاسع من شهر جمادى الأولى عام ٦٦٠ هـ خرج سلطان مصر الملك الظاهر بيبرس ركن الدين ، ومعه الأمراء والشعب يشيعون جنازته ، وحزن عليه السلطان كثيرا ، وحمل نعشه على كتفه ، وهو يقول : لا إله إلا الله ، إن العز بن عبد السلام لم يتفق موته إلا فى دولتى ويروى أن الظاهر قال لبعض خواصه : اليوم استقر أمرى فى الملك ، لأن هذا الشيخ لو أمر الناس بالثورة على سلطانى لانتزع الملك منى .

رحم الله عز الدين بن عبد السلام ، ورحم علماءنا وشيوخنا الأعلام ، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

حول مستقبل المدنية (١)

س ١ - ماذا تعنى المدنية بالنسبة لك ؟
س ٢ - صف كلا على حدة . . ووجهة نظرك عن المدنية بالنسبة إلى :

ا - المشاكل التى تسببها .
ب - الفوائد التى نجنيها من ورائها
جـ - الآمال التى تعلقها عليها
د - المخاوف التى تخشاها منها

س ٣ - ما هى مؤثرات المدنية التى تحس أنها ذات أثر ملموس فى حياتك الخاصة؟
س ٤ - هل فى استطاعتك أن تصف أو تقترح او تتحدث عن أوجه المدنية التى تراها من حيث ؟
ا - الإطـــلاق .
ب - الحـد :
جـ - الرفض .

الجواب عن الأول: تعنى المدينة بالنسبة لى :

١ - توفير وسائل الحياة لى ولمجتمعى ولأمتى .
٢ - الرقى بالمستوى الإنسانى لحياتنا الخاصة والعامة وقد يكون من مثل ذلك انى اكتب وأنا متألم غاية الألم لمنظر فى الأوتوبيس العام ، إذ كانت سيدة تحمل طفلالها وتقف فى الدرجة الأولى دون أن يقف لها حتى الشبان الذين يركبون معها وبالنسبة لى كان معى طفل لا أستطيع أن أتركه وحده بل إننى وأنا سائر فى الطريق العام قادتنى رجلاى إلى حديقة ومشيت على الأعشاب ، وسرعان ما بكيت لأنى شعرت بأنى قد قضيت على حياة كاملة وروح خفية فى هذه الحشائش الخضراء
٣ - خلق فرص الحياة وإتاحتها أمام الجميع بنسب متفاوتة دون أن يكون لأحد من الناس امتياز على الآخرين حتى ولو كان هذا « الأحد» حاكما أو مسئولا

(١) حديث صحفى كتبت به إلى صحيفة وجهت إلى هذه الأسئلة .

٤ ـ خلق مجتمع مثقف ثقافة عالمية تعنى بتذليل الحياة للإنسان وتحل مشكلات الحياة أمام الناس وتحافظ على المستوى الحضارى الذى بلغه العالم عن طريق السلام

الجواب عن الثانى : ا ، المشاكل التى تسببها المدنية كثيرة منها :

١ ـ تدهور المستوى الخلقى بسبب ضعف النواحى الروحية من ناحية وتعدد طبقات « الفاشلين » من جانب آخر .

٢ ـ ضعف المستوى الاقتصادى مما يلزم علاجه علاجا سريعا حازما عن طريق التشريعات الديموقراطية المماثلة للتشريعات الاقتصادية الديموقراطية التى سلكتها انجلترا مثلا .

٣ ـ كثرة الفرص أمام دعاة الحرب مما ينذر المدنية بأخطار شديدة وقد يكون الباعث على ذلك ضعف الإيمان بالمستويات المثالية لعلاقات الامم والشعوب ، وفقدان عاطفة التعايش السلمى بين الدول الاستعمارية الكبرى .

٤ ـ مشاكل الاستعمار والوصاية الدولية وبقاؤها جاثمة على صدور الملايين العديدة فى الشرق وسواه .

٥ ـ التمايز العنصرى واعتقاد الامتياز لبعض الشعوب والأجناس والعناصر وقد تكون المدنية بريئة من هذا إلا أن الدول التى تقود زمام المدنية هى التى تدافع عن هذا الامتياز الغريب الذى لا يقره ضميره ولا مبادىء خلقية .

ب ـ الفوائد التى نجنيها من وراء المدنية كثيرة ، كتصنيع الأمم المتأخرة والبحث عن الثروات المدفونة فى باطن الأرض واستغلال نواحى الثروات الاقتصادية فى الأمم المتخلفة ورفع مستوى الثقافة لبنى البشر ، وخلق ضمير إنسانى مهذب يشعر بآلام الفقراء والمحرومين ويرتفع ببناء الحياة الإنسانية وسوى ذلك مما تطول الإشارة إليه حتى فى إيجاز .

جـ ـ الآمال التى نعلقها عليها كثيرة أيضا ومن أهمها إتاحة العمل لكل إنسان والقضاء على الفقر ومحاربة استعباد بعض الناس لبعض ، ومقاومة الاحتكار والرأسمالية والجشع الاقتصادى عند الأفراد والجماعات والأمم وإتاحة فرص التعليم لكل راغب فيه ، وخلق مجتمعات متعاونة لا يقاتل بعضها البعض الآخر

فى سبيل لقمة العيش بل يتمم البعض الآخر من حيث فرص العيش الكريم لكل فرد ، والقضاء على مشكلاتنا الاجتماعية ومن بينها مشكلات العزوبة والعنوسة والطفولة المشردة والتسول والبطالة والحرمان إلخ .

د ـ المخاوف التى تخشاها من المدنية ، زيادة حرمان المحرومين وزيادة ثراء الأثرياء وقدرة المستبد على أن يستبد بالناس بكافة الوسائل التى فى وسعه أن يتسلح بها ، وقرب شبح الحرب المطل على رءوس البشر باستمرار . وفقدان الروح التعاونى فى علاقات الأمم بعضها ببعض وقيام الحدود والحواجز المصطنعة بين الدول بما يعوق حرية التجارة وحريات كثيرة للناس .. إلى غير ذلك .

الجواب عن الثالث : أهم تأثيرات المدنية ذات الأثر الملموس فى حياتى، قدرتى على أن أنادى برأيى وأذيعه بين الناس عن طريق الصحافة والإذاعة والكتابة والندوات . ثم استطاعتى أن أعيش بانتظام دون خوف من فقدان مطالب حياتى كلها أو بعضها . ثم سهولة اتصالى بالآخرين من بنى البشر وقدرتى على التفاهم معهم عن مشكلات الإنسانية عامة ، ثم شعورى بوطأة المدنية على وعلى الطبقات الوسطى التى أعيش معها والتى كان يجب أن توفر المدنية لهم كل أسباب الاطمئنان المادى للحياة .

الجواب عن الرابع : ا ، ب ، حـ فى مجتمع مثل مجتمعى لا أستطيع أن أقول إن جميع وجوه المدنية يجب أن أفتح لها الباب دفعة واحدة فاشاعة الفنون الجميلة أو الرقص المعبر مثلا أو الاختلاط الكامل فى شتى جوانب المجتمع لا يمكن أن نبدأ به قبل العناية بالجوانب الاقتصادية والثقافية لحياتنا وعلاج مشكلاتنا العديدة وقبل تصنيع بلادنا تصنيعا كاملا وكذلك بالنسبة لألوان كثيرة من المدنية ، فلا أستطيع مثلا أن أقول للانسان المحروم إن المدنية يجب أن توفر لك سيارة تركبها قبل أن أقول له إنما يجب أن توفر لك لقمة العيش التى تأكلها . ولذلك لا أستطيع أن أرفض دخول جميع ألوان المدنية فى مجتمعنا بل يجب أن نبدأ بعلاجه وإنقاذه من المستوى الذى يعيش فيه عن طريق تفاعل النظام الحضارى وتغلغله فى كياننا خطوة خطوة وأن نبدأ بالاهم ثم المهم ثم بالكماليات وأن نجتهد فى أن نأخذ بنظم المدنية القريبة إلى روحياتنا وإلى كياننا الشرقى وإلى تقاليدنا الصالحة

الموروثة ، وإلى روحنا الدينية التي تعد ذات أثر فعال في حياة كثير من الملايين في الشرق . ومن البدهي أن المدنية يجب ألا تخلف مشكلات أو عقداً نفسية في طبقاتنا وإلا كانت سبب اضطراب لهذا المجتمع وانهيار له أيضا . ويجب أن تعنى المدنية بمشكلات الجميع وتغرس مبادئ الإخاء والمساواة والحرية في نفس كل إنسان . وهذه هي المبادئ التي تدعو اليها الأديان وخاصـــة ديننا الإسلامي الكريم وقد بلغ معنى المدنية في نفوس أناس كثيرين أن يبيحوا لأنفسهم أن يفعلوا أي شيء خيرا أو شرا ماداموا لا يقعون تحت طائلة القانون والعقاب . لجريمة تحدث في سويسرا مثلا ويفزع لها المجتمع السويسرى لأن المجرم لم يستطع الإفلات من قبضة القانون وقد قابلني قاض كبير في مصر وهو يعلق على جريمة حدثت في مجتمعنا ويعجب أشد العجب كيف لم يستطع مرتكب هذه الجريمة أن يضلل يد العدالة حتى لا تستطيع الوصول اليه كل هذا وأمثاله وغيره هي آفات فهمنا الخاطىء للمدنية . وقد تعنى المدنية في نفوس أناس كثيرين أن يفعلوا كل شيء يريدون دون أن يحافظوا على حريات الآخرين بل وأن يدافعوا عنها . وأنا أعجب أشد العجب لشاب يمشى في الشارع ثم يريد أن ينال أكثر من حرياته عن طريق اعتداء على حرية فتاة تسير مثلا في الطريق وتريد أن تبلغ منزلها في هدوء وسلام ، ومن ثم فانه من العبث أن نرفع من شأن المدنية إذا لم تكن الروح المدنية متأصلة في أعماق نفوسنا وإذا لم يكن الإيمان بمبادىء المدنية متغلغلا في جذور أعماقنا . والويل كل الويل لمن يقيد نفسه باغلال المدنية دون أن يفهم ما هي المدنية ؟ ! .

شهر النصر والحرية

يشهد العالم الإسلامى كل عام شهرا من أروع الشهور ، وأياما من أمجد الأيام أياما لا يحسبها الناس من أعمارهم .. وشهراً لا يحرون فيه على مألوفهم .. يعيشونه وكأنهم فى أعياد موصولة ، وأفرح متلاحقة ، إنه شهر الثورة والنصر والنور والحرية .. شهر رمضان المبارك الحافل بأعظم الذكريات ، والذى سطرت فيه أكرم الصفحات فى تاريخ الشعوب والمدنيات .

ولقد فرض الله على المسلمين الصوم فى شهر رمضان ، وندبهم للقيام فيه ، والتهجد والتعبد فى لياليه العطرة بأريج الرحمة والبشر والصفاء ، ثم حثهم على عمل الخير ، والبر بالفقراء ، وإخراج الزكاة للمحتاجين . وحبب اليهم فيه السلام والتعاون وصلة الرحم ومراقبة الله فى السر والعلن ، والإخلاص له فى القول والعمل ، إلى غير ذلك من ألوان الطاعات ، ومن الأعمال الصالحات التى فرضها الله على الناس فى رمضان . ثم أعقبه بالعيد ، وأى عيد عيد الشكر وعيد النصر جميعا

وكما خص الله رمضان بهذه العبادات والطاعات ، خصه كذلك بليلة القدر التى هى خير من ألف شهر ، تكريما له وتشريفا وتعظيما ، لأنه الشهر الذى أنزل فيه القرآن ، دستور الإسلام والمسلمين الخالد الكريم ، على محمد صلوات الله عليه . فكان نزوله انتصارا للحق والحرية ، وتحريرا للعقل الإنسانى من الجمود والتقليد والرجعية . وكان ثورة إنسانية جليلة فى تاريخ حياة البشر أجمعين ، وكان البشير بعصر جديد ، تظلل الأمم رايته ، وتجمع الناس على الهدى والنور والحق رسالته .

وهناك ، فى رمضان أيضا ، ذكرى مجيدة خالدة أخرى ، ذكرى غزوة بدر الكبرى ، التى انتصر فيها الإسلام والمسلمون ، وهى ذكرى عزيزة فى قلب كل مسلم وكل عربى .

وفى شهر رمضان يجتمع المسلمون كافة ومن كل مكان فى وحدة متماسكة قوية ، يحاربون نزوات النفس وأهواءها وتمرد الشهوات ، ووسوسة الملذات والمغريات ويخرجون من هذا الشهر وهم أصلب عودا وأثبت جنانا وأقوى إرادة وأكثر

شعورا بالحرية والكرامة واعتزازا بالشخصية المتحررة من مطالب الحياة المادية وإرهاقها ، وفى ذلك نصر وأى نصر .

هذا هو رمضان الشهر الثائر الحر ، الثائر على التقاليد والعادات والمألوف من حياة الناس ، والحر فى إبائه الخضوع لماديات الحياة الرخيصة المبتذلة ، ولنداء الشهوات الصاخبة العارمة ، وهو شهر نفتح له قلوبنا وعقولنا ، ويستقبله العالم الإسلامى وفى صدره أمل ، وفى فمه ابتهال ، وفى وجهه تطلع الواثق المعتز المنتصر المؤمن بنفسه وبإرادة الحياة وبالإسلام وبالخير للشعوب العربية والإسلامية ، بل وللعالم كافة والإنسانية جمعاء .

قصه الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى

هـذا أثر أدبى ضخم من آثار نهضة التفكير الأدبى الحديث ، وإن كان موضوعه منحصرا فى بعض آداب العصور القديمة . جدة هذا الكتاب فى هذا التخصص : . فهو يخص بيئة واحدة من بيئات الشعر العربى القديم ، هى بيئة الحجاز لا الجزيرة العربية ولا الأمة العربية كلها . ، وهو يخص عصرا واحدا من عصور الأدب العربى القديم هو عصر الجاهلية الأولى .. ويبين ما ظهر فى هذا العصر من آثار أدبية كان لها الفضل فى حركة التطور الفكرى العربى التى ظهرت فيما بعد . .

إن كتاب « قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى » هو قصة سبعين شاعرا وناثرا عاشوا فى الحجاز قبل الإسلام . . وبشروا فى شعرهم ونثرهم بكثير من المعانى الأدبية التى عنى بها العرب فيما بعد ..

فى الجاهلية كانت الحروب القبلية وكان بجانبها نداء الأدباء إلى السلم أو السلام . وكانت هناك خرافات وبجانبها دعوة أولئك إلى الإصلاح . .

وهكذا يبدو من خطوط هذا الكتاب ، الذى يشتمل على ٧٠٠ صفحة ، أن عرب الحجاز فى الجاهلية قد مهدوا السبيل لحياة أدبية أفضل ، فضلا عما كان فى أدبهم من الأخيلة الجميلة والصور الاجتماعية التى تفيد الباحثين فى اللغة والثقافة والتاريخ . .

إنه جهد كبير يذكر بالحمد للمؤلفين الفاضلين ، ويضم إلى مكتبة الأدب العربى القديم فى الدراسات الحديثة أثرا بل مرجعا ممتازا ـ جريدة القاهرة

الصوم تعبير عن إرادة الحياة

هذه العقيدة المطهرة ، وهذا الدين السماوى ، دين الاسلام الخالد الكريم . الذى يجمع الناس على الطهر والصفاء ، وعلى الخير والإباء ، وعلى الحق والعدل وحب الحرية والسلام والإخاء . . كان لابد أن يظهر أثره على المسلم قوة إرادة وسمو عقيدة ، وطهارة نفس وانتصارا لكل ماهو طهارة حق وخير وجميل فى الحياة ، وثورة على الفساد والمفسدين ، والظلم والظالمين ، وإباء لكل مايدنس النفس أو العرض أو الحياة ، ويوجز القرآن الكريم ذلك كله فيقول : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون » . .

حقا صبغة الله ، أو ماعبرنا عنها بالشخصية الإسلامية ، الشخصية التى تظهر على المسلم توحيدا وطهارة ووضاءة ، وتطلعا لمثل الحياة الشريفة وتحررا من كل مايعوق الإنسان عن حرية الفكر والعمل والحياة . الشخصية التى طبع عليها المسلم وانطبعت عليه ، وتظهر فى سلوكه وعمله حبا للحرية ، وثورة على الجمود ، وإيمانا بمنزلة الإنسان فى الحياة . . هذه الشخصية لاتفارق المسلم فى الصيام وغير الصيام ، ولكنها فى شهر رمضان الكريم تبدو قوية كقوة الحق ، عزيزة كعزة المسلم ، ثائرة كثورة الحياة ، نبيلة كنبل مبادىء ديننا الخالد العظيم . .

والصوم فى روحه ومغزاه ، ما هو إلا تعبـــير واضح عن إرادة الحياة وحريتها ، وعن الثورة على كل مايعوق المسلم عن التحرر واستغناء النفس وعزتها :

هو تغيير كامل فى حياة المسلم الروحية والمادية جميعا ، وهذا التغيير يمتد مداه شهرا كاملا كل عام . . هو انطلاق من إسار ماديات الحياة الطاغية المهيمنة على الجسم والعقل ، فالطعام وهو جزء من بناء الإنسان ، يتحرر منه المسلم تحررا منظما لايؤثر فى قدرته على التفكير والعمل ونظام الإنسان اليومى يتغير تغيرا تاما فى هذا الشهر الجليل ، ولرمضان عبادته الروحية بالصوم فى النهار ، وبالتهجد وقراءة القرآن فى الليل . . وهذا الصوم يجمع المسلمين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها على وحدة العبادة ، ووحـــدة الحياة ، لتقوى شخصيتهم ، ولتظهر قوميتهم ، ولتعلو إرادتهم حتى على الحياة وماديتها ، والصوم - مع ذلك كله - يقوى العواطف النبيلة فى المسلم ، من الإيثار وحب الخير . والرحمة والشفقة ،

ومن التعاون والتكافل والتضامن الاجتماعى ، ومن الإيمان بالجانب الروحى فى الحياة ، الذى هو سناد لجوانبها المادية ، وغير ذلك كله .

وعندما نحاول أن نعرف أثر الصوم فى شخصية المسلم ، نجد ذلك واضحا كل الوضوح فى تعويده على قوة الإرادة ، وصلابة العزيمة ، وعلى الانتصار للحق والخير ومثل الحياة الشريفة . .

وفى غرس النزوع إلى الحرية فى قلبه ، ليعيش ثائرا على الجمود ، منطلقا إلى الغايات الجليلة ، التى يوجهه الإسلام نحوها . وفى بعث انطلاقاته الروحية المتأملة البانية ، ليكون فى ذلك تحرره الفكرى ، وتحرره من ماديات الحياة التى تعد سجنا للروح ، ويؤدى الإسراف فيها إلى الفقر وإلى الهلاك وإلى المرض ، والصوم فوق ذلك يقوى الشعور بقومية المسلمين وبكيانهم الأدبى فى الحياة ، ويقوى فهم النزعة الاشتراكية الخيرة التى تهدف إلى تحطيم الفروق الاقتصادية الواسعة بين الناس وإلى إيجاد عدالة اجتماعية عامة فى المحيط الإسلامى ، وإلى غرس روح التكافل الاجتماعى فى نفس كل مسلم . .

والصوم أيضا يعود بالمسلم إلى الله وإلى الدين ، وإلى حب التوبة والاستغفار والندم على مافرط الإنسان فى جنب الله ، وتختتم عباداته بصدقة الفطر التى تعد مظهرا عمليا من مظاهر اشتراكية الإسلام ، ديننا الخالد الكريم .

فما أعز رمضان الذى فيه إعزاز لشخصية المسلم ، وما أكرم شعيرة الصيام التى ترتفع بمنزلته فى الحياة وما أروع هذه الأيام التى جعلها الله للمسلمين مواسم وأعيادا كل عام ، يحتفلون فيها بذكرى خالدة عظيمة ، ذكرى نزول القرآن من السماء على رسولنا الكريم محمد صلوات الله عليه . . « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

المعجزة الخالدة

— ١ —

كيف بك ياسراقة إذا لبست سوار كسرى ومنطقته وتاجه ؟

كلمة رهيبة دوى بها المكان ، وأنصت إليها الزمان . مشدوها متعجبا متحيرا ورددها كل شيء حتى الجبال والرمال ، والصدى يذهب بها إلى كل جانب وكل طريق

كيف بك ياسراقة إذا لبست سوار كسرى ومنطقته وتاجه ؟

ومن كسرى ؟ إنه خسرو أبرويز بن هرمز بن ملك الملوك أنو شروان ، الذي بسط سلطانه على العباد والبلاد ، وهدد قيصر في مملكته ، وحكمت جيوشه أطراف الجزيرة العربية : اليمن والحيرة وغيرهما من الأصقاع ، والذي يستطيع جيشه أن يدك جزيرة العرب دكا شديدا .

— ٢ —

وقد حكم أنوشروان مملكة فارس ومستعمراتها تسعا وأربعين سنة . وكان مولد رسولنا الأعظم محمد صلوات الله عليه لاثنتين وأربعين سنة مضت من ملكه وتولى بعده ابنه هرمز وكان ضعيف الرأى والسياسة والعزيمة فخلعته الفرس ، وعقد التاج بعده لابنه أبرويز حفيد أنوشروان ، وكان ملكا شديد البطش نافذ الرأى ، قد بلغ من الظفر والنصر والحظ السعيد حداً لم يبلغه ملك من الملوك ، وكان إذا ركب ركب معه مائة ألف فارس من جيشه وصفت له الفيلة ، ووقف الجنود المشاة يحيونه تحية الملوك ، ويركب معه رجلان من حاشيته يقولان له ساعتئذ : أنت عبد ولست برب فيشير برأسه موافقا : أن نعم .

وحدث ذات يوم أن ركب كسرى ، فقال له الرجلان ذلك ، فلم يشر برأسه لما دخله من الغرور والكبرياء والعظمة ، فذهبا يشكوان كسرى إلى وزير داخليته ، فركب ليعاتبه ، وكان كسرى قد نام ، فلما سمع صوت الخيل وهى قادمة نحو قصره من قبل وزيره استيقظ ، ودخل عليه الوزير ، فبادر كسرى متأففا متضجرا

يقول : لقد أيقظنى ضجيج خيولكم ، أيقظتمونى ، فلا كانت هـذه اليقظة ، وتعجب الوزير مما سمع ، واستمر كسرى يقول : إنى رأيت كأنه رقى بى فوق سبع سموات ، فوقفت بين يدى الله تعالى ، وإذا رجل بين يدى الله عليه إزار ورداء ، فقال لى الله جل جلاله : سلم مفاتيح خزائن الأرض إلى هذا ، وسلمتها له ، واستمر الصوت الإلهى يخاطبنى : ألست المأمور بأن تعترف بأنك عبـد ولست برب فلم تفعل .

واستمر كسرى يقول لوزيره لقد هالتنى الرؤيا وأنا نائم أسلم مفاتيح خزائن الأرض إلى هـذا ؟ يالها من كلمة رهيبة كان وقعها كالرعد فى أذنى ، لقد حاولت أن اقول: إنما أنا عبد ولست برب وأن أستدرك مافات ، وان أمحو ذنبى ، فأسترد مفاتيح خزائن الأرض من صاحب الإزار والرداء ، ولكنكم أيقظتمونى ، وبعد أيام قلائل ، وصلت إلى عاصمة كسرى (المدائن) رسالة غريبة ، حملها رجل عربى اسمه عبد الله بن حذافة بن قيس ، وقرئت الرسالة على كسرى فاذا فيها .

بسم الله الرحمن الرحيم : « من محمد رسول الله النبى إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عز وجل ، فانى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، فاسلم تسلم، فان أبيت فان إثم المجوس عليك » .

ولم يطق كسرى أن يذكر اسم مخلوق آخر قبل اسمه هو ، من محمد رسول الله إلى كسرى ، أحقا ما أسمع ، وصاح كسرى : ناولونى الرسالة ، ومزقها ـ وقال : يكتب إلى بهذا وهو عبدى . اكتبوا إلى نائبى حاكم اليمن أن يبعث إليه برجلين يلقيان القبض عليه ، وليرسله لى فى السلاسل والأغلال ، كان ذلك فى العام السابع للهجرة ، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن كسرى مزق الخطاب فقال: مزق الله ملكه ، أو قال : اللهم مزقهم كل ممزق ، وبعث حاكم اليمن نائب كسرى رجلين من الفرس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرهما أن يلقيا القبض على النبى ، ولم يكن للعرب وزن فى أعين الفرس أيام إذ ، فكان من المألوف أن يلقى أحد جنودهم القبض على أى أعرابى يلقاه فى طريقه ، وخرج الرجلان من اليمن إلى الطائف وسألا عن محمد ، فقيل لهما : هو بالمدينة ، وعرف أهل الطائف أن محمدا قد أمر كسرى بالقبض عليه ووضع الأغلال فى يديه وأن

يساق إلى المدائن ففرحوا واستبشروا ، وقالوا : نصب له كسرى ، كفيتم شر هذا الرجل ، وخرج الجنديان من الطائف حتى قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه أحدهما ، وقال : إن شاهنشاه ، ملك الملوك ، كسرى ، كتب إلى نائبه بازان حاكم اليمن يأمره أن يقبض عليك ، وأن يبعث بك إلى المدائن ، فان انطلقت معنا كنت أهلا لأن يكتب فيك (بازان) إلى ملك الملوك بكتاب ينفعك ويكف عنك به ، وإن أبيت فان كسرى من قد علمت ، وهو مهلكك ومهلك قومك ، ومخرب بلادك ، فقال لهما رسول الله فى حلم وأناة وطمأنينة : ارجعا حتى تأتيانى غدا ، ونزل الوحى على رسول الله ينبئه أن الله تعالى قد سلط الليلة على كسرى ابنه شيرويه فقتله ، وعاد الجنديان فى الصباح إلى الرسول يستعجلانه ليركب معهما إلى اليمن ، ومنها إلى المدائن ، فبادرهما رسول الله صلوات الله عليه ينبئهما أن الله سلط على كسرى ابنه فقتله الليلة الماضية ، فقال الرجلان هل تدرى ما تقول ؟ فانا قد خفنا منك ما هو أيسر من هذا ، أفنكتب به عنك ونخبر الملك (بازان) فى اليمن ؟ قال صلوات الله عليه : نعم ، أخبراه ذلك عنى ، وقولا له : إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى ، وقولا له : إن أسلمت أعطيتك الناس تحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء .

فخرج الرجلان من عند النبى إلى اليمن حتى دخلا على (بازان) ، فأخبراه الخبر وقصا عليه القصة ، فبادرهما قائلا : والله ما هذا بكلام ملك ، وإنى لأرى الرجل نبيا ، فان كان ما قاله حقا فهو نبى مرسل ، وان لم يكن كذلك فسأرى فيه رأيا ، ولم يلبث أن قدم على ملك اليمن كتاب (شيرويه) كسرى الفرس الجديد ، وفيه يقول : أما بعد فانى قد قتلت أبى كسرى أبرويز ، ولم أقتله إلا غضبا لفارس عما كان قد استحل من قتل أشرافهم ، فاذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك ، وانظر إلى الرجل الذى كتب لك فيه فلا تحاجه حتى يأتيك أمرى فيه ، فقال (بازان) : إن هذا الرجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلم ، فأسلمت الأمراء والقواد وكبار رجال الدولة من فارس ، وخرجت ولاية اليمن من طاعة كسرى من ذلك الحين .

هذا هو كسرى أبرويز الملك المستبد الطاغية الذى دوخ البلاد ، وأهلك العباد وصب على الأرض الفساد ، بحيث لم يكن يبلغ الطرف مداه ، ولا الحساب عدده .

— ٣ —

وسمع سراقة هذه الكلمة الموجزة البسيطة فأصيب بذهول عجيب ودهشة غريبة :

كيف بك ياسراقة إذا لبست سوار كسرى ومنطقته وتاجه ؟

كسرى شاهنشاه ملك الملوك ، أيضع سراقة ، وهو ذلك العربي البدوى ، أيضع فوق رأسه تاج كسرى ، أيلبس في يده سوار كسرى ، أيلبس فى وسط جسمه وشاح كسرى ؟ يالها من كلمة لا يتصورها عقل ، ومن قالها ؟

إنه محمد بن عبد الله رسول الله إلى الناس كافة .

وكان ذلك فى اليوم الرابع من شهر ربيع الأول ، الموافق لليوم العشرين من شهر يونيو عام ٦٢٢ م . والمكان هو الطريق بين مكة والمدينة على بعد أميال من مكة ، وكان رسول الله صلوات الله عليه فى طريقه إلى المدينة ، وقد خرج من وطنه مكة مهاجراً ، ومعه أبو بكر الصديق ، وهناك كان يبدو شبحان ثم يختفيان إنهما يسيران بعيدا بعيدا ، على جملين قويين ، ورائدهما فى هذه الرحلة الطويلة فى طريق الساحل بين مكة والمدينة هو عبد الله بن أريقط .

وكان يسير خلفهما من بعيد شاب قوى جلد ، يعدو وراءهما على جواد أصيل وهو يحث الجواد ليلحق بهما .

وكان الشبحان هما : رسول الله محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، ورفيقه أبا بكر الصديق رضى الله عنه .

وأما الشاب الذى كان يعدو خلفهما بفرسه فهو سراقة الكنانى المكى .

كان محمد صلوات الله عليه فى هذا اليوم فى رحلته الخالدة ، وهجرته الماجدة ، هذه الهجرة التى أعز الله بها الإسلام ، وجعلها فتحا مبينا المسلمين .

كان قد فر بدينه من مكة ومشركيها ، وخرج ليشيد للاسلام صرحا منيعا فى المدينة ، بين المهاجرين والأنصار ، وكان رفيقه فى هذه الرحلة الميمونة أبا بكر الصديق . هذه الهجرة التى كانت معجزة للاسلام ونبى الإسلام ، وحادثا خالداً ، حفظ قصته الزمن ، ورددت بطولة الرسول فيه الأجيال .

وأما سراقة فكان فتى من مكة ، خرج حين أعلنت قريش عن جائزة قدرها

مائة جمل لمن يقبض على محمد وصاحبه ، خرج يبحث عن النبي المهاجر ، ليرده هو وصاحبه إلى مكة ، حتى ينال الجائزة الموعودة ، وكان سراقة رجلا صلبا متين البنيان قوى الأركان ، وفى الطريق قابله أعرابى أخبره أنه رأى ثلاثة نفر مروا عليه ، يعتقد أنهم محمد وصاحبه ، والرائد الذى يدلهما على الطريق فانطلق فى أثرهم يسير على فرسه بين الصخور والجبال :

وكاد سراقة أن يبلغ الرسول . حتى لقد سمع قراءته وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، وما هو إلا أن ساخت يدا فرسه فى الأرض ، فنزل من فوقها وأقامها ، ثم ركبها ، حتى كاد أن يصل إلى رسول الله وأبى بكر ، وهتف قائلا : يا محمد إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وإنى خرجت أطلبك ، وأطلب بطلبك المال والمجد والشهرة ، وكبا به فرسه مرة أخرى ، فأقامها ، وضرب القداح يستشير الآلهة : أيستأنف السير ؟ وأشارت عليه الآلهة : أن لا ، ولكنه ركب جواده ، وانطلق فى أثر محمد وصحبه ، حتى أصبحوا منه على مد البصر فلكز جواده ولكنه كبا كبوة شديدة وألقى به بعيدا ، حتى كان سراقة يقول فيما بعد وهو يقص قصته : لقد شعرت حينئذ أن قد قدر أن تفوز قضية محمد ، فأقلعت عن فكرة اغتياله ، وهتفت : أنا سراقة انظرونى أكلمكم فوالله لا أريبكم ، ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه .

والتفت محمد وأبو بكر إليه ، فاقترب منهما ، وقص عليهما قصص الناس ، وما يريدونه بهما ، وعرض عليهما سراقة الزاد والمتاع . فلم يأخذا منه شيئا ، وقالا له : اكتم عن الناس خبرنا . فطلب من الرسول أن يكتب له كتابا يكون آية بينه وبينه ، إذا ما تم للرسول نصر الله وتأييده فأمر أبا بكر أن يكتب له الكتاب .

وفى لحظة خاطفة التفت الرسول صلوات الله عليه إلى سراقة قائلا : كيف بك يا سراقة إذا لبست سوار كسرى ومنطقته وتاجه ؟ ثم يسكت ، ويسكت سراقة متعجبا مشدوها .

ويمضى الركب لطيبة ، ويسير محمد وصاحبه ورفيقهما متجهين صوب المدينة ، ويعود سراقة إلى مكة مختفيا عن الأنظار . مبهوراً بما رأى وما سمع .

— ٤ —

وينتصر الإسلام فى المدينة ، ثم فى بدر ، ثم فى فتح مكة ، ثم يعم نوره جزيرة العرب من أقصاها إلى أقصاها ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجا .

وتمر الأيام ويموت رسول الله ، ويلى أمور المسلمين بعده أبو بكر ، ثم عمر ، وتمتد الفتوحات ، ويمضى جيش المسلمين فى فتح امبراطورية كسرى وفارس وتهزم الفرس فى معركة القادسية عام ١٤ هـ ، ثم ينحدر جيش المسلمين إلى المدائن عاصمة كسرى ، فيأخذها ويصلى فيها سعد بن أبى وقاص صلاة الفتح ثمانى ركعات ، ويغنم المسلمون غنائم لا تحصى ، شاهدوا فرسا محملا بذخائر كسرى ، حليته ، ووشاحه ودرعه المحلاة بالجواهر ، فأخذوه ، ثم شاهدوا فرسين آخرين يحملان حقائب كسرى ، وفيها تاج كسرى وثيابه المصنوعة من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر ، فأخذوهما ، واستولى المسلمون كذلك على درع كسرى ، ومعها درع هرقل ، ودرع خاقان ملك الترك ، ودرع ملك الهند ، ومما استولوا عليه تمثال على صورة فرس وكله من ذهب ، وسرجه من فضة ، وصدره محلى بالياقوت والزمرد ، وعليه فارس كله من فضة ، وتمثال آخر لناقة من فضة محلاة بالذهب ، وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر ، وكذلك بساط كسرى وسواه من عجائب الآثار والنفائس والذخائر .

وكان طول بساط كسرى ستين ذراعا وعرضه مثلها ، وفيه طرق وأنهار ، وأشجار وأزهار ورياض .

وقسم قائد الجيش سعد بن أبى وقاص الغنائم بين المسلمين ، وحمل تاج كسرى وجواهره وبساطه إلى عمر ، ولما شاهدها عمر قال : إن قوما أدوا هذا لذوو أمانة ، فرد عليه الإمام على كرم الله وجهه يقول : لقد عففت يا عمر فعفت الرعية ....

— ٥ —

ولم يلبث عمر أن سجد لله شكرا ، ودعا فى الناس : أن هلموا هلموا يا أبناء المدينة ، ويا شباب الإسلام :

ولم يلبث المسجد النبوى الشريف أن امتلأ بالناس ، وامتلأت الطرق والشوارع ، ودعا عمر سراقة بن مالك الكنانى فدخل عليه ، فاستدناه منه ، على مرأى ومسمع من الجماهير المحتشدة ، وألبسه سوار كسرى ومنطقته وتاجه ، وضع التاج فوق رأسه ، والوشاح على صدره وفى وسطه والسوار فى يديه ، وقال له عمر : ارفع يديك وقل : الله أكبر الحمد لله الذى سلب السوارين كسرى بن هرمز الذى كان يقول : أنا رب الناس ، وألبسهما سراقة رجلا أعرابيا من كنانة ، ورفع عمر صوته فى الناس : الله أكبر الله أكبر ، وأركب سراقة فرسا ، وسار سراقة أمام الناس على رأس هذا الموكب الخالد ، وسار وراءه الخليفة والصحابة والمهاجرون والأنصار يطوفون بسراقة فى المدينة . فتقابل الجماهير فى شوارع المدينة وأزقتها وحاراتها ، وهى تهتف الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله وحـــده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

وهكذا احتفل الخليفة والشعب فى المدينة بهزيمة كسرى ، واحتفلوا بتحقيق نبوءة نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام ، إظهارا لمعجزة الرسول الأعظم ، الذى بشر سراقة بأنه سيلبس سوار كسرى ومنطقته وتاجه ، بشره بذلك وهو مهاجر من مكة إلى المدينة . فار بدينه من وطنه ومن المشركين فى وطنه ، بشره بذلك والمشركون يكادون يفتكون به ، والرسالة معرضة للخطر ، بشره بذلك وهو لا يملك من أسباب الدفاع عن نفسه ورسالته شيئا ، ولا يحلم أحد بأنه سيصبح للاسلام دولة ، وجيش . يفتحان العالم كله ، فى أقل من نصف قرن من الزمان .

— ٦ —

إنها حقا معجزة من معجزات نبى الإسلام ، وسر من أسرار الرسالة حققته الأيام ، وما أكثر معجزات محمد رسول الله وآياته الباهرة ، وصدق الله عزوجل فى كتابه الكريم وقوله الحكيم : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

كان موكب سراقة فى المدينة موكبا خالدا شهدته الدنيا وهى تبتسم ابتسامة المجد والفرح ، لسقوط معقل حصين من معاقل الشرك والهمجية والوحشية ، وحكم الاستبداد والطغيان .

واستمرت انتصارات الإسلام فى فارس فى معركة جلولاء وحلوان والأهواز وخراسان ؟ إلى أن قتل كسرى الفرس يزدجرد فى العام الحادى والثلاثين من الهجرة بعد ما عاش طريدا شريدا ، وبعد مافقد الملك وفقد العرش والنفوذ والسلطان ؛ وبذلك انتهت أحلام الفرس فى استعادة امبراطوريتهم ، وانتهت الامبراطورية الفارسية التى كانت تفزع العالم وتدك الدول ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

تفسير القرآن الحكيم

يوضح الخفاجى فى هذا التفسير أن كتاب الله عز وجل فتح للانسانية فى كل عصورها ما يلائمها ويصلحها ويصلح لها ، فهو طب المجتمع الإنسانى فى كل عصر وفى كل جيل ، والعقل المفكر الذى يضطلع بحل كل مشكلة للفرد والجماعة فى الاجتماع ، وسياسة المجتمع فى سلمه وخلافاته وأفكاره واقتصاده ، ومرجع المبادىء العامة والخاصة ، وإن إعجازه لم يقتصر على أسلوبه الفصيح . فانه فوق هذا الإعجاز المادى فالمعنوى منه شامل لنواحى الإنسانية فى علومها ونظمها فهو مرجع لكل عالم وأديب ومفكر ورياضى وطبيب ومؤرخ - مجلة طريق الحق - محرم ١٣٧٨ - الشيخ الحافظ التيجانى

رسالة الأزهر فى النصف الثانى من القرن العشرين

— ١ —

هذا المعهد العريق ، والبيت العتيق ، والمنارة الشماء ، لم يعد لمصر وحدها ، ولا للعرب فحسب ، وإنما صار مجداً للعالم الإسلامى كافة ، وأصبح بعد ذلك كله خير مظهر للإسلام ، شريعة الله المنزلة على رسوله محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، والتى كان كتابها المطهر هو القرآن الكريم . .

ومصر فى انتفاضتها الحاضرة ، ووثبتها الراهنة ، ونهضتها الباهرة ، وفى زعامتها العالم العربى ، وفى قيادتها الروحية للعالم الإسلامى وفى حملها لواء القومية العربية المجيدة ، مصر هذه مدينة للأزهر بديون كثيرة فى ماضيها وحاضرها ، وهى مع ذلك كله - فى ظلال ثورتها الكبرى - محتاجة إليه أشد الاحتياج ، لتوطيد منزلتها فى العالمين العربى والإسلامى ، وليسهم معها فى نشر الثقافة ورسالة الإسلام فى ربوع إفريقيا وآسيا ، وليكون الدعامة الأولى للقومية العربية ، ولقيادة مصر الثقافية والروحية لشعوب العروبة والإسلام .

وعندما نفكر فى رسالة الأزهر فى النصف الثانى من القرن العشرين ، لا بد أن نفكر أولا فى طلاب الأزهر وخريجيه ومدرسيه ، لا بد أن نكفل لهم الطمأنينة والاستقرار فى حياتهم ، وأن نفتح أمامهم الأبواب المستقبل ، وأن نستعين بهم فى كل الميادين الثقافية والروحية والإدارية ، حتى يستطيعوا فى ظل هذه الرعاية أن ينصرفوا بكل جهودهم إلى أداء رسالة الأزهر العلمية والروحية فى كل مكان ولا بد مع ذلك كله أن نفكر فى احتياجات الأزهر المالية ، التى تعينه على أداء مهمته على الوجه الأكمل ، والتى تساعد على رفع المستوى العلمى فى معاهده وكلياته ، وتعين على خلق نهضة فكرية وروحية فى أروقته التى عاشت على مرور الأجيال تكافح فى سبيل نشر ثقافة الإسلام وعلومه وآدابه وحضارته فى كل مكان

وعندما نتحدث عن رسالة الأزهر لا نستطيع أن نقول إنما يجب أن نتجه إلى العناية بالدراسات الإسلامية فحسب ، ولا إلى الدعوة إلى الإسلام فحسب ، ولكن يجب أن تبنى هذه الرسالة على أصول هاتين الغايتين الكبيرتين معا ، على أن نلاحظ

هذه الحقائق التى قام عليها الأزهر طول عصور التاريخ التى شاهـــدها :

١ - الأزهر رمز للفكر الإسلامى ، لأنه أقدم الجامعات الإسلامية فى بلاد المسلمين ، ولأن ماضيه أهله لحمل رسالة الفكر الإسلامى . .

٢ - الأزهر جامعة أمم عربية وإسلامية ، ففيه يجلس الطلاب من كل بلاد المسلمين بل من كل شعوب العالم تقريبا ، جنبا إلى جنب ، يتعلمون العلوم الإسلامية والعربية والفلسفية .

٣ - الأزهر ليس ملكا لمصر وحدها ، وإنما هو ملك للعالم الإسلامى عامة ، ومن ثم يجب أن تسهم الدول الإسلامية فى نفقاته ليقوم الأزهر بنشر رسالة الإسلام فى كل جهـــة .

٤ - الأزهر ليس فى عزلة ثقافية أو فكرية عن المجتمع فى مصر ولا فى البلاد العربية ، إنه قطعة حية من صميم المجتمع الإسلامى ، وهو مركز ثقافى ضخم ، يسهم فى النهوض بالثقافة فى مصر خاصة وفى العالم الإسلامى عامة عن طريق بعثاته العلمية التى يوفدها الأزهر إلى الأمم العربية والإسلامية فى إفريقيا وآسيا وغيرهما ولا يمكن أن يكون فى عزلة وأبناؤه من طلاب وأساتذة هم من مختلف طبقات الوطن على أن التاريخ قد وعى اشتراك الأزهر فى كل الثورات القومية والوطنية فى مصر خلال تاريخها الطويل ، وعلى أن ثورات التحرر فى العالمين العربى والاسلامى إنما كان قادتها - فى أغلب الأحيان - من أبناء الازهر وخريجيه

٥ - تاريخ الأزهر مرتبط بتاريخ الإسلام ، فلا يمكن أن يقول قائل . إن الأزهر لم تعد له ضرورة : فما دام دين الله باقيا على الأرض ، فان الأزهر باق باذن الله لدراسة علوم الإسلام ، ولنشر هدايته فى الأرض جميعا .

ورسالة الأزهر لا بد أن تقوم أولا على خلق وعى فكرى إسلامى داخل بيئة الأزهر العلمية ، وهذا الوعى جدير بتكوين شخصية فكرية مستقلة للأزهر أولا ولكل من يتخرج منه ثانيا . ولكى نعاون على خلق هذا الوعى يجب أن نفكر

أولا : فى مناهج الأزهر التى يسير عليها ، ففى رأيى أنها لم تعد صالحة كل الصلاحية للسير بالثقافة الإسلامية فيه إلى ما يتمناه لها وله المخلصون .

ثانيا : فى الدراسات العليا فى الازهر الجامعى : هذه الدراسات التى لم يعد لها

وجود فى الأزهر ، والتى ترجع بالأزهر من صبغته الجامعية الواسعة النطاق إلى صبغة مدرسية محدودة .

ثالثا : فى قوانين الأزهر كلها ، المنظمة له ، والموجهة للثقافة فيه ولا بد من الاستعانة فى هذه السبيل بنظم الجامعات ولوائحها فى مصر وفى كل مكان ، على ألا يفقد ذلك الأزهر طابعه الإسلامى ، وشخصيته التى عرف بها منذ أجيال بعيدة .

— ٢ —

ورسالة الأزهر يجب أن تتناول كل شىء يتصل بفهم الإسلام ونشر هدايته فى الآفاق ، ومن ثم يجب أن يكون من أهم ما تتناوله :

١ ـ خلق جيل جديد مثقف ثقافة واسعة من أبناء الأزهر ، ليستطيع حمل رسالته إلى كل مكان .

٢ ـ عرض الثقافة الإسلامية القديمة فى أسلوب جديد ، يلائم أسلوب العصر فى الفهم والبحث والدراسة ، وكتابة ونشر بحوث جديدة عميقة عن الإسلام وعلومه وثقافاته .

٣ ـ فتح مراكز ثقافية إسلامية فى كل عاصمة من عواصم العالم فى الشرق والغرب ، تكون مراكز للدعاية للإسلام عن طريق المحاضرة ، وعن طريق معاونة المشرفين المترددين عليها من أبناء الإسلام وغيرهم فى البحث والدراسة ، وعن طريق طبع رسائل التعريف بالإسلام تقوم هذه المراكز بتوزيعها على الجامعات وعلى المفكرين والعلماء والمهتمين بالبحوث الإسلامية ، وسوى ذلك من الطرق . . وتكون هذه المراكز بمثابة مأوى للمبعوثين من الأزهر إلى مختلف هذه الجهات ، على أن تزود بجميع المصادر والكتب الإسلامية ، وبشتى الأجهزة اللازمة لها . .

٤ ـ العمل بكل وسيلة على وحدة المسلمين الفكرية والروحية والدينية ليكون ذلك معينا على إمكان قيام وحدة سياسية بينهم فى المستقبل .

٥ ـ الاتصال بشتى المفكرين فى مصر والعالم ليكونوا بمثابة أصدقاء وأنصار للأزهر ولرسالته ، بشتى طرق هذا الاتصال .

٦ ـ الإشراف على التعليم الدينى وعلى الهيئات الدينية جميعها فى مصر ، والعمل على توجيه الجماعات الإسلامية فى مصر وفى كل مكان توجيها صالحا .

٧ ـ إرسال بعثات أزهرية إلى كل مكان فى العالم بقصد دراسة أحوال المسلمين وتفهم كل ما يحيط بهم من مشكلات ، للعمل على معاونتهم فى حلها ، وخاصة فى الجانب الروحى .

٨ ـ الإشراف على ترجمة القرآن الكريم إلى الانجليزية والفرنسية والألمانية والروسية ، وعلى ترجمة طائفة مختارة من الحديث النبوى كذلك إلى هذه اللغات .

٩ ـ إقامة مواسم ثقافية على نطاق عال فى قاعة محاضرات الأزهر ، يتحدث فيها كبار علماء الأزهر وكبار المهتمين بالدراسات الإسلامية من غير الأزهريين

١٠ ـ التفكير حاليا فى الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر ، ليمكن عن هذا السبيل ربط الأزهر من جديد بشتى جامعات العالم ، على أن يمهد لذلك بطبع مائة مؤلف من خير ما ألف الأزهريون فى القديم والحديث لتوزيعها على الجامعات المختلفة ومثيلها ، وبطبع رسالة عن تاريخ الأزهر تترجم إلى شتى اللغات .

البقية بصفحة ٦٤ من هذا الكتاب

الفصل الثاني

أمل طالما انتظرناه

كانت وحدة مصر وسورية أمنية الأجيال . وأمل العروبة فى كل مكان ، وكانت النشيد الحلو الجميل العذب فى كل فم وعلى كل لسان ، والأغنية الحبيبة التى رددها فم الزمان ، واللحن الذى طالما اشتاقت إلى سماعه آذان المجد . . كانت حلم شعبين ، وغاية أمتين ، انطلقتا معا إلى الكفاح المشترك من أجل مستقبل العرب ومجد الإسلام .

وجاء جمال ، فجعل من الأمل حقيقة ، وأحال الفكرة إلى عمل ، وقامت جمهورية عربية متحدة ، جمهورية ليست ـ كما يقول جمال ـ دخيلة فى هذا الشرق ولا غاصبة ، ليست عادية عليه ولا مستعدية ، جمهورية تحمى ولا تهدد ، تصون ولا تبدد ، تقوى ولا تضعف ، توحد ولا تفرق ، تسالم ولا تفرط ، تشد أزر الصديق وترد كيد العدو ، لا تنحرف ولا تتعصب ولا تنحاز ، تؤكد العدل ، وتدعم السلام ، وتوفر الرخاء لها ولمن حولها ، وللبشرية جميعا بقدر ما تتحمل وتطيق .

على أنه لم تكن الوحدة جديدة على مصر وسورية ، فقد قامت بينهما وحدة سياسية فى العصر الطولونى ، ثم الأخشيدى ، فالفاطمى والأيوبى ، وفى عصر المماليك ولم تتبدد هذه الوحدة إلا على أيدى الاستعمار التركى الذى قضى على مقومات الشعوب العربية وعلى حرياتها جميعا . وفى القرن التاسع عشر استعادت مصر وسورية الوحدة السياسية بينها ، ولكن الاستعمار بدد هذه الوحدة وعمل على تحطيمها مستعينا فى ذلك بأسرة محمد على التى كانت خاضعة للنفوذ الاستعمارى فى الشرق الأوسط خضوعا تاما . . على أن الوحدة الثقافية والفكرية والدينية بين الشعبين استمرت تقاوم المحن ، وتغالب الحوادث والعواطف ، حتى استحالت إلى الوحدة الكبرى بين الشعبين على يدى . . القوتلى وجمال .

إن من الواجب على كل عربى أن يقف ديدبانا يحرس هذه الوحدة المقدسة ويضحى فى سبيلها بروحه ودمه ، وأن يقاوم دسائس الاستعمار ومكائده التى ترمى إلى تفريق الصفوف ، وتشتيت الشمل ، وتفتيت القوى ، ولن تفلح أبدا

سياسة الاستعمار هذه مادامت قوة العرب متحدة متآلفة .

إن الوحـــدة بين مصر وسوريا ، بل بين الشعوب العربية قاطبة ضرورة تمليها الظروف السياسية العالمية ، ويمليها كذلك وجود إسرائيل فى قلب العالم العربى ، وإذا كانت أمريكا قد استحالت بفضل اتحاد ولاياتها إلى دولة عظمى ، وروسيا كذلك صارت بفضل اتحـاد جمهورياتها دولة كبرى ، وإذا كان مفكرو أوربا يدعون إلى ولايات أوربية ، فان واجب العرب جميعا أن يؤيدوا قيام دولة عربية كبرى تمتد من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلسى ، لأن ذلك مما يدعو إليه الإسلام ، ومما تدعو إليه مقاومة الغزو الصهيونى لبلادنا ، ومما يدعو إليه كذلك التفكير فى مستقبل الشعوب العربية ، والرغبة فى تسلم العرب زمام الحضارة والنفوذ الدولى من جديد .

والدولة العربية الكبرى التى تعد الجمهورية العربية المتحدة نواة لها يجب أن تنبثق كما قال جمال من إرادة الشعوب العربية ومشيئتها القوية ، ويجب أن تتم باجماع هذه الشعوب كافة إجماعا فعليا لاتشوبه فرقة ، ولا اختلاف فى الرأى .

واليوم فى عيد وحدتنا الكبرى ، وحدة مصر وسورية ، يغنى النيل وبردى أهازيج النصر والمجد والحرية ، وترتل الشعوب العربية فى كل قطر تراتيل الفرح والبشر ، ويسجد العرب فى كل مكان شكرا لله : على ماجمع من شمل ، ونظم من وصل ، وعلى ما أنعم به على العرب من الوحدة . وهم يذكرون قول الله عز وجل فى كتابه الحكيم : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

واليوم فى أعياد وحدتنا الكبرى ، يعلن الشعب العربى فى مصر وسورية ، فى القاهرة ودمشق ، تصميمه القوى على أن يحتفظ بوحدته ، ويعمل فى سبيل مجد الشعب العربى ونهضته ، وعلى أن يعيش متحداً قوياً عظيما سائرا إلى أهدافه العظيمة فى ظلال إيمان عميق بالاتحاد العربى الشامل .

ومن القاهرة ودمشق اليوم يتلقى خصوم الوحدة العربية وأعداؤها أبلغ رد ، وأروع إنذار ، لكى يعرفوا أن العرب مصممون على أداء رسالتهم ، وتقوية وحدتهم ، وتعزيز نهضتهم ، وأنهم عازمون على بلوغ آمالهم فى العزة والمجد والكرامة والحرية والرخاء الاقتصادى ، وفى تصنيع بلادهم ، وفى إرساء قواعد السلام والحياد الإيجابى فى منطقة الشرق الأوسط ، وفى محاربة النفوذ الصهيونى ، والاستعمارى فى كل مكان من بلادهم الحبيبة العريقة فى المجد والتاريخ .

الوحدة السياسية والثقافية بين مصر وسوريا

— ١ —

ليست الجمهورية العربية المتحدة هى أول اتحاد سياسى بين شعب مصر وسوريا لقد سبق ذلك وحدة سياسية بين الأمتين فى عصور كثيرة ، فى العصر الطولونى والإخشيدى والفاطمى والأيوبى ، وعصر المماليك ، كانت مصر وسوريا دولة واحدة متحدة فى أهدافها وسياستها ونظمها ، كانت مصر وسوريا تكونان دولة واحدة ، عاصمتها القاهره ، ويقضى الملوك بعض السنة فى مصر ، والبعض الآخر فى دمشق ، وتبع هذا الاتحاد السياسى اتحاد ثقافى واقتصادى ، فالعلماء ينتقلون بين مصر والشام ، وكذلك رجال السياسة والاقتصاد ، واشتركت مصر والشام فى الدفاع عن الوطن الإسلامى ضد الصليبيين والتتار ، وانتصرت الأمتان فى حطين وفى عين جالوت انتصارات باهرة ، وكان سلاطين مصر وملوكها يعينون نائبا لهم فى مصر ، ونائبا لهم فى الشام ، ونائبا فى حماة .

ومن أهم الكتب الجامعة التى تتحدث عن الصلات الثقافية بين الإقليمين : صبح الأعشى للقلقشندى ، ونهـــاية الأرب للنويرى ، والسلوك للمقريزى ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى والبداية والنهاية لابن كثير .

ومن علماء مصر وسوريا فى عهد المماليك ابن تيمية الحرانى ، وابن دقيق العيد قاضى قضاة مصر المتوفى عام ٧٢٢ ، وابن جماعة قاضى قضاة الشام ، وهو الذى عين خلفا لابن دقيق على قضاء مصر ، ونور الدين السخاوى المصرى وقد عين مدرسا بالجامع الأموى بدمشق ، وأحمد بن سلامة الاسكندرى المصرى ، الذى تولى القضاء فى دمشق ، وابن الوكيل الذى تولى التدريس فى مشهد الحسين آنا وفى دار الحديث الأشرفية بالشام آنا آخر .

ومن الطريف أن ابن تيمية بعد أن كثر خصومه فى الشام هاجر إلى مصر ونزل بغزة ثم تابع سيره إلى القاهرة ، وعقد له مجلس بالقلعة للمناظرة ، وقد ثارت بينه وبين ابن مخلوف المصرى المالكى مناقشات حادة فى المجلس ، وكان لابن تيمية أخوان من العلماء هما زين وشرف الدين ، وقد حرم نائب السلطنة المصرية فى الشام الخوض فى الجدل فى العقائد بعد احتدام الخصومات بين الناس

بسبب الجدل فى الدين بين أنصار بن تيمية وخصومه ، وممن اتهم بالزندقة ابن زهرة المغربى الذى حبس فى دمشق فى الفتن بين الشافعية والحنابلة عام ٧١٢ هـ .

ومن الخطباء الشيخ ضياء الدين بن عقيل ، ووالده جمال الدين أخطب خطباء بعلبك حيث تقلد وظيفة الخطابة فيها ستين عاما ، والشيخ زين الدين الفارق والشيخ شرف الدين الفزارى خطباء الجامع الأموى بدمشق ، والشيخ بهاء الدين السكرى ، وشمس الدين الجزرى خطيب مسجد ابن طولون ، ونور الدين القسطلانى خطيب مسجد عمرو بن العاص .

ومن الخطباء المشهورين فى القرن الثامن : سليمان بن هلال بن شبل ، والقاضى جلال الدين القزوينى اللذان توليا الخطابة والقضاء فى الشام ، وكان الخطيب القزوينى صاحب كتابى « الإيضاح » ، « وتلخيص المفتاح » من أشهر العلماء والخطباء والقضاة فى الشام وتوفى عام ٧٣٩ هـ .

ومن الأساتذة القاضى على بن صفى الدين الحنفى الذى تولى قضاء الحنفية فى دمشق مع ما بيده من وظائف التدريس ، وكان سليمان بن حمزة يتولى قضاء الحنابلة بدمشق ، وكان كريم الدين بن الحسين الأيكى شيخ الشيوخ بمصر .

ومن السيدات المشهورات بالعلم السيده فاطمة بنت عباس البغدادية تلميذة ابن تيمية ، والشيخة الصالحة ست الوزراء بنت عمر بن أسعد وكانت من رواة صحيح البخارى .

— ٢ —

وقد كان أثر مصر الثقافى فى عصر النهضة الحديثة فى سوريا كثيرا وكبيرا ، وفى ذلك يقول محمد كرد على (١) : « انتفع الشام وهو القطر الشقيق لمصر المحبوبة بالنهضة المصرية أكثر من عامة الأقطار العربية ، للجوار وأواصر القربى ، وكثرة التشابه بينهما ولأن أقدارهما فى عهد الدول الإسلامية كانت واحدة وحياتهما الاجتماعية متجانسة ، هكذا كانت مصر والشام فى دولة الراشدين والدولة الأموية فالعباسية فالطولونية فالفاطمية فالأيوبية فدولة الأتراك المماليك فدولة الجراكسة ، فدولة الترك العثمانية . وكانت مصر مبعث حضارة فى معظم أزمانها كما كانت فى العقود الأخيرة من حياتها ملجأ ومعتصما للأحرار ، ومباءة ممتازة للعالم الإسلامى ، تأخذ عنها الأقطار والأمصار » .

(١) ص ٣٤٥ القديم والحديث ج ١ القاهرة ١٩٢٥ .

إن الصلات الثقافية بين مصر وسوريا قديمة وحديثة معا ، وهى ممتدة من أجيال وأجيال ، وهذه الصلات هى التى مهدت لقيام الجمهورية العربية المتحدة ، ودعم صلات الثقافة وزكاها فى العمل على قيام الجمهورية العربية ماضى مصر وسوريا فى الوحدة السياسية . وستنهض الجمهورية العربية المتحدة الفتية برسالتها فى خدمة العروبة والإسلام ، وفى التمهيد لقيام الجمهورية العربية الكبرى بتوفيق الله .

مواكب الحرية . بقية

بسياسة الخداع والتضليل ، ثم صفوا بقاياها فى عهد اسماعيل ، ثم ورثوها فى عهد توفيق بعد الاحتلال ، ولكنهم وشرفك وكفاح ابنائك ، ونضال شعبك الحر الأبى لن يتمكنوا من هزيمة مصر اليوم وبعد اليوم ، باذن الله ، وبفضل شعبها الحر الأبى الذى كتب أروع أعمال البطولة فى دفاعه المجيد عن بورسعيد ، مما شهد به العالم وسجله التاريخ .

وفى أسلوب أخاذ تناول المؤلف كيف حررت مصر فلسطين عندما استولى عليها الصليبيون وحكموها حكما غاشما وبفضل مصر وجيش مصر عادت عربية ، ولقد كان نجاح مصر فى المحافظة على الأراضى المقدسة سببا فى فشل أوربا فى إعداد حملة صليبية جديدة ، وكان سبب هذا النجاح وقوف مصر فى وجه التتار على حدود الشام ، مما لم يتمكن معه المغول والتتار من صنع شىء لمعاونة أوربا فى إعادة الأراضى المقدسة اليها .

ويقول المؤلف : إننا لن ننسى يوم الجمعة ١٥ جمادى الآخرة عام ٦٩٠هـ يونية عام ١٢٩١ م . . هذا اليوم الخالد الذى حررت فيه مصر أرض فلسطين لأهلها من العرب .

يعود المؤلف ليخاطب أبناء فلسطين فيقول : لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس ، لقد صبر أجدادكم مائتى عام ، حتى حرر أرضكم جيش مصر من الاستعمار الصليبى ، فاصبروا وصابروا فسوف تحرر مصر وجيش مصر والشعوب العربية المتحررة بلادكم من الاستعمار الصهيونى ، لن يمتد هذا الاستعمار باذن الله .

ولولا ضيق المكان ماتركت المكتبة هذه الحوادث التاريخية الممتعة دون الإشارة اليها فى هذا العرض . .

والحق فان فى الكتاب حوادث ومواقف خالدة تؤكد للعالم بان مصر وجيش مصر كان لهما النصيب الأوفى فى تحرير معظم البلاد العربية فى تلك الحقب من الزمن . . . الشعب ٢٣ مارس ١٩٥٨ — محمود يوسف

مستقبل الأدب فى بلادنا

سورية ومصر : كانتا دائما معا ، طوال عصور التاريخ ، تحملان راية الحضارة وتدافعان عن المدنية ، وتقاومان أعداء الحرية والسلام والتقدم ، وتتألق فى أجوائهما أضواء الثقافة الإسلامية العربية .

وفى رحاب المسجد الأموى وحلقات الأزهر والفسطاط وجامع عمرو بن العاص ، كانت تزدهر العلوم ، وتتنافس المواهب ، ويتزاحم العلماء والطلاب ، وتلق المحاضرات والمناظرات والبحوث فى كل علم وفن .

ومن مدارس دمشق والقاهرة وجامعاتهما تخرج العلماء والمفكرون ، خلال القرون والأجيال ، ينشرون المعرفة فى أنحاء العـــالم العربى والإسلامى ؛

وفى حلب والمعرة وحمص وحماة والقاهرة المعزية والفسطاط والجيزة والاسكندرية وقوص كانت تزدهر اللغة ، وتعقد مجالس الادب ، وينبغ الشعراء والأدباء والكتاب ، وتطير شهرة العلماء والمؤلفين ، وتكتب الكتب الجامعة والموسوعات العلمية والأدبية الضخمة .

هكذا عاشت مصر وسورية فى عصر الأيوبيين والماليك , كما كانتا تعيشان فى عصر الطولونية والإخشيدية والفاطمية ، وكما عاشتا بعد ذلك معا ، إحداهما بجانب الأخرى ، خلال العصر الحديث ، حتى بزغ فجر الوحدة العربية المشرق ، وقامت جمهوريتنا العربية المتحدة ، بكفاح الشعبين العريقين ، وبفضل انتصار فكرة القومية العربية .

وسوف تنبثق عن قيام الجمهورية العربية المتحدة : الوحدة الثقافية والفكرية والأدبية بين شطرى الجمهورية وإقليميها . الشمالى والجنوبى .

سوف تعمل الجامعات ، وخاصة كليات الآداب من بين شتى كلياتها فى مختلف عواصم الجمهورية الفتية ومدنها ، على إنهاض الأدب ، وازدهار الشعر والقصة والمسرحية ، وعلى تشجيع حركة التأليف والبحث وتأصلها .

وسوف يقوم اتحاد عام للأدباء فى إقليمى الجمهورية ، يوحد الجهود ، ويضع

الخطط ، ويرسم الأهداف ، من أجل تقدم الأدب وازدهاره .

وسوف تقوم شركات الطباعة والنشر فى شطرى الجمهورية بعملها فى نشر الثقافة وإتاحتها للجماهير .

والصحف أتنبأ بانتقال بعضها من مصر إلى سورية ، لتعمل فى خدمة النهضة الثقافية والأدبية فى الإقليم الشمالى لجمهوريتنا العربية المتحدة .

وجامعة الأزهر سوف تمد فروعها فى سورية ، فتقوم المعاهد وبعض الكليات الأزهرية هناك ، لتنشر الوعى ، وترفع راية الكفاح من أجل الثقافة الإسلامية والأدبية .

أتنبأ بمستقبل كبير للأدب فى الجمهورية المتحدة . وإن كان هذا المستقبل يجب أن نعمل له ونكافح فى سبيله .

يجب أن تكون رعاية الدولة للأدب منذ الآن أقوى مما كانت عليه فى الماضى والحاضر .

ويجب أن يقوم الأدباء فى الإقليمين برحلات مستمرة ، هنا وهناك ، لتجميع القوى ، وتأصيل الوحدة ، ونشر الوعى .

ويجب تبادل الأساتذة فى كليات الآداب هنا وهناك . بل فى غير كليات الآداب أيضا من الكليات التى تنشر الثقافة وتعين على البحث العلمى .

ويجب كذلك عقد مواسم ثقافية وأدبية عامة مشتركة فى شتى مواسم السنة .

والمجمع اللغوى بالقاهرة ، والمجمع العلمى بدمشق ، يجب أن يقوما على رسم الأهداف ، ورعاية الحركة الأدبية فى الإقليمين . إنى ادعو لقيام كلية الآداب والفلسفة فى حلب ، وإنشاء كلية للغة العربية فى دمشق .

وكذلك يجب أن يأخذ الكتاب السورى مجاله الحيوى فى مصر ، والكتاب المصرى طريقه فى سورية ، لزيادة التبادل الثقافى والأدبى بين شطرى الجمهورية العربية المتحدة

وأحب أن يفهم الأدباء ، هنا وهناك ، خطر رسالتهم ، وأن يتكاتفوا فى سبيل قيام عهد جديد مشرق للثقافة والفكر والأدب فى جمهوريتنا العزيزة الفتية .

وأقول إننا يجب أن نحارب دعوة العامية فى إقليمى الجمهورية حربا لاهوادة فيها لأن هذه العامية تمزق الوحدة التى كسبناها بعرقنا ، وجاهدنا فى سبيلها بأرواحنا

ونحن هنا فى مصر يجب أن نفكر فى تزويد مكتبات الإقليم الشمالى بطائفة قوية من المؤلفات المصرية التى خرجت بعد الثورة ، لتنشر هذه المؤلفات الروح الثورية الجديدة فى أذهان الجيل الجديد الذى سوف يحمل رسالة الدفاع عن جمهوريته وحمايتها .

والأمل قوى فى بلوغ الغاية . وفى تحقيق الهدف ، وفى جنى ثمرات النصر باذن الله :

أديب من سوريا

— ١ —

قابلته فى مؤتمر الأدباء العرب بالقاهرة . بشوش الوجه ، منتصب القامة ، قد لوحت الأيام وأعباء الكفاح وجهه ، فأكسبته سمرة كسمرة بلادنا المحبوبة ، وسلمت عليه ، وكنت فى شوق لأن ألقاه ، لأن ألتى هذا الرجل الكبير ، الذى سمعت عنه منذ أمد طويل ، ثم بدأنى بالكتابة ، وظلت توافينى رسائله حينا بعد حين .

ثم دعوناه إلى حفل التعارف الأدبى الذى أقامته رابطة الأدب الحديث لوفود الأدباء العرب ، ولكنه كان على سفر ، فلم يتح لنا أن يقضى معنا وقتا طويلا نقف منه على جملة أخباره ، وإن كنت قد لقيته لقاء عابراً فى مكتب الدكتور طه حسين ، وسافر هـذا الأخ الصديق ، سافر إلى الإقليم الشمالى من جمهوريتنا المحبوبة ، إلى حلب الشهباء ، وكانت الجمهورية العربية المتحدة لا تزال آنذاك حلما من الأحلام ، وأملا من الآمال ، ومضى شهر وتبعه شهر ، وحضر أبو العروبة وبطلها شكرى القوتلى إلى القاهرة فى مطلع فبراير عام ١٩٥٨ ، وأمضيت وثيقة الوحدة ، وتبع ذلك الاستفتاء العام فى العشرين من فبراير ، وأصبحت الجمهورية العربية المتحدة حقيقة واقعة ، وأصبح هذا الأديب العربى الكبير مواطنا لنا ، وأصبحنا مواطنين له ، وقويت اللحمة فصارت تجمعنا به لحمة الوطن بعد أن كانت تجمعنا به لحمة الدين والعروبة فحسب .

كان مصرى النزعة والهوى ، طيلة الستين عاما التى عاشها ، وقد يكون أول أديب سورى دعا إلى هذه الوحدة التى نقطف ثمارها اليوم ، ولست أعرف مثل « سامى الكيالى » أديبا كافح فى سبيل العروبة ومصر كفاحا لا ينسى .

كان فى كثير من أطوار حياته وثيق الصلة بمصر والمصريين ، وفى عام ١٩٢٣ تعاقدت معه جريدة السياسة المصرية ليكون مراسلها الخاص فى سوريا ، وقبل التعاقد نزولا عند رغبة صديقه الدكتور هيكل ، وظل يوافيها وهو موظف بالأنباء السياسية ، ويكتب الفصول والمقالات الرئيسية بتوقيعه تارة ، ودون توقيع تارة أخرى ، ومكث خمس سنين تنشر له السياسة اليومية والأسبوعية

أصوله الرائعة فى السياسة والأدب والثقافة والقومية العربية ، وكانت مقالاته عن الثورة السورية عام ١٩٢٥ تحتل الصفحات الأولى دائما ، ولم ينس مصر ، ولم ينس أدباءها وكتابها ومفكريها ، فكتب عنهم الكثير من الفصول والدراسات التى دبجها يراعه ، وكان ينشرها فى صحف ومجلات سوريا ولبنان ، وفى مجلته الصاعدة « مجلة الحديث » .

وفى عام ١٩٣٩ أصدر عددا خاصا من « مجلة الحديث » عن مصر ، وكتب فى صدره يقول :

« الشرق العربى اليوم فى يقظة شاملة ، وهو يتجه اتجاها قوميا حرا ، ويرمى إلى فكرة سياسية جامعة ، وإلى أهداف ثقافية واحدة » . . ثم استمر يقول : « مصر اليوم زعيمة البلاد العربية دون منازع ، وقد أصبحت فى حكم المنتدبة إذا جاز هذا التعبير ـ بثقافتها واتجاهاتها الفكرية والسياسية على هذه البلدان ، ويتطلع الشرق العربى اليوم إلى القاهرة ، يرقب اندفاعها القومى ، ونضالها السياسى ، كما يتابع تطورها الذهنى ، وإنتاجها الثقافى ، ويأخذ من كل ذلك بنصيب كبير » ثم عاد فقال : « إن الرسالة التحريرية التى تعمل لها مصر ، هى مما يدفع الشرق العربى أن يتعقب نهضتها الفكرية ، ووثبتها القومية ، ويجعلها الرائد له فى حاضره ومستقبله المنشود » .

وكتب الكيالى فى العدد نفسه بعنوان خواطر عن مصر يقول : « أحببت مصر قبل أن أزورها ، وقبل أن أتصل بينها البررة ، هذا الاتصال الوثيق ، الذى أدل به ، وأجدنى بنعماه جد فخور ، نعم أحببت مصر وأنا على مقاعد الدرس ، ومازال يشتدبى هذا الحب ، حتى تمكن من قلبى ، وصار شغلى الشاغل ، وقد تسألنى عن العوامل التى ربطتنى بمصر قبل أن أراها ، وقبل أن أتصل بصفوة أدبائها الممتازين ، ورجالاتها الأحرار ، فلا أتردد أن أقول إن نوازع الأدب كانت أظهرها ، وأبرزها أثرا فى كيان نفسى ، فالحق أن دراستى للأدباء المصريين ، وامتزاج ميولى بميولهم ، هو الذى بعث حب مصر فى قلبى » . ثم ذكر زياراته لمصر عام ١٩٢٧ وما تلاه من أعوام ، وانطباعات مصر فى ذهنه فى هذه الزيارات ، وتحدث عن جمال القاهرة ، وعن الصحافة المصرية ، والثقافة وحركة التعليم ، حديثا طويلا .

وظل الكيالى يكتب عن مصر ،وعن ثقافة مصر ، المقالات الكثيرة ، حتى قامت ثورتنا المصرية ، فكتب عن مصر الثورة ، وعن القومية العربية وسياسة الحياد الإيجابى ما كتب :

— ٢ —

والكيالى أحد أدباء سوريا المعدودين ، وهو والدكتور زكى المحاسنى ، والدكتور سامى الدهان ، وأمجد الطرابلسى ، وأنور العطار ، وعلى الطنطاوى ، والأديبة العربية الكبيرة وداد سكاكينى ، طبقة فى الأدب السورى المعاصر ، لها مكانتها ولها خصائصها الأدبية ـ والكيالى يكاد يكون خليفة محمد كرد على فى أصالة إنتاجه ، ووفرة بحوثه ، وجدة دراساته . ، وهو حر الفكر ، ومن زعماء التجديد فى سوريا ، وصلاته برجالات مصر الأحرار عامة ، وبقادة الفكر والرأى فيها خاصة ، مما ساعد على الكفاح المشترك فى مصر وسوريا فى سبيل حياة عربية متطورة .

مثل الكيالى سوريا فى أكثر من مؤتمر ، فكان مثال المفكر الرصين ، والأديب الحر ، الحريص على مجد أمته ، وعلى كيان قوميته العربية المتجددة :

وفى عام ١٩٢٧ أصدر مجلة « الحديث » ذات الطابع الأدبى المتميز ، والنزعة الحرة الرائدة ، وقد حملت رسالة التجديد ، وكانت وما تزال ، تمثل المدرسة الحديثة فى الأدب ، وقد اشترك فى تحريرها الكثيرون من المفكرين والكتاب فى الشرق العربى ، وفى طليعتهم : هيكل ،وطه حسين ، والزهاوى ، والشبيبى والريحانى ، وأبو شادى ، وتيمور ، وشفيق جبرى ، ومحمود عزمى ، وإبراهيم ناجى ، وإسماعيل مظهر ، وعمر أبو ريشة ، وسواهم من أدباء الطليعة ، ، وكان طه حسين يخص الحديث بمقالاته فى الأدب والفكر الحر ، وما تزال المجلة تصدر وهى اليوم فى بداية عامها الثالث والثلاثين :

وقد خاض الكيالى عدة معارك قلمية متعددة مع أنصار الجمود والرجعية ، ولم ينشر فى مجلة يوما ما أى بحث يمس جوهر الدين ، بل بالعكس كان حربا على الجاحدين ، الذين يصورون الدين تصويرا يمس جوهره وقداسته ، وكان من ثمرات هذه المعارك أن عرف الكثيرون أن الكيالى كان وما يزال ، فى طليعة المنافحين عن كرامة العقل ،وقدسية الدين .

وقد سارت مجلته فى طريقها القويم تهدف إلى غاياتها النبيلة ، إلى تحرير العقل من الأوهام والخرافات ، ومن الأساطير والوثنيات ، واستطاعت أن تكون جيلا جديدا يعمل بوعى منطلق حر ، فى سبيل بعث القومية العربية ، لتكون أداة لبعث الجمهورية العربية المتحدة الكبرى .

— ٣ —

وللكيالى إنتاج فكرى وأدبى أصيل ، وقد أصدر خلال حياته الأدبية كتبا دسمة ، فى موضوعات مختلفة ، ومن بين الكتب التى أصدرها : نظرات فى النقد والتاريخ والأدب – سيف الدولة وعصر الحمدانيين – الفكر العربى بين ماضيه وحاضره – شهر فى أوربا – الراحلون ، وهو دراسات عن أدباء معاصرين ، كتبها بمناسبة رحيلهم عن الدنيا – أبو العلاء المعرى ودفاع ابن العديم عن آرائه الحرة – من أضواء الماضى ، وهو مباحث تاريخية صدرت فى سلسلة « اقرأ » أنواء وأضواء وهو مجموعة قصصية – المرأة هذا اللغز الأبدى – مع طه حسين ، وقد صدر عن سلسلة « اقرأ » – بنت يزيد ، وهو قصة معربة عن التركية صدرت فى سلسلة « اقرأ » – الحكيم شهاب الدين السهروردى ، وقد صدر عن سلسلة نوابغ الفكر العربى – من الأدب المعاصر ، وهو مقالات ودراسات فى الأدب المعاصر – محاضرات عن الحركة الأدبية فى حلب من عام ١٨٥٠ إلى عام ١٩٥٠ ، وقد ألقى عـــلى طلبة قسم الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، وطبع فى مصر باشراف المعهد .

هذه هى أربعة عشر كتابا مطبوعا للكيالى ، عدا كتبه التى لا تزال قيد الطبع ومن أوائلها : كتاب الأدب العربى المعاصر فى سوريا ، وقد كتبه بتكليف من الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية – ويوميات عربى فى أمريكا – وذكريات من الأندلس – ومقالات الكيالى .

وأظهر جانب فى كتب الكيالى : البحوث التاريخية ، والتطور الاجتماعى ، والدراسات الأدبية :

ومن أشهر مؤلفات الكيالى :

١ ـ كتابه : « محاضرات عن الحركة الأدبية فى حلب » من عام ١٨٥٠ حتى عام ١٩٥٠ ، فقد أفاض فيه فى دراسة بيئة حلب وتاريخها الأدبى وحياة الأدب فيها خلال مائة عام (١٨٥٠ - ١٩٥٠)،وفى سمات الأدب الجديد ، وفى الأدب المعاصر وروداه الأوائل، وتحدث عن الشرق العربى فى القرن التاسع عشر ، ومهمة الأدباء المفكرين فى يقظته ،وعن بعض الأدباء الثائرين ، وفى مقدمة من تناولهم بالدراسة والتحليل رزق الله حسون (١٨٢٥ - ١٨٨٠ م) ، وجبرائيل الدلال (١٨٣٦ - ١٨٩٢ م) ، والكواكبى (١٨٤٩ - ١٩٠٢) ، وأبى الهدى الصيادى (١٨٤٩ - ١٩٠٩ م) ، وعن آل المراش ، وعن عبد الله مراش ، وعادل الغضبان ، وعن بشير الغزى (١٨٥٧ - ١٩٢١)، كما تحدث فيه عن مؤرخى حلب ومنهم كامل الغزى (١٨٥٢ - ١٩٢٣ م) وميخائيل الصقال ، والطباخ ، والأنطاكى ،والحمصى ، وإبراهيم صالح الكيالى وسواهم. ويفيض فى الحديث عن تاريخ الصحافة الحلبية ، ثم يتكلم عن الصراع بين القديم والجديد، وعن انتشار روح الأدب الحديث فى حلب، وعن بعض الأدباء المعاصرين فيها ، ومن بينهم عمر أبوريشة ، وسليمان العيسى ، وسواهما ، ويقع الكتاب فى ٢٥٦ صفحة من القطع الكبير ، وهو مطبوع بمطبعة نهضة مصر بالقاهرة .

٢ ـ وكتاب الكيالى عن « السهروردى » مطبوع فى سلسلة « نوابغ الفكر العربى » التى تصدر عن دار المعارف بالقاهرة ، ويتحدث فيه عن عصره وحياته ونزعته الصوفية وفلسفته وشعره وآثاره ، ومنتخبات من تصوفه وزهده وفلسفته وشعره .. ويقع الكتاب فى ١٠٤ صفحة .

٣ ـ وكتابه عن الأدب المعاصر طبع عام ١٩٥٧ فى مطابع الحديث بحلب وتحدث فيه حديثا طويلا عن رسالة الأدب ، وعن النزعات القومية فى أدبنا المعاصر ، وعن رسالة الغفران ، والكوميديا الإلهية ، وعن مصير اللغة العربية فى المهجر الأمريكى ، والأخطل الصغير ، وعن سير الحركة الأدبية فى سورية خلال

الحربين العالميتين والادب العربي المعاصر في المهجر ومصر والعراق والجزيرة ، وسوريا ولبنان ، وعرض بالدراسة لخليل مطران وشاعريته . . والكتاب عظيم الأهمية ويقع في نحو ٢٨٠ صفحة .

٤ ــ وللكيالي كتاب آخر نشره في سلسلة « اقرأ » بعنوان « مع طه حسين » وتحدث فيه عن ملامح شخصية الدكتور طه وحياته وتفكيره ونزعاته الأدبية ، وإمامته للأدباء في العصر الحاضر ، بأسلوب جميل ممتع جذاب .

— ٤ —

هذا هو الكيالي الذي خصصته بالحديث هنا ، وقد ولد ونشأ في بيت عريق عام ١٨٩٨ م . وعاش في وسط ديني ، فعائلته من أكبر الأسر الدينية في سوريا ، وكان والده الشيخ علي الكيالي الشهير بالعالم من أكابر رجال الدين في حلب ، شغل منصب القضاء الشرعي فيها أكثر من عشرين سنة ، وتولى منصب الإفتاء نحو خمس سنين ، وله مؤلفات في التشريع الإسلامي ، وفي غرائب الفتيا ، لم تطبع بعـــد .

لم ينهج سامي الكيالي نهج والده في دراسة العلوم الدينية ، بل دخل المدارس المدنية وأتم دراسته الثانوية عام ١٩١٦ ، وحالت الحرب العالمية دون متابعة دراسته الجامعية ، وفي خلال سنوات الحرب ، التحق بوظيفة في دائرة البريد والبرق ، ثم عين بعد الحرب رئيسا لديوان البلدية ، فأمينا عاما ، ففتشا إداريا ، ثم مديراً لدار الكتب الوطنية .

وهنا نحيي هذا الأديب العربي الحر « سامي الكيالي » ونحيي كفاحه الفكري ، وكفاه اليوم أن يشاهد ثمرة كفاحه الطويل ، وأن يرى أحلامه وقد أصبحت حقيقة واقعة .

لقد كان سامي الكيالي طوال حياته داعية من دعاة التجديد ، ورائدا من رواد النهضة الفكرية والقومية والاجتماعية ، وقد آمن بالقومية العربية ، ودافع عنها دفاعا قويا ، وعاش لها ومن أجلها ، حتى انتصرت فكرته ، وتحققت نبوءته (١) .

---

(١) راجع مجلة الأديب عدد فبراير ١٩٥٩ ــ ص ٣٠ من مقال الأستاذ نظير زيتون بعنوان : سامي الكيالي .

صفحة من الأدب السورى المعاصر

— ١ —

يتصل الأدب السورى المعاصر بمصر وأدبها اتصالا وثيقا ، فعلى ضفاف النيل عاش كثير من أدباء سوريا ومفكريها إن طويلا أو قصيرا ، ومن الأدب المصرى استمد أدباء سوريا وشعراؤها وكتابها أصول الثقافة العربية ، وفى الجامعات المصرية نهل شباب سوريا الحرة من منابع الثقافات القديمة والحديثة على السواء .

وإذا ذكرنا أمير البيان شكيب أرسلان ، ومحمد كرد على ، وخليل مردم ، وعدنان مردم ، وسامى الكيالى وسامى الدهان وسواهم ، فاننا نذكر من قبل عبد الرحمن الكواكبى ، ونذكر من بعد أجيالا من الادباء السوريين ، عاشوا فى مصر حينا ، ثم تركوها إلى سوريا ، يؤدون فيها رسالتهم الفكرية والادبية والقومية . ولعل صحف مصر ومجلاتها الادبية لم تحفل بانتاج أحد من الادباء العرب كما حفلت بانتاج أعلام الادب السورى المعاصر ، ففى السياسة اليومية والاسبوعية وفى مجلات عديدة كتب سامى الكيالى ، وفى مختلف الصحف اليومية والاسبوعية فى مصر كان يكتب محمد كرد على ، ولا أنسى صحيفة الجهاد التى كانت تحفل بالدراسات الادبية لأمير البيان شكيب أرسلان ، وأنور العطار وأمجد الطرابلسى وعلى الطنطاوى ، وعمر أبى ريشة ، وسواهم ، كانت آثارهم الادبية تزخر بها مجلة الرسالة والثقافة ، والمقتطف وسواها . .

على أننا لن ننسى شخصيتين جليلتين لهما فى الفكر المصرى والسورى المعاصر حقا آثار جليلة بارزة لا تمحوها الايام .

وكم كانت ندواتها الادبية الطريفة تشهدها أمسيات «كازينور» على ضفاف النيل العظيم ، وتملأ القلب بالذكريات العاطرات ، التى ترتسم فى مخيلاتنا — نحن أبناء مصر — وكان السحرتى وعبد الجبار ووديع فلسطين ، كثيرا ما يشتركون فى هذه الندوة وفى محاوراتها اللطيفة الممتعة ، وكنت أنعم فى أحيان كثيرة بالحديث والحوار والفكاهة مع أصدقائنا فى هذه الندوة ، عند ما أخف إليها من قلب القاهرة

لأجلس مع إخوانى فى رحاب النيل العظيم ومع أدبيينا الكبيرين .

كان بحكم عمله الرسمى ملحقا ثقافيا فى سفارة سوريا ، وكان يشرف على توجيه العلاقات الثقافية بين شطرى الجمهورية العربية المتحدة التى قامت منذ شهور قلائل ، ولم يكن يجعل همه فى الاعمال الرسمية وفى الاتصال بالشباب السورى الذى يتلقى تعليمه فى الازهر وفى جامعات مصر فحسب ، وإنما كان وثيق الصلة بالصحافة المصرية وبالادباء المصريين وكثيراً ما كان يخف معنا إلى ندوة المقتطف الاسبوعية الآفلة ، التى لها ذكريات عزيزة فى نفوسنا نحن الآباء المخضرمين .

كان بدء تعرفى بالدكتور زكى المحاسنى أن جاء بعض طلابى السوريين فى كلية اللغة العربية ينبئونى أن الدكتور يحب أن يلقانى ، كما أحب أن يقرأ لى ووعدت بزيارته فى دار سفارة سوريا . . ولكننى لم ألبث بعد أيام وأنا خارج من الكلية فى أحد أيام الصيف أن وجدت شخصا يتقدم إلى ، ويشد على يدى فى حرارة وهو يبتسم ، ويقول . الدكتور زكى المحاسنى . . وقبلنى فى وجنتى الخشنتين وقبلته ، وقال لى بلهجة مصرية عذبة . إنى وددت من وقت طويل أن أراك وأن ألتقى بك وشكرت له هذه العاطفة ، ثم ودعته وودعنى إلى لقاء قريب ، ومضت الايام ولم نجتمع حتى جمعتنا ندوتا المقتطف وكازينور . .

وكانت الاديبة السورية العربية الكبيرة السيدة وداد سكاكينى حرم الدكتور زكى المحاسنى كثيرا ما تشهد ندوة كازينور ، ونعجب لثقافتها الواسعة ، وإدراكها العميق لقضايا الثقافة والادب والفكر ، كما كانت تكتب فى صحف مصر ومجلاتها الادبية كثيراً ، ويقرؤها الادباء والشباب المصريون باعجاب ومتابعة مستمرة .

ووداد سكاكينى هى الشخصية الثانية التى أقصدها فى هذا الحديث الموجز القصير .

وفد الدكتور زكى المحاسنى إلى مصر للدراسة الدكتوراه فى الجامعة المصرية وكان قد تخرج من الحقوق السورية عام ١٩٣٠ ، ثم نال إجازة الآداب من سوريا عام ١٩٣٢ من الجامعة السورية ، وصار أستاذاً للغة العربية وآدابها فى المدرسة التجهيزية الأولى بدمشق حتى عام ١٩٤٣ . وفى هذا العام بعثت به وزارة المعارف

السورية للدراسة فى الجامعة المصرية ، كما أسلفنا : وبعد أربع سنوات حصل على شهادة الدكتوراه فى الآداب بدرجة جيد جدا ، ولم يلبث أن أسند إليه تدريس الأدب العربى فى كلية الآداب الحديثة بالجامعة السورية ، وظل كذلك حتى عام ١٩٥١ ، حيث اختارته فى ذلك الوقت حكومة سوريا ليكون ملحقا ثقافيا فى السفارة السورية بالقاهرة ، فقضى الدكتور أربع سنوات اخرى على ضفاف النيل يؤدى عمله الرسمى فى السفارة ، ويشترك مع الأدباء المصريين فى ندواتهم وحلقاتهم ومجالسهم الفكرية والأدبية والثقافية .

وفى عام ١٩٥٦ نقل إلى دمشق ، وندب للعمل فى لجنة التربية والتعليم فى وزارة المعارف السورية .

— ٢ —

وفى سوريا وعلى ضفاف بردى . لم ينس الدكتور زكى المحاسنى والسيدة الجليلة وداد سكاكينى ، لم ينسيا مصر ولا أدباءها وكتابها وشعراءها ، بل لعل الدكتور زكى المحاسنى كان من أكثر أدباء سوريا قبل قيام الجمهورية العربية المتحدة عملا على توثيق العلاقات الفكرية والثقافية بين مصر وسوريا ، ومن أكثرهم كتابة عن أدب مصر وثقافتها .

وقد سعدت ندوة رابطة الأدب الحديث فى الحفلة التكريمية الكبرى التى أقامتها لوفود الأدباء العرب بزيارة أعضاء الوفد السورى ، وفى مقدمتهم السيدة وداد سكاكينى التى كافحت ولم تزل تكافح فى سبيل وحدة الأمتين ، حتى كلل المسعى بالفوز والتوفيق .

— ٣ —

أصدر الدكتور زكى المحاسنى من المؤلفات الكتب الآتية :

١ ـ شعر الحرب فى أدب العرب فى العصرين الأموى والعباسى إلى عهد سيف الدولة . وهو (رسالة دكتوراه) من الجامعة المصرية وقد طبع بدار الفكر العربى بالقاهرة سنة ١٩٤٧ .

٢ ـ أبو العلاء ناقد المجتمع ، وهو (وهو رسالة ماجستير) وقد طبع بدار

الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٤٥ .

٣ ـ النواسي شاعر من عبقر ، وهو دراسة تحليلية لشعر أبي نواس وحياته نشر المكتبة العمومية بدمشق سنة ١٩٣٩ .

٤ ـ المتنبي ، وقد طبع بدار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٦

٥ ـ ابراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب ، وقد طبع بدار الفكر العربي بالقاهرة سنة ١٩٥٦ .

٦ ـ دراسات في تاريخ النهضة العربية المعاصرة بالاشتراك مع الأستاذ شفيق غربال بكتاب ، وهو يطبع الآن باشراف الجامعة العربية بالقاهرة وقد عنى الآن بتحقيق بعض المخطوطات لشعراء من القرن الخامس والسادس للهجرة وستطبع عما قريب في القاهرة .

— ٤ —

والدكتور ذكي المحاسني من أسرة سورية عريقة ، ولد بدمشق عام ١٩٠٨ ، وكان والده من كتاب المحكمة الشرعية بدمشق ، على أنه لم يلبث أن توفي وعمره عامان ، ونشأ يتيما ترعاه أمه الحنون ، وعمه الوفي اصنيع أخيه معه ، ونال شهادة البكالوريا عام ١٩٢٧ ، ثم الإجازة في الحقوق من كلية الحقوق بدمشق عام ١٩٣٠ وعمره يومذاك اثنتان وعشرون سنة ، ولم تلبث والدته أن توفيت لحزن عليها حزناً عميقا .

واقترن بالسيدة الأديبة السورية الكبيرة وداد سكاكيني ، وله ولد وبنتان منها ، وكان اقترانه بهذه الأديبة المثلى وسيلة مشجعة ليمضي في حياته الأدبية ، وكان لما لهذه الكاتبة من المنزلة في الأدب العربي المعاصر ، أثر عميق في حياة الدكتور ، وكان ذلك كله باعثا له على اعتزازه بحياة الأدب والفكر والثقافة .

— ٥ —

والدكتور المحاسني كاتب متميز الأسلوب ، وشاعر أصيل الشاعرية ، ومؤلف ناضج الفكرة والدراسة والبحث والرأي .

وقد نشر الدكتور كثيرا من شعره ومقالاته في المقتطف والثقافة والرسالة والكاتب المصري ومجلة الكتاب ومجلة الأديب والرسالة اللبنانية ، وفي مجلة

الحديث الحلبية ، وغيرها .

ومن شعر الدكتور قصيدته « الفرحة الكبرى » التى أهداها لزعيمى العروبة جمال عبد الناصر وشكري القوتلي ، ويقول فيها الشاعر :

أضحى التدانى بديلا من تنائينا   وآذن الله أن يحيا تلاقينا
خل العداة تشق الصـــدر لاطمة   فما أذيق البلا إلا أعادينا
فى مصر والشام أصوات مدوية   غنى بها الدهر تكبيرا وتأذينا
فاشرب على النيل كأس النيل فى بردى   نهران للخلد فى دنيا أمانينا
رمزان للمجد والعرباء عاكفة   عليهما بأغانيها تغنينـــا
عرس ليعرب قد ماجت كواكبه   تطل من أفقها الوضاح تهنينا
مر الزمان بويلات تضعضعنا   وضمخ الدم بالنكباء أرضينا
فاذكر على الفرحة الكبرى مواجدنا   لما طحنا العدى والنار تشوينا
يوما بيوم كسبنا الحرب جاهدة   وقد نسجنا الليالى من عوادينا
ثرى المقطم بالأبطال ملتبك   تروى ملاحمه عزاً وتمكينا
وغوطة الشام بالثوار عابقة   هذى دماهم غدت ورداً ونسرينا
ذكرى يجوز بها التاريخ عالمنا   وهى التى فوق هام الدهر تبقينا
كفكف دموعك بالأفراح راقصة   ومطلع الفجر بالآمال يغرينا
لو القلوب من الاضلاع تطلقها   طارت وراحت إلى مصر تناديـنا
يا نابش الترب حشحث أعظم الشهدا   لعلها انبعثت تهفو لناديـنا
أحس أرواحها رفت محومة   لتشهد النصر فى العليـــا يواتينا
هذى دمشق مشت عزا ومخترة   تجر أذيالها تيها وتزيينا
تهـــدى إلى ناصر لله مهجتها   من بعد أن ملأ الدنيا تحاسينا
شكرى أبا العرب يا مضمون خاطرها   يغنى بك الشعر حين الشعر يغنينا
هذا جمال رئيس العرب قاطبة   مؤزر النصر نفديه ويفدينا
يا باعث الأمة المحمود مأمله   أمانة الله تغليها فتغلينا
هذى السفينة والجبار يحرسها   فأنت ربانها بوركت ميمونا
فقل لشكرى الذى أحيا الشآم هدى   وصانها لمصير المجد تأمينا
أنا وأنت رسولا نهضة صمدت   إلى الخلود تصون العرب تمتينا

تحيا الشآم وتحيا مصر واحدة في أمة تملأ الدنيا رياحنا

ومن شعر قصيدته في ذكرى « فوزي المعلوف » ويقول فيها :

لا تسلني إذا بلوت همومي أناطيف الهوى وأنت كلومي
ربما همت في ظلال خيال وضاع مني وراح خلف الغيوم
هومي لي على « زحيلة » فالليل ينادي إلى بنات الكروم
نبض الماء بالسلاف فقل لي أيما نشوة تبل رميمي
هي كهف الحب والشعر والانغام حتى مضار كل النجوم

عند (فوزي) في الصمت ، في الهيكل الدامس ، ماذا ترى به من وجوم
نظرات وراء معنى بلا لفظ يزيح الغيوب عبر السديم
كوكبا جئت للحياة وغادرت وحيا مثل الشهاب العظيم

نفذ الطرف واستجاب التنادي حين أبدعت حاليات الرسوم
في الأساطير أنت ، صنو أبولون ، إلى الشمس في انتفاض الجسوم
ايه ياشاعر الأعالي سلاما في جناحيك روعة التحويم

— ٦ —

وللدكتور آراء عديدة في الأدب المصري ، وفي الأدب السوري المعاصر ، ومن آرائه في « طابع الادب السوري الجديد » مقالة طريفة جاء فيها :

لكي يستطيع نقاد الأدب ودارسوه ، في فترة من فترات عمره ، أن يسموه بميسم خاص ، فانه ينبغي لذلك الادب أن يكون تام الشكل واضح التكوين . ويشبه مولد الأدب الجديد مولد الإنسان . فانه في الأدوار التي تمر به قبل أن يفتح عينيه على الدنيا ، لا يستطيع أحد أن يعرف نوعه وأن يعطيه اسما مسجلا في قيود النفوس .

لقد كان الأدب العربي في بدء حياته جاهليا ، ثم تطور فغدا اسلاميا فعباسيا وجاء اندلسيا ، حين اتبع فيه أصحابه طرائق أبي تمام في الصناعة

أو تجميل البحترى فى التزويق . وقد أبه النقـــد للأدب ، وتحفت الدراسة الأدبية بضروب منه جديدة حين كانت هذه الضروب قوية كبيرة وعميقة ، وحين أخذت بمجامع الفن لحولت مجراه وبدلت تياره .

كان الأمويون ينسجون على طريقة الفن الجاهلى فى الشعر وهم وإن رقيت الخطابة فى عهدهم فانها كانت تجد لها أصولا فى أواخر الجاهلية حين استتم القول لفصحاء العرب ووقفوا فى الوفود يتكلمون . لكن الشعر العربى الأموى قد زلزل زلزاله حين برز بشار وأبو نواس فى العصر العباسى الأول فأحدثا انقلابا فى الأدب . لقد خلع بشار قيودا رتيبة كانت مضروبة على القول وأقصى النواسى عن الشعر مفاتيح وصف الاطلال وجعلها تستفتح بذكر الخمر ومجالس الشراب وترك البكاء على الأحباب .

فالطابع الأدبى الجديد لا يصح إلا فى الحوادث الجسام التى تعترى الفن وتغير معالمه وتدخل الكثير من التبديل على قواعده المألوفة فتحدث ضجيجا كما يحدث البارود الناسف الذى يهدم البيوت العتيقة لتشاد مكانها قصور ممردة تساير الحضارة .

ولقد شهدت الآداب الغربية انقلابا ، واتسمت بطوابع جديدة فى خلال العصور التى عاشت فيها . وأحدثت تلك الطوابع هزات عنيفة تناولت جذور الفن فغيرت من أوصافه وأهدته إلى الأجيال الصاعدة فى حلل قشيبة بعد أن طرحت عن منكبيه أسماله البالية .

حين هب هوجو وجماعة الرومانتيكيين بمذهبهم الذى هدموا به الفن الكلاسيكى زلزلوا الادب فى أوربة ، وأسروا فى لياليه شهبا جديدة أنارت ظلماته ثم أطلعوا كواكبهم المتلألئة . وحدثت بعدئذ هزة أقوى حين دمر على الرومانتيكيين مذهب الرمزيين فكان بودلير وفيرلين موقدى النار فى ذلك الهشيم وشهدت الأعوام الاولى من عصرنا حفاوة الادب بالرمزية ووصم الادب الرومانتيكى بالفراغ والرنين اللفظى . لقد أضحت التراتيل الفنية للرمزية تقديسا ووجد الدارسون والمحللون للادب فى الرمزية تمازج الروح والعقل

فاذا سئلت عن الأدب السورى الجديد ماطابعه ؟ . أحاطنى السائل بحيرة لا أجد فيها منفذا ، ولم أحاول القفز لأتخطاها .

لقد انسحب الشعر المعاصر بعد شوقى متقيلا ظلال شوق ، ويستطيع دارس الأدب المتفهم لمعالمه العارف بمواليده ، أن يرد الشعراء المعاصرين كهولا ومحدثين كلا منهم إلى شاعر يمشى فى ظـــلاله . فكما مشى شوقى فى أكناف أبى الطيب المتنبي وحافظ إبراهيم تحت رواق أبى العلاء المعرى ، وكما حار مطران بين الأدب العربى والأدب الغربى ، يصب فى كأسه من ذاك ويمزجه بهذا ، فكذلك يرى دارس الأدب الشعراء المعاصرين والكتاب المحدثين كلا يتقيل ظلالا بعيدة أو قريبة وقديمة أو حديثة. وقل منهم من مشى ضاحيا وحده يشق طريقـــاً لنفسه جديدة .

ولست أنكر أن طرقا جديدة ضيقة ومنقطعة قد شقت فى الشعر وحده، أما النثر فانه ظل لاحاجة له بتجديد أكثر مما أعطاه المعاصرون من حقه فى الرفعة والعناية والتسديد ، حتى كاد يبذ النثر القديم ويزهى عليه لخلوه من الكلفة والصناعة اللفظية .

أما الشعر العربى المعاصر فهو وحده الذى ينبغى أن تبحث أطوار تجديده ، وتتبين طرائقه وخواصه ، لترى بعد ذلك مواطن الطوابع الجديدة فى أدبنا السورى الحديث .

لقد حاول شعراء مصريون ، ظهروا فى عهـــد شوقى ، أن يدخلوا التطور على الشعر العربى وكانت مجلة (أبولو) التى صدرت منذ أكثر من عشرين عاما مسرحا لقرائحهم ، ففك الكثير منهم من قيود القوافى ، وحلوا وحدة القصيدة فى الروى ، ومضوا على غرار طلق فى أبيات سمحة متزاوجة القوافى . ثم كانوا ينطلقون إلى قواف ثابتة فى القصيدة الواحدة . ولم يكن هؤلاء أهل بدعة لأن الأندلسيين قبل قرابة من ألف عام صنعوا الشعر منطلقا وجاء الموشحون بفنون لا تخضع لقافية واحدة متواترة ، ولا لوزن فى القصيدة رتيب .

وانسحب الأدب المعاصر إلى أيامنا فظهرت فى سورية ومصر ولبنان فنون

من القول فى الشعر آثرت الانطلاق من قيود القافية ، ثم عافت الوزن نفسه فخلعته من أجسام الأدب لتبدو ضاحية للشمس ، ولكنها فى وثبتها هذه نفت عن جسوم الفن جمال الثياب وتلاوينها . ولم يعش الفن منذ عرفه الإنسان بروح فحسب ، وإنما كان على الدوام محتاجا لجسمه لتخفق فيه تلك الروح، وكان يؤثر الثياب وألوانها ليبدو فى تهاويل الجمال أو ليكون مستورا .

فليست المعضلة إذا فى الوزن وحده ولا فى القافية ، وإنما هى فى عبقرية الفن الذى يتجلى عاليا ومثاليا وجميلا لا تعوق الأذواق أشكاله ،لأن الأذواق الرهيفة إنما تتجه إلى جوهره وحده قبل كل شيء ، ولأن الجوهر هو قوام الفن الذى لا يخفى مثل شراب سائغ لذيذ طعمه ، إنك لتشعر بتذوقه فى أية كأس نظيفة ، ولن يغير طعمه المرير من الشراب كأس جميلة ولو كانت من الذهب .

لقد حاول شعراء فى مصر وسورية ولبنان أن يقولوا ضروبا من الشعر سموها حسب مرادهم ، ونظموها كما بدا لهم فنهم ، ففى الشطر الأول كلمة وفى الثانى كلمتان وفى الثالث أربع ويؤلف كل ذلك وزن بيت واحد من الشعر : وجروا فى القصيدة كلها على هذا الطراز . فلم يبدلوا سوى طريقة الكتابة ، لينقلوا القارىء من شطر إلى آخر وراء معنى البيت الذى يريدون . وصنع آخرون نثرا لا وزن فيه ولا قافية وأطلقوا عليه كلمة الشعر لأنه شعرى المعانى عندهم ، وقد يحق لهم أن يصنعوا ما يشاؤون حين تخلو الساحة من نقاد وفنيين ومن دارسين للأدب ووضاع لقواعده الحديثة .

لقد حدثت فى أدبنا بلبلة ، لن تعرف أولها من آخرها . وبدا فيها خلال الأنغام الجميلة المؤتلفة لغط شعرى ، كما تسمع أنغاما متداخلة متواثبة ومتنافرة فى آن واحد من مقهى يهدر بالشاربين .

فكيف تستطيع أن تتبين معالم النغم المفرد فى ذلك الهدير الصاخب ، وكيف تتذوق شعرا يمر عليك فجأة وقد حطم الوزن وشرد القافية ، بغير تمهيد لهذا التجديد .

إن أدبا هذا شأنه قد يكون مقدمة لأدب قادم يحلم به عدد كبير ، وكل أدب

جديد إن لم يأت به الانقلاب الحاسم حدثت فيه محاولات مديدة وعديدة حتى استقر فى الأذواق وروقته التجارب .

لكأننا نعيش فى حالك من ليلة أدبية ، وكل ليلة لا تخلو من أحلام ، وهذه الضروب من الشعر السورى الجديد أحلام جميلة معسولة ، وهى لا تخلو من أضغاث وكابوس .

غير أن المنصف إذا أدمج الشعر بالنثر ، وبحث فى القصة وضروب التأليف الأدبى فى سورية وجد القصة أفضل الأنواع الجديدة التى يدركها التوفيق ويسندها الفن إلى حدود قد تقرب من التمكين . وطبيعة الفن القصصى تحتوى حياته، فالفن القصصى منذ ولد وهب على الدوام الحياة ،لأن الحياة نفسها قصة كبيرة ، وهى تؤثر أن ترى نفسها مكتوبة ومروية بأقلام الموهوبين وألسنتهم ، وتاريخ الفن القصصى بسورية ليس ذا عهد بعيد ،فانه قبس شعلته تهب من نحو مصر، ثم استعان لإذكاء هذه الشعلة بالآداب الغربية وأغلبها الفرنسى ثم الانكليزى فالروسى . وكان لشيوع الروايات السينمائية أثر بعيد فى القصة المعاصرة . وقد نالت القصة السورية المعاصرة رافدا من تلك الروايات وخاصة ما كان منها يخالطه التحليل النفسى ومباغتات الحوادث العارمة فى الحب والكراهية وفى معاطاة الجمال .

وقد أولع الشباب المتأدبون بفنون القصة، فكانت لهم محاولات لاضير عليها: أما أساتيذ الفن القصصى والمتمرسون فيه بسورية فقلائل ومنتجوه أقل .

وكان يعوز الأدب السورى الجديد وجود جمعية أدبيّة ومجلة سورية تغذيها آثار الموهوبين وأصحاب الإبداع ، فراح كثير من الكتاب السوريين والشعراء يصدحون على دوحات مجاورة، ويجمل عندك العندليب أكثر إذا غرد على دوحه الفينان

بقى الإنصاف للشعر السورى الحديث فى طروق معانيه بعد أن فات كثيره المبانى ، فان لبعض الشعراء وخاصة الذين ظهروا فى السنين الأخيرة معانى صافية تسمو إلى آفاق رفيعة، وتنزل هذه المعانى فى قوالب قديمة أو حديثة فتكسب زينة وجمالا .

وكل هذا قليل إذا قيس بآداب الأمم فى فترات اليقظة والتحفز ، وفى

مراس الحوادث والمحن ، وإن الكوارث التى أصابت أمتنا العربية منذ عشرين عاما حتى الآن لكافية أن تكون حوافز لأدب موفور الكرامة .

ههنا أذكر واقعة عمورية ، فإنها لم يذكرها من شعراء العرب سوى أبى تمام وهو وإن وفاها حقها من الوصف والإبداع وإغناء التاريخ ، لكن هذا كان لا يكفى فى تاريخنا الأدبى .. إن واقعة عمورية التى فتحها العرب وغلبوا فيها الروم كانت وحدها - كما يقول المؤرخون البيزنطيون - ملحمة شعبية بيزنطية وأنشأ من أجلها ستون شاعرا بيزنطيا مراثيهم بواكى على البلدة العظمى التى كانت حصن الروم وموئل عزهم ، فماذا وضع شعراؤنا من أجل فلسطين إن أولئك الشعراء الذين قالوا الشعر فى هذه النكبة الكبرى قليلون :

ولست أدعو إلى منائح ومآتم لما ضاع وإنما أقصد إلى كتابة ملاحم من أجل الاجيال القادمة التى ستترق وستحاسب عصرنا على ماصنع آدباؤنا فيه .

فإذا أحببت أن أقول لهم أخيرا ، وبكلمة : ما هو طابع الأدب السورى الجديد ؟ قلت :

إنه محاولة صغيرة من أجل حدث كبير ، بل هو تمرين ومراس رياضى لانتفاضة الغد فى الفن والفكر والأدب .

— ٧ —

ولا يفوتنى أن أنوه بآخر رسائل الدكتور المحاسنى إلىّ فى السادس والعشرين من فبراير (شباط) ، قال فيها الدكتور حفظه الله :

« أزجى إليك تهنئاتى بالوحدة العربية التى طالما كانت أمل العرب ، سائلا الله أن يجعل عهدها على بلدينا الحبيبين عهدا ذهبيا ، وقد كنا أنا وأنت من مؤسسى هذه الوحدة باتصالنا القديم الأدبى ، وكم كان الأدب أساسا للسياسة ، وهل عاشت المثل العربية إلا فى أدب العرب العظيم .

لقد لمت أيامى فى القاهرة كيف فرطت ، ولم ألم بك إلمامات طويلة ، فإن روحك مواجهة بالخير ، وأنا أحب هذه الأرواح وأكاد أذوب فى ودها ، أنت الأديب

المثالى ، أعطيت الكثير ولم تأخذ حتى القليل ، وأنت أبدا تزرع ولا تقطع ، وقدسعدت بما حملته أختكم وداد من مؤلفاتكم وآثار أخينا الأديب الناقد الكبير الأستاذ السحرتى ، ما أبهجنى ورد أيامى إلى القاهرة حيث كنا نزاكم ، ونأنس بكم ، ونحيى أماسى لا تنسى على ضفاف النيل فى كازينور . ولله تلك اللقاءات ما كان أجلها وأبق أثرها فى نفوسنا . وإن أدبك النبرى وعنبرك الذهبى لجديران منا بكل روعة وتقدير وتقديس . . ،

— ٨ —

هذا هو الدكتور زكى المحاسنى كما عرفته ، وكم له من صفحات جليلة ، لم تنشر بعد على الناس ، وسيجىء اليوم القريب الذى ينال فيه الدكتور المحاسنى ما يستحقه من مجد وإعزاز وتكريم ، ، ،

الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى

يعيد الأستاذ خفاجى إلى الأذهان معركة أدبية قديمة انتهت بغير غالب أو مغلوب .. هى المعركة التى ثارت حول الأدب فى العصر الجاهلى كما صوره الدكتور طه حسين فى كتابه ، فعقب عليه الأدباء بعدة كتب ، كان فى الصف الأول منها كتاب « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى » للأستاذ خفاجى وهو نفس الكتاب الذى يعيد المؤلف طبعه ونشره بعد مضى فترة من الزمن ليبرهن على أن المعارك الادبية النظيفة لا تموت فكرتها فى الأذهان ،

إنه كتاب ضخم ككل كتب خفاجى ، وهو يقع فى ٥٥٠ صفحة من القطع الكبير ، ولك أن تتصور ما تضمه هذه الصفحات الكثيرة من مادة خصبة يفيد منها قارىء الأدب ، سواء كان على مذهب المؤلف أو كان على غير مذهبه ـ القاهرة ١٠ أغسطس ١٩٥٨ .

أنور العطـــار

ولد فى دمشق ، وتلق دراسته الإبتدائية والثانوية فى سوريا ثم درس الأدب فى معاهد وزارة المعارف الثقافية العالية فى بغداد أربع سنوات ، ولما عاد إلى دمشق عين فى رياسة ديوان الإنشاء فى الدائرة المركزية لوزارة المعارف السورية التى أسست لضبط اللغة .

وقد شارك فى تأسيس المجمع الأدبى فى دمشق ، وأصبح عضوا عاملا فيه . وهو اليوم مدير ثانوية البنين الخامسة بدمشق ، وأستاذ الأدب العربى فيها .

وفى عام ١٩٤٨ نشر ديوانه الأول « ظلال الأيام » ، وترجم المستشرق الانكليزى أربرى فى كتابه «أزهار الشعر» المطبوع فى لندن بعض قصائد له إلى الانكليزية شعرا .

وله عدة دواوين مخطوطة منها : وادى الأحـــلام ، وربيع بلا أحبة ، ومنعطف النهر ، والبواكير .

وكان ينشر شعره فى مجلة الزهراء ومن مؤلفاته : الوصف والتزويق عند البحترى ، وأسرة الغزل فى العصر الأموى .

ومن شعره أرجوزته فى القلم ، التى يقول فيها :

إذا بريت قلبى برانى ... وهد من حولى ومن كيانى
وباح بالمضمر فى جنانى ... وما تخفى فى حمى النسيان
وحاطه بسره وجدانى ... وافه بصمته سلوانى
كأنما لسانه لسانى ... يعنيه من شأنى ما عنانى
فياله من هادم وبانى

كم انتشى من خمره دنانى ... وأرجت من عطره جنانى
وأثمرت من سكبه أغصانى ... ونعمت بضمه بنانى
يظل منى كمحب حانى ... دان وما يسعد غير الدانى
ماج فى النفور والعصيان ... ولا احتمى بالصد والهجران
ولا ارتضى مطية الشيطان ... ولا مشى للذل والهوان

لم يعرف الإذعان للطغيان ولا انتوى مسالك العدوان
يطوى المدى منطلق العنان عف الضمير طاهر الأردان
ثبت اليقين صادق الايمان نزهه الحق عن الأضغان
وصاغه سمحا رضى الشان جم الهوى .وُجج النيران
وقفا على الأحباب والخلان ورحمة لكل قلب عان
خلو من الأنصار والأعوان يذوب من وجد على الأوطان
ويفتديها بالنجيع القانى ما أقدس الديار والمغانى
أطيب أنفاسا من الريحان ومن أريج الزهر والبستان
ومن شذا الربيع فى نيسان

يا آية الإبداع والإتقان وآلة النبوغ والعرفان
مالى بما أبدعته يدان فهات من بيانك الفتان
أسق به الأرواح كل آن فأستثير كامن الأشجان
وأبعث النشوة فى الأكوان ياصورة من صورة الإحسان
تطفح بالرقة والحنان والسحر والروعة والأغانى
والحب والرحمة والليان والعطر والأنوار والالوان

ياشرك الالباب والأذهان ورقة الاحلام والامانى
ويا صدى الانغام والالحان يا ساحر الالفاظ والمعانى
مالك فى صوغ الكلام ثان كاللؤلؤ المنثور والمرجان
فى رنة كرنة المثانى من ذا يجاريك ومن يدانى
طابت بك القطوف والمجانى رحار فيك قاطف وجان

ياأصدق الاصحاب والاخدان وحرزهم من نوب الزمان
وقاتم الهموم والاحزان أنت لعمرى صورة الإنسان
تجلوه فى حذق وفى افتنان من غير ما ريب ولابهتان
فان قضى وكل حى فان عاش الذى أمليت من بيان
يرتع فى بحبوحة الأمان فى عصمة من صائل الحدثان ،
وءأمن من غائل الفقدان تباركت عطية الرحمن .

المستشرق الدكتور بانرت

— ١ —

شخصية جذابة فى تواضع ، رقيقة فى رفعة ، عميقة فى سماحة و بساطة ، عرفته منذ حين فى زياراته لمصر التى يحرص على أن يتردد عليها كلما واتته الفرصة . وزاد اتصالى به توثقا دلنى على سماحة نفسه ورقة قلبه ، وسعة أفقه ، ذلكم هو الدكتور المستشرق أرنست بانرت الأستاذ بمعهد اللغات الشرقية بجامعة فينا .

— ٢ —

درس الدكتور بانرت الإسلام فى مختلف مصادره ، دراسة قوية عميقة ، ولا يزال يوالى هذه الدراسة ، يملأ قلبه عمق الشعور بحقيقة التوحيد ، وعظمة الخالق ، تنفعل نفسه بالصلاة فى الإسلام ، التى تقوى الشعور بحقيقة الله والإيمان بوجوده ويقول الدكتور : إنه مما لا شك فيه . . أن العالم كافة سيأخذه العجب فى المستقبل حين يفهم حقيقة الإسلام ، ويدرك أهميته فى التعارف الدولى وزيادة الإيمان بالسلام والمحبة والإخاء الإنسانى ، وسيبهره ما يجد فى الإسلام من حرصه على تنسيق التقدم فى ميدانى : الثقافة والتطور الأخلاقى ، فالعلم والخلق فى الإسلام صنوان متآخيان يكملان صروح التقدم الإنسانى الذى يدعو إليه الإسلام ويعمل من أجله . ولا شك أن أوربا المثقفة المتمدينة قد بلغت مرحلة كبيرة من العلم . . ولكنها فى الوقت ذاته متدهورة أى تدهور فى الجانب الخلقى والروحى ، فهى مريضة تحتاج إلى علاج الروح والخلق .

ويؤمن الدكتور بانرت بضرورة التقاء المسلمين والمسيحيين على المحبة والأخوة والصفاء . ولابد أن يدرك الأوربيون - إن لم يكونوا قد أدركوا - أن المسلمين إخوة لهم ، لا خصوم وأعداء . . محمد والمسيح رسولان من عند الله . وقد درس الدكتور بانرت الثقافة الإسلامية دراسة شاملة . وتعمق فى دراسة التصوف والفكر الإسلامى وطاف بأكثر الشعوب الاسلامية فى رحلات كثيرة . ، دارسا اللهجات العديدة فى هذه المنطقة ولآدابها وثقافتها . وقد حرص بانرت على دراسة اللغات الشرقية فى بيئة المدرسة الثانوية « توما » فى مدينة « ليبسيك » فى ألمانيا .

وابتدأ بتعلم اللاتينية واليونانية ، ثم انتقل إلى دراسة اللغة العربية ، وقد نشأ الدكتور على الإعجاب بالثقافة الكلاسيكية ، وزاد إعجابه بالأدب العربى وجمال أسلوبه ، ويعجب كثيرا بالشعر العربى ، وقد تعلم اللغة الفارسية وقرأ آدابها ، كما تعلم التركية والأوردية وتعمق فى دراستهما ، ومنذ حداثته وهو يقرأ كثيراً فى التصوف الإسلامى ويقدر الصوفيين المسلمين ، ويؤمن بأهمية التصوف فى الإسلام ، ويرى أن كل من اشتغل بالآداب الإسلاميه يدرك أثر التصوف الواضح فى هذه الآداب . .

وكان رأى أغلب المستشرقين أن التصوف ضد الإسلام وخلافه ، وأول معنى وحدة الوجود عند الصوفيين يعادل رأى الفلاسفة الألمانيين مثل « هيجل » الذين ينكرون الفرق بين الخلق والخالق ، إلاأن الدكتور بانرت يقول : حيث إننى متدين ، ومؤمن بالله الواحد ، فقد استغربت من هذا الرأى ، لأننى لاحظت أن جميع المتصوفين متدينون جدا فاتخذت دراسة التصوف هدفا رئيسيا ، واشتغلت كثيرا بفلسفة رجال مشهورين مثل ابن سينا والفارابى وابن طفيل ، ثم بتفسير الأشعار الصوفية مما وجدته فى كتب الصوفية مثل النابلسى والقاشانى .. الخ .

ويقول ايضا : إننى أعجب بعمق الشعور الدينى عند المتصوفين ، وأعجب بجمال شعرهم الذى يعكس لنا جمالا لايتناهى ، وقد جمعت لى دراستى للتصوف بين الفائدة العلمية والتلذذ بحسن الأفكار والآراء . وأما من ناحية رأيى فى التصوف ، فأنا لا أوافق المؤلفين المسلمين الذين قالوا : إن التصوف ليس عنصرا أجنبيا فى الإسلام ، بل إنه تطور فى التعمق خلال أفكار التوحيد والعبادة . مع علمنا بأن التصوف قد استفاد من الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، ولقد استفاد المسلمون أفكارا عالية مأخوذة من التصوف ، ورأيى كذلك أن التصوف سيلعب دورا كبيرا فى المستقبل .

ويرى الدكتور أن الفرق بين اللغات الغربية والشرقية فى أمر واحد هو أن اللغات المستعملة من أسبانيا إلى بولندا كانت متأثرة باللغة اللاتينية ، كما يظهر ذلك من استعمال الحروف اللاتينية فى هذه اللغات ، وأن كل اللغات التى هى خارج نطاق اللغات الجرمانية والرومانية والمجرية تسمى بلغات شرقية ، وكان ذلك القول معتادا فى أوربا ، ولكننا نقول اليوم : إن اللغات السامية ليست

بكتلة واحدة ، وكذلك لغات الأقوام الإسلامية ، ولغات الهند ، ولغات الشرق الأقصى .

والدكتور بارت يعجبه فى الشرق جمال الطبيعة وبساطة الحياة ، والقناعة ، والإيمان بالديانة الحية ، والاهتمام بالأمثلة العليا ، وأتمنى أن يبق هذا الطابع على الدوام ، وأن يحفظه أهله من المياه العكرة التى قد تأتى مع الثقافة الاوربية الحديثة .

— ٣ —

ويرى الدكتور بارت أن ثراء أوربا الاقتصادى بتأثير الاستعمار أعطى لجامعاتها وسائل كبيرة ومقدرة فائقة على استكمال معدات البحث العلمى فى كل ناحية وخاصة فى علوم الذرة وفى الرياضة وفى شتى فروع العلوم ، ثم صار لجامعات الغرب طابع خاص من حيث تكون مناهج البحث والقدرة على الابتكار والاختراع والتجديد . . وعناية جامعات أوربا باللغات أعطاها فرصة كبيرة لكشف أسرار التاريخ القديم الذى تنبنى أصوله على دراسة اللغات ودراسة البيئة الإنسانية فى كل الأقطار والأجيال ، وللجامعات فى الغرب مناهج أصيلة فى كشف أسرار الطبيعة ، واستغلالها فى خدمة الحياة والرقى بالحضارة ، إلا أنها ينقصها شيء مهم جدا هو إدراك وحدة العلوم ، ولكن الخبراء يسعون إلى استكمال ذلك النقص حتى لنرى الآن تياراً قويا للتخصص المفرط فى جميع العلوم . وهذه النقطة يجب الاهتمام بها فى جامعات الشرق . فمن حيث يطرح الغرب البحث فى الروحيات نجد فى جامعات الشرق الإسلامى عناية كبرى بهذا الجانب بعد ما استكملت ما كان ينقصها فى علوم التاريخ والعلوم الطبيعية .

— ٤ —

ومن المستشرقين الذين يعجب بهم الدكتور بارت فيشر ، ويعجب بمناهجه عامة وبمناهج الاستشراق فى البحث العلمى عامة . . والمستشرقون الذين أعطوا الدكتور بارت قسطا كبيرا من الثقافة العربية والإسلامية ومقدرة فائقة على البحث العلمى ومناهج أصيلة فى الدراسة ، لم يستطيعوا أن يعطوه الشعور بجمال الحقيقة ، لأنهم كانوا مشغوفين بالبحث وبمناهجه فحسب ، وقد حرص الدكتور على دراسة الآداب

والفلسفة والتصوف وخاصة الفلسفة فى العهد الوسيط التى تأثرت فيه الفلسفة الاوربية بفلسفات الشرق وتفكيره .

ولفيشر قاموس واسع عن اللغة العربية ، وكان له فطنة نادرة فى إدراك معانى الألفاظ والأساليب العربية ، ولبروكلمان تاريخ الآداب العربية الذى صار له أهمية كبيرة . والمستشرقون الألمان جملة عنوا بتطبيق المناهج العلمية فى دراسة اللغات الشرقية .

— ٥ —

وقد ولد الدكتور « أرنست باتر » فى مدينة ليبسيك الواقعة فى ألمانيا الشرقية يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٨٩٥ م وكان والده تاجرا بهذه المدينة ، ودرس أرنست فى مدرستها الثانوية ، وسمع المستشرق « بنكرت » يثنى على الثقافة العربية ، وبدأ يتعلم لغة العرب وهو فى الرابعة عشرة من عمره بدون معلم ، ثم قرأ تاريخ الآداب العربية لبروكلمان ، وتأثر بجمال الشعر والنثر فى لغة العرب ، ثم تعلم اللغة الفارسية لصلتها بالعربية .

ولما قامت الحرب العالمية الاولى دخل معهد الضباط وتعلم اللغة التركية ، ثم ذهب إلى استانبول سنة ١٩١٦ فى وظيفة مترجم عسكرى ، وفى هذه الوظيفة سافر إلى العراق ، وأقام مدة على حدود إيران ، وهناك سمع التغنى بشعر جلال الدين الرومى وهو من أقطاب التصوف ، فلفته هذا إلى الاشتغال بالتصوف ، وفى سنة ١٩١٧ ذهب إلى جبهة الحرب وأسره الإنجليز مع أركان الحرب العثمانى ، ثم انتقل بعد حين إلى الهند ، وهناك انتهز الفرصة فدرس اللغة الأوردية ، ثم طالع وهو فى الهند الكثير من الآداب الإسلامية والشرقية باللغات التى يعرفها وهى العربية والفارسية والتركية والاوردية ، ومكث فى الهند إلى سنة ١٩٢٠ ، ثم عاد إلى وطنه ألمانيا وأكمل دراساته الشرقية فى جامعة « ليبسيك » كما درس فى جامعتى ميونيخ وفينا .

وحصل على درجة الدكتوراه فى اللغات الإسلامية ، وكانت رسالته حول اللغة العثمانية القديمة ، واشتغل فترة بتدريس الفلسفة والتاريخ والآداب الألمانية وفى المدة الواقعة بين سنة ١٩٣١ و ١٩٣٨ تنقل فى بلاد البلقان لدراسة الأحوال اللغوية والاجتماعية للمسلمين فيها .

وفى سنة ١٩٣٩ عين مدرسا للغات الشرقية بمدرسة المترجمين فى فينا ، وفى سنة ١٩٤١ عين مترجما فى الجيش الهندى فدرس أحوال الهنود عن كثب ، وترجم بعض الكتب الهندية - فى النثر والشعر - إلى الألمانية والإنجليزية ، وألف كتابا فى قواعد اللغة الأردية وقاموسا عسكريا ، وفى سنة ١٩٤٤ أسره الفرنسيون وبقى فى الأسر مدة ، ثم عاد إلى إلى النمسا وأصبح أستاذا للغات الشرقية فيها .

ورحل الدكتور أرنست إلى البلاد العربية ودرس فيها اللهجات العامية والآداب الحديثة والحياة الإسلاميه ، ونشر كتاب مراتب الوجود للجيلى مع ترجمة وشرح ، ونشر ديوان الشاعر الأندلسى أبى مدين دفين تلمسان ، وكلفته هيئة اليونسكو بتأليف كتاب عن التفاهم بين الشعوب العربية والشرقية ، وله كتاب عن الإسلام اليوم وغدا ، وكتاب إنشاء الرسائل الهندية .

وتزوج الدكتور بانرت سنه ١٩٢٨ وتوفيت زوجته سنه ١٩٥٥ وله ابنان وبنتان ، ومازال يواصل رحلاته العلميه بين الحين والحين .

— ٦ —

والدكتور بانرت معجب بأبى نواس والمتنبى والشعراء الأندلسين ، ويقدر تقديرا كبيرا طه حسين ، ومحمود تيمور ، ونجيب محفوظ ، وابراهيم الأبيارى ، ومصطفى السحرتى ، وعبد الله عبد الجبار ، ومحمد عبد الغنى حسن ويقول : إنه قرأ كثيرا للخفاجى وأعجب بانتاجه ، ويحنى رأسه إجلالا لتفكير محمد عبده الدينى التجديدى :

ومن القصائد العربية التى أعجب بها : تائية ابن القارض ، ومن الدواوين العربية الديوان الأكبر لابن عربى ، وأجمل ماقرأه ديوان جلال الدين الرومى وديوان ابن عربى ، ويلذ له المطالعة فى الاحياء للإمام الغزالى ، ومن الكتب التى أحبها : الأيام لطه حسين ، وقد حفظ الدكتور كثيرا من السور القصار من القرآن الكريم ، وهو يردد ماقاله جوته من أن القرآن كتاب غريب ، وقد يقرؤه العربى فيكرهه لأول وهلة ولكن إذا ما كرر قراءته يصبح معجبا به الإعجاب كله ومن الكتب الشرقيه التى يحبها الدكتور : ديوان حافظ لأن روح الفرس تشبه قليلا روح الألمانى ، ومن الشعراء الذين قرأ لهم الدكتور وأحبهم إقبال .

— ٧ —

والدكتور فى قراءته يحاول أن يعرف أسرار الروح الشرقية ، ولذلك درس الإسلام وقرأ الشعر العربى ، واطلع على آثار الحياة الشعبية ؛ وكان التصوف هو الموضوع الأول الذى لفت نظره كثيرا ، وقد قرأ تاريخ الآداب العربية والفارسية ، ومن الكتب التى ترجمها : مراتب الوجود للجيلى ، وشرح كتاب نصوص الحكم لابن عربى ، ويقول الدكتور : إن علم الكلام الإسلامى لابد أن يدرسه كل مستشرق ليقف على مختلف التيارات عند شتى الفرق الإسلامية . . ولفهم الحياة الشعبية الشرقية فهما واسعا لابد من الإلمام باللهجات الدارجة ودراستها دراسة علمية ، وهذا هو سر إهتمامه باللهجات الشعبية ومحاولته التعمق فيها .

إن الدكتور بانرت مثل عظيم لجهاد المستشرقين وتفكيرهم ، وقد كتب كثيرا من البحوث والدراسات ، ومن بينها : أثر الفلسفة الاسلامية فى أوربا وهو بالعربية ، والاسلام اليوم وغدا وهو بالألمانية . . وسواهما من المؤلفات والبحوث والدراسات .

— ٨ —

مؤلفات الدكتور بانرت وبحوثه :

١ ـ الانشاء فى اللغة الأردية ١٩٣٣ (بالألمانى)
٢ ـ ترجمة « الشكوى وجواب الشكوى » لمحمد إقبال (بالانجليزى) ١٩٤٦
٣ ـ كتاب تعليم اللغة الأردية ١٩٤٦
٤ ـ كتاب الأربعين مرتبة لعبد الكريم الجيلى « ترجمة وشرح » ١٩٥٦
٥ ـ ديوان الشيخ الصوفى أبو مدين ـ ترجمته وبيان مكانته فى الشعر العربى ١٩٥٧ .
٦ ـ الاسلام اليوم وغداً ١٩٥٨

الفصل الثالث

محمد إقبال شاعر الإسلام

— ١ —

فى الحادى والعشرين من إبريل عام ١٩٣٨ ، ودع إقبال الحياة بعد أن أدى رسالته فيها كاملة ، وبعد أن بلغ من المجد وذيوع الصيت مالم يبلغه شاعر ، وبعد أن ردد الشرق والغرب شعره وفلسفته وآراءه ، ولا عجب فقد كان إقبال شاعر الإسلام والسلام ، وشاعر الشرق بل الإنسانية ، وشاعر الحيـــاة والحرية ، والكفاح والنضال والقوة ، كان الشاعر الملهم ، الذى خلق لينشر دعوة التجديد والبناء والفكر الحر ، يقول محمد على جناح مؤسس باكستان ينعى إقبالا ـ وكان جناح آنذاك رئيس الرابطة الإسلامية : « كان إقبال شاعراً منقطع النظير ، طبق صيته الآفاق ، وستبقى كلماته حية أبدا ، وإن مساعيه لأمته وبلده لتضعه فى صف أكبر عظماء الهند ، وإن وفاته اليوم لخسارة كبيرة للهند عامة ، وللمسلمين خاصة » ، وكتب القائد الأعظم إلى ابن إقبال بعد وفاة أبيه يقول : « كان والدك لى صديقا ومرشدا وفيلسوفا ، وكان فى أحلك الساعات التى مرت بالرابطة الإسلامية ، كالصخرة لم يزلزل لحظة واحدة قط » .

وقال طاغور شاعر الهند : « لا ريب عندى أن ما ناله شعر إقبال من قبول وصيت يرجع إلى ما فيه من نور الأدب الخالد وعظمته ، ويقينى أن إقبالا عاملان الصدق والجمال فى الأدب ، ونحن نلتقى حيث يقدم القلب الإنسانى والعقل إلى عالم الإنسانية أجمل هدايا هما وأروعها ، لقد تركت وفاة إقبال فى أدبنا فراغا لن يملأ إلا بعد مدة طويلة ، وإن موت شاعر عالمى كهذا مصيبة لا تحتملها بلادنا » . وقد عاش طاغور بعد إقبال ثلاثة أعوام أو يزيد ، حيث توفى فى السابع من أغسطس عام ١٩٤١ .

— ٢ —

وإقبال هو المؤسس الروحى لباكستان ، فلقد أفضى بحلمه فى إنشاء دولة إسلامية فى الهند لأول مرة حين رأس مؤتمر حزب الرابطة الإسلامية فى الهنـد عام ١٩٣٠ ، وبعد ذلك بعشرة أعوام وبالتحديد يوم ٢٣ مارس ١٩٤٠ ، اتخذ

حزب الرابطة الإسلامية بزعامة محمد على جناح قراراً بتحقيق فكرة الباكستان ، ولم يعش إقبال حتى يرى حلمه ، وقد أصبح حقيقة واقعة ، بل لم تقم جمهورية باكستان الإسلامية إلا بعد تسع سنوات من وفاة هذا الشاعر العبقرى الرائد للحركة الإسلامية فى الهند ، وذلك فى ١٤ أغسطس عام ١٩٤٧ . وبذلك ارتبط تاريخ إقبال بتاريخ أمته ارتباطا وثيقا ، وأصبح اسم إقبال رمزاً لدولة ، وشعارا لأمة ، وعلما على كفاح شعب من أجل الحياة والحرية والبقاء .

— ٣ —

وقد خلف إقبال تسعة دواوين نظمهاشعراً بالأوردية والفارسية ومن أهمها : بيام مشرق أو رسالة المشرق ، وديوان مسافر ، وأسرار خودى أى أسرار الذاتية ، وجاويد نامه أى الكتب الخالدة ، وهو قصة سفر فى الأفلاك كالكوميديا الإلهية لدانتى الشاعر الايطالى الخالد ، وكرسالة الغفران للمعرى ، ويصور الشاعر فى هذه القصة لقاءه الكثير من الفلاسفة والصوفية والشعراء ، والملوك والساسة القدماء والمحدثين ، ويقص حواره معهم ، وهذه الدواوين كلها باللغة الفارسية ، وديوان ضرب كليم وهو باللغة الأوردية ، وتلك الدواوين وسواها تحمل فلسفة إقبال وتفكيره وآراءه فى الدين والأدب والفكر والحياة ، وكان يستوحى الشاعر الايرانى الصوفى جلال الدين الرومى : ٦٠٤ - ٦٧٢ هـ ، ويؤمن من أعماق نفسه أنه أدرك من أسرار الحياة مالم يدرك غيره ، وانه خلق ليبلغ العالم رسالة سوف يؤمن بها اليوم أو غداً ، وأنه شاعر الغد ، وصوت المستقبل إلى الحياة ، وكان إقبال يتخذ الحياة والعالم موضوعا لشعره ، الذى شمل ضروبا من الشعر القصصى والتعليمى والوصفى والوجدانى ، وتحدث إقبال فى شعره عن الإسلام والمسلمين ، والتربية والتعليم والفنون الجميلة والسياسة ، ووصل كل هذا بمذهبه فى الذات وتقويتها : ومن شعره قصيدته المشهورة « النشيد الاسلامى » التى يقول فيها :

الصين لنا والعرب لنا   والهند لنا والكل لنا
أضحى الإسلام لنا دينا   وجميع الكون لنا وطنا
علم الاسلام على الأيام   شعار المجد لمنتنا
قولوا لسماء الكون لقد   طاولنا النجم برفعتنا

دوت أنشودة إقبال جرسا يحدو فيه الزمنا
ليعيد قوافلنا الأولى في المجد ويبعث أمتنا

ويقول فى قصيدته « صوت إقبال إلى الأمة العربية » :

أمة الصحراء يا شعب الخلود من سواكم حل أغلال الورى
أى داع قبلكم فى ذا الوجود صاح لا كسرى هنا لا قيصرا

ثم يقول فيها :

كل شعب قام يبنى نهضة وأرى بنيانكم منقسما
فى قديم الدهر كنتم أمة لهف نفسى كيف صرتم أمما
كل من أهمل ذاتيته فهو أولى الناس طراً بالفنا
لن يرى فى الدهر قوميته كل من قلد عيش الغربا

ويشرح إقبال رسالة الشعر فى تأييد رسالة الحياة ، فيقول :

لم أدر سر الشعر إلا نكتة سير الشعوب تريدها تفصيلا
الشعر فيه من الحياة رسالة أبدية لا تقبل التبديلا

— ٤ —

وإقبال رائد من رواد الإسلام فى العصر الحديث ، وعلم من أشهر أعلامه ، وقد ملأته ثقافته الشرقية والغربية ، وصوفيته ، وخبرته وتجاربه ورحلاته إيمانا بوجوب البعث لشعوب الإسلام ، وبأن مبادىء الإسلام وحدها هى سر البعث ، بل هى التى فى استطاعتها بعث الروح والحياة فى جسم الإنسانية المريضة المتداعية ، وقد أقبل إقبال على دعوة الشعوب الإسلامية إلى الاتحاد وتكوين رابطة لها تكون قيمتها ومبادؤها بمثابة النور الذى يهدى العالم إلى الحق والخير والجمال والقوة والحرية والإخاء . ولقد قدم إقبال للإسلام خير ما فى الحضارة الحديثة من أفكار علمية وفلسفية ، وأخذ إقبال على عاتقه مهمة تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ، فى سلسلة محاضرات ألقاها باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٨ ، ونشرها عام ١٩٣٤ بعنوان « تجديد بناء الفكر الدينى فى الإسلام » .

وفلسفة إقبال ذات طابع دينى عميق ، وهى فى جوهرها تمجيد للإسلام ،

وبعث الحياة والقوة والأمل فى المسلمين ، وتبشير لهم بمستقبل مجيد ، إذا ساروا فى حياتهم على هدى الدين ونوره ، ويتغنى إقبال فى شعره بمآثر الإسلام ومفاخره وبطولاته وماضيه ، ويستمد من نيتشه نظرية الإنسان الكامل وفلسفته فى إرادة القوة ، فيقول :

يبتسم المسلم فى سلمـــه عن رقة الماء ولين الحرير
ونبصر الفولاذ فى عزمه إذا دعا الحرب ونادى النفير

ويقول معبراً عن شخصية المسلم وقوته :

ففرى لخلاق غنى عن خلقه فأنا الغنى وإن غدوت فقيرا !!

إن الإسلام عند إقبال هو رسالة الحرية والمجد والإخاء للشعوب وغايته هى دعم الحق والعدالة وإقرار الحرية ، وتوطيد المحبة بين الناس ، وهو يؤمن بأن الإسلام هو الذى سيخلف الحضارة الأوربية فى إسعاد العالم وبناء نهضته ، وديوان إقبال « بيام مشرق » صدى للديوان الذى نظمه جوته الألمانى بعنوان « الديوان الشرقى » .

ويؤمن إقبال بفلسفته « الذاتية » فيرى أن الذاتية هى أساس الحيـــاة فالإنسان ذات ، وحياة الإنسان تتضح بجلاء فى هـذه الذاتية ، فعلى الإنسان أن يبحث عن فطرته ، ويستخرج منها كل ما كنز فيها ، والاستقلال فى الفكر والابتكار فى العمل من أسباب تقوية الذاتية وتثبيتها وبنائها ، والمحن والمتاعب كذلك تقوى الذاتية فى الإنسان المسلم وتنميها .

وفلسفة إقبال فى الجمال والفن والأدب مرتبطة بفلسفته العامة ارتباطاً وثيقا وخاصة بذلك الجزء من فلسفته التى يطلق عليها اسم (فلسفة الذات) والفن عند إقبال ينبغى أن يصور لهيب الحياة الأبدى الذى لا ينقطع ، فلا قيمة للفن الذى يمرج شراراً واهنا لا يلبث أن يخمد ، والفن يجب أن يصور ذات الفنان ، وأن يعبر عن قوة الذات وحرقة الحياة ، والفنان عند إقبال يسعى دائما مسوقا بما فى نفسه من شوق إلى الكمال وعشق للجمال ليخلق فى ذاته وفى العالم من حوله مثلا أعلى خالدا ، فرسالته رسالة حياة وإيقاظ وأمل وحب .

وإقبال مؤمن إيمانا شديداً بفلسفة القوة ، معجب بها ، ولذلك الإعجاب

أثره فى نظراته إلى الجمال ، وهو يرى أن الجلال يفوق الجمال بما يتجلى فيه من قوة ، وما يبعث فى النفوس من رهبة ، فالشجاعة التى تتجلى فى ركوب الأخطار يرى فيها جلالا ، وسجود الأفلاك للقوة الإلهية رمز الجلال البالغ .

ومذهب إقبال فى الفنون عامة أنها تهدف إلى أن يتخلق الإنسان بأخلاق الله ، ثم يحقق خلافة الله فى الأرض ، وهى تقوم بقوة النفس التى أنشأتها وقوة إيحائها وتأثيرها فى الطبيعة والإنسان ، فكل فن اتصل به الضعف من جانب من جوانبه هو فن لاقيمة له ، ولانصيب له من الخلود .

ويرى إقبال أن الشعر جمال وجلال ، وأنه حياة وأمل ، وأن الشاعر الحق يدعو أمته إلى الجمال والخير والقوة ، ويحدوها إليها ، وينادى بها إلى المجد وعظمة المبادىء التى يؤمن بها الإنسان .

هذا هو إقبال فى روحه وفى فلسفته وتفكيره . إن اسم إقبال سيظل خالداً مع الخالدين ، جزاء ماقدم هذا الشاعر العظيم لدينه ووطنه والإنسانية عامة من من خدمات جليلة يذكرها وسوف يظل الدهر يذكرها بالفخر التقدير والإعجاب :

— ٥ —

ومن مختارات شعر إقبال(١) هذه الألوان البهيجة التى تصور فلسفته ونظرته للحياة

الموت والحياة :

المؤمنون على عناية ربهم يتوكلون
لا خوف يفزعهم ولا هم فى الشدائد يحزنون
لو مر أضعفهم على فرعون يجتز الرؤوسا
لأراك فى الإفصاح هارونا وفى الإيمان موسى
إنى رأيت الخوف فى الدنيا عدواً للعمل
هو مطفىء نور الرجاء وسالب كنز الأمل
يرمى الإرادة بالتزلزل والعزيمة بالخور
ومن احتواه الخوف لا يجنى من الخوف الثمر
المؤمن الوثاب تعصمه من الهول السكينة

(١) ترجمة محمد حسن الأعظمى والصاوى شعلان .

والخائف الهياب يشـ رق وهو فى ظل السفينه
تلقاه عند شبابه هرماً قد انحطت قواه
وتعثرت قدماه قبـ ل الخطو وارتعشت يداه
فى السلم قبل الحرب مسـ لوب الشجاعة حائر
الصبر عنه نافر واللب منه طائر
أعداؤكم يخشون سيـ ف يقينكم قبل السيوف
ومرامهم أن تصرعوا بالخوف من قبل الحتوف
حتى تروا نظراتهم مثل الخناجر فى الصدور
وهناك يقتطفونكم من أرضكم قطف الزهور
الحقد والكذب الصرا ح وكل مكر أو دهاء
واليأس والجبن المذل وكل غش والتواء
تلك الرذائل فى شعو ب الأرض أبواب الفناء
لولا التخاوف ما سمنـ ـا باسمها تحت السماء
الشرك يصنع من خيو ط الخوف أشراك البلاء
لولاه لم نسمع بكفـ ـر أو نفاق أو رياء
المؤمنون لهم من الـ ـمولى أمان الأولياء
بلغوا الكمال فهم عن الد نيا العريضة أغنياء
ثقة الكريم بنفسه تعلو به فوق الزمن
والحزن سم قاتل لا تشربوا سم الحزن
الموت والحرية الشـ ـماء والشرف المكين
هى خير ما نحيا به وهى الغنى للمؤمنين
أما المفضض والمذهب والمفوف والنضيد
فلقد تركناها لعباد الحطام وللعبيد
فى سكون المساء يختبيء الفجر وصمت الظلام حلم النهار
وسكون القبور يرقب للبعث قدوماً فى موكب الأقدار
آية المؤمن أن يلق الردى باسم الثغر سرورا ورضا

لأرى مؤمناً يخالجه الخو　　ف إذا أقبل القضاء عليه
يتلقى الردى بصبر جميل　　وابتسام الرضى على شفتيه
مات ولكن لم يمت　　فهو مخلد الثناء
له من الذكرى حياة　　لا يشوبها الفناء
إن شئت فاحى مثله　　قبل نهاية الأجل
إن الحياة فى الجهاد　　والخلود فى العمل
يخسر العقل نوره حين يأوى　　قانعاً بالهوان خوف الخسارة
إن فى لذة المتاعب ربحاً　　معنوياً يفوق ربح التجارة

الكعبة :

فى الكعبة العليا وقصتها　　نبأ يفيض دماً على حجر
بدأت بإسماعيل عبرتها　　ودم الحسين نهاية العمر

حياة الموت :

إن الجبان يموت فى أوهامه　　حذر الممات وخوفه يفنيه
والحر تسعده المواطن كلها　　بالعيش حتى موته يحييه
وأرى المنايا كالحياة تفاوتت　　فى سوقها الأقدار والأرواح
لا يستوى قتل الحسين وغيره　　هل يستوى المصباح والإصباح
العمر لا يقاس بالأعوام　　والعقل لا يقاس بالأجسام
واليوم من عمر أسود الأجم　　بألف عام من حياة الغنم

فلسفة الفقر :

يا عبيد المال والطين اسمعوا　　ما هو الفقر الغنى الأرفع؟
هو عرفان طريق العارفين　　وحياة القلب فى نور اليقين
ذلك الفقر عزيز فى غناه　　هامة الجوزاء من أدنى خطاه
يرعش الدهر اذا دوى صداه　　ليس غير الله فى الكون إله
خاشع لله ذياك الفقير　　وإليه خاشعاً يسعى الأمير

حاله شوق وذوق ورضا   ثم تسليم بما الله قضى
يا له فقراً به الكون صفا   فهو ميراث النبى المصطفى
ليلة المظلم للمجد سراج   يصنع الجوهر من أدنى زجاج!
ربما غير ناموس الفلك   وسرى فى نوره روح الملك
ذلك المسكين فى رقعته   يسع العالم فى مهجته
صامت ليس يطيل الكلما   وهو بالصمت يربى الأمما
يجعل العصفور نسراً فى الفضاء   فبدا للأرض تفسير السماء
مسلم دولته فوق الحصير   كان يخشى بأسه ألف سرير
يتلاشى الجر فى نيرانه   ويخاف البحر من طوفانه
لم يحد شعب عن النهج المنير   ولديه مثل ذياك الفقير!
فامتحن وجهك فى مرآته   عله يحييك من آياته
فقرنا ليس برقص أو غناء   ليس سكر النفس فى موت الرجاء
فقرنا معناه تيسير الجبود   فقرنا معناه تسخير الوجود
فقرنا الهادى سراج لو ظهر   يخجل الشمس ويزرى بالقمر
إنه إيمان « بدر وحنين »   إنه زلزال تكبير الحسين
صاح دعنى أكتم الهم الدفين   إن كأسى ليس يروى العابثين
من تكن همته نسج الحصير   فهو لا يعلم ما نسج الحرير
فليكن يوسف الذئب طعاما   ثم لا يصبح للضيم غلاما
ليس للشيطان فينا مطلب   لا، ولا للص فينا مأرب!
فكنوز الدين قد طارت شعاعا   وتراث المال قد أمسى ضياعا
منزل الشاهين فى أوج السحاب   ماله يسكن فى وكر الغراب!
لم يزل فى الروض ظل وثمر   فالتمس عشك فى أعلى الشجر
أيها الشادى بقرآن كريم   وهو كالصخرة فى البيت مقيم
قم وأبلغ نوره للعالمين   قم وأسمعه البرايا أجمعين
إن تكن فى مثل نار للخليل   أسمع النمروذ توحيد الجليل
من له من ثروة الهادى نصيب   فهو من جبريل فى الدنيا قريب
حينما آمنت بالله الأحد   لم أذل النفس يوماً لأحد

إن أكن فى صورة النمل خفاء　　لست أرجو من سليمان عطاء
ياغريبا عن ضياء المصطفى　　عد إلى الحق تجد نور الصفا

يقظات الصباح :

لقد دفنوا فى التراب البذور　　فلم تفن فى لحدها الهامد
ولم تنطفىء نارها فى الحياة　　على طول مرقدها البارد
لقد نسجت للحياة البقاء　　وصاغت من الزهر أبهى حلاه
نما غصنها زاهراً واستفاذت　　من الموت تجديد ذوق الحياة
حينما يسفر الصباح نديا　　ناصعا فى مواكب الإشراق
يغسل النور فى المشارق أدرا　　ن الدياجى عن حلة الآفاق
ويطير الكرى ويلتبه المشـ　　ـب وتصحو عزائم الكائنات
ويهب الأحياء فى البر والبحـ　　ـر ليستقبلوا عروس الحياة
وإذا كان للخلاق ناموس　　يرينا الصباح بعد المساء
فكذا تذهب الحياة ولكن　　بعد ليل الحمام صبح البقاء

قيمة الإنسان :

يا أيها المسلم إن　　الأرض والسماء لك
ضياؤك القدسى أعـ　　ـلا من شرارات الفلك
ماجئت فى الدنيا لتفـ　　ـنى وهى بالخلد تدوم
هل تصبح الشمس أقل　　قيمة من النجوم

الإنسان . . . والكون :

فوق السماء أيها الـ　　ـحر سموات أخر
وفوق هذا المجد فى　　دنياك مجد منتظر
بعد الحياة أيها المـ　　ـسلم تبدأ الحياة
صانع دنياك وأخـ　　ـراك معاً هو الإله
إن البرايا دول　　بها القضاء حافل

لم تنقطع من الطر   يق هــذه القوافل
فكم وراء عالم الـ   أكــوان من عوالم
فلا تضع حـــداً لما   فى النفس من عزائم
كل الذى تعرفه   ليس نهاية الوجود
فكم توارت مدن   وراء هذه الحدود
إن هدم العش فى البـ   ستان تنشأ الوكور
طر للخلود مؤمنا   ليس الجمود للطيور
فبعد هذا الظل يا   بلبل ماء وهواء
وجنة أخرى يطيـ   ب فى رياضها الغناء
الليل والنهــار للـ   آمال لا يتسعـــان
فاطلب مقـــاماً للعلى   فوق الزمان والمكان

متعة الهجر :

الوصل فى الحب غال   وقيمة الهجر أغلى
الوصل حلو ولكن   عواقب الهجر أحلى
فى القرب موت الأمانى   والعيش فيه فنـــاء
والبعد فيه حياة   يذكى ضياها الرجاء
إن اتقاد الأمانى   وحسن شدو الطيور
وضجة الخلق سعيا   فى العالم المعمور
والسحب حين تراها   تسق الربا والهضابا
والموج فى البحر يعلو   حتى يفوق الضبابا
وكل ما فى البرايا   من روعة وجلال
لولا يد الهجر فيه   لم يزدهر بالجمال

بعد الغروب :

يزعم الجاهلون أن المنايا   مغرب فيه للحياة انقضاء
أفلم ينظروا إلى الشمس يبدو   نورها بعد ما طواها المساء
تغرب النفس ثم يشرق صبح   فيه للنفس بالخلود انقضاء

في خضم الحياة :

في خضم الحياة يضطرب المو ج ولا يستقر في أي حال
ثوران الحياة في الكون باد كل شيء به رهين انتقال
كل ذرات هذه الأرض دوما في احتدام وثورة واشتعال
لا يغرنك في الجبال سكون قد يجيء السكون بالزلزال
ليس ذاك الثبات في الفلك الدا ئر إلا من خدعة الأنظار
لا تني في المسير قافلة الكون ولا تنتهي من الأسفار
عالم دائم التجدد موار الـ خطى ليس في الطريق بوان
لا يمل التغيير إلا خمول ليس يدري ما لذة الطيران

الحيـــاة :

الحياة الجهاد والجد والوثـ ـبة والعزم ماضيا والبكور
يقطف الزهر في الفروع ولكن فوق تلك الفروع تنمو زهور

تجدد الحياة :

فناء ملايين النجوم مبشر بأنوار شمس في السموات تولد
ونوم الردى سكر سيعقب نشوة بخمر حياة في الخلود تجدد

النهر الخالد :

من رؤوس الجبال ينحدر النهـ ـر طروب الأمواج عذب الأغاني
ينقل الطير عنه بين الروابي ما يبث الغصون من ألحان
كخدود الحور الحسان تراه في صفاء البلور حلو الخرير
ثم تمضي تلك المياه ضياعا في تلال منثورة وصخور
قطرات من النمـــير طوتها في ثنايا الرجال أيدي الفراق
ثم تجري بها الينابيع في الأر ض فتحظى بعد النوى بالتلاقي
فإذا النهر بعد ذلك في مجراه يحيي الزهور والأعشابا
فضة تنبت الزمرد في الأر ض وتسقي النخيل والأعنابا
وحياة الإنسان نهر سماوي توالت بسيره الأقدار

كلما غاض ماؤه عاد فيا ضا فما ينقضى له تيار
شعلة النفس لا تصير رماداً ضوؤها خالد على الأزمان
كل شيء يمضى وكل حياة تنقضى غير جوهر الإنسان

سر الخلود :

سر الخلود جرى مع الدم فى العرو ق وخالط الأرواح والأحياء
لم يحينا الرحمن فى الدنيا سدى وهو الحكيم مشيئة وقضاء
لما رأيت الموت يشملنا علمـ ت بأنه لن يستحيل فناء
الموت مثل النوم يبدأ سكرة ويعود صحواً دائما وبقاء

مراحل البقاء :

إذا سقطت زهرة فى الربيع فكم فى بساتينه من زهور
ويارب لؤلؤة حطموها لترفع فى التاج أو فى النحور
يغيب الصباح من المشرقين ويمضى المساء من المغربين
وما زال يقبل هذا وذاك جديدين فى حلة النيرين
مئات السنين مضت فى الحياة وما استنفدت بحر أزمانها
وكم أفرغ الشاربون الكؤوس وما زالت الخمر فى حانها
وكم زال أمس فوافى غد وكم أشرق النور بعد الظلم
يزول عن الأرض أفرادها وتبقى الشعوب بها والأمم

خلود الروح :

يعصف الموت بالجسوم ولكن ليس يفنى من قوة النفس شيا
تصعد الروح للخلود ويبقى عالم الغيب والشهادة حيا
لا تمت من مخافة الموت جهلا فبغير الأنفاس روحك تحيا

مجد الباقى :

ذلك المسلم من أندلس سيعيد العزم فى الشمس مكانه
من سقاه العشق يوما خمرة لم يعد فى السكر محتاجا لحانه

والليالى علمتنا عبرا ... فى الذى مر به غزو التتار
كفروا ثم اجتلوا نور الهدى ... فاهتدوا لما رأوا ذاك المنار
عرفوا الإسلام فانقادوا له ... وغدا أعداؤه ركن حماه
عزت الكعبة وانهار الصنم ... وهوى الشرك بتوحيد الإله
إن هذا العصر ليل فأنر ... أيها المسلم ليل الحائرين
وسفين الحق فى لج الهوى ... لا يرى غيرك ربان السفين
أنت كنز الدر والياقوت فى ... موجة الدنيا وإن لم يعرفوك
محفل الأجيال محتاج إلى ... صوتك العالى وإن لم يسمعوك
ليس فى الوقت فراغ فاعتزم ... واملأ الدنيا بأعمال شريفة
أنت نور الأرض تهدى أهلها ... لن يرى غيرك فى الأرض خليفة

القلعة الشماء :

نحن نهدى الخلق زهراً وثمارا ... وسوانا يبعث النار ضراما
كل نمروذ إذا أوقد نارا ... عادت النيران برداً وسلاما
نحن بالإيمان نبنى عزنا ... لا نبالى الموت أو نخشى الصداما
وإذا الباغى رمى فى غرسنا ... جذوة الظلم جعلناها ترابا
ذهب اليونان والرومان والـ ... فرس قدما وفراعين الزمان
وهدى الإسلام مازال على ... قمة الدنيا يدوى بالأذان

قوة اليقين :

معيشة الفرد خيال ... والبقاء للأمم
فكن فداء المبدأ الـ ... أعلى إذا نادى العلم
منزلك العلوى لا تحـ ... جب صرحه الغيوم
أنت من الجيش الذى ... غبار خيله النجوم
فى العالم الأول من ... مطالع الأنوار كنت
والناطق الأخير فى ... رسالة الرحمن أنت
قم وانشر التوحيد فى الد ... نيا ووحد الأمم

فأنت خير من دعا وأنت خير من حكم

الكون :

وتوديع أيام البراعيم مؤذن بخلق الزهور الباسمات جمالا
ومصنع هذا الكون بالخلق دائر فانى أرى فيه السكون محالا
وليس سوى التغيير فى الكون ثابت يغير حالا ثم ينشىء حالا

هاتف :

قد تغنى قلبى فأسمع أذنى نغماً فاق رنة الأوتار
وكأنى رأيت نهر حياتى نابعاً من صفاء عين سار
أزلى بعنصرى أبدى منزلى فى الخلود فوق المنازل
إن جسمى من التراب ولكن روحى البحر ماله من ساحل

قيمة الحياة :

رأيت الفراشة حول السراج تحوم على ناره بالجناح
فحاولت إنقاذها فانثنت تعاتبنى فى مقال صراح :
هبونى من دهركم لحظة أموج بها فى اللهيب اضطرابا
أنال بها شرفا فى الجهاد وأصبح من بعد هذا ترابا
أحب احتراق ، بنار اشتياق ولا أرتضى عيشة الخاملين
فناء الفراشة فى النار يعلو حياة الجبان طوال السنين

خواطر :

إذا كانت الأقدار سراً محجبا فان جهاد الحر يعلو لنا القدر
جهاد الفتى يعلو به فوق قدره وفوق الأمانى والمواهب والفكر
لقد بلغ الاسكندر القمة التى يقصر عن أدنى مواقعها الصقر !
رأى جبل الألوند أسياف جيشه فاذعن حتى ذاب من رعبه الصخر
وتيمور بين الفاتحين مضت له وقائع لم يسمع بهن زمان
يعرك شمل السهل والوعر جيشه كما انساب فى شلاله فيضان

بنور الجهاد الحق سار محمد　　بجيش على راياته الفوز إكليل
يكبر جند الله حول ركابه　　فيهتف بالبشرى وبالنصر جبريل
أرى فرصة الأعمال ومضة بارق　　يضيء سناها لمحة ويزول
إلى الفوز جاهد ما استطعت ولا تنم　　ففي القبر نوم بعد ذاك طويل!
منازل وادي الصامتين على البلا　　ستبقى بها حتى النشور مقيما
إذا العزم نادى فارم سهمك صاعدا　　على قبة الأفلاك وامض عظيما

نصائح :

الخضر قد قال له الاسكندر　　مقالة على الزمان تؤثر :
عش ساعة في لجج البحار　　ومت شهيد الموج والتيار
ولا تعش دهرك عيش الخامل　　مقيداً بين صخور الساحل !
الموت في الوغى وفي الميدان　　ولا حياة الأسر والهوان

جوهر الإنسان :

هوى سرير كيقباد　　وانطوى اكليل جم
فأصبح الكل رمادا　　مثل هيكل الصنم
أما أنا فلست أدرى　　أين يعلو نظرى
أنا تراب غير أن　　الشمس دون جوهرى

تحدى الفناء :

يعلو على الموت من تسمو إرادته　　وفي عزيمته صدق وإيمان
عمر الكواكب محدود وأنت إلى　　غير انتهاء بكأس الخلد ريان
يرى الجبان غزال القاع مرتعدا　　كأنه أسد في القاع ضرغام
والحر يلقى أسود الغيل مبتسما　　حتى كأن أسود الغيل أغنام
إن الشجاع يخوض البحر مقتحما　　كأنما الموج أزهار وأدواح
وموجة النهر في عين الجبان بها　　غول وحوت وتنين وتمساح
هل يدفع الخوف آجالا محتمة　　يجرى على الخلق في أحكامها القدر
ومن زكت نفسه بالطهر واكتملت　　فليس يلحقها من موتها ضرر

فن الشابى

— ١ —

للأديبة المصرية الجليلة نعمات أحمد فؤاد يد مشكورة بما أخرجت من كتب وبدراستها القيمة عن الشابى وشاعريته .

فكتابها القيم الممتع « شعب وشاعر » كان لابد لرابطة الأدب الحديث أن تحتفى به ، وأن تكرمها من أجله ، وأن تدعو لدراسته ونقده فى حلقة حافلة .

ولست أدرى : هل أثارنا الكتاب وكاتبته ، أو موضوع الكتاب وأهميته ، فأقمنا هذه الندوة ؟ وإن كان بين المؤلف والكتاب والفكرة التى يخدمها فيه صلات قوية متشابكة .

وتكاد أديبتنا نعمات أن تكون ظاهرة جديدة فى أدبنا المعاصر ، واهتمامها بالدراسات الأدبية العميقة ، مما يشرف الفتاة المصرية والعربية ، ويعلى من منزلتها فى الأدب والنقد والحياة :

وعندما نذكر نعمات فؤاد ، ونذكر بجانبها : سهير القلماوى وبنت الشاطىء وجميلة العلايلى وجليلة رضا وصفية أباشادى ، ثم نذكر معهن : الأديبة العربية الكبيرة وداد سكاكينى والشاعرة نازك الملائكة والأديبة الموهوبة سلوى الحومانى ، نعتز بكفاح المرأة المصرية والعربية فى سبيل الأدب ، ونقدر لها هذه الجهود المضنية فى إنارة السبيل ، أمام الجيـــل الصاعد من شبابنا : فتيانا وفتيات .

— ٢ —

مات الشابى عن خمسة وعشرين ربيعا ، قضى أكثرها طموحا مستزيداً من المعرفة والثقافة ، حزينا يأسى لأمته التى كان الاستعمار قد كبلها بالقيود والأغلال ، مستنهضا فى روائع شعره عزائم شعبه للثورة والكفاح والذياد عن حريته وكيانه إلى أن اتى الله فى التاسع من شهر أكتوبر عام ١٩٣٤ .

ومن «الشابية» فى أقصى الجنوب التونسى خرج هذا الشاعر العملاق ، الذى هزت قصائده الثائرة أعمـــاق الروح العربية هزا عميقا مؤثرا دفاعا إلى التحرر والتوثب والحياة :

ومن ميلاد الشاعر فى الرابع والعشرين من فبراير ١٩٠٩ م ، إلى طفولته فى البيت ، إلى حياته فى الكتاب ، إلى وفادته على العاصمة التونسية والتحاقه بالزيتونة ، عام ١٩٢٠ ، إحدى عشرة سنة ليس لها كبير خطر فى شعر الشاعر وفنه ، وإن كان قد استمد منها الشاعر بواعث إلهامه ، ومصادر شاعريته .

وكانت حياته فى جامعة الزيتونة الدينية سبع سنوات ، امتدت إلى عام ١٩٢٧ م ، ثم التحاقه بمدرسة الحقوق التونسية إثر ذلك ، وصلاته الأدبية بالنادى الأدبى فى المـــدرسة الصادقية ، وبأعلام الأدب التونسى فى شتى الأندية والاجتماعات الأدبية ، مما نمى فى نفسه ملكة الشاعر ، وموهبة الشعر ، ومما طبعه على حب الأدب والشعر وتذوقهما ، وجعله يقبل على نظم القصائد ، فى إصرار على الإجادة ، وبلوغ منزلة عالية فى القريض .

وتخرجه من الزيتونة عام ١٩٢٧ ، وزواجه إثر ذلك ، ثم تخرجه من الحقوق عام ١٩٣٠ وكذلك وفاة والده فى آخر عام ١٩٢٩ ، ثم مرضه بداء القلب ، كل هذه الأحداث كانت واضحة الأثر فى شعره وشاعريته ،

وقد بدأ ظهور الشابى فى الميدان الأدبى عام ١٩٢٨ ، عندما أخذ ينشر شعره فى المجلات والصحف الأدبية فى تونس ، ثم عندما طبع كتابه (الخيال الشعرى عند العرب) ، وإن كان الشعراء والأدباء التونسيون لم يولوه اهتماما ، أو يعيروه عناية ما .

وقد بدأ ينشر شعره فى مجلة أبولو فى أوائل عام ١٩٣٣ ، ومن ثم ذاعت شهرته فى مصر والعالم العربى ، وأولاه الأدباء والنقاد المصريون عناية كبيرة ، انتقلت عدواها إلى الأدباء العرب فى كل مكان ، فحياته فى حقل الأدب لم تمتد غير ست سنوات هى عمر شعره وشاعريته ، وهى كعمر الزهور فى إشراقها وتوهجها وجمالها ثم انطفائها فجأة .

ومع قلة آثار الشابى الشعرية قلة نلحظها فى ديوانه (أغانى الحياة) الذى نشره منذ عامين شقيقه الدكتور الشابى وزير المعارف التونسية ، فان هذه الآثار القليلة

هى التى خلدت الشابى ، ورفعت من منزلتـــه فى الشعر المعاصر ، ومن مكانته عند النقاد .

ومن منا لا يذكر قصائد الشابى : إرادة الحياة ، ونشيد الجبار ، وإلى طغاة العالم ، والحق ، والنبي المجهول ، ويا ابن أمى ، وفكرة الفنان ، وفى ظل وادى الموت ، والسعادة ، والأشواق التائهة ، ومن أغانى الرعاة ، وصلوات فى هيكل الحب ، والإيمان بالحياة ، وسواها من روائع فنه وشاعريته .. مما يمتاز بالطلاقة الفنية ، وعمق التجربة والإحساس والشعور ، والتحرر فى الأداء وروعة الألحان وعذوبة اللفظ وموسيقاه ، وظهور شخصية الشاعر وتتابع صوره الشعرية فى فى خفة ومرح وجمال .

فى هذه القصائد وسواها يتألق فن الشابى تألقا ساحرا ، يستبد بالإعجاب والتقدير .

ومن منا لم تدخل شغاف قلبه نشوة الجمال والحب عند سماع قصيدته :

عذبة أنت كالطفولة كالأحـ ـلام كاللحن كالصباح الجديد
كالسماء الضحوك كالليلة القمـ ـراء كالورد كابتسام الوليد

ومن منا لم تستبد بقلبه عاطفة الوطنية الثائرة الصادقة الملهبة عند سماع قصيدته :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

إن فن الشابى فى شعره ورومانسيته وفى هيامه بالطبيعة ، وفى وجدانياته ووطنياته الملهمة الأخاذة ، لما يعزز من منزلة الشعر العربى الحديث فى الحياة ، ويعلى من مكانة الشعراء ورسالتهم فى صميم المجتمع العربى الجديد

— ٣ —

ولقد تحدثت الأديبة الجليلة المؤلفة فى كتابها القيم عن فن الشابى حديثا قويا ممتعا عميقا ، امتلكت فيه زمام الإجادة والتفوق :

عرضت المؤلفة فى القسم الثانى الذى خصصته لدراسة فن الشابى لديوان الشاعر وشعره فى الطبيعة ، وشعره الوطنى الذى أثار به شعبه ضد الاستعمار الفرنسى المدمر بالتحليل والتفصيل ، ودرست المنابع الفكرية لشعر الشابى وصلاته بمدرسة المهجر .

وبدأت فذكرت رأى الشاعر فى شعره ، وتعريفا مأثوراً له الشعر ، حيث يحدده بأنه « تصوير وتعبير » ، تصوير للحياة وتعبير عنها .

ثم تستقصى آراء النقاد فى منزلة الشابى فى الشعر العربى المعاصر ، وتناقش من يذهبون إلى عد الشاعر فى طليعة الرواد فى شعرنا العربى اليوم . وترى أن أنفس ما فى ديوانه : شعره فى الوطنية ، وغناؤه بالطبيعة ، وصلواته فى هيكل الحب .

وعرضت المؤلفه للنقاد الذين أكثروا من دعوى التقليد فى شعر الشابى ، وأنه حاكى فيه بعض الشعراء الأوربيين ، مثل لامارتين وسواه ، وتنفى قصة التقليد هذه عن الشابى فى قوة وإجادة ، وتقول المؤلفة الفاضلة : « هل شرط محتم أن يكون كل صوت نسمعه فى ديارنا صدى لآخر بعيد ؟ إن حدة الإحساس ورهافته ، إذا توفر لها نبل الغرض ، تستطيع أن تجعل الحب موضوعا للتأملات السامية والذهول العميق ، ولو لم يقرأ صاحبها لامارتين ، ألم نعجب قصة رفائيل للامارتين - التى يقولون عنها إن الشابى قرأها وتأثر بها - الكثيرين من أدبائنا وشعرائنا ؟ فلماذا لم نتواجد بيننا من يغنى للطبيعة غناء الشابى ، مادام الإعجاب الشديد وحده يكفى للانطباع » .

ثم تستدرك المؤلفة قائلة : لست بهذا أنفى بصفة قاطعة أن يكون الشابى قد تأثر بلامارتين ، ولست أدافع عن مبدأ التأثر ، فما بالعيب الذى يستحق الدفاع أن يتأثر فنان بفنان ، ولكن وجوه التأثر التى ذكرها الناقد - وهو الأستاذ محمد الحليوى الأديب التونسى المعروف - لا تحتاج بالذات إلى التماس الأسباب من تأثر أو احتذاء » .

ثم تتحدث المؤلفة عن خصائص فن الشابى ، وتذكر آراء النقاد ، وتعود إلى نفسها ، لتسجل ولوع الشابى بالنغم يوفره لقصائده ، وثروته اللفظية ، وقوة إحساسه ، وتقف عند قوافى الشاعر لترى مدى تجديده فى هذا الجانب ، وتنقد بعض أساليبه .

ويرى الدكتور عمر فروخ أن شعر الشابى لا يدل على أثر لثقافة واسعة ، فتنقد المؤلفة هذا الرأى قائلة : « إن مهمة الشاعر ليست فى أن يصنف موسوعات

علية ، وهو بعد يجب أن يستوحى قلبه أولا ، فن الشعور لا العقل اشتق الشعر .

وتتحدث المؤلفة عن فن الشاعر فى الطبيعة ، وعن عبقريته فى هذا الجانب من شعره ، وتنقد رأيا للدكتور عمر فروخ الذى يستهين بشعر الشابى فى الطبيعة ، مستعرضة آراء النقاد التى تؤيد أن الشابى قمة شامخة من بين الشعراء الموهوبين الذين ظفرت الطبيعة فى شعرهم بنصيب كبير .

وتعود إلى الشعر الوطنى عند الشابى تدرسه بإفاضة ، وتدرس مختلف الآراء فيه ، دون أن تترك رأيا إلا ناقشته ، ولا فكرة إلا عرضتها ، مفيضة فى نقاشها الدكتور عمر فروخ ورأيه فى شعر الشابى فى الوطنية فى كتابه « شاعران معاصران » .

وتخصص المؤلفة الموهوبة فصلا تتحدث فيه عن صلة الشابى بمدرسة المهجر ، فتتعمق فى بحث أثر جبران فى الشابى ، مشيرة إلى أثر أبى ماضى فيه ، مستقصية مختلف الآراء فى هذا الباب ، وتعرض بالنقد لرأى الدكتور أبى شادى ، الذى نفى أن يكون للشابى صلة بالمهجريين ، وذهب إلى أصالة الشاعر وبعده عن التقليد والتأثر جملة ، وأن أية مشابهة بين شعره وبين بعض شعراء المهجر هى من باب المصادفة لا أكثر ، ويؤكد الدكتور أبو شادى أن أعظم التجاوب للشاعر كان مع زملائه شعراء مدرسة أبولو ، وتقابل المؤلفة رأى أبى شادى هذا برأى أديب تونسى يؤكد تلمذة الشابى على أدب جبران ، وتوضح المؤلفة الصلات الفنية بين شعر الشابى وبين شعر وأدب جبران وشعراء المهجر ، وهذه الصلات تدور حول الرومانسية والشكوى ونقد المجتمع والعزلة أو الهروب إلى الغاب . وتشير إلى ما بين الشابى وأبى ماضى من تشابه فنى فى بعض الأحايين ، وبذلك تنتهى دراسة المؤلفة لفن الشابى .

ومن الجدير بالانصاف أن نقرر أن الأديبة المصرية نعمات فؤاد قد أجادت فى هذا القسم إجادة باهرة ، ووفقت توفيقا كاملا ، وكان توفيقها أعظم ، وهى تستعرض كل رأى ، وتناقش كل فكرة ، وتنقد ما يجب نقده من هذه الآراء والدراسات .

إنى أهنىء المؤلفة الجليلة بهذا الإنتاج الأدبى المشرف ، ونود أن تهنئها قريبا

وهى تحمل الدكتوراه وتحتل منزلتها الصحيحة فى أروقة الجامعة المصرية وحلقاتها العلمية والأدبية .

ورحم الله الشابى ، وعطر فى العالمين ذكراه ، ذكرى المجاهد الذى مات وهو يغنى :

ياصميم الحياة كم أنا فى الدنـ   يا غريب أشـقى بغربة حسى
بين قوم لا يفهمون أناشيـ   ـد فؤادى ولا معانى بؤسى
فى وجود مكبل بقيود   تائه فى ظلام شك ونحس

والذى عاش وهو يغنى :

ليت لى قوة العواصف ياشعـ   ـبى ، فألقى إليك ثورة نفسى
ليت لى قوة الأعاصير ، لكن   أنت حى يقضى الحياة برمس
أنت لاتدرك الحقائق إن طا   فت حواليك دون مس وجس
ها أنا ذاهب إلى الغاب ياشعـ   ـبى لأقضى الحياة وحدى بيأسى
ها أنا ذاهب إلى الغاب على   فى صميم الغابات أدفن نفسى
ثم أنساك ما استطعت فما أنـ   ـت بأهل لخمرتى ولكأسى

مواكب الحرية فى مصر الإسلامية

نحن هنا فى هذا الكتاب المفيد الظريف أمام مواكب حافلة من تاريخ مصر فى خلال عصورها ، يعرضها المؤلف عرضا شائقا ، ويستخرج منها مواطن العزة والكرامة المصرية فيما مر بمصر من أحداث على مدى العصور ، ويقف أمام الحادثة التاريخية فيدلنا فيها على مواطن البطولة وموضع النضال فى سبيل الحرية والاباء . ويسجل المؤلف أول موقف للبطولة العربية فى مصر حينما دخلها عمرو بن العاص فاتحا . ومن حينها تتوالى صور البطولات ومواكب الحرية جيلا بعد جيل . ولا ينسى المؤلف أن يحدثنا عن أول أسطول لمصر الإسلامية ، حينما كان يسير

التتمة فى ص ١٢٢

الوطنية فى شعر التيجانى بشير

فى إشراقة الشباب ، وابتسامة الحياة ، وضحوة العمر ، مات التيجانى يوسف بشير عام ١٩٣٧ ، عن خمسة وعشرين ربيعا ، كان قد نضجت فيها شاعريته ، واكتملت موهبته ، وتفتحت ملكاته . . ولكن سرعان ما صمتت إلى الأبد هذه القيثارة الساحرة ، بعد أن عزفت لشعب وادى النيل الروائع من شعر المجد والعزة والحرية والوطنية .

كان التيجانى يؤمن بمصر إيمانا عميقا ، ويولى وجهه شطرها فى الثقافة والفكر والأدب ، ويعتز بها اعتزازه بروحه ، يعتقد أنها بحق أم الشعوب ، ومهبط الحضارة ، ومبعث الهدى وملهمة الفكر ، ويراها دين الشباب فى الحضر الراقى ، وفى البادية النائية ، فى كل مدينة وقرية ، وكل بقعة وضاحية .

ولم يكن التيجانى قد تلقى تعليمه فى مصر ، بل فى معهد أم درمان فى السودان ومع ذلك فقد تتلمذ على ثقافة مصر وأدبها وتآليف كتابها ودواوين شعرائها حيث بهرته أضواء العقل المصرى ، ونزعاته الحرة الهادية فى البحث والتفكير وفهم الحياة .

وكان إيمان التيجانى بمصر إيمانا بالوحدة الخالدة بين شطرى الوادى ، هذه الوحدة التى تستمد من الدين واللغة والدم والآمال والالام والمصالح المشتركة ، وتستمد كذلك من النيل شريان الحياة فى الشمال والجنوب ، كل مقوماتها. هذه الوحدة التى هى حقيقة خالدة من صنع الله ، وشعور أبدى بروابط الفكر والحياة ، وحنين متصل إلى الحرية والقوة والمجد ، كما يعبر عن ذلك كله التيجانى بشير فى قصيدته «ثقافة مصر» ، التى مجد فيها إيمانه بالتاريخ ، وبالنيل وبمصر ، وبثقافة مصر ، أعظم تمجيد ، ويقول التيجانى فيها :

عادنى اليوم من حديثك يا مصـ ـر رئى ، وطوفت بى ذكرى
وهفا باسمك الفؤاد ، ولجت بسمات عـلى الخواطر سكرى

ويؤكد فيها وحدة الشعبين طول عصور التاريخ ، فيقول :

إنما مصر والشقيق الأخ السو دان كانا لخافق النيل صدرا

حفظا مجده القـــديم وشادا   منه صيتا ورفعا منه ذكرا

ويستمر الشاعر فى هذا النشيد العذب الرائع فيقول ، مؤكدا ما بين شعبى وادى النيل من صلات باقيات على الزمان :

أفلسنا إلفى هـــوى جمعتنا   سرحة الفكر فى أواصر كبرى ؟

ويؤكد كذلك فضل مصر على السودان طول عصور التاريخ ، إلى أن يقول :

كيف يا قومنا نباعد من فكـ   ـرين شدا ، وساندا البعض أزرا ؟
كيف قولوا يجانب النيل شطيـ   ـه ، ويجرى على شواطىء أخرى ؟
كلما أنكروا ثقافة مصر   كنت من صنعها يراعا وفكرا

والقصيدة عميقة فى نزعتها الوطنية الحرة ، وفى منهجها الفنى الجميل المتحرر ، وهى من أروع قصائد التيجانى جمالا وسحرا وقوة .

وعن مثل هذا الشعور يصدر التيجانى فى قصيدته « رسل الشباب فى مصر » التى يتحدث فيها عن هذه الوحدة الوثيقة ، وعن استعداد الشباب للكفاح من أجل حرية مصر والوادى ، وعن منزلة مصر فى قلوب شباب السودان ، وشعبه الأبى :

كان التيجانى نزاعا بطبعه إلى الحرية ، فعارت نفسه على حبها ، وأشرب قلبه هواها ، مما يعبر عنه فى قصيدته « نفس » التى يقول فيها :

سبحانك اللهم نفـ   ـس كلها عطف ولين
وتر من الناى المقد   س من بقايا المرسلين
من قدس داجية الشعـــور ، وطهر واضحة الجبين
من كل سحر فى الوجو   د ، وساحر فى العالمين
صيغت فكانت حرة   أبدا على مر السنين

وقد ظهرت هذه النزعة الحرة فى شعر التيجانى ، الذى كان تعبيرا واضحا جميلا عن البيئة والمجتمع والشعب وحياة الوادى وآماله وكفاحه فى سبيل الحرية والاستقلال ، ومن ثم انتظم شعره الألحان الوطنية ، والأناشيد القومية ، كما فى قصيدته « الزاهد » التى يذكر فيها ميلاد الثورة السودانية الكبرى ، وكما فى

قصيدته الأخرى « ثورة » التى أجج بها الشعور الوطنى ، وأيقظ الحماس فى قلوب السودانيين كافة ، وأعلن ثورته العاصفة على الاستعمار وصنائع الاستعمار ، وفيها يقول فى تصميم وقوة :

قف بنا نملأ البلاد حماسا ونقوض من ركنها المرجحن
هى للنازحين مورد جود وهى للاهلين مبعث ضن
يستدر الأجانب الخير منها والثراء العريض فى غير من
ابطرتهم بلادنا ، فتعالى ا ن أنينا ، واستكبر الأرمنى

ولقد قضى التيجانى حياته الزاخرة بالآلام ، المليئة بحب الكفاح والنضال برما بمعاصر أهله وقومه ، معذبا بحياة شعبه الذى عانى من الاستبداد والاستعمار ما عانى ، والذى اتخذ منه الانجليز بقرة حلوبا لهم ولصنائعهم ، وشاهد التيجانى جانبا من الأحداث الكبرى فى تاريخ السودان المعاصر ، ومنها ثورة الشعب على الاستعمار الانجليزى عام ١٩٢٤ ، وكان يرى أنه خلق ليكون شاعر الشعب ورائده إلى الحرية ، فأخذ ينظم القصيدة تلو القصيدة ، يضمنها الكثير من عواطفه الوطنية النبيلة ، ويشعل بها نار الثورة فى صدر شعب السودان ، ويشير فيها – فى تصريح حينا ، وتعريض حينا آخر – إلى الاستعمار وشقاء البلاد به ، وينوه بجهاد المجاهدين من أبناء السودان ومصر من أجل حرية الوادى ومستقبله ويسكب ذوب روحه ، وعصارة ذهنه ، وفيض وجدانه الدافق ، فى تصوير أحوال قومه وأحزانهم وآلامهم ، حفزا للشعور ، واستنهاضا للنفوس المكلومة لتصحو من غفوتها ، وتهب من رقدتها ، وتنهض لتلحق بركب الحياة ، وكان قلب الشاعر يخفق بلواعج الحب لبلاده ، والإخلاص لأمته ، وكان عقله الذكى يصور تجمع الوعى الوطنى ، والثورة العارمة التى تسرى فى نفوس الملايين ، تصويرا قويا مؤثرا ، يقول فيما يقول :

أرى ثورة ، وأرى أنفسا ظماء كآمالها تحتدم

ويقول فى بعض المناسبات :

شاعر الشعب كم يعبر عن شجو ، وكم يستفز وجدا عميقا؟
يفتح الكون بالقصيد ، ويغزو كل نفس بنفسها أو لهيقا

على أن هذا الشعور الملتهب فى نفس الشاعر بوحدة الوادى ألهمه روائع الآيات فى النيل نهرنا الخالد ، وشريان الحياة فى الوادى الخصيب ، النيل الذى وثق عرى الإخاء بين الجنوب والشمال ، فتراه يتحدث عن مجد النيل فى التاريخ فى قصيدته « فى محراب النيل » حديثا عميقا مؤثرا .

ومن شعره الوطنى قصائد نظمها فى حملة رسالة الجهاد من أجل الحرية فى الجنوب ، ومن مظاهر هذا الشعر الوطنى كذلك هذه الأوصاف الجميلة للطبيعة ومشاهدها الساحرة فى السودان ، مما نراه فى قصيدته « الخرطوم مدينة الشعر والجمال » أو فى قصيدته « توتى فى الصباح » وهى من بديع شعره فى الطبيعة ، وتوتى جزيرة مشهورة أمام الخرطوم ، أو قصيدته « من أغوار القلب » التى وصف فيها الربيع فى السودان واستقبال روحه لجمال الربيع الأبدى . . إلى غير ذلك من صور الوطنية ومظاهرها فى شعر التيجانى بشير ، هذا الشاعر الذى يعد أحد رواد الحرية فى جنوب الوادى .

ولقد كان لمصر فضل التنويه بعبقرية التيجانى وشاعريته وشعره ، فى حياته وبعد مماته ، فكانت قصائده تنشر فى أمهات الصحف والمجلات فى مصر ، وطبع ديوانه لأول مرة فى مصر بعد وفاته ، وكرمت مصر ذكراه فى مناسبات مختلفة ، ولولا عناية مصر وأدبائها ونقادها بالتيجانى لكان كأكثر شعراء السودان الذين لفهم الخمول بأرديته الكثيفة .

وعن خمسة وعشرين عاما مات التيجانى ولم يترك وراءه سوى ديوانه الصغير « إشراقة » الذى يحتوى على ست وستين وقصيدة ، تمثل أروع الإلهامات الشعرية ، المعبرة عن شاعرية موهوبة ، ليس لها مثيل فى تاريخ السودان الحديث

ليت شعرى لو عاش التيجانى بشير ، حتى شاهد ثورة مصر ، وتأميم القنال ، وقيام الجمهورية العربية المتحدة ، ماذا كان يقول لشعبه ، وللطبقة الحكام فى بلاده الذين صنعهم الاستعمار على عينه ، وساروا وفق مشيئته ، وأخذوا يبعدون السودان عن سياسة التحرر والحياد والاتحاد ، ويلقون به فى أحضان المستعمرين والأحلاف العسكرية ، التى لا ترضى حتى تتخذ منه قاعدة للهجوم على الحركات التحررية فى أفريقيا ، ولكن الأمل قوى فى وعى الشعب السودانى المجيد ، وفى يقظة الشباب السودانى النبيل ، وسلام على الأحرار فى كل مكان .

شخصية لا تنسى

— ١ —

فى الرابع عشر من نيسان ١٩٥٥ نشرت الصحف فى مصر نبأ وفاة الدكتور أحمد زكى أبو شادى فى واشنطن ، وكان هذا النبأ فاجعة كبرى لكل أديب ومفكر فى مصر . بل فى العالمين العربى والإسلامى ، بل فى جميع الأوساط الفكرية والأدبية فى العالم كله . . وقد كنت مع لفيف من إخوانى وأصدقائى نكذب هذا النبأ الدامى ، بل كنا فى الحقيقة نفزع من شدة وقعه على نفوسنا بتكذيبه ، ولكن سطوة الحقيقة وان أذهلتنا أخيرا ، كان لابد لنا من التسليم بها ، والسكون إليها . . . وفقدت مصر ، وفقد العالم كله مفكرا حرا أصيلا ، مفكرا ذا رسالة عاش من أجلها ، وضحى فى سبيلها بكل مايستطيع ، ولم يبال بمستقبل حياته ، ولا بمستقبل أسرته وأبنائه ، مادام يرضى ضميره ونزعته الحرة المتأصلة فى دمه وروحه .

— ٢ —

ومضت أربع سنوات على موت الدكتور أبى شادى ، ولكنه لم يمت حقا ، لم تمت رسالته ، ولم يمت كفاحه وجهاده وفكره ، وترك له أصدقاء وتلامذة فى فى جميع أنحاء العالم . وترك تراثا أصيلا أفادت منه الثقافة والإنسانية واللغة العربية فوائد جليلة ، وتتلمذ على أدبه طبقات كثيرة من الأدباء فى كل مكان تحيا فيه اللغة العربية وآدابها . .

— ٣ —

ولقد جمعتنى بأبى شادى صلات روحية وثيقة ، من أجلها كتبت عن أبى شادى كتابى « رائد الشعر الحديث » الذى ظهرت طبعته الأولى فى جزء واحد عام ١٩٥٣ ، وطبع مرة أخرى عام ١٩٥٥ بعد وفاة الدكتور بقليل عام ١٩٥٥ — فى جزئين . . وكنت أراسل الدكتور أبا شادى وهو فى نيويورك ، ثم وهو فى واشنطن باستمرار ، وكانت رسائله إلى تغنينى فى التعرف على نفسه وشخصيته .

وكان أهم طابع فى حياة أبى شادى هو الطابع الإنسانى ثم طابع الأستاذ الرائد ذى الرسالة، ثم الطابع التحررى الذى يصحبه نزعة حرة بانية متفائلة مكافحة.. ومن أجل رسالته كافح أبو شادى كفاح الأبطال، وضحى تضحيات جساما ذات قيمة.. ولم يبال بأعباء الشيخوخة والغربة والنضال طول حياته فى المهجر الأمريكى بل طول حياته عامة.

— ٤ —

والانتهازيون وطلاب المنفعة فى الحياة كثيرون، وفى حياة أبى شادى وصداقاته ظهر مئات من المنتفعين الذين عاشوا على أدبه، بل على جاهه وماله، ثم تنكروا له، تنكر له بعضهم فى حياته وتنكر له البعض الآخر بعد وفاته، بل إن كثيرين فى مصر ظهروا بمظهر التلميذ الوفى لأبى شادى حيا وميتا، ومع ذلك فقد كانوا نكبة على أبى شادى وعلى أدبه معا، شوهوا بحمقهم أو جهلهم حقائق نضال أبى شادى الفكرى والأدبى الذى استمر خمسين عاما حتى توفى فى المهجر، والذى سوف يستمر أجيالا طوالا ذكرى خالدة لمفكر خالد عظيم... وكان أبو شادى طول حياته، وبتأثير نزعته الإنسانية يثق فى كل الناس، ويمنحهم عطفه وآثار أستاذيته، ومع ذلك فقد كانت الأمور تتكشف له عن حقائقها بعد حين فيألم ويزداد ألمه، ويعجب كيف تعيش فى أوساط الأدباء جرائم الانتهازية والنفعية، وقد صور كل ذلك فى شعره، وخاصة وهو فى المهجر، تصويرا بارعا عجيبا.

— ٥ —

ولقد كان أبو شادى مدرسة كاملة فى الشعر المصرى المعاصر، مدرسة لها خصائصها ونزعتها وأهدافها، بل يكاد يعد بدء المدارس الحديثة فى الشعر العربى، وقد أنشأ فعلا مدرسة شعرية سميت باسم « مدرسة أبولو »، ولا تزال البحوث تكتب حولها كل يوم، وطلاب الجامعات فى مصر اليوم كثيرا ما تكون (مدرسة أبولو) أو (أحمد زكى أبو شادى) موضوع رسائلهم الجامعية، وتتمثل فى دواوين أبى شادى نزعته الحرة الطليقة فى فهم الشعر وبنائه الفنى وفى تقديره لرسالته أيضا وإذا كان أبو شادى يعترف بأثر مطران عليه فى حياته الأدبية، فانه كان أثرا صاحبه وهو فى مطلع حياته الأدبية، ثم وقف أبو شادى يمثل ظلالا

عديدة ، هى من جانب جديدة . وهى من جانب آخر امتداد لروح مطران فى الشعر وفهمه أيضا :

— ٦ —

وآثار أبى شادى المطبوعة وغير المطبوعة تمثل مدرسة فكرية جديدة فى تاريخ العقل العربى ، كما مثلت مدرسة أدبية جديدة فى تاريخ الآداب العربية المعاصرة ، وسوف تقترن ذكرى أبى شادى دائما بتراثه وبكفاحه وبروحه الحرة الرائدة ، وقد يكون أبو شادى لم تفهمه بعد العقلية المحافظة فى حياة الفكر العربى المعاصر ، ولكن يكفى أن يكون له قيمة ضخمة فى حياة هذا الفكر ، ويكفى اهتمام النقاد به وبشخصيته ووزنهم له ولأدبه بميزان هذا التقدير والإعجاب والحمد . . وسوف تمر ذكريات عديدة ، يحتفل فيها العالم بذكرى أبى شادى ، كما تحتفل به وبذكراه وبأدبه رابطة الأدب الحديث فى القاهرة : : لكن القيمة الفكرية فى أدب أبى شادى أضخم بكثير من اهتمامات الأدباء والنقاد والباحثين . تتمة صفحة ١١٥

فى البحر يتحدى الأسطول الرومانى ، ولا يفوته أن يستخرج العبرة من كل حادثة ، ليوازن بين الأمس واليوم ، وليدل على أن قوانين الطبيعة وسنن التاريخ ، وقواعد الدول لابد أن تأخذ مجراها . فيوازن بين حريق الفسطاط فى العهد الفاطمى وحريق القاهرة فى عهد الملك المخلوع فاروق ويوازن بين انتصارات صلاح الدين الأيوبى بالأمس ، وانتصار العروبة الموحدة اليوم فى كفاحها ضد الاستعمار . ويطيل الوقوف فى مواقف النصر وأيام التغلب فى عهد صلاح الدين ، لعل المسلمين يتخذون من ذكراها باعثا لهممهم ، ويصف انهزام التتر فى موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ على يد الجيش المصرى الباسل ، فكان انتصار مصر والعرب تحقيقا للسيادة والبطولة ، ودليلا على القوة الكامنة فى دماء هذا الشعب الحر النبيل . ويستعرض المؤلف مواقف خالدة لبعض العلماء فى مصر ، دافعوا فيها عن حرية الشعب وكرامته ، فكانوا خير لسان معبر عن إرادة شعب مكافح صبور — مجلة بريد الكتاب ، فبراير ١٩٥٨

موسى الطالقانى

- ١ -

الطالقانى من أسرة عراقية عريقة فى العلم والادب ، ومن أقدم البيوت فى النجف الأشرف ، هاجر جدهم الأعلى السيد جلال الدين الحسينى من طالقان بايران عام ٩٣٥ ﻫ إلى النجف... ومنها : السيد عبد الحسين الطالقانى « ٩٧٣ - ١٠٦١ ﻫ » ، والسيد حسن مير حكيم الطالقانى « ١٠٤٠ - ١١٢٨ ﻫ » وهو من مشهورى العلماء فى عصره ، والسيد حسين الطالقانى « ١٠٨٨ - ١١٦٢ ﻫ » والسيد أحمد الطالقانى الكبير « ١١٣١ - ١٢٠٨ ﻫ » ، والسيدعبدالله الطالقانى « ١٢٠٨ - ١٢٨٥ ﻫ » والسيد محمود الطالقانى « ١٢٤٨ - ١٣١٩ ﻫ » ، والسيد مشكور الطالقانى « ١٢٨٢ - ١٣٥٤ » ، وسواهم .

والسيد موسى الطالقانى من صدور علماء الأدب ، ومشاهير شعراء العراق فى القرن الثالث عشر الهجرى ، ومن المعاصرين للسيد محمد سعيد الحبوبى .

ولد فى النجف ، وتتلمذ على علمائها ، وعلى والده من بينهم ، وهو السيد جعفر الطالقانى من أعيان علماء عصره ، وظهر ذكاؤه اللماح ، وتحصيله الكثير وما زال مكبا على العلم والأدب ، حتى صار من المرموقين فى علوم الدين واللغة والأدب والشعر ، ونظم القصائد البليغة ، واعترف له معاصروه بالتفوق فى الأدب والشعر ، وعده البعض من شعراء الطبقة الأولى فى عصره .

ويقول عنه محقق ديوانه السيد محمد حسن آل الطالقانى : « لم يدع فنا من فنون الشعر التى اقتضتها حياته إلا أخذ منه النصيب الوافر لذلك جاء شعره صادقا عن حياته وحياة معاصريه ، على أن فن الغزل لديه أظهر من سائر فنونه » .

وقد تأثر الطالقانى فى شعره بالشريف الرضى ، وكان له فوق شعره نثر بليغ وكتابات فصيحة ، وقد ألف عدداً من الكتب فى مسائل الدين .

والديوان يقع فى نحو الخمسمائة صفحة من القطع الكبير ، عدا المقدمات التى صدر بها الديوان ، وتقع فى ٨٤ صفحة ، وفى صدر الديوان كلمة للإمام كاشف

القطاء ، ويشتمل الديوان على أبواب : المدائح، الوجدانيات ، التهانى ، الموشحات الحماسيات ، التخميس ، التشطير ، المراسلات ، الاخوانيات ، المتفرقات .

وقد حقق الديوان الأديب البارع ، والشاعر المبدع السيد محمد حسن آل الطالقانى تحقيقا جليلا ، ينم عن جهد وأصالة فى البحث ، وروح علمية نادرة ، وطبع الديوان فى النجف عام ١٩٥٧ م .

ومن صور شعر الطالقانى ما قاله فى الغزل :

يا سقيم الجفون جفنى سقيم ··· وغرامى كما عهدت مقيم
مذ آنست فوق خدك نارا ··· صعقا خر منك قلبى الكليم
أنا (موسى) وكل من لامنى فى الـ ··· ـحب فرعونها الظلوم اللئيم
بى أفدى من جاء يلفت جيداً ··· مثلما ريع فى الصريمة ريم
يتشكى الهوى إلى ويبدى ··· أن داء الغرام فيه قديم

وهو شعر غنى بطاقته الفنية وأصالته وروحه النفسية الشاعرة . ومن شعر الديوان أيضا قوله :

من العدل أن أبكى وثغرك باسم ··· وتسهر أجفانى وجفنك نائم
وأدعو - فلا تصغين - دعوة سيد ··· تلبى نداه فى الهياج الصوارم
أسرك أن أطوى الضلوع على الغضا ··· متى سجعت فوق الغصون الحمائم ؟
أسرك إمساكى بكفى على الحشا ··· غداة أنيخت فى الرسوم الرواسم ؟
وقفت فقاسمت الربوع : فسقمها ··· لجسمى ، وللربع النحيل السواجم

ويمتاز أسلوب الشاعر بصدق التعبير ووضوحه ، وكثرة ما فيه من بديع وأناقة بيانية ، وصور مشرقة بالجزالة وضخامة التركيب .

أما السيد محمد آل الطالقانى ، فقد أخرج الديوان إخراجا جميلا رائعا محققا فله يد على الأدب والشعر لا تنسى .

— ٢ —

ويقول الأديب العراقى يوسف يعقوب مسكونى من دراسة له عن الطالقانى : يعد السيد موسى الطالقانى من صدور علماء الأدب ومشاهير شعراء العراق فى

القرن الماضي ومن حاملي لواء النهضة الأدبية في عصره وقد طرق فنون الشعر كافة فأجاد في كل باب حتى بلغ محجة الصواب، فبرز بين زملائه وفاز على أقرانه بعلمه وأدبه ورقة شعره وشعوره فصار يشار إليه بالبنان في كل فضيلة ومكرمة جادت بها عاطفته السامية الجياشة حيث أبرزت لنا عبقريته ونبوغه في فن الشعر والأدب . أما نسبه فهو أبو ياسين موسى بن السيد جعفر بن السيد علي حيث يصعد به هذا النسب إلى الإمام علي بن أبي طالب، والطالقاني نسبة إلى طالقان من بلدان إيران ، اشتهرت بمصايفها ينسب إليها الصاحب بن عباد على قول ياقوت صاحب معجم البلدان خرج منها علماء كثيرون وكان قد هاجر جد الأسرة العالم الجليل القاضي جلال الطالقاني سنة ٩٧٨هـ أي سنة ١٥٧٠ م إلى العراق ، وحط رحله في النجف الأشرف حيث اشترى دارا في محلة العمارة . . . ولد شاعرنا في النجف الأشرف صبح الجمعة في الثاني والعشرين من شهر صفر سنة ١٢٣٠ هـ ١٨١٤م فنشأ نشأة العلم والشرف إذ كان والده العلامة الأكبر السيد جعفر الطالقاني من أعيان علماء عصره فتولى تربيته وتهذيبه وشمله برعايته ، وكان السيد موسى منذ صغره شديد الذكاء قوي الحافظة متوقد الذهن ففي العاشرة أتقن القراءة والكتابة ثم أخذ بدراسة مقدمات العلوم من النحو والصرف والمنطق والبلاغة والفقه وأصوله على علماء عصره من أساتذته : كالإمام الشيخ مرتضى الأنصاري وخاله الحجة السيد رضا الطالقاني والإمام الشيخ مولى علي الخليلي ووالده ، فشهد له بعلمه وذكائه علماء عصره ومن خلفهم حتى يومنا هذا ، ولهم أقوال فيه لا مجال لذكرها وقد احتواها ديوانه الواسع الذي طبع مؤخرا بتحقيق واعتناء أحد أحفاده السيد محمد حسن الطالقاني فطبعه أحسن طبعة في شهر حزيران من عام ١٩٥٧ م في أكثر من ٥٥٠ صفحة في مطبعة الغري الحديثة في النجف على ورق صقيل من القطع الكبير . . والشاعر موسى الطالقاني يعشق الشعر لا عن طريق التكسب به لأنه كان غنيا ولم يكن فقيرا ليحترفه وقد قال في هذا الصدد مادحا صديقه السيد أحمد شاكر الآلوسي في هذا المطلع البديع والبيت الذي يليه :

لست ممن يرجو النوال فيمسي … في خضوع لسيد أو لعبد

لا وجدي ووالدي ما نظمت … الشعر إلا رجاء حب وود

وقد تأثر بشعر الشريف الرضى صاحب الديوان الكبير والقصائد العصم ، والعاطفة الجياشة . كما أنه كان بارعا فى النثر كبراعته فى الشعر ، وقد شارك فى الأدب الشعبي ، وله قصائد غر منها فى الأبوذية والموال وغيرهما ، نجد أمثلة منها فى ديوانه ، وقد كان ببراعته يشعر بالزعامة الأدبية ، فنال بذلك مكانة اجتماعية يحسد عليها .

أما أخلاقه وصفاته فحدث عنها ولا حرج إذ يلتمس القارىء هذه الأخلاق والصفات فى جوانب ديوانه وقصائده التى تنم على قائلها وأحواله وأخلاقه ، أما وفاته فقد كانت سنة ١٢٩١ هـ (١٨٨٠ م) فى الطاعون الذى حدث حيث فتك بالناس فتكا ذريعا ففتك به فى يوم الخميس ٢٣ شعبان من تلك السنة فى مدينة بندرة ، وكان قد سافر اليها للاشراف على أملاكه . فنقل إلى النجف الأشرف حيث دفن فى مقبرة خاصة بأسرته فى وادى السلام . فشيعه النجفيون والبغداديون من آل كبه والألوسى والحيدرى ، وغيرهم .

أما آثاره فتبلغ ثمانية كتب مع الديوان لايسعنا ذكرها ، وقد ترك أربعة أولاد هم : السيد ياسين ، ومحمد تقى ، والسيد صادق ، وعبد الهادى الطالقانى .
أما شعره فى المدائح يمدح عليا بن أبى طالب رضى الله عنه ، وأولاده ، وآل النبى وآل أسرته الطالقانية ، وآل كبه ، وغيرهم . فنعدل عن ذكر شىء منها لضيق المجال ، ومن مراثيه قال يرثى الشيخ عبد الحسين بن الميرزا خليل الطهرانى جد آل الخليلى :

نعتك المزايا الغر يا بهجة الدهر ... وراحت لك العلياء تلطم بالعشر
فياظاعنا قد خاننى الصبر بعده ... وغير عجيب فيك أن خاننى صبرى
أعيذك بالرحمن أن تسكن الثرى ... وحيدا بطى اللحد ياواحد العصر

ثم يقول :

ألا إن يوما قد رحلت به وقد ... حملت به فوق الركاب إلى القبر
ليوم به العلياء تذرى دموعها ... على أن فيه الحور باسمة الثغر

وله فى الغزل قصائد تشفى غليل المتيمين والعشاق ، وأرباب الهوى ، الذين تقرحت جفونهم . قال :

كفته عن الحراس ليلا ذوائبه — وأغنته عن حمل السلاح حواجبه
نبي إلى العشاق أرسل هاديا — إلى الحب يدعو والقلوب تجاوبه
فسفك الدما والتيه والصد والجفا — ونقض عهود العاشقين مذاهبه
ألا فاسقني من سلسبيل رضابه — فيا ربما يطفي من القلب لاهبه
ولست بهياب عقارب صدغه — وإن لدغتني قبل ذاك عقاربه

وقال أيضا :

تبعت هوى نفسي فأصبحت عاشقا — فقام لحربي عاذل ورقيب
فها أنا ذا بين العذول وبينها — طريح فهل لي بالحياة نصيب
فنفس أبت إلا الوصال وعاذل — يلوم ويأبى أن يزور حبيب
فلله قلب غادرته يد الهوى — طريحا وما غير الوصال طبيب

وله كذلك :

مال النسيم بقــــدها الفتان — فعرفت كيف يميل غصن البان
ودنت بعين الريم ثم تلفتت — حذرا وتلك سجية الغزلان
وتحصنت من قدها بمثقف — وتقلدت من جفنها بيماني
سحارة الألحاظ ما (هاروتها) — يدري بما تروي عن الكهان
لانت محاسنها فقلت لها صلي — فقسا الفؤاد فلج في هجراني

ويقول أيضا :

يفارقني من لا أحب فراقه — ويصحبني من لا أحب له قربا
سريتم ولي قلب أسير لديكم — فيا ليت كلي كان عندكم قلبا

وهنالك التهاني المملوءة بالغزل العنيف ذي العاطفة الحساسة وهنالك الموشحات وباب التهاني كذلك ثم تليها الخماسيات وبعدها التشطير والتخميس وباب المراسلات والإخوانيات، ثم المفرقات وكلها درر بل غرر من الشعر الجميل المستحب والذي يقف عند هذا الحد منه لضيق المجال. كما أن للديوان فهارس عديدة أبجدية تضع الديوان في مصاف الكتب الأدبية العلمية سهلة الأخذ والاقتباس بفضل ناشره. مع العلم بأن مترجمنا الشاعر موسى الطالقاني لم يعش أكثر من ست وستين سنة، تاركا لنا هذا التراث الخالد والخريدة الفريدة ذات القلائد النفيسة الطريفة.

شاعـــر ثائر

— ١ —

عاش عبد الحميد الديب فى فترة مظلمة من تاريخ وطننا العظيم ، فترة صنعها « الاستعمار » على عينه ، فترة امتدت من عام ١٨٩٨ . حيث ولد الديب فى قرية « كمشيش » من قرى مديرية المنوفية ، وكانت نهايتها فى الثلاثين من أبريل عام ١٩٤٣ ، وهو اليوم الذى انتهت فيه حياة شاعرنا الثائر ، لا اليائس . .

ولو لم يكن الشاعر الديب موجوداً فى عصره ، لخلق مجتمعنا المصرى شاعراً آخر ينطق بلسانه ، ويعبر عن حرمانه ، ويصور هذه الثورة العاصفة التى كان يختزنها فى صدره ، ويعبر عنها فى قصائده وروائع شعره . . إن الديب ظاهرة من ظواهر المجتمع المصرى خلال أربعين عاما من مطلع القرن العشرين . . وكان شعره صدى لصوت شعب يؤمن بالحرية ، ويعمل جاهدا من أجلها ، ويضحى بكل شىء فى سبيلها ، ومن ثم رأينا الديب لا تلهيه محنته ولا يلهيه بؤسه عن محنة أمته وبؤسها ، فهو يصارع المستعمرين ، فيقول لهم فى إيمان بالحرية ، وبإرادة الشعب :

كما شئتم فما نخشى انتقاما | خلقنا للأسى صبرا كراما
وما نرجو نعيمكو سلاما | وما نخشى جحيمكو خصاما
نفى عنا المخاوف أن فينا | عزائم تصرع الموت الزؤاما

وينتصر الديب لفلسطين الدامية الجريحة فيقول :

دار النبوة والعروبة والهدى | خفروا ذمامك بالدم المسفوك
جهلوا عليك وما دروك فأمعنوا | فى قتل قومك ، ليتهم عرفوك
تيهى فلسطين الدماء على الورى | إن الملائك والملوك بنوك

فالديب شاعر خلقته محنة مصر الكبرى ، وخلقه شعب مصر الحر الأبى ، ولم يكن طابعه الحزين القاتم الأسود الثائر أثرا لحياته الشخصية وحدها ، ومن هذا الجانب أخطأ الكتاب الذين كتبوا عن الديب ، وجعلوه ظاهرة من

ظواهر حياته الشخصية والنفسية فحسب وفى مقدمتهم صديق الدكتور عبد الرحمن عثمان مؤلف كتاب « الشاعر البائس عبد الحميد الديب » والأستاذ أحمد حسن الزيات فى تصديره الذى كتبه لهذا الكتاب . . .

- ٢ -

والديب امتداد لحافظ فى شعره الوطنى ، ونقده الاجتماعى ، مع موهبته الأصيلة ، وطاقته الضخمة ، التى عرف بها وعرفت به ، وصارت طابعا مميزا لشعره ، فهو يتهكم فيقول فى الرغيف منذ ستة عشر عاما :

صغر الرغيف كأنما هو قطعة   من قلب تاجره وجلد البائع

ويقول فى مشروع الحفاء :

إلى جوار الندى للبائس الحافى   ثمالة الكأس للمحروم والعافى
قالوا الحفاء ، فقلنا : لا يضيركمو   من يأمن الموت جوعا أنه حافى
الشعب جوعان لم يشك الحفا أبدا   ولم يجد لكم رجلا لإنصاف

ويبكى طويلا حظه فى الحياة ، وبؤسه وحرمانه فيها ، فيقول :

أفنى صبوحى فى المنى وغبوقى   أنى امرؤ كسدت بقوى سوقى
لولا مناوأة الزمان لهمتى   أزرى بنور الشمس نور شروقى

ويقول فى محنته وشقائه :

من الظلم تحطيم الحسام لأنه   بكل جهاد فى الحياة تجردا
وحرمان موهوب من اليسر بينما   كسا اليسر أرشاب الكنانة عسجدا
أجدد للدنيا نشاطى وهمتى   فتنفحنى الدنيا شقاء مجددا

ويقول فى حجرة ضيقة سكنها :

أفى حجرتى يارب أم أنا فى لحدى ؟   ألا شد ما ألقى من الزمن الوغد
وهل أنا حى أم قضيت وهذه   إهابة إسرافيل تبعثنى وحدى
لقد كنت أرجو حجرة فأصبتها   بناء قديم العهد أضيق من جهدى
تراني بها كل الأثاث ، فمعطفى   فراش لنومى أو وقاء من البرد

ويقول فى مجتمعه الذى ظلمه :

على موهباتى الف دين لأمق ... على أننى فيها لدى محنتى مذى
رفعت حجاب الشمس فيها فأطلعت ... على النهار الصحو خلوا من الشمس
على القرب منى كنز قارون ماثل ... ولما أنل منه سوى حرقة اليأس

والديب بهذا الجانب الفنى من شعره ، له شرف وضع أسس المذهب الواقعى فى شعرنا المصرى المعاصر ، وشعره فى أكثر جوانبه واقعى لا رومانسى ، وواقعيته فى تصويره لمجتمعه وللفروق الظالمة فيه بين طبقاته ، وفى صدقه الفنى فى صوره الشعرية ، وفى شجاعته فى إبداء رأيه . ومن هذا الجانب جانب الحكم على الديب بالواقعية ، لا بالرومانسية ـ أخالف صديق الدكتور عبدالرحمن عثمان صاحب كتاب « الشاعر البائس » .

— ٣ —

ولقد ظلم الناس الديب طويلا ، وصوروه شاعراً عربيدا مستهترا ولعامنهم بالتفكه والسخرية به وبشعره ، وبحرمانه ، فتحدثوا عن مجونه وعربدته أكثر مما تحدثوا عن جوانبه الأخرى ، وحسبي لإنصاف الديب أن أذكر هذه الأبيات التى قالها فى مناسبة من المناسبات :

كل شىء أشهد الله عليا ... فرت الدنيا جميعا من يديا
كل مافى الكون حتى تربة ... سبح الديان تسبيحا خفيا
رنة التكبير فى أذنى محت ... رنة الكاس وأودت بالحميا
ياصبوحى ، ياغبوقى . ضلة ... لكما منى بكورا وعشيا
تبت من ذنبى ومن ترجع به ... نفسه لله يبعثه تقيا

وأسأل صديق الدكتور عبد الرحمن عثمان بمناسبة كتابه « الشاعر البائس عبد الحميد الديب » : هل من حق الناقد أن يعرض جوانب الحياة الشخصية للشاعر عرضا صادقا يذيع فيه أسراره التى عرفها بعض الناس ، والتى لم يعرفوها كذلك . أو أن هذه الحياة الشخصية ملك للشاعر نفسه ، والذى يملكه الناقد هو تراثه الفنى وجوانب شعره فحسب ؟

محمود شوقى الأيوبى

— ١ —

من القاهرة صدر ديوان الأيوبى الأول « الموازين » الذى اشتمل على طاقات كبيرة من تفكير شاعر الكويت الكبير محمود شوقى الأيوبى ومن فلسفته ، وباسم « رابطة الأدب الحديث » ظهرت دواوينه الثلاثة « رحيق الأرواح ، وهاتف من الصحراء ، وديوان الأشواق » تحمل طابع الشاعر الفكرى والفنى والروحى ومن الأيوبى كتب النقاد والأدباء المصريون العديد من الدراسات والبحوث ، فكتبت عنه فى مناسبات عديدة ، وكتب أحمد الشرباصى عنه فى كتابه « أيام الكويت » ، وكتب صديقنا الأديب الصحفى محمد رضوان أحمد آراء عديدة له فى الشاعر وشعره ، فليس بغريب أن يكون الأيوبى الشاعر معروفا فى مصر أكثر من أى مكان آخر ، وأن يصبح صديقا للأدباء المصريين صداقة الفكر والروح والرسالة ، وأن تعتز مصر بأدبه كما تعتز بأدب أعلام الشعر فيها ، وأن تبادله حبا بحب ، وتقديرا بتقدير ، حتى لقد أمر أبو العروبة جمال عبد الناصر أن تطبع مصر قصائد الأيوبى التى نظمها فى القوميةالعربية ، واشتمل عليها ديوانه « ألحان الثورة » .

هذا الشاعر العربى الحر ، يمثل صلابة العرب وإيمانهم العميق - بالحرية ، بالبعث ، بالعزة والكرامة للشعوب العربية المكافحة المناضلة المتوثبة الساعية من أجل التقدم والسلام .

هو رمز جليل للعقل الذكى ، والضمير الأبى ، والروح الفتى . . إنه الشاعر الذى تغنى بآمال العروبة وآلامها ، وصور كفاحها فى شعره ، بل وقف على ذلك ديوانه الضخم « ألحان الثورة » يؤرخ فيه كفاحنا من أجل التحرر والوحدة ، ومن أجل الماضى والحاضر والمستقبل ، ومن أجل تراثنا الذى حملنا رسالته فى قلوبنا ، والذى يدفعنا إلى أن نكون كما كان يتمنى أسلافنا شمما وكبرياء ومجدا .

وفى دار رابطة الأدب الحديث ومنتداها الأدبى طالما ألقيت روائع قصائده ، وكرم أدبه ، وكريما المبادىء الجليلة التى انطوى عليها قلب الشاعر ،

وتكريما للمثل الشريفة التي يعمل من أجلها ، ويضحي ويضحي في سبيلها ، وتكريما للعروبة التي هي قوميتنا وكياننا ومجدنا في الماضي والحاضر والمستقبل ، والعروبة هي مذهبنا وعقيدتنا في الحياة ، وهي الرابطة التي تجمع شعوب العرب على الكفاح والإخاء ، كما كانت تجمعهم في مختلف العصور ، وما أصدق ما يقول الشاعر العربي القديم أبو تمام :

إن يكد مطرف الإخاء فإننا … نغدو ونسري في إخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤه … عذب تحدر من غمام واحد
واحترق نسب يؤلف بيننا … أدب أقمناه مكان الوالد

— ٢ —

لو أراد الأيوبي الثراء أو الجاه لكان له ما أراد ، لو عمل من أجلهما لما كان بعيدا عليه أن يصانع ويجامل وينافق ويتملق بل لما طلب منه أكثر من الصمت ، ولكن كيف يتخلى الشاعر الحر عن رسالته ، كيف يغمض عينه على قذى ، أو يصم أذنه على هوان ، وكيف يسكت وفي قلبه شجى وعلى فمه نغم وفي صدره ضرم ، كيف لا يغني وقد خلق للغناء ، وخلق لإعزاز رسالة الإنسان في الحياة .

إن حياة الأيوبي صفحات كريمة من الحرية والإباء والشمم ، إنها صورة للكفاح العربي الحر القلب والضمير .

والأيوبي ينحدر من أصول عربية كريمة ، وأبواه ينحدران من سلالة عراقية ، وقد توفي أبوه وهو صغير وتلقى ثقافته في المدرسة المباركية في الكويت وكان من أساتذته فيها الشيخ حافظ وهبه السفير السعودي في لندن فيما بعد ، ثم أكمل دراسته في دار المعلمين ببغداد وكان من أساتذته فيها طه الراوي وسواه ، وقد أقام الشاعر في البصرة حينا مع خاله السيد أحمد خان ، وعمل مدرسا في المدرسة المباركية والمدرسة الأحمدية في الكويت ، كما عمل مدرسا في العراق ، واشتغل حينا في دائرة البرق بالبصرة ، وحينا في الجيش العراقي في قسم الخيالة ، ورحل إلى إيران ومصر والشام ونجد ومكة وأدى فريضة الحج . وسافر كذلك إلى البحرين والإحساء .

ثم سافر إلى أندونيسيا ، وحلا له أن يقيم فيها ، وأن يتزوج هناك ، وأسس

هناك كثيرا من المدارس ، التي قصد بها نشر الثقافة العربية والإسلامية بين هذا الشعب الإسلامي الكبير ، وكانت أكثر إقامته هناك في (سورابايا) ، و (جاكارتا) ، (باندونج) ، و (الصولو) وشاهد حرب الاستقلال بين الوطنيين والهولنديين ، وانتصار الأندونيسيين وفوزهم بالاستقلال والحرية .

وفي الثاني والعشرين من يناير عام ١٩٥١ عاد الشاعر إلى وطنه الكويت بعد غيبة طويلة ، فاستقبله تلاميذه ومريدوه استقبالا حاراً ، واستعانت به وبخبرته المعارف الكويتية ، فعهدت إليه بالتدريس في كبريات المدارس هناك .

— ٣ —

وللأيوبي دواوين كثيرة لاتزال مخطوطة ، من بينها : ألحان الثورة ، أحلام الخليج ، وسواهما .

وهو يحب من الشعراء ـ المتنبي ، وشوقي ، وعلي محمود طه ، والجواهري ، ومن الأدباء ـ الرافعي والعقاد والمازني ، وقد طالع أكثر روائع الأدب القديم والحديث ، وقرأ الكثير من مصادر الثقافة العربية والأدبية .

وهو في شعره خصب الخيال دقيق الشعور ، عميق التجربة ، متجدد الإحساس الفني المتصل بينابيع الإلهام الشعري الخالد ، يكره التنقيح وتكلف التجويد الفني ويصنع شعره ارتجالا أو مايشبه الارتجال ، عازفا عن الصنعة كارها للتعمل والإغراب .

والأيوبي طويل النفس في شعره ، وتبلغ قصائده أحيانا بعض المئات من الأبيات .

وليس للأيوبي قصيدة في المدح وإن كان يبعث إلى إخوانه في بعض المناسبات تحياته شعرا .

وجل شعر الأيوبي في الوطنية ، وتمجيد كفاح العرب من أجل حريتهم ، وفي إعزاز رسالة الإخاء والوحدة بين الشعوب العربية المناضلة من أجل حاضرها ومستقبلها .

ويؤمن الأيوبي بمصر ، وبما صنعته مصر في عهد ثورتها من معجزات إيمانا عميقا ، يقول الأيوبي : إننا معكم يا أبناء مصر ، في كل حركة من حركاتكم . وكل

خطوة من خطواتكم ، نهتف لكم ، ونؤيد جهادكم ، ونتسمع أخباركم ، ونؤمن بالمبادىء التى آمنتم بها ، وحطمتم من أجلها العبودية والفساد والطغيان .

هـذا هو شاعرنا محمود شوقى الأيوبى الذى يمثل كفاح الأحرار من أجل الوطن العربى ، ويتمثل فى شعره إيمان المؤمنين بالقومية العربية المظفرة ، وتنطق ملامحه بجهاده الطويل ، وبما قاساه ويقاسيه فى سبيل هذا الجهاد ، من ألم وكد وتضحيات ، طيلة سبعة وخمسين عاما هى سنوات عمره المملوءة بالكفاح والنضال .

قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجـــاهلى

يختص هذا الكتاب بالحديث عن قصة الأدب فى الحجاز وحده دون بقية أجزاء الجزيرة العربيـة كلها . وهذا الاختصاص فى الدراسة الأدبيـة يجعل للكتاب مزية الصدق فى الأحكام وعدم التعميم فيها . فما يصدق على نجد لا يصدق على اليمن . وما يميز أحد الأقاليم فى شبه الجزيرة العربية لا يشترط أن يكون مميزا لإقليم آخر . ومن هنا اتجه المؤلفان هذه الوجهة الجديدة فى التخصيص والتقسيم الذى لا مفر منه ، ولا معدى عنه ، فإن خصائص الأدب فى بيئة نجد – كما يقولان – (لا يمكن أن تكون هى نفس خصائصه فى الحجاز ، والشاعر الجاهلى الذى قضى حياته فى ربى نجد ، لا يصح أن تكون شاعريته مطابقة تمام المطابقة لشاعر جاهلى آخر عاش فى الطائف أو مكة أو المدينة) .

والمؤلفان عبد الله عبد الجبار ومحمـد عبد المنعم خفاجى هـنا يتحدثان عن الأدب الحجازى فى العصر الجاهلى ولا يعدوانه إلى ما تلاه بعـد ذلك من عصور . وقد اقتضاها ذلك الحديث عن بيئة الحجاز والحياة السياسية فيه والحياة الاجتماعية والدينية والعقلية والأدبية ، وفنون النثر الحجازى والشعر الحجازى وخصائص كل من الفنين ، مع التراجم لطائفة من شعراء الحجاز فى الجاهلية وهم أمية بن أبى الصلت والنابغة الذبيانى وقيس بن الخطيم وعرض نماذج من أشعارهم وآراء النقاد فيهم على مر العصور . — مجلة بريد الكـتاب عدد مايو ١٩٥٨

شاعر وديوان

يقول الخليل — خليل جرجس — لا خليل مطران ، فى ديوانه « أيام عشناها » :

ما كنت أحرز منصبا   إلا بسابقة التحدى
ما كنت أبلغ غاية   إلا بإصرارى وجهدى
وأسابق الزمن الغريـ   ـم ، وأسبق الأيام وحدى
كل الذى أبلغته   هو فى الحقيقة دون جهدى

إن هذا التحدى هو خلاصة حياة الخليل وفنه .. لم تمنحه السماء جدا أو مجدا أوجاها ، وإنما منحته القدرة على تحدى الحياة وتحدى الآلام والهموم والقيود ، ثابر على السير فى صحراء العمر ووعثائه ، وهو يمضى فى السير ، مرددا :

تعبت رجلاى من سعـ   ـيى ، وسعيى ما مداه ؟
كلما لاح طريق   لم يلح لى منتهاه
لم أسعى ، لم أحيا ؟   ألكسب أم لجاه ؟
أنا ما حققت شيئا   من أمانى الحياه
ذهب العمر هباء   وسدى ، وا أسفاه

لم يعتمد على أب ، لأن أباه توفى وهو فى سن الرابعة ولم يعتمد على أخ ، لأن طبيعة الأخ لا تعرف الإيثار والتضحية والبذل لأخيه ، وإنما اعتمد على كفاحه ، على فقره ، وفى نفسه طبيعة التحدى ، التحدى للدهر الذى قسا عليه ، كأنه يريد الثأر منه :

وقسا على الدهر وهـ   ـو كمن يريد الثأر منى

ولم يعتمد على مال موروث ، أو مورد معلوم ؛ ولكنه عمل وظل يعمل ، يتحدى الزمن وأهله ، ويتحدى كل شىء فى الحياة ، حتى إذا بلغ الأربعين ، ورقف على شاطئها لاهثا مجهودا ، أخذه العجب : كيف بلغها ، وكيف وصل إليها بكفاحه ومصاولته للأيام ، وأخذ يردد :

الأربعون بلغتها   بالله كيف بلغتها

أنا لست أذكر أننى صافيتهــا وأطقتها
ما كنت أنهى ساعة إلا حسبت المنتهى
وحمدت أنى ذاهب وعجبت أنى عشتها

ويزداد عجبه ، وتزداد معرفته بالحياة وخبرته لها ، ويستمر فى ترديده :

هل فى الحياة مبرر للعيش ، إنى ذقتهـا
سفر طويل والسبيـ ـل تروح ، كيف طويتها
الأربعون بلغتهـا بالله كيف بلغتها ! !

وتوفيت أمه وهو يكافح ، أمه الذى ساندته فى الحياة بعطفها وحنانها وتوجيهها ، أمه التى أهدى إليها ديوانه وهو يقول :

أهدى إليك صحائفى بشراى إن بلغت علاك
هى منك ياوجه الصبا ح حيث أقبس من ضياك

توفيت ، وقد شب عن الطوق ، ووقف على رجليه ، أديبا لامعا ، وكاتبا صحفيا لبقا ، وشاعرا موهوبا ، ورب أسرة ، وأبا لسبعة . سبعة أبناء ، يسعون فى الحياة كما سعى أب لهم من قبل .

وهـذا التحدى كان يصحبه فلسفة مؤمنة ، تثق فى الله ، وتعتز برعايته ، وتؤمن به :

استرح ياقلب من فـكـ ـر وشك وسؤال
لا تهــزنك يا قلـ ـب أعاصير الليالى
أنت إن آمنت باللـ ـه فلا شىء تبالى

وتنتقل ظاهرة التحدى هذه إلى فنه ، فيقرأ الشعر العربى القديم والحديث ، شعر ابن الرومى والمتنبى وابن الفارض ، وشوقى والزهاوى وناجى وأبى شادى والشابى وأبى ماضى ، ويقرأ أدب الرافعى كما يقرأ أدب جبران ، ويحفظ القرآن الكريم ، ويدرس النحو وعلوم اللغة وفقهها ، ويقاوم تيار العامية فى لغته وأسلوبه ، ويؤمن بفلسفة التحدى الفنى ، حتى ليحلق صاعدا فى قصائده : أيامى ، وبلادى ، وفرحة الجلاء ، ومعركة القناة ، وإلى المعركة ، وعاشت مصر ، وأخى فى سورية ، وإنذار إلى إسرائيل ، ووحى الأربعين ، وعروس من الشرق

وعتاب ، ولا لا .. ويصل فيها وبها إلى القمم العالية :

الشعراء المعاصرون يجودون غاية التجويد فى تقديس الوطن ووصف حبهم له ، ولكن الخليل يعبر فى بيت واحد من أبيات قصيدته « فرحة الجلاء » عن مشاعره المرهفة نحو وطنه ، تعبيرا بليغا ، فيقول :

مصر أمى وأبى ، حريتى   وكيانى ، ومهادى والصبا

وسر هذه البلاغة واضح ، نعرفه فى صدق الإحساس والتجربة والشعور والتعبير ، وفى هذه البساطة الجميلة المنتزعة من الفطرة والطبع والموهبة الكامنة القادرة ، وفى هذا التقسيم الهادىء الجميل ، مصر أمه وأبوه ، حريته وكيانه ، مهاده وصباه .. إن الخليل لم يعقد ولم يبالغ ولم يغرق فى التفكير ، ولم يبعد فى التعبير ، إنه شاعر فنان كما يقول عزيز فى تقديمه له .

والشعراء يصفون النيل، ويجودون الوصف ، ولكننا نقرأ للخليل قوله فى النيل :

ماؤه فى الليل يمسى فضة   وهو فى الإصباح يغدو ذهبا

فتروعنا هذه الصورة الجميلة المترفة التى رسمها شاعرنا بمهارة وبساطة معا ، بذكاء وسذاجة ، بموهبة فنان أصيل .

ولو قلنا للبلاغة القديمة ما رأيك فى هذا البيت ، لوقفت عند هذا التضاد بين الليل والإصباح ، وشبه التضاد بين الفضة والذهب ، ولرأت هذه المقابلة الجميلة سر ما فى البيت من حسن وإحسان . وإن كنت لا أرجع لهذا فى شرح إعجابى بالبيت إنما أنظر إلى الصورة التى دبجها يراع الشاعر جملة ، وإلى اللوحة التى رسمتها ريشته كاملة ، إلى هذا المنظر الجميل الساحر كما تصوره وصوره الخليل فى شعره . . . إن القصيدة عنده مع طولها تكاد تكون لوحة فنية كاملة ، فيها وهج الألوان ، وتكامل الظلال ، وتناسب الصور والأشكال ، فيها روح الشاعر وشخصيته وكيانه لأن له سماته وخصائصه فى التعبير والفن والشكل ، وفى الفهم والمفاهيم والمضامين :
ولو وقفنا عند قصيدته « فرحة الجلاء » ، لرأينا فيها مظهرا بديعا من مظاهر هذا التحدى الفنى الذى لا يتاح للكثيرين ، وفيها يقول الشاعر فى وصف خروج الجيش المحتل من أرض الوطن :

قد شهدناهم فلول القهقرى   جرم قائدهم وانسحبا

ويقول فى ختامها :

أبدا يامصر عيشى حرة ، شعبا ، وجيشا ، ورب

إن الخليل – كما يقول عزيز أباظه – شاعر فنان موهوب ، له شاعرية فطرية فياضة ، تسبغ على قصائده الحياة والحركة والرقة والعذوبة ، وتجعل منها عملا فنيا ناضجا له كيانه وشخصيته ووجوده .

وشعر الخليل فى الطبيعة أو فى الغزل ، أو فى الجانب الوجدانى ، أو فى الجانب الوطنى ، ينم عن روح عريقة فى الفن وفهمه وتقديره وتمثله وتذوقه ، وقصيدته «نشيد مديرية التحرير» من روائع شعره فى الطبيعة وفيها يقول الشاعر :

إنى رأيت السندس الأخضر لاح
وسط رمل أصفر ملء البطاح
فتمهل ها هنا جناتنا
فى صحارى مصر جادت عن سماح
واحة فى القفر تزهو مطمئنة
قد أحالتها يد الإصلاح جنة
وسقاها النيل من نبع الحياة

وهذه القصيدة قطعة حية من أعماق الشاعر ، ومن حبه لوطنه ، ومن إخلاصه لفنه ، هذا الفن الذى يجمع بين الموهبة والأصالة والطلاقة ، و بين الطبع والصدق والإخلاص : لروح الشعر ، ولرسالته فى الحياة .

ألحان من الشرق

– ١ –

هذا الديوان الجديد « ألحان من الشرق » هو ثانى ديوان للشاعر « الاسكندرانى » أحمد محمود عرفه ، عضو رابطة الأدب الحديث بالقاهرة ، والذى عرف بصدق تجاربه الفنية ، وسلامة طبعه الشعرى وعمق إحساسه بموضوعات قصائده والشاعر «عرفة» يمثل قصيدة حزينة باكية ، وقد قص هو قصة حياته فى آخر قصائد هذا الديوان ، وهى قصيدته (حكاية شاعر) التى يقول فى مطلعها :

أخلائى اذكروا عنى حديثا ... وإنى صادق فيما رويت

فتراه يسجل هذه الظاهرة التى لاحظناها على شعره وهى صدقه الفنى ، ثم يقول :

تركت الشعر خلفى واتجرت ... وعاد الرزق من همى وعدت
وجالست الصغار على صفاء ... أضاحك من أحب ومن كرهت
أسرى الهم عن قلبى المعنى ... وأسلو الأمنيات وما عشقت
وأملك من حياتى قوت يومى ... ومن بظلال مجهودى احتميت

ويستمر الشاعر فى تسجيل كفاحه وتصوير جهاده فى معركة الحياة . ثم يتحدث فى القصيدة عن الجحود الأدبى الذى لاقاه ، وعن إغفال النقاد لشعر وفنه ثم يختم القصيدة بقوله :

أخلائى انظروا فودى شبت ... ولم يطلع صباحى حيث كنت

والقصيدة فى جملتها نغمة حزينة تمثل حياة الشاعر وفنه تمثيلا صادقا .

— ٢ —

والديوان يضم ألوانا شتى من القصائد الوطنية من مثل قصائده: مصر المكافحة ، الشعب الخالد ، ياوطن ، على باب الشعب ، نجوى وطنية ، مصر الحرة ، طريق الكفاح ، من النيل إلى بردى ، وحدة العروبة ، غضبة الجزائر نهضة العملاق . وهي قصائد غنية بروحها الفنية وعمق مشاعرها القومية والوطنية

كما يضم قصائد وجدانية رقيقة فيها تصوير جميل للجمال، وقص لذكريات حبه وهيامه من مثل قصائده : صلاة ، وراء الحب ، حسناء ، حبي ، بوح ، فتانة ، نضوج ، مودة الحب ، تحية ، لقاء ، عذاب، ياحبيبي ، هيام ، عالم الجمال أنشودة الحنين ، الصباح ، إشراقة ، رجاء ، أخت قلبي ، عتاب ، سلطان الجمال . ومن هذه القصائد الوجدانية الرقيقة قصيدته «ليتنا» التي يقول فيها .

ليتنا عشنا هنا ، لم نفترق بعد اللقاء
ليتنا عدنا إلى الشاطىء نحيا سعداء

ليتنا لم نذكر الدنيا وقد حل المساء
ليتنا لم نلتفت والشمس تمضي لاختفاء
ليتنا تهنا مع النجوى فلم نسمع نداء
ليتنا عشنا مع الأحلام . عشنا أوفياء
ليتنا ذبنا . اتحدنا . مثل ما كنا نشاء

ثم يستمر في هذه القصيدة الهائمة الضاحكة إلى أن يقول :

ليتنا نبني على الشاطىء عشا من صفاء
ليتنا ، لا ، سوف نبنيه ، سيعلو في رواء
ليتنا ، لا ، في غد ، سوف ترى الدنيا البناء
ليتنا ، لا ، سوف نحياها هنا كالشعراء

والقصيدة من الأمثلة القليلة التى نعتز بها ونقدرها قدرها الفنى ، وهذه الطائفة من القصائد تدل على أن الشاعر عشق وعرف العشق... وفى الديوان كثير من القصائد التى يتحدث فيها الشاعر عن نفسه حديثا مفعما بالأسى حينا وبالأمل حينا آخر ، ومن مثل هذه القصائد قصيدته: « صراع » التى لا تقل جودة وإبداعا عن قصيدته (ليقنا) السابقة ، ويقول فيها الشاعر :

لن يهزمنى الخطب الملجم كلا لن يهزمنى كلا
سأخوض البحر وفى قلبى حـــلم من نور لا يخبو
وأجوس الظلمات الكبرى والعزم قوى لا يفبو
وأقول إذا الويل أطلا كلا لن يهزمنى كلا

والقصيدة تمتاز بوحدتها الفنية وغنائيتها وموسيقاها وانسجامها العضوى انسجاما كبيراً . وفى قصيدته « على باب الشعب » يقول الشاعر

أنا يا شعبى جاهدت ولا زلت أجاهد

ويقول فيها : ثم يا شعب تأنقت فجمعت السنا
وعلى روضى فتحت أزاهـــير المنى
وتساءلت بعمق فأثرت الزمنا
كيف لا يعبأ بى شعب من الفن اغتنى ؟

ويطيل فى هذه القصيدة مناجاته لشعبه ووطنه . . وفى قصيدته « عهد الفن » يقول الشاعر :

نحن ركب من الضحايا بنيناها صنعنا من قبحها كل حسن
أيسكننا لم يزل عشاش الأمانى يلتقى فيه كل حزن بحزن
نحن لون على الدرى يشرى تنحنى فوقنا الحياة بلحن

وهـذه القصيدة تمثل تفاؤل الشاعر وابتسامته للحياة . وفى قصيدته « لحن الأمل » التى يقول فى مطلعها :

ابسمى أيتهـــا الروح ففى الآفاق نور

مسحة بادية من التفاؤل العميق والأمل المشرق فى نفس الشاعر ، وفى قصيدته « عودة النور » يتحدث الشاعر عن أخلاقه ومشاعره ومجتمعه . وفى قصيدته « وراء الحب » يطوف الشاعر كالطائر بالحياة من ربوة إلى ربوة مصورا أحاسيسه ومشاعره الفنية . . وفى قصيدته « انتفاضة » يتحدث عن حياته ومواهبه وأمنياته فى الحياة . وكذلك سار فى قصيدته « عودة النور » . وفى قصيدته « على القمة » يتحدث عن سماحة شمائله ومحبته للناس وآماله التى يبعثها الأسى الدفين وقصائده فى الحديث عن نفسه وحياته وفنه فى الديوان كثيرة متعددة

ومن شعر الطبيعة فى الديوان قصيدته «فى العاصفة» التى يصور فيها حبه البحر ومابثه إياه من هموم وأحزان . وكذلك يبث البحر أغانيه وأحلامه ونشوته فى قصيدته « عالم الجمال » ، وفيها ينعت البحر بأنه صديقه ، وفى آخرها يقول :

ها هنا الصبح شاعر والضحى الزاهى وهذا الأصيل والديجور . .

— ٣ —

فإذا أردنا أن نتخذ دليلا على فن الشاعر وشاعريته ، وميزانا نزن به موهبته وأصالته ، ظهرت أمامنا قصيدته « لقاء » التى يقول فيها :

هل تذكرين مكاننا عند الدجى إذ نحن فوق جناحه نجمان
والناس يلتهبون أحضان الكرى ولنـــا بأحضان الهوى قلبان
يتقلبان على بساط سعادة ويغردان بأرخم الألحان

ففيها طاقة فنية وموهبة ترتفع بمستوى الفن عن مدى الجماهيرية والعامية ،

وفيها دقة في التعبير وأناقة في التصوير ، وفيها كذلك في أحيان أخرى تعبيرات عادية تهبط بالجمال الغالب عليها من مثل قوله «أرخم الألحان » . ه

وما أروع ما يقول الشاعر فى هذه القصيدة فى بيتيها الأخيرين :

فدوت بالتاج المرصع بالهوى   كفى أكرم بدعة الفنان
وطبعت فوق وضىء ثغرك رعشة   مجت سلاف الخمر فوق كيانى

وما أروع ما عبر عن القبلة بالرعشة .

وجملة الامر فى شاعرنا عرفة أنه شاعر فنان أصيل قوى الملكات تزخر نفسه بشتى الانفعالات والاحساسات الفنية العميقة ، ويحاول فى جهد ومثابرة أن ينال ثمار كفاحه الأدبى ، ويمشى خطوات واسعة بعيدة نحو مستقبل وضىء تتألق فيه شاعريته ، وتكتمل فيه عبقريته ، ويبلغه غاياته الكبار فى ذلك المستقبل المرموق عصاميته .

الفصل الرابع

شعر الوطنية فى ديوان الأجنحة البيضاء

لم يكن يمكن أن تزدهر نهضتنا الأدبية المعاصرة ، دون أن تشترك فيها المرأة بعواطفها الفنية ، وروحها الفنية ، ومواهبها وإحساساتها وتجاربها الفنية العديدة

والشعر المصرى الحديث الذى شهد عائشة التيمورية بلبلا يغرد فى أفنائه ، لا يمكن أن تصوح أزهاره ، فلا تملأ المرأة روضته المعطرة غناء وشدوا وألحانا عـــذبة جميلة .

وإذا ذكرنا من شاعرات مصر الشاعرة المتصوفة جميلة العلايلى ، والشاعرة الحالمة صفية أبا شادى ، وذكرنا من شاعرات العرب نازك الملائكة وفدوى طوقان ، فإننا لابد أن نذكر جليلة رضا الشاعرة المصرية الأصيلة الموهوبة ، التى عاشت للشعر والجمال والطبيعة ، وعرفت بألحانها المؤثرة الطليقة الساحرة المتحررة :

لقد أعادت جليلة رضا للمرأة مكانتها فى الشعر ، ووقفت على قدم المساواة مع شعرائنا ، تنظم الشعر كما ينظمون ، وتجود فى كل موضوع وفكرة ومعنى وغرض كما يجودون ، وقد تبذهم تجويدا وصنعة وفنا فى بعض الأحايين .

وديوان جليلة الأخير ، أو الثالث ، « الأجنحة البيضاء » ، مثل من أمثلة الذكاء المصرى فى الشعر ، ذكاء المرأة الموهوبة الشاعرة ، التى تحرص فى الشعر على الصدق والطلاقة والحرية الفنية ، وعلى تصوير عواطفها وتجاربها وذكرياتها ، حرصها على موسيقى الشعر ، وعلى قوة الحركة الموسيقية .

وعند ما ننظر إلى ديوان جلية من جانب واحد هو شعرها فى الوطنية ، نجد أن عاطفة الوطنية فى الديوان تمتزج بعاطفة حب العروبة والقومية العربية امتزاجا قويا عميقا ، حتى لتقول من قصيدتها « الفجر الجديد » فى تحية الوحدة العربية بمناسبة قيام الجمهورية العربية المتحدة :

فاليوم أشهد أننى مصرية   سورية عربية الأقطار
حلب بها أهلى ، حماة عشيرتى   ودمشق قامرتى ، وحمص ديارى

وتتغنى فى لبنان فتقول من قصيدتها « الفجر الجديد » :

فاليوم يالبنان إذ   نخطو إلى عهد جديد

اليوم إذ رفضت إرا   دتك الأبيـة أن تحيدى
اليوم سر فى الركب مو   فور الكرامة والسعود
يا قطعة عربيـة   من موطن العرب التليـد

وتتحدث بلسان مصر إلى الوطن المغصوب ، فلسطين العربية الجريحة ، فتقول:

فلسطين يا أخت أمى   سآتى وشعب العروبة يأتى معى
سأمضى على عاصف من رياح   فصبرى وصبرك لم ينفـع
سأحمل كل قوى بور سعيد   وعزم الفـدائى فى أذرعى
ولن أرقب الفجر حتى يضىء   ففجرى سيوقـده مدفعى

إن هذا الإيمان العميق بالعروبة ، بقومية العرب ، بالوطن الحر الأكبر ، هو أحد سمات الشعر الوطنى فى ديوان جليلة الشاعرة العربية الحرة .

ويتسم كذلك شعرها الوطنى فى الديوان بروح الثورة ، الثورة على الماضى وعلى الذل وعلى العبودية ، حتى لتناجى ابنها فتقول من قصيدتها : « وصية أم عربية » :

تذكر ، وربما الذكرى تفيدك فى الملمات
تذكر أنك المولود من أصلاب ثوراث
وأن دم العروبة فيك يسرى فى الحنيات
وأنك غاية كبرى ، ونحن فضاء غايات
فإنا قد بذرنا الوعى فى حقل الهدايات
ومهدنا طريق الغـد فى ظل المساواة
فثبت حقك المردود فى ضوء الكرامات
وعش حرا ومت حرا تؤمن نصرك الآتى

وتقول أيضا تناجيه :

أجل كالجان يا ولدى وكالشيطان لا تحجم
فكن فى الحرب عاصفة تزلزل قوة المجرم
وثر كالليث منتفضا تكلل هامك الأنجم

وجليلة تؤمن بالحرية ، وتدافع عنها ، وتقف فى صف الأحرار . . . فهى

مع جميلة فى كفاحها فى قصيدتها : « رسالة إلى جميلة » ، ومع لبنان فى ثورته فى قصيدتها « لبنان الثائر » ، ومع اللاجئين المشردين من أبناء فلسطين الشهيدة « فى قصيدتها لن ترقب الفجر » التى تقول فيها توجه حديثها إلى اللاجئين :

أصيخوا فإن الهواء السجين يود من الأسر أن ينطلق
وفى كل ركن نداء حزين من البلد الكوكبى الألق
فلسطين ترنو وراء الحدود ، فلسطين فى دمعها المختنق
تنادى : تعالوا تعالوا إلى : أكاد من الشوق أن أحترق

وتهتف الحرية فرحة بمولد حكومة الجزائر ، وتقف مع جمال والقوتلى وهما يعلنان الوحدة ، وتتحدث عن بور سعيد المنتصرة فى قصيدتها : بعد المعركة .

ويمتاز شعر جليلة الوطنى ، بل شعرها عامة بموسيقاه الراقصة ، وبحركته الغنائية ، فتراها فى قصيدتها « سلم وحياد » تعبر عن إيمان شعب مصر بالحياد الإيجابى فتقول :

فى كل مكان قلناها قلنا الفرد والحشد
للعالم قد أعلناها بالأمس اليوم والأبد
إنا شعب حر يحيا فى ظل العزة والمجد
لن نقبل أى مساعدة تقترن بشرط أو قيد
قلنا ونظل نقول غدا لن ننحاز لأحد أبدا

وتقول فيها :

لا يكفى كى نخلق مجدا أن نبنى فى مصر مصانع
لا بل نبنى نبنى دوما لنعوض ماضينا الضائع
نبنى شعبا حراً يقظا هوذا مستقبلنا الرائع
ونبث القومية فينا لنعرقل من خطط الطامع .
ونظل نقول غدا لن ننحاز لأحد أبدا

والحركة فى هذه القصيدة مرحلة تسير بعدها الشاعرة مراحل أخرى فى قصيدتها « وسأمضى » التى تقول فيها :

وسأمضى فى كل مكان
أتحدى قدرى وزمانى

أتحدى الصور المرئية
أتحدى العين البشرية

إلى آخر هذه الموسيقى الحركية الجميلة .

هذه جليلة رضا الشاعرة الحرة التى تغرد لمواكب الأحرار فى انطلاقاتهم إلى المجد إلى العزة والحرية والقوة والسلام .

الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى

وهذا كتاب آخر للمؤلف المعروف الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى أستاذ الأدب بكلية اللغة العربية بالأزهر .. يصدر فى طبعته الثانية ، بعد أن نفدت نسخه وتعذر الحصول عليه فى عام ١٣٦٨ صدرت طبعته الأولى فى ٣٧٦ صفحة واليوم تصدر طبعته الجديدة هذه فى ٥٠٠ صفحة من القطع الكبير . وقد مهد له ببحث عن الأدب بين الذوق واللغة ، أشار فيه إلى تاريخ كلمة أدب وتاريخ أدب اللغة وعلاقته بالتاريخ العام ثم تقسيمه إلى عصور .. وفى الباب الأول يتحدث عن المؤثرات فى الأدب الجاهلى ، وعن هذه المؤثرات فى بيئة العرب ، وحياتهم السياسية والاجتماعية والدينية ومعارفهم العامة ومدى اتصالهم بغيرهم من الأمم والشعوب .. ثم اللغة العربية نفسها ، وقد أشار إلى كل مؤثر من هذه المؤثرات فى تفصيل ووضوح كما تحدث فى هذا الباب عن أيام العرب ثم تحدث عن اللغة العربية : أصلها ونشأتها وأطوار تهذيبها وأثر الأسواق فيها .. كعكاظ ومجنة وذى المجاز .. ثم تكلم عن اختلاف اللهجات العربية وأشار إلى الأدب العربى ودراساته لدى أدباء العربية وكيف كانوا يعنون فى دراساتهم بتراجم الأدباء

(التتمة فى صفحة ١٥٤)

حول قضايا الشعر الجديد

— ١ —

إذا صح لنا أن نعترف إعترافا جازما بأننا نكاد نفتقد في أدبنا المعاصر النقاد الأصيلين، ذوي الذكاء والمهارة وسعة الصدر ونزاهة الاتجاه وعمق الثقافة، فانه ليعزينا عن ذلك كله أننا ونحن نتلفت يمينا ويسارا، نجد هذا القلم الذكي والنفس المنطوية على حب الانصاف والناقد الذي كتب أبلغ الصفحات في تاريخ النقد المعاصر

وعند ما نرجع إلى الوراء قليلا فنجد «الديوان» و«على السفود»، بما احتملا من أحكام نقدية، ونجد «تاريخ النقد الأدبي عند العرب»، «والنقد المنهجي» «والميزان الجديد»، «وأصول النقد الأدبي»، «ومذاهب الأدب» و«النقد الأدبي أصوله ومناهجه»، بما اشتملت عليه من مناهج فنية متباينة يسعدنا أن نقف طويلا عند كتابي «الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث»، و«شعر اليوم» لما اشتملا عليه من مناهج أصيلة، ومذاهب فكرية في النقد والحكم على الشعراء.

وطالما افتقدنا روح القاضي والمشرع في النقد، وكلما ذكرت القاضي الجرجاني صاحب كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه» ذكرت دعائم قوية للبناء النقدي لم يتمها من جاءوا بعده، حتى جاء السحرتي فنظر للنقد والحكومة الادبية نظرة الجرجاني القاضي الناقد النزيه، نظرة الانصاف في الحكم على الآثار الفنية.

شرع مصطفى عبد اللطيف السحرتي للنقد مناهج وأصولا عميقة اجتمعت فيها ثقافة القديم والحديث، والشرق والغرب، في الأدب والنقد الأدبي، . ولم يقف عند ذلك الحد كما فعل كثيرون غيره من أدبائنا المعاصرين، بل اجتاز هذه المرحلة إلى مرحلة التطبيق النقدي، ومزج بين النقد وتطبيقه، بين الأصول والفروع بين التشريع والأحكام الأدبية التي كان هدفها النزاهة في الحكم.

— ٢ —

والسحرتي مثالي في تفكيره وتقدميته، وفي أحكامه الادبية التي يمتاز باستنادها إلى الاسباب والحيثيات كما يقول رجال القانون، وهو مع ذلك كله مثال الأديب المخلص لفكرة الأدب قبل أي اعتبار آخر..

لقد كان السحرتى منذ عام ١٩٣٤ إحدى الدعامات التى استندت إليها مدرسة أبو لو ، وكان قلمه وفكره يسيران دائما فى طريق الحرية .

— ٣ —

والسحرتى أكثر النقاد إنصافا للشعر الجديد ، والشعراء الشباب ، لقد درسهم واعترف بما يبدعون من روائع ، واعتد بها اعتداداً كبيراً .

وكتابه « الشعر المعاصر » مثل على خصب الفكر الأدبى وثرائه وذكائه فى مصر ، وكتاب اليوم «شعر اليوم » كذلك مثال لروح هذا الناقد الأصيل المنصف

يحتوى كتاب « شعر اليوم » على الأصول الجديدة النقدية اللازمة لنقد الشعر الحاضر الجديد الذى أنتجته قرائح شعراء الشباب فى العشر السنوات الأخيرة ، وعلى تطبيقات عديدة لهذه الأصول ، وعلى أحكام أدبية تستند إلى دعائم متينة من حكم العقل والذوق الأدبى معا .

وطريقة السحرتى فى التقدير والتقييم والنقد تدور كما يقول هو حول النظر إلى القصيد فى ذاته ، دون نظر إلى الشاعر أو فكريته ، لأن المشكلة عنده ليست فى أسلوب التعبير كلاسيكيا أو حرا ، إنما هى فى قدرة الشاعر وطاقته الفنية وموهبته وإيمانه بالحقائق التى يضمنها شعره ، والايدلوجية التى يدين بها .

ويقول السحرتى فى فاتحة كتابه « لقد قرأت شعرا بديع الرواء ولكنى لم أحس بإيمان الشاعر بما يقول فأنكرته ، وقرأت شعرا لبعض الشعراء فى موضوعات عصرية بأسلوب مهلهل فلم أتجاوب معه ، وقرأت لآخرين طائفة من القصائد فلم أجدهم قادرين على التفكير فيما يشعرون به . ومما آلمنى أن أقع على شعراء لهم طاقاتهم الفنية ولكن صنائعهم الشعرية لا تسندها ثقافة ، فخلا شعرهم من الوزن الفكرى والخواطر الذاتية اللماحة » . .

ويستطرد السحرتى فيقول فى موضع آخر من كتابه : « لا يهم فى اعتقادنا نوعية الصياغة مقفاة أو متحررة . لأن الصياغة وسيلة لا غاية ، إنما المهم هو أن نظفر بشعر حقيق ، شعر معبر عن تجاريب الشاعر وحقائقه تعبيرا قويا رفافا ينقل إلى القارىء هذه التجاريب فى تأثير قوى . شعر يعبر عن موضوعه بفكراته

منوعة مترابطة مؤثرة ، تدور حول الموضوع ولا تخرج عنه (١) ،

ويرى السحرتى أن المعيار الحاضر فى تقييم الآثار الفنية يجمع إلى الحقيقة جودة الفن ، فالشعر الردىء ، الخالى من الفن لا يعد شعرا على الإطلاق ، والشعر ذو الرواء الخلاب الذى يفتقر إلى التجارب القيمة شعر ميت ، ويؤمن كذلك بأن تفاوت الشعر الجيد فى الدرجة والمنزلة الأدبية هو بقدر الحقائق التى يعبر عنها ، فهنالك حقائق باقية وحقائق وقتية عابرة ، وحقائق سليمة وحقائق منحرفة ، وحقائق تقدمية ، وحقائق رجعية ، وعلى قدر سلامة الحقيقة وقيمتها تتحدد درجة جودة الشعر وامتيازه ونبوغه (٢)

والنظرية التى يؤمن بها السحرتى فى الشعر هى نظرية اليوم فى التقييم والتجديد معا ، وهى نظرية تجمع إلى الامتاع فى الشعر الإفادة والنقد والتوجيه ، وقد أثرت هذه النظرية فى الاتجاهات الشعرية ، وأصبح الميل كما يقول السحرتى متجها إلى الواقعية الشاملة المتفائلة البانية ، ولم تعد تطيب للكثيرين بل الأغلبية الصياغة التقليدية التى تعتمد على الرصانة والجزالة والأناقة والسير على عمود الشعر ، كما لم تعد الصياغة الرومانسية التى تعتمد على التلوين والتحليق الخيالى البعيد مقبولة ولا مستساغة ، ولم يعد المصطلح الرومانسى المزهر مقبولا ، وقضت روح العصر - كما يقول - باللجوء إلى مصطلح لغوى سهل مفهوم متساوق مع الحياة الحاضرة ، وغدت الصور قريبة من الحقيقة ، وتنوعت القصيدة فى نغماتها وتآلفها مع أفكار القصيد وانفعالاته (٣)

ويتحدث السحرتى فى كتابه عن عناصر الشعر من حيث الأسلوب والمضمون والاتجاهات والأسس الفنية والنظريات الجديدة للشعر .

ويتحدث عن شعراء الصياغة الكلاسيكية الجديدة ، وعن الشعراء ذوى الميول الفنية للشعر الحر فى إفاضة شاملة وتحليل عميق ، واستيعاب موجز لشعراء العالم العربى من ذوى الأصالة ، فى مصر وسوريا والسودان والعراق ولبنان .

والكتاب زاخر بالأحكام الأدبية والتطبيقات التقييمية العديدة . . ، ولا

---

(١) ص ١٥ شعر اليوم (٢) ص ١٦ المرجع

(٣) ص ١٣ و ١٤ شعر اليوم

شك أنه بما احتوى عليه من ذخائر فنية ونقدية ثروة جديدة فى النقد وقضايا الأدب المعاصر .

— ٤ —

ولا غنى لنا بعد ذلك كله أن نقول للسحرتى ما قلنا القاضى الجرجانى من قبل فى كتابى « حكومة القاضى الجرجانى فى النقد الأدبى » . . إن السحرتى كالجرجانى كان هدفه وكانت ميوله نزيهة حرة متصفة بناءة ، ولكنه بدافع إيمانه بالغربة الفكرية للشعر الحر فى حاضرنا ، وبسبب اعتقاده بأن الشعر الحر مظلوم عند جمهرة النقاد المعاصرين ، كان ظاهر العصبية للشعر الحر ولشعر الشباب من ذوى الاتجاهات الحرة فى الشعر ، إنه ذكر نماذج رفيعة لبعض الشعراء ، ومع ذلك فقد ذكر نماذج متوسطة للبعض الآخر واعتد بها ، ثم إن السحرتى يكسو الشعر الحر محاسن الشعر الاتباعى ، فهناك قصائد عديدة من الشعر الاتباعى عدها السحرتى من الشعر الحر ، وجعلها مبررا لدعوته إلى الشعر الحر والتنويه بما فيه من طلاقة تعبيرية . . وهذه القصائد من أوزان شعرية مختلفة ، كقصيدة نزار « أغنية إلى مسافر (١) » ، وقصيدة محي فارس « ذكريات الحرب (٢) » وقصيدة بدر شاكر السياب « المخبر » (٣) » ، وقصيدة كاظم السماوى « الصامدون » (٤) وقصيدتى البياتى « الليل والمدينة والسل (٥) » ، والرجل الذى كان يغنى (٦) » ، وقصيدة كمال نشأت « العودة (٧) » ، وقصيدة جليلة « الصلاح خير (٨) » ، وقصيدة جيلى « عبرى (٩) » ، وقصيدتى تاج « لاجىء (١٠) » ، و « عيد الغريب (١١) » .

— ٥ —

ولكن إذا فهمنا أنه لا يزال الخلاف مستمرا فى تحديد الشعر الحر ، وأن الفروق بينه وبين الشعر الاتباعى لا تزال غير محدودة ، هان الأمر فى ذلك فاذا جاز السحرتى أن يعد هذه القصائد من الشعر الحر فانه يجوز لى أن أعدها من

---

(١) ص ٣٠ شعر اليوم (٢) ص ٣٥ (٣) ص ٦٥ (٤) ص ٧٢
(٥) ص ٧٥ (٦) ص ٧٩ (٧) ص ١٢٠ (٨) ص ١٢٩ (٩) ص ١٣٦
(١٠) ص ١٤٢ (١١) ص ١٤٤

الشعر الكلاسيكي ، وكفى الله المؤمنين شر القتال . لأن الخلاف يصبح حينئذ لفظيا كما يقولون ، ولكن إن كانت هذه القصائد قد نالت إعجاب ناقد كبير كالسحرتي ، فانى أجعلها مفخرة الشعر الاتباعي وإمكان التحليق فيه ، واستطاعته مجاراة العصر فى تطوره ووثبته ، وإذا كان السحرتي من المؤمنين بالشعر الحر فانى أنفي بالشعر العمودي ذي الموسيقى العربية الأصيلة ، أما التقفية أو التزام حرف واحد فهي ليست شرطا فى القصيدة عند جميع النقاد القدامى والمحدثين ، بدليل ما صنعه شعراء العرب فى الموشحات والمربعات والمخمسات وما شابهها .

وقد كان أبو شادي وكذلك السحرتي يدافعان عن الشعر الحر ، وقد ردا على ما كتبته حوله فى كتابي «مذاهب الأدب» وإنى أومن بأن الأصالة والموهبة والطلاقة التعبيرية والمقدرة على التعبير والتصوير والتأثير هي أولا وقبل كل شيء الشرط الأساسي فى الاعتداد بالشعر وبمنزلة أي شاعر من الشعراء الاتباعيين أو الابتداعيين على السواء .

— ٦ —

وإذا كان كتاب السحرتي مع صغر حجمه قد احتوى على أكثر من خمسين قصيدة ودراستها دراسة تطبيقية نقدية ، فان هذا العمل لا يمكن أن تنال من روعته يد الناقدين أو الحاسدين جميعا .

هذا إلى ما حواه الكتاب من دراسات قيمة أصيلة لأصول الشعر الجديد وعناصره ، ولرواد الشعر الحر وطبقاته :

— ٧ —

والسحرتي ليس مع ذلك كله ممن يستولى عليه الغرور ، ولا ممن يتملكهم العجب ، ومع أنه يدرس الشعر الجديد من عشر سنوات ، منذ أصدر كتابه «الشعر المعاصر» إلى اليوم ، فانه قدم كتابه فى تواضع جم وحياء عجيب ، مدعيا أنه ظهر فى أيام معدودات ، وطمئنا ومعتذرا للشعراء من الشباب بأن أحكامه فى النقد ليست فاصلة ، وأنه لا يدعى إطلاقا أن ما وجهه من نقد القصائد العديدة يعد نقدا فاصلا ، ومقررا أن أحكامه النقدية صدرت

عن نية سليمة ، وأنه أول المؤمنين بأنه لا يستطيع أن يزعم أنه يصدر أحكاما قاطعة فى أعمال الشعراء فى يوم من الأيام .

وبمثل هذه الروح الهادئة يصدر السحرتى أحكامه النقدية ، ويشرع أصولا جديدة فى النقد .

(تتمة المنشور على صفحة ١٤٨)

والشعراء والعلماء ورواية آثارهم الأدبية ونقدها أو شرحها أو تحليلها الخ كما ذكر لنا أسماء بعض مؤلفاتهم فى هذا الموضوع ، ثم عرج على طريقة المستشرقين فى دراسة الأدب العربى وهى الطريقة التى يسير عليها اليوم مؤلفو تاريخ الأدب ومنها كانت تسمية هذه الدراسات . «تاريخ الأدب العربى» : وفى البابين الثانى والثالث يتحدث لنا عن النثر الجاهلى والشعر الجاهلى فلا يدع ناحية من نواحى هذا الموضوع إلا ويشير اليها فى تحليل بديع ووصف لطيف ومن فصول هذا الباب الأخير : الشعر فى الجاهلية – تأثيره – منزلة الشاعر – شاعرية العرب – طبقات الشعراء – رواة الشعر الجاهلى – ثم الشعر الجاهلى بين التجديد والتقليد : والشعر الجاهلى بين الطبع والصنعة ، ثم دفاع عن الشعر الجاهلى ، وصلة الشعر الجاهلى بالتاريخ ، ثم يتحدث عن المعلقات ، وعن موضوعات الشعر الجاهلى والنقد الأدبى الجاهلى ؛ إلى آخر ما هنالك من عناصر هذا البحث مما لابد لكل أديب أو باحث من أن يحيط به . والكتاب يطلب من سائر المكاتب المشهورة فى مصر فنلفت إليه الأنظار .

مجلة الحج عدد رمضان ١٣٧٨ هـ .

الشعر والتجـــديد

— ١ —

في صيف عام ١٩٥٧ ظهر كتاب جديد عنوانه « الشعر والتجديد » لمؤلف هذا الكتاب ، وقد أحدث هذا الكتاب دويا هائلا في حركة النقد المعاصر في الحجاز ، وظل الأدباء والكتاب يكتبون عنه سنة كاملة .

— ٢ —

وعندما نحب ان نعرف أهمية الكتاب لا بد من أن نعرض صوراً موجزة لآراء النقاد فيه .

يقول الأستاذ محمد عبد الغني حسن في مجلة بريد الكتاب من دراسة له عن هذا المؤلف . في هذا الكتاب نلتقي مع عشرات وعشرات من الشعراء المعاصرين في مصر ، وفي غير مصر من الأقطار العربية ، وهو لقاء حبيب إلى النفس ، لأنه يطوف بنا مع شعراء العصر في أجواء مختلفة بعيدة وقريبة ، محلقة ودانية ، رحيبة ومحدودة ، مطلقة ومقيدة ، وعلى الاختصار ، يطوف بنا في كل مطاف ارتاده شعراء العصر الحديث . وقبل أن يتحدث المؤلف عن الشعراء المعاصرين وشعرهم بدأ يحدثنا في مقدمة متوسطة الطول عن الشعر المعاصر بين الموهبة والنقد ، فأخذ يحدد لنا ماهية الشعر ، ومن هو الشاعر ، والشعر كما عرضه المؤلف في المقدمة النفسية ، لا يبدأ بفكرة ، ولكن قد تعززه الفكرة ، إنه يبدأ بشعور هائم لا بد من أرضائه ، وليست الكلمات أول ما تبحث عنه الحالة النفسية وإنما تبحث هذه الحالة النفسية أولا عن فكرة تصوغ نفسها فيها ، والفكرة هي التي تصوغ نفسها في عبارة ، والعبارة تصنع القصيدة ، ويصف المؤلف اللحظات التي يتكون — أو يتم فيها — تكوين العمل الشعري بأنها « لحظات مشرقة خاطفة ، تعصف بذاته — يعني الشاعر — وكيانه عصف الريح بفروع الشجر . فتتفتح لديه مغاليق نفسه ، ويطل على دنياه الكامنة ويلمح عجائب الروح وتلك لحظات عزيزة تضيء ما اختبأ بين اللحم والدم وتبعث من المعاني والصور ما لا يفهمها أو يقدرها

إلا الشاعر وحده ، لأنها مختلطة بأوضار المادة وصادرة عما وراء الظلام وهي معان وصور لا تثبت للمنطق الظاهر ، ولا تلين للبيان الشعري ، وكل ما في الأمر أنها قطع تنتشر من أعماقنا على حالتها الطبيعية كما تنتشر الأحجار الكريمة من جوف البركان » .

ويمثل هذا البيان الضاحي المشرق ، ويمثل هذا الأسلوب العذب يمضي المؤلف في موضوعه ، وينتقل في رءوس موضوعات موجزة إلا أنها دقيقة من الشعر بين مذهبين : إلى الشعر والروح الإنساني ، إلى موقف الشاعر بين المذاهب الفنية المتعددة ، فالشعر الحر والمرسل ، والشعر بين التقليد والتجديد وتطور الشعر ، وفطنة الشاعر بالمعاني . فإذا ما انتهى المؤلف من ذلك انتقل إلى الدراسة النقدية لشعراء المعاصرين ، وهو موضوع الكتاب وبيت القصيد فيه . وهنا نلتقي بعشرات وعشرات من شعراء العصر ، لا في أرض عربية معينة ، ولا في بقعة من أقطار العروبة دون غيرها ، ولكن في ذلك المجال الرحيب العزيز يضم العروبة كلها في إطار ، فنلتقي بمحمد المهدي الجواهري من أعلام الشعر في العراق ، والدكتور إبراهيم ناجي ، وإبراهيم طوقان ، وعمر أبو ريشة ، والشاعر الثائر كامل أمين ، وأبي القاسم الشابي وجورج صيدح من شعراء المهجر ، وأحمد زكي أبو شادي ، والدكتور زكي المحاسني ، ونزار قباني ، والفيتوري ، وخليل جرجس خليل ، وعبد القادر رشيد الناصري ، وصالح الشرنوبي ، وخير الدين الزركلي ، وأحمد الصافي النجفي ، ومحمد الأسمر ، وجميل صدقي الزهاوي ، وأمجد الطرابلسي ، والتيجاني بشير ، وعبد الله شمس الدين ، ونازك الملائكة الشاعرة العراقية ، والشاعرة فدوى طوقان ، وجليلة رضا ، والغاياتي ، ومحمد مصطفى الماحي ، وعشرات من شعراء الحجاز المحدثين منهم محمد حسن عواد ، وطاهر زمخشري ، وحسن عبد الله القرشي وإبراهيم هاشم الفـــلالي ، ومحمد حسن فقي وحسين عرب ، ومحمد سرور الصبان وغيرهم ممن نعتذر إليهم لضيق المجال هنا عن ذكر أسمائهم .

لقد انصف الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي حين جمع لنا هذه الروضة من الشعر العربي الحديث ، فحفظ لجيلنا وللأجيال المقبلة ثروة يصعب أن تجتمع في موضع واحد ، وفي كتاب واحد ، كما حفظ لنا تراجم هؤلاء الشعراء الذين يعدون بالمئات ، واستقصى آثارهم وأخبارهم في هذا السفر الذي يعد بحق أرقى وأوسع مرجع عن الشعر العربي المعاصر .

- ٣٠ -

وكتب الأديب العراقي الأستاذ عبد الرحيم محمد علي عن « الشعر والتجديد » يقول : أهدى إلى أخي العلامة الكبير الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي قبل أسابيع كتابه الجديد « الشعر والتجديد » وهو حلقة من سلسلة تآليف هذا الرائد الكبير الذي تعدى انتاجه المائة بين التأليف والتحقيق والتقديم والطبع وأكثرها يتكون من أجزاء متعددة بين الجزئين والعشر أجزاء . وهذا الكتاب من فرائد المؤلفات في بحثه وهو يشكل الحلقة السادسة من مؤلفات الخفاجي النقدية القيمة التي تركت ـ ولم تزل ـ دويا في عالم الأدب والنقد وهي ، « مذاهب الأدب » و « مع الشعراء المعاصرين » و « رائد الشعر الحديث » و « دراسات في الأدب والنقد » و « قصة الأدب المعاصر » التي تمثل منهجا جديداً في دراسة الشعر المعاصر وفهمه ونقده . والكتاب جدير بالمطالعة والدرس لأنه صورة صحيحة عن طائفة منتخبة من أفاضل شعرائنا المعاصرين في الوطن العربي الأكبر ، بالإضافة إلى أنه يتناول « مذاهب التجديد ودعواته » وآراء النقاد في النهوض بالشعر وربطه بالحياة أو إيجاد قيم فنية خالصة له .

يتناول الخفاجي في الفصل الأول من الكتاب وهو « الشعر المعاصر بين التقليد والتجديد » « الشعر والمجتمع » ويحمل حملة عنيفة على القائلين ، أن الشعر فن تستغني عنه الحياة الحاضرة دون أن تفقد شيئا من مثلها وقيمها ، ويبرهن على أن الشعر جزء من كياننا الإنساني ، وأحد مقومات حياتنا العربية ـ وهو في عروقنا ودمائنا وأرواحنا وعقولنا ومشاعرنا تراث نحبه ونعتز به » .

وقد تبنت دعوة الحملة على الشعر العربي زمرة من الشعوبيين الذين لا تعجبهم نهضة الشعر العربي وتوجهه نحو التجديد الصحيح لا التطرف نحو الفوضى كما يقوم به بعض منتسبي مدرسة « الشعر الحر أو المرسل » التي لم تزل طرائق هذه المدرسة في دور التجربة والبناء وهي لما تكتمل بعد ما عدا بعض ما يقدمه الأستاذ الشاعر نزار قباني من مقطوعاته التي قرر في حقها بعض النقاد من أنها مزيج من القديم والجديد ، وهذه الزمرة التي أعنيها هي التي تسترت وراء ستار التجديد والقفز في الشعر العربي نحو القمة وجعله في الصف الامامي إلى جانب الآداب العالمية الاخرى وقد نسيت هذه الفئة ان للشعر العربي أصوله وواقعه الخاص الذي يتميز به

ثم يتناول الشاعر موضوعات عدة فى هذا الفصل فيتناول « ما هو الشعر » و « من هو الشاعر » و « الصور الشعرية » و « التحرر الفنى » و « الشعر بين مذهبين » و « الشعر والروح الإنسانى » و « الشاعر بين المذاهب الفنية المتعددة والشعر الحر والمرسل » و . . و . .

ثم أن الفصل الثانى من هذا الكتاب يعد (دراسات نقدية الشعراء المعاصرين) ويفتتح هذه الدراسات بدراسة رائعة عن شاعر الحرية والتجديد المعاصر محمد مهدى الجواهرى ، وإن كانت الدراسة موجزة فى أربع صفحات لكنها جاءت كاملة الجوانب عن هذا الشاعر الكبير الذى تعدى صداه الأدب العربى وعلقت مقطوعاته فى بعض المتاحف العالمية :

وبعده يتحدث عن دعوة التجديد عند شعراء المدرسة الحديثة فى الشعر المعاصر فيتناول أحد أقطابها وعميد مدرسة أبولو المرحوم الدكتور زكى أبو شادى ، وهكذا يتم الكتاب فى تناول المدارس الشعرية ويضرب أمثلة لها من طلابها وخريجيها .

ويختم العلامة الأديب كتابه فى الكلمة الأخيرة بقوله عن الشعر : إنه فن روحى يعتمد على إحساس الناس بالجهد . وتذوقهم الجمال ، ثم يصف وضع العصر الحاضر وأنه مادى صرف يريد القضاء على الروحيات لأنه فى عرفه من الواقع فى سبيل التقدم المادى السريع مع أن الروحيات ومنها الشعر طبعا لا تقف فى طريق العلوم ولا بالعكس كما يقرر ذلك المرحوم الدكتور أبو شادى « . . وإنى لا اعتبر العلوم عدوة للآداب ـ وكل ما حدث وسيحدث أن التآخى بين القوتين العظيمتين ستوطد ـ وانهما سيندمجان وما الشعر فى اعتبارى إلا نبع الإحساس العميق والتأمل البعيد والنظر إلى ما خلف المظاهر » .

هذه هى نظرة رجل على إلى الشعر فهو يحمل الدكتوراه فى الطب بالإضافة إلى الاجازات العلمية الأخرى ، فما بال الشعوبيين إذا أن يركزوا حملتهم على الشعر العربى وماهى نيتهم من هذه الحملة العنيفة ، انهم لا شك فاشلون فى دعوام ونتيجتهم سلبية ، وليس هذه نظرة سريعة من كتاب (الشعر والتجديد) لأخى العلامة الكبير الخفاجى .

— ٤ —

وتقول الأديبة السورية منور فول من دراسة لها عن الكتاب نشرت فى جريدة الكفاح السورية العدد الصادر فى اليوم الثامن من شهر إبريل عام ١٩٥٩ :

ليست دراسة هذا الكتاب من السهولة بمكان ، فهى تشتمل على أسس كثيرة تبحث خصائص الشعر . . وكونيته وأصله . . ولكن فى هذا البحث سأتناول الزاوية الهامة فى الكتاب وهى المذاهب الشعرية التى رسمها لنا الأديب الكبير الأستاذ عبد المنعم خفاجى فى مؤلفه الجديد « الشعر والتجديد » لما فيها من جمال فنى يجلو لنا اللفظة الشعرية والروعة الفائقة . .

تناول الأستاذ خفاجى بالتحليل المسهب أكثر القصائد لشعراء العرب . . ونحن سنقف على الآراء القيمة التى شرحها الاستاذ الاديب للشعر الجديد الموزون والمطلق على السواء . . إذ استعرض ماهية الشــعر وخصائصه بالأسلوب المشوق الذى يثبت كيانه الذاتى كأديب ضليع . . رشيق التعبير . . أفكاره قيمة تعبر عن الصورة الكبيرة ، الفكر الكبير الواعى الذى حباه الله ليكون منارا يسير على هداه المفكرون . .

الشعر فى تعريف الإستاذ « خفاجى » لا يبدأ بفكرة . . ولكن تعوزه الفكرة ، وهو يبدأ بشعور هائم لا بد من إرضائه ، هذا تعريف لا أنكره على الأستاذ الاديب ولكن أعتبر الفكرة أول إحساس يداعب خيال الشاعر ويتأجج فى قلبه ، ذلك لان الشعر صرخات حنين تتأثر فى المرئيات الكونية وتطلق على سجيتها ، وتنسج من رموزها فكرا من إطارات فنية تأخذ دورها على مسرح الحياة ، ولولا « الفكرة » لما صاغ الشاعر شعره .

والشعور هو الذى يعزز الفكرة ويرتفع بها إلى العالم الكبير اللامحدود هذا فيما يتعلق بالفكرة والشعور التى تعيش فى ذاتية الشاعر ، أما المذاهب ، كالرمزية ، والواقعية ، والسريالية ، والبرناسية ، والرومنطيقية ، والرومانسية فكلها مذاهب ذات هدف يختلف من مذهب لآخر ، وقد أتى على ذكر لون كل مذهب ، إذ قال إن البرناسية تهتم بجمال التركيب ، وحسن الإيقاع ، وعدم طغيان العنصر الشخصى ـ يقصد ـ الشاعر على التفرقة ، وتقصر اهتمامها على

تصوير الحياة الواقعية وتجعل الشعر صناعة لها جمالها الفنى الرائع :

أما الرمزية فهى تحاول الإفصاح عن العواطف المكبوتة فى أعماق النفس ، والإيحاء على الصور العقلية ، مع الاستعانة بجرس الالفاظ ، وإيقاع الوزن وتركيب الجمل بمعانيها الدقيقة ، فى حين أن السريالية قوامها الهدم والتخريب ، والخروج على التقاليد الموروثة ، ومصارعة الظلم ، والثورة على كل شىء

أما الوجودية فهى تحويل الادب والشعر عامة من تصوير للظواهر السطحية ـ الحياة والإنسان ـ إلى التعمق الفلسفى لتفسير مشكلات الوجود الاساسية ، وإغراق الفن فيما وراء الطبيعة والفصل ما بين الفن والحياة ، والإيمان بحرية الإنسان حرية مطلقة خالية من القيود ، أما الواقعية ففيها تفاؤل وإيجابية ذات نزعة هادفة تغلب عامل الخير والثقة بالإنسان وقدرته ، وتتخذ مضمونها من حياة عامة الشعب ومشكلاته .

إن هذه المذاهب ليست مستقلة فى شعرنا العربى .. بل هى دخيلة ، وهى تكاد تكون مقتصرة على الشعر الغربى أكثر مما هى فى الشعر العربى ، فشعرنا قبل كل شىء يعتمد على التفعيلات والاوزان ، وإن كان أتباع التجديد الشعرى تحرروا من هذه القيود ، وساروا فى ركاب الشعر الغربى واعتمدوا على الصورة الفنية ، والنزعات الانسانية ، ونسجوا أشعارهم على طريقتهم الخاصة فى التعبير عن مضمون ما يختلج فى صـــدورهم من أحاسيس طيبة تكون انعكاسا لصور الحياة ، وترجمة لمشاعر الإنسان .

ولعل هذا التحرر فى صالح شعرنا الجديد الذى لايقره الاستاذ خفاجى . فالشعر كما هو مألوف ـ إحساس قبل أن يكون تفعيلات وأوزان وعلينا ألا نحارب الجديد .. كل جديد لما له من جمال فنى رائع ..

وفى الكتاب دراسة مسهبة عن الرومانسية الشعرية .. ولقد جسدها لاستاذ خفاجى بشعر الشاعرة العربية الكبيرة السيدة جليلة رضا التى عاشت تجارب الحياة .. وتجرعت كؤوسها طافحة .. وهو اذ يقول فى شعرها .. يمثل ـ اللحن الثائر ـ صوراً فنيه رفيعه .. نابضة بالحياة ، والقوة والجمال .. ويمثل مع ذلك جوانب من حياة الشاعرة ، يمثل قصه حيرتها وحيانها وعواطفها الوطنية ..

مع جانب الحرمان فى نفسها .. إن شعرها دوى لحياة عاصفة .. حافلة بالألم والوحدة ، وهى فى قصائدها الموشاة بعاطفة حرة متقدة طليقة .. تكره السدود والقيود ، وتندفع كالطير المطلق فى خيال مطلق .

إن الرومانسية بما فيها تتمثل صادقة فى شعر جليلة . . . وفى غمار المذاهب وتفنيدها لم ينس الأستاذ « خفاجى » من أن يحدثنا قليلا عن الالتزام . . وما يتجاوب مع الشاعر من أحاسيس يصورها نابضة بالروح والعاطفة .. وإن عاب على الشعراء إهمالهم للفظ الشامل، وحصر الالتزام - على ذاتيتهم فقط ..

وعلى هذا المنوال سار الأستاذ « الخفاجى » فى مؤلفه « الشعر والتجديد » الذى أضافه إلى المكتبة العربية كجوهرة نفيسة تفتقر لوجودها فى عالم الكتب .

— ٥ —

وللأديبة السورية منور فوال أيضا دراسة كتبتها للإذاعة عن الكتاب بعنوان « نظرة فى الشعر والتجديد » ، جاء فيها : إذا قارنا بين قديم الشعر وحديثه ألفينا نقاطا كثيرة تحد بين الإثنين ، وترسم علامات الاستفسار عن كونية الشعر وأصله ، وعن الينابيع الخيرة التى يتدفق منها وهى ينابيع النفوس الإنسانية الكبيرة التى تحس كثيراً وتشعر كثيراً، وتنسج من هذا الاحساس وذاك الشعور أبيات تنطق بالحياة والسحر .. وتعكس ذاتية الانسان على علاتها . فى خيرها وشرها ، وحبها وحقدها ، وفرحها وحزنها ، وما إلى ذلك من أشياء جوهرية إنسانية تفند دنيا الحياة . والإنسان « الشاعر » إنسان ذاتى حباه الله ، بخيال مطلق ، وأحاسيس شتى تقوم فى نفسه صفة الخلق والابداع .. وهذا ما نجده فى قصائد الشعراء الذين نقرؤهم ونعيش بأجوائهم السماوية ، ونسمو بأحلامهم التى تصور حياتنا ، وتعبر عما يخالجنا من شعور وما يعتمل فى قلوبنا من أحاسيس لسنا قادرين على الافضاء بها جهراً ، فى الشعر القديم نرى الشعراء قد حملوا رسالة الإنسان فى سبيل التحضر ، ، ونيل الحقوق المهضومة ، وجاهدوا وناضلوا إلى أن عززوا قيم الحضارة الإنسانية ،، وجعلوا من شعرهم قوسا ورمحا كسلاح ردوا بقوته ضغائن الأعداء ، ، وظفروا بثمرة الكفاح ، ، وفى شعرنا الحديث نجد الشعراء الجدد يتابعون رسالة هؤلاء القدامى ، ولكن باختلاف بسيط

هو الطرق التي ينظم بها .. إلا أن الأهداف واحدة ونحن إذ يجدر بنا أن نعيش لحظات مع الأستاذ الكبير « محمد عبد المنعم خفاجي » الناقد والكاتب المعروف وهو يبسط في مؤلفه النفيس ـ الشعر والتجديد ـ خصائص هذا الشعر والمذاهب التي يسير عليها الشعراء المحدثون ، وهي مذاهب جديرة بالشرح لما فيها من جمال فني ، يضفي على اللفظة الشعرية الروعة الفائقة ، وقد تناول الأستاذ خفاجي بالتحليل المسهب أكثر القصائد لشعراء العرب . وفي هذه الدراسة سنقف على الآراء القيمة التي قدمها الأستاذ الأديب للشعر الجديد ، الموزون والمطلق على السواء ، وقد استعرض ماهية الشعر وخصائصه بالأسلوب المشوق الذي يثبت كيانه الذاتي على السطور ، وهذا ما يدل على المكنة الأدبية التي يتحلى بها أديبنا الكريم :

الشعر في تعريف الأستاذ « خفاجي » لا يبدأ بفكرة ، ، ولكن تعوزه الفكرة ، وهو يبدأ بشعور هائم لا بد من إرضائه ، هذا تعريف قيم لا أنكره على الأستاذ خفاجي ، ولكني أعتبر الفكرة أول إحساس يداعب خيال الشاعر ، ذلك لأن الشعر صرخات حنين تتأثر في المرئيات الكونية ، وتنطلق بعد ذلك على سجيتها . وتنسج من رموزها فكراً في إطارات فنية تأخذ دورها على مسرح الذات البشرية ، ولولا الفكرة لما صاغ الشاعر شعره ، والشعور هو الذي يبرز الفكرة ، ويرتفع بها إلى عالم الكون الكبير اللا محدود :

ثم ينتقل بنا الأستاذ خفاجي إلى مذاهب الشعر : الرمزية والواقعية والسريالية والبرناسية والرومانسية والرومنطيقية ، وأتى على ذكر خصائص كل مذهب منها ، إذ قال : إن البرناسية تهتم بجمال التركيب ، وحسن الإيقاع ، وعدم طغيان العنصر الشخصي ، وتقصر اهتمامها على تصوير الحياة الواقعية ، وتجعل الشعر صناعة لها جمالها الفني الرائع البعيد عن الإحساس ، أما الرمزية فهي تحاول الإفصاح عن العواطف المكبوتة في أعماق النفس البشرية ، والإيحاء على الصور العقلية مع الاستعانة بجرس الألفاظ وإيقاع الوزن ، ، وتركيب الجمل بمعانيها الدقيقة .

أما السريالية ، فقوامها الهدم والتخريب ، والخروج على التقاليد الموروثة ومصارعة الظلم ، والثورة على كل شيء ، والسلبية الفكرية ، أما الوجودية فهي ترى تحويل الأدب والشعر عامة من تصوير للظواهر السطحية ـ الحياة والإنسان ـ إلى التعمق الفلسفي لتفسير مشكلات الوجود الأساسية وإغراق الفن في غيم

ماوراء الطبيعة والفصل ما بين الفن والحياة والإيمان بحرية الإنسان حرية مطلقة خالية من القيود ، أما الواقعية فهى تفاؤل وإيجابية ذات نزعة هادفة ، تغلب عامل الخير والثقة بالإنسان وقدرته ، وتتخذ مضمونها من حياة عامة الشعب ومشكلاته . .

هذه بعض المذاهب وأهدافها فى الشعر المعاصر ، ، ولكنها ليست مستقلة فى شعرنا العربى ، بل متداخلة عليه ، وهى تكاد تكون مقتصرة على الشعر العربى ، فشعرنا قبل كل شىء يعتمد على التفعيلات والأوزان والقوافى .. وإن كان أتباع التجديد الشعرى قد تحرروا من هذه القيود ، وساروا فى ركاب الشعر الغربى واعتمدوا على الصورة الفنية والنزعات الإنسانية ، ونسجوا أشعارهم على طريقتهم الخاصة فى التعبير عن مضمون مايختلج فى صدورهم من أحاسيس طيبة تكون انعكاسا لصور الحياة وترجمة لمشاعر الإنسان ، ولعل هذا التحرر فى صالح الشعر الجديد ، فالشعر إحساس قبل أن يكون تفعيلات وأوزان ، والإحساس لا يمكن أن يخضع لقيود لأنه فوق طاقة الإنسان . كما أنى لا أنكر وجوب التقيد بالأوزان ، ولكن أيضا لا يمكن إلا أن أحترم هذا الشعر الذى يترجم حقائق الإحساس ويتخلف عن الالتزام ، فالالتزام فى الشعر يجمد النغم ويعطى صورة باهتة لجمال التركيب اللفظى ، وفى هذا الصدد يقول الأستاذ « خفاجى » رأيه فى الالتزام : « تكسب مدرسة الالتزام فى الأدب كل يوم نفوذاً وقوة وذيوعا ، وهى تحاول التجديد بكل ما فى وسعها ، وترى فى الشعر القديم صوراً نابضة بالروح والعاطفة ، ولكن حظ الذاتية فيها أكثر ، ونحن لا ننكر على الشاعر أن يعبر عن نفسه ويترجم عن إحساسه وذاته ولكننا ننكر عليه أن يكون شعره وقفاً على نفسه وذاته الخ .

أما الرومانسية الشعرية فقد جسدها الأستاذ « خفاجى » فى شعر السيدة جليلة رضا التى عاشت تجارب الحياة . ، وتجرعت كؤوسها طالحة ، رشعرها يمثل صوراً رفيعة ، نابضة بالحياة والقوة والجمال ، ويمثل مع ذلك جوانب من حياة الشاعرة الكبيرة . يمثل قصة حيرتها وحياتها وعواطفها الوطنية وجانب الحرمان فى نفسها إن شعرها خلايا كبيرة لحياة عاصفة ، حافلة بالألم والوحدة ، وهى فى قصائدها الموشاة بعاطفة حرة متقدة طليقة . تكره السدود والقيود وتندفع كالنهر المطلق

بخيال مطلق . . وهي في كل هذا إنسانة شاعرة ، وشاعرة إنسانة .

وعلى هذا المنوال الفني المتين يتابع الاستاذ « عبد المنعم خفاجى » دراسته الشعر العربي الحديث من خلال صوره الفنية التي تعبر عن عمق معرفته وأصالته الفكرية بالصورة الكبيرة للفكر الكبير الواعي المتزن الذي حباه الله به ليكون مناراً يسير على هداه المفكرون . . إن الخفاجي في مؤلفه الجديد « الشعر والتجديد » أضاف لتراثنا العربي جوهرة ثمينة نفخر بها على مر السنين .

— ٦ —

وقالت عن الكتاب الموسوعة العلمية التي تنشرها وزارة التربية في مصر بعنوان « النشرة الثقافية المصرية » ما نصه بإيجاز : هذا الكتاب بحث تحليلي مقارن ، درس فيه المؤلف مذاهب التجديد ودعواته ، وآراء النقاد في النهوض بالشعر وربطه بالحياة أو إيجاد قيم فنية خالصة له ، وناقش الآثار الفنية للشعراء المعاصرين وربطها بالبيئة ونفس الشاعر ، وحياته . كما عرض طائفة من الصور الفنية لهؤلاء الشعراء درس فيها حياة كثير منهم ، ونوه بأهم نتاجهم الشعرى ، وانتقل المؤلف إلى الحديث عن كثير من مشكلات الشعر والشعراء في عصرنا الحاضر ، وأورد بعض الأحكام النقدية في أثناء دراسته لمئات الشعراء الذين يضمهم الكتاب ، ولنتاج شاعريتهم .

وقد مهد المؤلف لكتابه بمقدمة عرض فيها لمعنى الشعر ، وتعريف الشاعر ، كما تكلم عن الصورة الشعرية والتحرر الفنى والمدارس المختلفة ومذاهبها الفنية المتعددة . وانتهى من هذا العرض إلى أنه ممن يحاربون التقليد في شتى صوره وألوانه ، والكتاب من منشورات رابطة الأدب الحديث وقد طبع عام ١٩٥٧ م في ٥٢٧ صفحة (١) .

— ٧ —

ولكن الآراء التي تضمنها كتاب « الشعر والتجديد » لم ترض لفيفاً من أدباء

---

(١) ٩١٨ و ١٩١٩ من النشرة الثقافية المصرية العدد الرابع ، السنة الثانية ١٩٥٧ .

الحجاز لأنهما مستهم مسا خفيفا بالنقد ، فثاروا وأعلنوا ثورتهم فى مقالات نشروها فى « البلاد السعودية » ، و « الأضواء » وسواها من صحف الحجاز ، وفى مقدمة هؤلاء : الشاعر محمد حسن عواد والأستاذ عبد السلام الساسى وسواهما .

أما الساسى فقد لبس أخيرا مسوح الناقد ، ووقف يحكم على كتابى « الشعر والتجديد » فى أولى مقالاته التى نشرتها له مجلة الأضواء .

والساسى كما نعرفه فى كتابته ليس من النقد فى شىء ، وكتابه الأخير الذى نشره فى القاهرة رسائل عامة لبعض الكتاب والأدباء والمفكرين ليس له فيها أى فضل ولا أى مجهود .

وإنى لأقبل مع ذلك أن يتزيى الساسى الأديب الحجازى وتلميذ الشاعر محمد حسن عواد بزى النقاد ، وأن يحكم على كتابى « الشعر والتجديد » فماذا قال ؟ .

قال إن الخفاجى قد طعن الشعر السعودى المعاصر فى الصميم ، ونسى الساسى بأنى بدراستى للشعر الحجازى المعاصر فى كتابى « الشعر والتجديد » إنما أعبر عن تقديرى واعترافى به .

إن كتاب « الشعر والتجديد » الذى دعاه الساسى تهريجا لما حواه من دراسة عن الشعر الحجازى المعاصر ، هو أول كتاب تناول هذا الشعر بالدراسة والنقد والموازنة واستنباط الخصائص ، وهذا عمل جديد على أذهان الكتاب والشعراء والبدائيين الذين لا يستطيعون أن يهضموا إلا الأعمال البدائية فى التاريخ والبحث حين يحرمون من الروح و مقومات وأصول الثقافة الأدبية .

والساسى لا يرى عيبا فى كتاب « الشعر والتجديد » إلا أنه يرجع إلى المصادر ويسجل الآراء ، ومن هذه الآراء آراء « الفلالى » فى كتابه المرصاد بأجزائه الثلاثة ولتعذر أيها القارئ الساسى على هـــذه الأمية الظاهرة التى ترى الرجوع إلى المصادر عيبا يعاب عليه الباحث والدارس ، وإذا كان العيب فى الرجوع إلى المرصاد وحده فإنى أبادر فأقول للساسى : إنى لم أرجع إلى المرصاد وحده ، وإنما رجعت إلى كل مصدر حتى المصادر الحية ، وأما إن كان شخص الفلالى وكتابه المرصاد لا يعجبان الساسى ، فإنى أبادر فأقول : إن عمل الفلالى وخدمته للأدب الحجازى بإصداره كتاب المرصاد يعادل جميع الأعمال الأدبية التى قام بها العواد

ومدرسته والساسى وأشباهه كافة خلال الربع القرن الأخير .

إن الساسى لايفهم أهمية عمل الفلالى عندما كتب عن الشعر الحجازى والأدب الحجازى المعاصرين :

يقول الساسى : إن الفلالى أديب وشاعر وسط لايقل ولايزيد عن غيره من أدباء وشعراء الرعيل الثالث فى بلادنا ، وأنا أقول لهذا الساسى إن شاعرية الفلالى أحكم وأقوى وأمتن وأصل من شاعرية كثير من الشعراء الحجازيين الذين يعتز الساسى بهم عامة ، والفلالى هو وحمزة شحاته يحتلان المنزلة الرفيعة فى الأدب والشعر الحجازى المعاصرين ، والرأى للنقاد ، لا للساسى ولا العواد فى هذا المضمار .

وكتابى « الشعر والتجديد » يدل على تقديرى الشديد لشاعرين حجازيين معاصرين يحتلان من الشعر الحجازى المعاصر منزلة كبيرة : أولهما الشاعر حمزه شحاته ، وثانيهما الشاعر إبراهيم هاشم الفلالى ، فهما من حيث النهج الفنى ومن حيث القيمة الذهنية ، ومن حيث الخصائص الجمالية ، قمة من القمم التى بلغها الشعر الحجازى المعاصر .

والعجيب أن الساسى لم يفهم من الكتاب شيئا ، أو هو لايحب أن يفهم منه شيئا ، إنه صعب عليه أن يفهم معنى « الغنائية » ، وهى مشروحة فى الكتاب شرحا وافيا لا لبس فيه ، صعب عليه أن يفهم مقاييس النقد الأصيل ، وكيف توزن على أساسها منازل الشعراء ، وصعب عليه أن يفهم لماذا عبت على شعراء معروفين هبوطهم الفنى وآخذتهم على هذا الهبوط ، فى الوقت الذى نوهت فيه بروائع الشعراء من الشباب والشيوخ فهموا رسالة الشعر وأدركوا خطره وقيمته فى الحياة .

والعجيب من الساسى أنه يدعو المؤلفين إلى الأمية فى البحث ، فاذا أراد أديب حجازى مثلا أن يكتب عن الأدب المصرى ، فليس هناك داع لأن يقرأ ما كتبه الأدباء المصريون أنفسهم عن أدبهم ، وليس هناك داع لأن يذكر الناس الآراء التى كتبوها . وإذا فعل هذا أو ذاك كان ذلك إثما وجناية عند الساسى .

وإذا كتبت عن الأدب الحجازى فليس هناك كذلك داع فى رأى الساسى لأن أرجع إلى الآراء التى كتبها الأدباء الحجازيون أنفسهم عن الأدب الحجازى ،

وإذا فعلت شيئا من ذلك كان هذا جناية لا تغتفر فى رأى الساسى ، وإذا رجعت إلى صاحب كتاب المرصاد من بين عشرات المراجع التى رجعت إليها كان ذلك عيبا كبيرا ، وكان صاحب المرصاد جاهلا ، وكان شاعرا فى المنزلة الثالثة أو العاشرة ، أو ماشاء الساسى أن يضعه فيها من منازل الشعراء . . لماذا يكون الرجوع إلى « المرصاد » عيبا كبيرا عند الساسى ولا يكون رجوعى إلى كتب العواد وإلى « وحى الصحراء » لعبد المقصود وبلخير عيبا أيضا ؟ . . لماذا يعد الائتناس برأى صاحب المرصاد ذنبا لا يغتفر ، مع أنى رجعت لعشرات بل مئات الآراء التى دونت عن الشعر الحجازى المعاصر ؟

وإذا خدمت هذا الشعر بدراسة نقدية جديدة تقرب معرفته إلى الأدباء فى العالم العربى ، كان ذلك جناية لا تغتفر فى حق الشعر الحجازى نفسه ، وفى حق الشعراء الذين نقدتهم كذلك .

إننى أعلم - مقدما - أن لكل شاعر تناولته بالنقد تلاميذ وأنصارا ، وأن أى شاعر أنقده سيعرضنى نقده لخصومته وخصومة تلاميذه ، وأن الصحف والمجلات فى الحجاز قد تضيق بردودى على ما يكتب من نقد ، كما صنعت جميعها حين لم تنشر ولو بكلمة واحدة لأول رد لى على العواد . . ومع ذلك كله فهذا لم يدعنى ألتفت إلى أن أكتب أحكاما أدبية ترضى هذا أو ذاك ، إنما أردت إرضاء الضمير الأدبى النزيه وحده قبل كل شىء .

أما عنان فقد قرأت له كلمة طويلة ، ومع أنها طويلة فإنى لم أفهم منها شيئا ، وأتحدى أى أديب أن يشرح لى ماذا أراد عنان أن يقول ، ويبدو أنه كتبها ليتملق بها إلى شخص معين ولينال بها حظوة عنده ، ولذلك فإنى أترك الرد عليه لينال مأربه الذى يريد ، وما كان لمثلى أن يفوت على طالب حاجته ، ولماذا يحدث ذلك منى ، وأنا لم أجامل أحدا فى النقد ؟ .. أننى أرحب بكل ما ينشر عن آرائى فى كتاب « الشعر والتجديد » ، ولو كان ما يكتب لا يفهم منه شىء .. ولو كان ما يكتب كذلك قد قصد به الملق والنفاق .

وأحب أن أطمئن المبتدئين فى الكتابة إلى أن الميدان مفتوح ليجربوا ، وليمرنوا أنفسهم على النقد ، وليتوهموا أمام أنفسهم أنهم قد رضوا عن أنفسهم ورضى عنهم الناس ، وأنهم أصبحوا نقاداً يستطيعون أن يفصلوا فى مشكلات النقد بجرأة وشجاعة وقوة .

ولفهم شخصية الساسى نسوق بعض فقرات من مقالة نشرها الأستاذ عمران محمد عمران فى « الأضواء » عدد ١٧ شوال ١٣٧٧ هـ وفى الصفحة الثامنة بعنوان « الساسى يخرف » قال :

« علم الله ، أنه ما كان يودى الدخول فى أخذ ورد مع إنسان لجوج أحمق قاصر الثقافة ، متبلد الفهم ، عقيم التفكير واهى الحجة ، كأخينا عبد السلام الساسى الناشر المعروف ـ إذ لولا وضع الحق فى نصابه والانتصار لقضية الأدب عموما لما أجزت لقلمى تسطير مقالى الأول المنشور فى « الأضواء » بله مقالى هـذا . ذلك أن كتاب « نظرات فى الأدب المقارن » لم يقصد منه ناشره الساسى ـ أول ماقصد ـ إلا الشهرة الأدبية والكسب المادى ، وإلا فأى جدوى من نشره إياه ولعل للناشر عذره ، فنحن فى عصر مادى بحت ونحن نعيش فى عصر حظنا منه القشور والتوافه . . أليس كذلك ؟ . ومنذ أيام ، طلعت علينا جريدة « البلاد السعودية » الغراء بعددها ٢٧٢٦ فاذا بين مواده مقالة كتبها أخونا الساسى ، واستفرغ فيها كل جهوده . . ومقالات الساسى ـ فى جملتها ـ لاتختلف ، أسلوبا وموضوعا وفكرة عن بعضها ، فان كلمة « الغراء » تلم شملها وتجمع شتاتها وتقدمها ، باختصار ، إلى القراء ! إننى كلما تصورت الساسى من خلال كتاباته بدا أمامى حقيرا تافها لايجدر بالمرء أن يخصه ، ولو بكلمة واحدة ، فضلا عن مقال يفرغ الكاتب فيه عصارة فكره ، لقد قلنا أنا والأنصارى ، والذهب وباعشن والصايغ ـ لقد قلنا كلماتنا فى ثقة ، وحسبنا أن أخانا الساسى ممن يتجاوب مع غيره فيقدر رسالة النقد حق قدرها ، وأنه لايضيق صدرا بما يبديه الآخرون من ملاحظات وإرشادات هو فى أمس الحاجة إليها . ولكن الأيام أخلفت حدسنا فأرتنا ـ فى رابعة النهار ـ أن صاحبنا إنسان ضيق الأفق ، متحجر العقل ، محدود التفكير ، متوتر الأعصاب ، لايعرف عن النقد لا أنه سب وتشنيع وردح ، لأنه اعتاد هـذه الأساليب طيلة حياته الأدبية إن كانت له حياة . مسكين وأى مسكين . . هذا « المتأدب » الذى حشر نفسه فى زمرة الأدباء . هذا الذى شوه سمعة أدبنا وأظهره فى مظهر صبيانى فاشل مزر ! لقد حاولنا ـ أيها الساسى ـ أن نتفاهم معك ، بأسلوب متزن بناء ، وكان رائدنا الصراحة ، وغايتنا خدمة القضية الأدبية التى عبثت بمسمياتها ـ ولكنك استسلمت لأعصابك ، فرحت تشنها حملات شعواء من الشتم والتجريح الشخصى الذى لا يليق بمنتسب للأدب أن يتفوه به . أردنا

نقاشك فأردت شتيمتنا والهزء من تبصيرنا إياك بالحقائق أردنا إفهامك أن اللغة جذر أساسي في الأدب ، وأن الأديب الذي لا يحترم قوانين لغته وقواعدها ليس إلا « أدبانيا » يدخل نفسه في غير مجالاته ، فأبيت إلا أن تصف أنصار اللغة والغيورين عليها بالرجعية والعتق والتأخر ! وأفهمناك ـ خدمة وانتصارا للأدب ـ أن تسمية كتابك بتلك التسمية جاءت خطأ وغير مطابقة لمضمونه ، ولكنك تعاميت وأصررت ، في ضلال أن التسمية صائبة فلماذا ـ بعد أن انكشف عنادك ـ نعتب عليك !؟ »

— ٨ —

وقد تناولت آراء العواد في « الشعر والتجديد » بالدراسة والمناقشة في كتابي « من تاريخنا المعاصر » ، وقد وصلتني رسالة من أديب من أدباء الحجاز يقول فيها حول هذه المعركة الأدبية :

كتب الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه القيم النفيس دراسة لشعراء الحجاز ، ومن بين من كتب عنهم الأستاذ محمد حسن عواد أحد أدباء جدة ،

وكان الخفاجي قد تحدث عن الأستاذ العواد حديث المشجع الذي يريد ممن يكتب عنه إذا كان ناشئا مبتدئا أن يستمر لعله يجيد ويكون شيئاذات يوم .

ونقد الأستاذ خفاجي بعض أبيات للعواد يريد من نقده التوجيه والنصح حتى يستطيع أن يخطو في مستقبله خطوات موزونة ، ولكن دأب العواد الغرور والضعف ، ولا يكاد يطيق أن ينقده أحد حتى يثور ، ويحطم كل شيء في ثورته .

وغرور العواد يسول له أنه بلغ في الأدب والفن والشعر القمة التي لم يبلغها أحد من الخافقين ، ودعاه الغرور والضعف على أن يثور ، ويستغل عمله في جريدة (البلاد السعودية) فيدفع الناشئة إلى التطاول على كل ذي مقام رفيع ، ويكتب اصبيانه المبتدئين من أمثال عبد السلام الساسي وأبي مدين وأمين يحيى وغيرهم مقالات يهاجم فيها الناس ، ودفع بعض صبيانه إلى أن يخوضوا معركة وهمية ، ثم دخل العواد فيها حاملا راية القيادة ، والعواد يحسن القيادة في كل سفاف من الأمور .

وكتب العواد بضع مقالات تحت عنوان « الشعراء المواطنون في نظر مؤلف

مصرى حديث ، نشرها بالبلاد السعودية وكان غروره فيها وإعلانه عن نفسه وراء كل كلمة فيها .

وقد تناول العواد فى رده شخصية عربية إسلامية لها شأن فى عالم الأدب والفكر ، ذلك هو الأستاذ السيد إبراهيم هاشم فلالى ، بالغمز واللمز والهجوم لماذا ؟ لأن العواد توهم أن الخفاجى عندما نقد العواد أراد أن يرفع على أشلائه منزلة الفلالى ، ومن هنا صب العواد نقمته على الفلالى .

إن العواد بتعرضه للفلالى دال على أنه ليس أهلا لحمل رسالة القلم ولا شرف الدفاع عن الحرية ذلك لأنه تعرض لإنسان لا يملك فى ظروفه ما يرد به على العواد.

وما أظن أن هناك مجالا للموازنة بين الفلالى والعواد ، من ناحية الأخلاق ولا من ناحية الأدب والشعر والثقافة ولا من ناحية الحسب والنسب . فن ناحية الأدب نرى الفلالى الآن يأخذ مكانه فى التاريخ الأدبى العربى الحديث لا فى الحجاز وحده بل فى الأدب الحديث عامة ، وحسب الفلالى أن يكون فى مصر موضع تقدير أساتذة الجامعات وأساطين الأدب وعباقرة الفن والشعر ، يقدرونه ويحترمونه لأخلاقه وعلمه وثقافته الواسعة ثم إن قصيدة من شعر الفلالى ترجح بكل ما نظم العواد من هذره العفن وشعره الممقوت .

ومن الغريب أن يأتى العواد الآن ويزعم أن الفلالى «كاتب بدائى متساع فى قم الفن والفكر مقلد متحجر» بل لا غرابة فى الأمر إذا عرف القارىء طبيعة العواد المفطورة على الشر ، فهو يرفع الواحد إلى السما. فإذا ما وجد منه يوما نصحا أو نقدا صب عليه كل ما فى الكون من اتهام .

فالعواد فى ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٦ أى منذ أكثر من عشرين سنة أشاد بالفلالى ورفعه إلى السماء ، ووضعه مع أميل لودفيج أكبر كتاب التراجم ، وذو الطريقة المثلى فى كتابتها ، نعم ، وضعه مع أميل لودفيج ! !

وعندما رفع العواد الفلالى كان الفلالى مبتدئا فى الأدب والكتابة ، صغيرا فى السن ، وكان العواد فى الواحدة والخمسين ، ومع هذا مدح العواد الفلالى مدحا لا نظير له ، وكان ذلك عندما ألف الفلالى كتابا صغيرا كحلقة أولى فى سلسلة موضوع تاريخى وكتب العواد مقدمته وقال : « يلتقى التاريخ بالفكرة الفنية فى

عمل فنى يشبه العمل التاريخى ، وهـذا الكتاب التاريخى الصغير إنما هو مثال واضح لهذا الالتقاء ، فهو فى حقيقة أمره فكرة فنية قبل أن يكون كتابا تاريخيا، ويقول العواد : « إن عمل الفلالى فى كتابه هذا يسمو على مواضيع التاريخ ويتصل بأكناف الفن » .

وليرجع القارىء إلى مقدمة كتاب « رجالات الحجاز » الفلالى ، تلك المقدمة التى كتبها العواد له منذ ثلاثة وعشرين سنة ، ليرجع إليها القارىء فسيجد الفلالى مع عباقرة الفن والأدب والتاريخ ، أو هكذا وضعه العواد .

قبل عشرين سنة وعندما كان الفلالى شابا حدثا مبتدئا فى الأدب يحبو فى مدارجه ينبرى الأستاذ العواد ويصف الفلالى أو كتاب الفلالى وصفا يرفعه إلى مقام مؤلفات أساطين الفكر فى العالم .

والآن ـ وبعد عشرين سنة ، يأتى العواد ليرمى الفلالى بأنه كاتب بدائى لأن الفلالى نقد العواد نقدا عادلا ، نقدا أراد منه التقويم ، فيغضب العواد ويزعم فى صغار وقحة أن الفلالى مقلد متحجر .

والعواد لا يطيق العيش والحياة إلا فى المنحدرات ، وقد وصف نفسه فى قصيدة له فى ديوانه نحو كيان جديد ص ٦٣ فقال .

وحياتى وقف عليك وإنى — أنا ذاك الملقى سدى فى الطريق

فهو يعترف أن حياته وقف على الشر وما ينبثق عنه ، ومن كانت حياته كذلك فهو جدير أن يكون ملقى سدى فى الطريق ، وهذا البيت يقدم لنا شخصية العواد، تلك الشخصية التى تفترق عن شخصية كثير من الناس ، العواد مسكين ، فقد عرف هوان نفسه فأراد أن يصطنع ضجيجا ينبعث من دعاواه، فهجا محمود عارف ، وهجا صديقه عبدالسلام الساسى فقال عنه قصيدة مطلعها :

قل لعبد السلام نسل ؟ .ا — وسليل المخنثين الزناة
الأُلى عرضهم تجارة بخس — والأُلى رزقهم من المخزيات

بل إن العواد فى مقالاته بالبلاد السعودية يقول عن محمد سعيد باعشن إنه « غلام ناشىء فى الأدب » ، وهذا يغنى فى فهم شخصية العواد، الذى يقول عن ابن أخته هذا الكلام ،

فى ذكرى شاعر

— ١ —

تمر الأيام ، وذكرى الشاعر حسن القاياتى لاتزال ملء القلوب والأذهان ، هذا الشاعر الذى استحدث ديباجة خاصة متميزة فى الشعر المعاصر ، والذى امتاز شعره بروعة الفكرة وعمقها ، وبجمال الأسلوب وعذوبته ، وكان شعر القاياتى كأنه وشى منمنم ، وكان يميزه صفاء الطبع وجمال الموهبة وجلالها بطابع خاص .

والقاياتى من أسرة عربية تنتمى إلى أبى هريرة رضى الله عنه ، ومنها شمس الدين القاياتى قاضى مصر المتوفى عام ٨٠٠ هـ ، وفى الخطط التوفيقية لعلى مبارك نخبة من القاياتيين ، وفى أحداث الثورة العرابية يذكر والد السيد حسن القاياتى وعمه ، وقد نفيا إلى الشام ، وكان السيد مصطفى القاياتى من زعماء ثورة ١٩١٩ .

وبيت القاياتى يستوطن إقليم المنيا ، وهو من بيوت الدين والتصوف فى مصر .

ولد السيد حسن القاياتى عام ١٣٠٠ هـ والتحق بالأزهر ، ونبغ فى الأدب والكتابة ، وأحب الشعر ونظمه ، حتى صار قرين المنفلوطى والكاشف والهراوى والرافعى .

طبع الجزء الأول من ديوانه عام ١٩١٠ م ، وهو فى نحو العشرين من عمره ، ومع كثرة شعره فلم يطبع له غير هذا الديوان حتى اليوم .

واشترك فى الأحداث الوطنية ، وكتب فى الصحف والمجلات المقالات الرنانة ، ونشرت له القصائد الرفيعة ، وانضم إلى كتاب الوفد فى الثورات الوطنية . ثم صار عضواً فى مجلس النواب المصرى ، ثم عضوا فى المجمع اللغوى فى القاهرة من عام ١٩٤٣ ، وظل يعانى فى آخر حياته آلام المرض حتى توفاه الله إلى رحمته فى ليلة الثلاثاء الثانى والعشرين من أكتوبر عام ١٩٥٧ .

وله فى النثر والشعر منزلة عالية ، وقد كتب تصويبات كثيرة على كتاب ابن قتيبة « عيون الأخبار » .

ومن شعره :

نحن الدنيا بمجد العرب		ترم عطفيها بزهو الطارب
أمة العرب أتاحت للهدى		وثبة البيض وهدى الكتب
إن للحق بيانا إن عدا		منطق الرشد سما فى القضب
سائلوا بغداد أو قرطبة		أى مجد لم يكن للعرب
قد أداروا كرة الأرض فما		أسفر الجد بها عن لعب
ملء دنيا من إباء ملؤها		من سداه ملؤها من أدب

من تاريخنا المعاصر

فى ٤٣٠ صفحة من الحجم الكبير : هـذا الكتاب من كتب المؤلف القدير الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى التى بلغت المائة بل زادت وهى جهود جبارة يقوم بها هذا العلامة مع وظيفته فى الأزهر وقد جمع بهذا الكتاب ٣١ شاعراً وأديبا من شعراء وأدباء مصر والعراق والأردن ولبنان ، وممن ترجم لهم صاحب العرفان الذى استغرقت ترجمته ١٦ صفحة لكنه لم يذكر نموذجا من نثره وشعره وهذا نقص فى الترجمة لم يكن من المنتظر أن يقع فيه أديبنا الكبير .. وإن كان له الشكر الجزيل على جهاده وجهوده . : مجلة العرفان : عدد شوال ١٣٧٧ هـ .

شاعر ثار على مجتمعه

من حظ الأدب المعاصر أن يثرى بهذه الدراسة الجديدة حقا ، التى كتبها أديب موهوب ، وناقد متذوق ، عن الشاعر البائس عبد الحميد الديب ، الذى عاش فى فترة مظلمة من تاريخ وطننا المظلم ، فترة صنعها الاستعمار على عينه ، ووشى تاريخها بأكاذيبه وأساطيره ومينه ، فترة امتدت من عام ١٨٩٨ حيث ولد الديب ، وكانت نهايتها فى الثلاثين من ابريل عام ١٩٤٣ ، وهو اليوم الذى انتهت فيه حياة شاعرنا البائس أو الثائر على حد سواء .

وقد تناول فى هذه الدراسة القيمة الدكتور عبد الرحمن عثمان الشاعر الديب فى نشأته ومحنته وبؤسه ، وفى حياته ومشكلاته وفى جده ولهوه وفكاهته ، وفى شخصيته وملامحه ، وروائع فنه وسمات أدبه ، تناولا حبيبا إلى النفس ، قريبا من الذوق والحس ، فى أسلوب يأخذ من القديم روعته وجزالته وبلاغته ، ومن الحديث جدته وعذوبته وفكاهته معا .

ولو لم يكن الشاعر الديب موجوداً فى عصره لخلق مجتمعنا المصرى شاعراً آخر ينطق بلسانه ، ويعبر عن حرمانه ، ويصور هذه الثورة العاصفة التى كان يختزنها فى صدره ، وينطلق بها فى قصائده وروائع شعره .

حقا لقد كان شعر الديب ثمرة حكم غاشم ، وإقطاع ظالم ، واستعمار رهيب ، وكان صدى لصوت شعب يؤمن بالحرية ، ويعمل جاهداً من أجلها ، ويضحى بكل شىء فى سبيلها ، ومن ثم رأينا الديب لا تلهيه محنته عن محنة أمته ، فهو يصارع المستعمرين فيقول لهم فى إيمان بالحرية وبإرادة الشعب :

كما شئتم فما نخشى انتقاما   خلقنا للأسى صبراً كراما
وما نرجو نعيمكمو سلاما   وما نخشى جحيمكمو خصاما
نفى عنا المخاوف أن فينا   عزائم تصرع الموت الزؤاما

وهو يكافح الملكية والملك مستهزئا ساخرا فيقول :

أأنت محروم وذلة عانى   وشقاء مغمور المواهب عافى
وأجوس جنات النعيم إلى العلا   فاذا بأرجاء الجحيم مطافى

أأصوغ فى عرس المليك قصيدة   وأنا إلى الموت الرهيب زفافى
لو كنت من شعب المليك نظمتها   من مهجتى وعواطفى وشغافى

وهو يناضل الساسة والأحزاب هاجيا فيقول :

برامكة وليس لهم رشيد   وأقيال وكلهم عبيد
مدحتهمو فما شرفوا بشعرى   لخستهم ، وما شرف القصيد
وصفت مجامعهم فافا الأهاجى   على الأفواه لحن أو نشيد

وهو ينتصر للعروبة والحرية فى محنتها القاسية فى فلسطين الجريحة فيقول :

أقتلتهم بالحسن أم قتلوك ؟   الشمس أمك والهلال أبوك
دار النبوة والعروبة والهدى   خفروا ذمامك بالدم المسفوك
جهلوا عليك وما دروك فأمعنوا   فى قتل قومك ليتهم عرفوك
تهمى السلاطين الدماء على الورى   إن الملائك والملوك بنوك

فالديب شاعر خلقته محنة مصر الكبرى ، وخلقه شعب مصر الحر الأبى ، وكونت طابعه وشخصيته حياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية الفاسدة ، ولم يكن طابعه الحزين القاتم الأسود الثائر أثراً لحياته الشخصية وحدها ، وأنا من هذا الجانب أخالف صديقى الدكتور عبد الرحمن عثمان .

والديب امتداد لحافظ فى شعره الوطنى ونقده الاجتماعى ، مع موهبته الأصيلة وطاقته الضخمة التى عرف بها وعرفت به ، وصارت طابعا مميزاً لشعره .. وقد اتخذ النقد الاجتماعى سلاحا لإرضاء عواطفه الوطنية من جانب ، ولكفاح الحكم السياسى الفاسد فى مصر من جانب آخر ، ولمقاومة الإقطاع والظلم الاقتصادى من جانب ثالث ، وللانتقام ممن أثروا على حساب الشعب المسكين من جانب رابع ، ولإرضاء لعاطفة الثورة والنضال والانتقام المسيطرة عليه من جانب أخير ، فهو يتهكم بالحكام فيقول فى الرغيف :

صغر الرغيف كأنما هو قطعة   من قلب تاجره وجلد البائع

ويقول فى مشروع الحفاء :

إلى جوار الندى البائس الحافى   ثمالة الكأس المحروم والعافى
قالوا الحفاء فقلنا لا يضيركم   من يأمن الموت جوعا أنه حافى

الشعب جوعان لم يشك الجفا أبدا ... ولم يعد لكم رجلا لإنصاف

ويقول يخاطب أمته :

كلوا الحكومة أو موتوا من الجوع ... صوت الضعيف المرجى غير مسموع
من حرموا اللحم في يومين هل علموا ... أن ليس في حكمهم زيد لتشريع
حكومة الفقر ، والأيام قبلهمو ... على الورى حرمته ألف أسبوع

وهو يرثى الفلاح المصرى الصبور الجلد فيقول فيه وفى فأسه :

كل الحياة بهذه الفأس ... من أخمص الدنيا إلى الرأس
حسب ابن بجدتها وحاملها ... بين البرية عزة النفس
كم أنبتت فى قاحل ذهبا ... وجرت على الأزهار كالكاس
وترى على كتف مجرحة ... كالتاج ملتمعا على الرأس

ويقول فى أعمى مسجون عذب فى الحبس طويلا :

سجنوا عليك الكون أم سجنوكا ... لو أنصفوا فى ظلمهم قتلوكا
اتخذوا عذابك أو نعيمك شهوة ... وتقاسموك كأنهم خلقوكا
نم يا ضرير ففى عماك سعادة ... ألا ترى عيناك من ظلموكا
ألا ترى أثر الطغاة وجورهم ... عرضا ذبيحا أو دما مسفوكا
ألا ترى الدنيا شخوص رواية ... ضلت وضلوا شرعة وسلوكا

ويندب حظ نفسه فى الحياة فيقول :

أفنى صبوحى فى المنى وغبوقى ... أنى امرؤ كسدت بقومى سوقى
لولا مناوأة الزمان لهمتى ... أزرى بنور الشمس نور شروقى

ويقول :

يا أمة جهلتنى وهى عالمة ... أن الكواكب من نورى وإشراقى

ويقول عن محنته وبؤسه وحرمانه :

من الظلم تحطيم الحسام لأنه ... بكل جهاد فى الحياة تجردا
وحرمان موهوب من اليسر بينما ... كسا اليسر أوشاب الكنانة عسجدا
أجدد للدنيا نضالى وهمتى ... فتنفحنى الدنيا شقاء مجددا

ويقول فى حجرة ضيقة سكنها :

أفى حجرتى يارب أم أنا فى لحدى … ألا شد ما ألقى من الزمن الوغد
وهل أنا حى أم قضيت وهذه … إجابة إسرافيل تبعثنى وحدى
لكم كنت أرجو حجرة فأصبتها … بناء قديم العهد أضيق من جلدى
ترانى بها كل الأثاث فمعطفى … فراش لنومى أو وقاء من البرد

ويقول فى مجتمعه الذى ظلمه :

على موهباتى ألف دين لأمتى … على أننى فيها لدى محنتى منسى
رفعت حجاب الشمس فيها فأطلعت … على النهار الصحو خلوا من الشمس
على القرب منى كنز قارون ماثلا … ولما أنل منه سوى حرقة اليأس

والديب بهذا الجانب الفنى من شعره له شرف وضع أسس المذهب الواقعى فى شعرنا المصرى المعاصر ، وشعره فى أكثر جوانبه واقعى لا رومانسى ، وواقعيته فى تصويره لمجتمعه وللفروق الظالمة بين طبقاته ، وفى صدقه الفنى فى صوره الشعرية وفى شجاعته فى إبداء رأيه ، وفى ثورته على تنظيم الاقطاع التى شاهدها تحكم الشعب طول حياته ، . ومن هذا الجانب جانب الحكم على الاديب بالواقعية لا بالرومانسية أخالف صديقى الدكتور عبد الرحمن عثمان فى دراسته الجديدة المبتكرة هذه .

والديب شاعر عميق الإيمان فى قرارة نفسه ، وفى أعماق جوانحه ، انظر إليه وهو يقول :

كل شىء أشهد الله عليا … فرت الدنيا جميعا من يديا
كل ما فى الكون حتى تربه … سبح الديان تسبيحا خفيا
رنة التكبير فى أذنى محت … رنة الكأس وأودت بالحميا
يا صبوحى يا غبوقى ضلة … لكما منى بكورا أو عشيا
تبت من ذنبى ومن ترجع به … نفسه لله يبعثه نقيا

ويقول فى تحرره من ماديات الحياة وانطلاقه إلى حرية النفس :

ياربة الدار لا ترثى لأرزاق … قد قدر الله إسعادى وإملاق
لم أشك جوعان أو ظمآن بل شغفا … فى رق سجنى إلى عتق وإطلاق

ويقول :

أأكفر من بؤس بأحكام خالق كفى بى رزقا أننى الدهر مسلم

ومن هذا الجانب ظلم الناس الديب وصوروه شاعرا مستهترا عربيدا ، ولعا منهم بالتفكه به وبشعره وحرمانه . وقد أنصف الدكتور عبدالرحمن عثمان شاعرنا الديب ، ودفع عنه ظلم الناس وافتراءاتهم الباطلة عنه .

وأعود إلى الدكتور ، أسأله : هل من حق الناقد أن يعرض جوانب الحياة الشخصية للشاعر عرضا صادقا يذيع فيه أسراره التى عرفها بعض الناس والتى لم يعرفوها كذلك ؟ أو ان هذه الحياة الشخصية ملك للشاعر نفسه ، والذى يملكه الناقد هو تراثه الفنى وجوانب شعره فحسب .

وبعـــد فانى ـ مع مخالفتى للدكتور فى هذه الجوانب التى عرضت لها ـ أشعر بأنى عاجز كل العجز عن التعبير عن مدى ما شعرت به نحوه من حب وتقدير وإعجاب عندما فرغت من قراءة كتابه « الشاعر البائس » الذى ترتفع أهميته إلى درجة قصوى لما حواه من آثار كثيرة من شعر الديب الذى كدنا نفقده ونفقد بفقده معرفتنا بشاعر مصرى أصيل موهوب خلاق .

وقد أعالف الأستاذ أحمد حسن الزيات رأيه فى الشاعر الذى صدر به الكتاب وهو رأى ينم عن جحود للديب ومواهبه وشاعريته .

شاعر من السودان

شاعر سودانى رقيق الحاشية نما فى مصر وشرب من نيلها فكانت وطنه الثانى ، بعد وطنه الأول .

تلقى أول علومه فى الأزهر الشريف ثم التحق بكلية دار العلوم وحصل على الدبلوم ، ثم التحق بمعهد التربية العالى حيث نال إجازته ، فأرسلته الحكومة المصرية فى إحدى بعثاتها ليتم دراسته فى السربون بفرنسا وهناك نال شهادة الماجستير فى تاريخ الأدب ثم شهادة الدكتوراه فى علوم الأجناس ، وعاد إلى مصر حيث كلفته جمعية اليونسكو بالقيام ببحوث عن لغات القبائل الأفريقية وعاداتها وطرق معيشتها ، ومما يذكر أنه طلب إلى المختصين فى الحكومة المصرية إذ ذاك وكان ذلك فى عهد ما قبل الثورة المصرية ولكن الحكومتين الإنجليزية والفرنسية كانتا تحاولان عرقلة جهوده عن طريق القائمين بالأمر فى عهد الملك السابق ، فعانى الكثير فى سبيل تحقيق أهدافه العلمية وأخيرا بعد أن كان يعوقه الدكتور محمد عوض محمد أكثر من مرة فى سبيل الحصول على جهاز التسجيل تارة ويؤخره الروتين الحكومى الكسيح تارة أخرى ، استطاع أن يحصل على جهاز التسجيل وأن يسافر إلى الأدغال والأحراش فى غابات افريقيا معرضا للوحوش والأخطار ، حتى أتم بحوثه العلمية بنجاح منقطع النظير وبعد أن استقل السودان الشقيق شغل منصب وكيل وزارة الشئون الإجتماعية ،ولكن روح الشاعر التى كانت تحكم طباعه جعلته يستقيل ليتفرغ للعلم وللأدب والبحث ، وهو الآن يقوم بالتدريس فى جامعة الخرطوم .

هذا هو الشاعر الدكتور محى الدين صابر ، الفنان العالم الشاعر ، وكان بودنا أن ننشر له الكثير من شعره ولكن مما يؤسف له أنه لم يصدر لنفسه ديوانا حتى الآن ، ومع ذلك فسوف لا نقف على هذا القدر من البحث فلنا عودة إلى شعره حيث نفيه حقه من الدراسة والتحليل عند اكتمال مجموعاته تحت أيدينا ، وإننا ننتهز هذه الفرصة لنهيب بالمجتمعات الأدبية فى السودان أن تطبع ديوان هذا الشاعر إن لم يطبعه نفسه، لأن كثيراً من التراث الأدبى ضاع بسبب مثل هذا الإهمال فى حياة الشعراء والمفكرين .

ولقد كان للشاعر محي الدين صابر جولات مع الشعراء المصريين .

والشاعر كامل أمين قصيدة أهداها للشاعر محي الدين صابر فى ديوانه (أناشيد الخلود) عندما كان يودعه وأثناء سفره إلى السربون كما كان الشاعران صديقين للشاعر عبد الحميد الديب وكانت تجمعهم تارة قهوة الفيشاوى وأخرى خانات حارة اليهود ومن شعر محي الدين فى كامل أمين قصيدة يداعبه بها إذ يقول فيها :

أزمع الركب بكرة فاستقلوا   أيه يمموا وأبان حلوا
والفتى الفاتح الخواجات لله احتسـ   ـابا والفتح فرض ونفـــل
والذى يشرب البراميل كالزير عفوا   فهى إن لم تكن سبرتو فخل

ثم يقول مداعبا كامل أمين :

فاذا (دكلا) هنا لك تنشق   وإذا كامل علينا يطـــل
صائحـــا الهلاك الهلاك ياعصبة النيـل   وويل لكم وويل وويل
امصاعا فصخرة الموت قرنى   أم نطاحا فانى انا وعل

وهكذا يسامر محي فى مداعبته . . والقصيدة طويلة أكثر من ستين بيتا فيها من الطرافة والمرح ما يعبر عن روح فرحة ونفس لطيفة ، ومن قصائده ميمية رائعة يقول فى مطلعها :

لى فى الربا وعلى الضفاف غرام   فعلى الربا وعلى الضفاف سلام
وبكل لهوة طـــائر لى غنوة   وبـكل حانة سامر لى جام

وفى قصيدة أخرى ينافح فيها عن وحدة النيل فى شعبيه مصر والسودان يقول:

نحن شعب فسائلوا النيل عنـا   كيف أفتوا بأننـا شعبـان

وفى قصيدة أخرى حيث يقول فيها :

على الرمال الرطاب فى وحشة الليل   على مدرج الرياح المهـد

النار والزيتون فى الجزائر

— ١ —

بأى منطق تبرر فرنسا طغيانها فى الجزائر ؟ . وبأى حق يسوغ لها ضميرها أن تستمر فى حملات الإبادة المنظمة فى أرض الجزائر ؟

لا بل بأية حجة تصر فرنسا على استمرار احتلالها للجزائر واعتبارها أرضا فرنسية وجزءا من الوطن الفرنسى ؟

هل يمر فيها نهر السين ؟

هل كانت أرض فرنسية من قبل منذ مئات السنين ؟

هل كان سكان الجزائر من قبل الاحتلال ينحدرون من أصل فرنسى ؟

أم هل كانت الجزائر مدينة لفرنسا ؟

هل حاربت فرنسا من قبل واحتلتها ، وكان لفرنسا الحق فى أن تأخذ بثأرها ؟

وهل كان للجزائريين ملايين الضياع والقصور فى أرض فرنسا ، فوجب أن يكون لفرنسا والفرنسيين حق معاملة المثل ؟

كلا كلا

لم يكن شىء من ذلك أبدا .

فبأى دليل إذن تريد فرنسا حرمان شعب مؤمن بنفسه وبحريته وبحقه ، حق من أن يثور على ظالميه ، أو أن يهب لمقاومة محتليه ، أو أن ينادى بالويل والثبور للاستعمار والمستعمرين .

أتصلح شريعة الغاب فى عهد الأقمار الصناعية منطقا يدافع به الاستعمار عن حقه فى النهب والسلب واغتصاب حريات الشعوب ؟

أيصلح منطق القوة دليلا يبرر جنايات فرنسا الطاغية فى أرض الجزائر ، أرض السلام الوادعة وعلى الفتيات والأمهات والأطفال ، فى الجزائر ، وعلى الزعماء الأحرار الخمسة الذين قبضت عليهم فرنسا بأحط الوسائل وأسفلها ، وعلى جميلة الفتاة الجزائرية الباسلة ، التى زجوا بها فى السجن والاعتقال ، وعذبوها

بأقسى ألوان العذاب ، حتى بلغت من قسوة التعذيب إلى حد الجنون ، وزيفوا عليها اعترافات وهمية أبرزتها المحكمة العسكرية في يومها الأخير ، وزعمت أن جميلة اعترفت بأنها ألقت القنبلة ، مع أن هذا الاعتراف لم يكن موجودا من قبل مع أوراق القضية ، ومع أن المحكمة لم تسمح لمحامي الدفاع أن يفحص أية وثيقة من وثائق الاتهام ، بل لم يسمح أن يحتل مقاعد المحكمة أيام المحاكمة ، إلا من كان فرنسيا من أصل أوربي ، فلم يسمح لعربي واحد أو مسلم أن يدخل قاعة المحكمة ، واستقبل محامي جميلة « امايثروفارجس » الفرنسي بالتحقير والاستهزاء ، وبالهتاف الوحشي من الجالسين في قاعة المحكمة : « الموت للصيني القذر » ، لأن أمه من الهند الصينية ، وملامحه أسيوية ، ولأنه متطوع للدفاع عن جميلة .

ولكن فرنسا التي ركعت على قدميها أمام زحف هتلر سوف تسجد على جبهتها لتستسلم أمام زحف ثورة الجزائر وأحرارها .

والنصر قريب ، والفجر المأمول أوشك نوره أن يسطع على الأفق .

وحول هذا يقول الشاعر الحجازي عبد الله عبد الوهاب في ديوانه « النار والزيتون في الجزائر » الذي قدمه الأديب الحجازي الكبير الأستاذ إبراهيم فوده ، وذلك من قصيدته « جزائري يناجي أخاه » :

من ها هنا منابع الصباح
ياصاحبي إلى الصباح في الكفاح
من هاهنا نهدم الجدار
ونهتك الستار
ونعتلي إلى النجوم (١)

ويقول في قصيدته « أغنية من الجزائر » :

قد كان ياصغار
يا أمل الكبار
قد كان حولنا جدار
والموت فيه كامن بدار

---

(١) ومن أبيات القصيدة قول الشاعر : « إنا هنا ممولين للقصاص » ويبدو أن الصحيح هنا أن يقول الشاعر « ممولون » .

فلم تكن أحلامنا تفنى
لكننا لم نصطبر فثرنا
وحطمت أكفنا الجدارا

ويقول الشاعر فى قصيدته « إلى الجزائر » :

الواحة الخضراء يقطنها الجنود
النازحون من الشمال
حيث الصقيع
وحيث يفتقد الربيع
فى واحتى يترنمون
زرق العيون
الفاقدو روح الضمير
يرددون بلا ضمير
جئنا لنسرق مايقال له ربيع
فى الواحة الخضراء
كالببغاء يرددون
وقد فقد الضمير
ياواحتى — وغدا سنأتى والرفاق
سود العيون
غدا سنأتى يا جزائر بالحديد
وعلى مرابعك العزيزة
سوف نلتهم الجنود
النازحين من الشمال
حيث الصقيع
وحيث يفتقد الربيع

والشاعر الشاب عبد الله عبد الوهاب من الشعراء الذين يتابعون المدرسة الشعرية الجديدة خطوة لخطوة ، ويأخـــذون منها تراتيلهم وأنغامهم ، بل ويأخذون مع ذلك عنها نهجهم الفنى وطريقة أدائهم للمضامين الشعرية الجديدة ،

وهو يفهم القصيدة كما فهموها ، ويتصورها كما تصوروها .

هو من الشعراء الذين يؤمنون بالتحرر الفني على أوسع نطاق ، ويتخذون من الشعر الحر أداة لتعبيرهم الفني الهادف وإن كنت لا ارى من بهذا الشعر الذى سموه حراً وهو ومن شعراء الواقعية ، وإن شابت واقعيته رمزية خفيفة الظلال والألوان

ويجرى مجرى البياتي وكاظم السماوي والفيتوري في واقعيته ، هذه الواقعية الحلوة الجميلة الخفيفة الروح في ديوان الشاعر

وديوان « النار والزيتون » تكاد أغلب قصائده أن تكون عن الجزائر وكفاحها ، وبطولة أبنائها وشهدائها ، وهو تعبير عن ثورة الشعب العربي كله في جميع أقطاره وأمصاره على استهتار فرنسا وجرائمها الفظيعة في الجزائر ، هذه الجرائم التي تقشعر من هولها الأبدان ، وفي الديوان روح متفائلة جميلة مؤمنة بالنصر للجزائر ، ولأبطال الجزائر وثوارها الأحرار . يقول الشاعر عبد الله عبد الوهاب من قصيدته التي جعل عنوانها « اللقاء الحلو » :

والتقينا . .
بعد أن فرقنا الظلم طويلا
بعد أن مزقنا جيلا لجيلا
بعد أن أرسى على الأرض الظلام
ذلك الوغد ، على الأرض قتام
وظلام
غير أنا قد أبدناه
وها نحن التقينا
أمة واحدة تبغى الوئام
أمة تسعى إلى دعم السلام
التقينا
الملايين التي ماتت على الدرب
علينا
وإلينا
أوكلت رايتها الحمراء
كي نكمل خطاها

لاتسلنا عن مداها
لاتسلنا كيف قد تم لقانا
كيف سددنا خطانا
فالملايين التى ماتت فدانا
كانت الخطوة تلو الخطوة
فى كل خطانا

وبيته « كى نكمل خطاها » لابد من قراءته بسكون اللام ، وهنا نجد الشاعر يعمل « كى » عمل « لم » ، ولعل هذا من الهنات القليلة فى الديوان .

ويظهر تفاؤل الشاعر فى قصيدته « إنسانان فى الجزائر » وفيها يقول :

خفف وطأك واصغ إلى . .
خفقات أمانينا
اصغ إلى كل أغانينا
خفف وامش إلى الصبح
فالأرض تسير
الأرض إلى الصبح تسير
وهى الأم
فاترك معنا الهم
وامش إلى الصبح
كما تمشى الأم
امش إلى مجد أغانينا
مجد أمانينا
فالمجد لنا إن نحن طرقناه
نحن اخترناه

ويزداد الشاعر تفاؤلا وثقة بالنصر فيقول فى ختام قصيدته « الريف الجزائرى » :

فى حينما يعانق الربيع أرضنا
وتظهر الورود والزهور حولنا
نغنى للربيع حبنا
نغنى للزهور والبشر
معنى الربيع والزهر
ونبدأ الحصاد
إلى المدينة الصماء
نبعث الحصاد
ونأتى للصغار
نقص قصة المنطاد
وقصة الذئاب والحفر

والرمزية الممزوجة بواقعية هادئة تبدو فى قصيدته « شحرور وشجر » ، وفيها يقول الشاعر :

البرد فى وهدات قريتنا
وأكداس الظلام
وصدى الرياح الراحلات إلى الشمال
لن تنفع الذكرى
وشحرور يصيح
ثورى لأجلى
أنت يا أشجار
من عمق الجريح
ثورى
قد كان لى عش(١) وطين
قد كان لى بالأمس الأمين
والأمس ولى
ليس يرضينا

---

(١) فى الديوان ص ٤٤ : عشا ، وهو خطأ

والشاعر محب الإنسانية ، لتطورها ، لمستقبلها ، لرفاهية البشر ، يقول في ديوانه يتحدث عن أحلام الشاعر وأفكاره بعد ما انطلقت الأقمار الصناعية إلى الأفق ، مبشرة بعهد جديد ، يقول من قصيدته « تحية إلى القمر » :

بعد ما يطلق في الجو قمر
سابحا في فلك الكون
على أكتافه تبقى فكر
بعد ما يخترق الأجواء في صمت
إلى حيث يمكنه نفع البشر
للحياة الآتية
للدروب الزاهية
يقفز الإنسان
من جوف الحفر
وحياة الغاب
بعد ما يطلق في الجو قمر
بعد ما يسبح يفتات الخبر
وإلى الأرض ، إلينا يستمر
يبعث الأضواء في صمت
إلينا يستمر
بعد ما نسمع في المذياع بيب
نغما أخضر يبدو ويغيب
تظهر البسمة في ثغر حبيب
ونرى العالم يرنو للسماء
في ابتسام وإباء

ويتغنى بأمانيه وأحلامه في مستقبل أفريقيا ، تلك القارة الشاحبة السوداء ، التي بدأت تهب وتثور ، وتطالب بحقها في الحياة والحرية ، فيقول من قصيدته « أفريقيا والنجوم » :

قارتي يصدح في أركانها

لحن الأسى ، لحن الوجوم
وعلى أبوابها الصفراء
لما تزل تلك الكلوم
والملايين على الأرض
وأنفاس على أنفاسها
كانت تحوم
كل أصناف الهموم
والنجوم
وأمانينا وقد كانت تغنى
ولقد كانت تلوم
كيف لا نبلغ فى يوم
إلى مهد النجوم

وقد كان من الممكن فى قوله « وأنفاس على أنفاسها » أن يقول الشاعر : « وأشجان على أنفاسها كانت تحوم » ، وما شابه ذلك مما يزيل هذا التكرار ، الذى يضعف التعبير فى القصيدة .

وفى أمل وبشر يصور الشاعر عودة مواكب اللاجئين من أبناء فلسطين الشهيدة إلى ديارهم فيقول من قصيدة « إلى الإنسان العالم » :

بالأمس مرت من هنا نسور
مرت صقور
فى دربها إلى الخليل
مرت بنا فى دربها إلى الخليل
يدفعها من جوفها ضمير
يدفعها تطير
وتعبر الخليل
إلى دروب يافا ثم تل أبيب
لترجع الصغار
القابعين فى الخيام والكبار

وترجع النساء الحاملات للغد القريب
مستقبلا مضاء
الأمهات يرجعن للبلاد والبنات
يا أيها الإنسان ، ياصقيع
إنا إلى هنا زاحفون
إنا إليها راجعون

وفي قصيدته « غضبة الجزائر » يبدو تأثر الشاعر بالشابي وأبي شادي يقول :

ادجني يا سماء
واهطل يا مطر
واقصفي يا رعود
واختبيء يا قمر
واسكبي يا عيون
دمعي المدخر
ما بنا والزمان
دائما في هوان
والعدو اللدود
في رياض الجنان
عابثا بالورود
لاهيا بالزهر

إلى أن يقول :

هاهنا من بعيد
يتراءى الضياء
ويغيب المساء
خلف ذاك الفضاء
ها هنا ، من هنا
ها هنا لامفر

ويختم القصيدة بقوله :

الوداع الوداع
يا ليالى الضجر

وتعبير الشاعر فى هذه القصيدة بقوله « واهطلى يامطر » قد يكون يجعل المطر هنا مؤنثا ، وكأنه قال ياسحب ، ولا وجه له ، بل هو خطأ محض : -

ومن قصيدته « الموعد المرتقب » يقول الشاعر :

طفقت تبكى وقالت يا رفيق
أين أستجليك أغوار طريق

إلى أن يقول :

فتلفت وقلت :
أنت يا أختاه سيرى ثم سيرى
ها هنا تحطيم آلام العصور
ها هنا إشراق أقوام بنور

والبيت الأخير قد استبدت به رمزية التعبير إلى حد أن جعلته فى غير منزلة أبيات القصيدة ، ولا فى درجتها من الجمال والحسن فى التصوير :

وعندما يضعف إيمان الشاعر بالأمل والتفاؤل والثقة فى النصر لا يكون ذلك عنده إلا ذريعة لبعث الهمم إلى الكفاح من أجل النصر ، ومن أجل الحرية كما فى قصيدته « الأحلام الغريبة » التى يقول الشاعر فيها :

هجع الليل وأوجاعى وأحلامى الغريبة
وثغاء العنزة الضالة يعلو
ضلت العنزة لا جدوى
وأنياب الذئاب
أبدا تفتك بالموتى
كما كان الكلاب
لا تغثوا
ضلت العنزة فى أحراش سفاكى الدماء

والليالى عبثا تحلم بالهمس
وأضواء النهار
لم تعد تجدى

إن الشاعر عبد الوهاب شاعر ذو موهبة قوية ، وملكات شاعرة ، ولقد وقفت عند بعض قصائده معجبا متأملا ، وإن كان عجبى قد ازداد من إلحاح الشاعر على الشعر الحر ، وإيمانه به ، واصطناعه إياه مذهبا فى نظم القصيدة .

وحرية الشاعر الفنية فى التعبير ، وإيمانه بها ، جعلته يقول من قصيدته «من أجل أن تحيا الجزائر» :

اكتب بالدماء للأنام
اكتب كى يفتهم الصغار

ولفظة « يفتهم » لا تؤيدها اللغة ولا ترضى عنها .

وبعد فالشاعر عبد الوهاب شاعر ذو نزعات متعددة ، إنه شاعر بفطرته ، وطبيعته ، وبملكاته وبمضامينه الشعرية ، وبروحه النزاعة إلى حب الإنسانية ، ومستقبلها وتطورها .

العـــالم الشاعر

- ١ -

زكى على العالم شاعر تعرف فيه حلاوة الطبع ، وعذوبة البيان ، وسحر التعبير وخصوبة الملكة

ولقد كان لرابطة الأدب الحديث - والعالم من شعرائها - أن تعتز بهذه الموهبة التى عاشت على الأحـــلام والرؤى والخيال . . والرابطة يعنيها أن تفتخر بنبوغ شاعر ، وظهور ساحر ، كما كانت العرب القدامى تحتفل بشاعر ينبغ ، أو فارس يشهر ، وتشعر أنها قد أدت جانبا من رسالتها ، التى تقتضيها الحرص على إتاحة الفرص للشعراء وتشجيعهم ، وتقديم إنتاجهم لمتذوقى الأدب ومحبيه .

والرابطة فى هذا المقام سجل حافل . يعرفه القراء جميعا ، فحسبها أنها قدمت إلى القراء من شعراء مصر : جليلة رضا ، وكمال نشأت ، ومحمد فوزى العنتيـل ، وعبد الحميد ربيع ، وأحمد أبا المجـد عيسى ، وكامل أمين ، ونظـير إسكندر ، وخليل جرجس خليل ، وإبراهيم شعراوى ، وسواهم من عـديد الشعراء ..

كما قدمت من شعراء فلسطين الشاعر هرون هاشم رشيد ، ومن شعراء سوريا الشاعر على دمر ، ومن شعراء الكويت الشاعر محمود شوقى الأيوبى ، ومن شعراء الحجاز طائفة كبيرة ، منهم : محمد العامر الرميح ، ومن شعراء السودان الفيتورى وتاج السر ، والجيلى ، ومحى الدين فارس ، كما قدمت شعراء آخرين من ليبيا ، وتونس ، ومراكش ، ولبنان ، والعراق، ليس المقام مقام ذكرهم فى هذه الدراسة

والشاعر « العالم » مثل بليغ للموهبة الشعرية الحقيقية ، التى تعتمد على القيم الصادقة للشعر ، لا على ضجيج الإعـلان ، أو تزييف المثـل ، أو اصطناع المناسبات والإفادة منها ..

- ٢ -

والعالم ديوان شعرى مخطوط ، يمثل شعره وشاعريته أصدق تمثيل يتحدث « العالم » فى ديوانه المخطوط هذا عن الرسالة والرسول ، ولكن ليس حديثه بالحديث المعاد

المكرور الذى قرأناه ونقرؤه فى شعر بعض الشعراء ، ولكنه حديث عذب جميل ، ينبع من القلب ، ومن أعماق الشعور ، وطوايا الوجدان ، فيحدث فى نفس القارىء والسامع هزة وأريحية وإعجابا ، و « العالم » فى هذا الباب بردة طويلة ، سماها « نسق البردة » ، ومطلعها :

دع عنك لومى فلو أنصفت لم تلم   صبا عفيف الهوى فى الحل والحرم
لعب الغرام به ياويح مهجته   مما تكابد من شوق ، ومن ألم

وهى قصيدة طويلة تمتاز بروحانية عجيبة ، ويتحدث « العالم » فى كثير من شئون الدين ، فى مثل قصائده : الفجر الجديد ، وعيد الميلاد ، والهجرة الكبرى وهجرة الحق ، وهدية ربيع ، وعيد الدنيا ، ووداع رمضان ، ونصف شعبان فيجيد الحديث ، والأداء ، والتعبير . .

ثم يتخذ « العالم » من الموضوعات العربية الكبرى موضوعات لقصائد عدة له مثل قصيدته : زعيم الريف ، ومحمد عبده ، وثورة عرابى ، التى تنبأ فيها بثورة أو انقلاب منتظر ، ومثل قصيدته سعد مصر ، والمؤتمر الإسلامى ، والوحدة المقدسة .

ويجيد « العالم » فى فن الرثاء ، كما أجاد فى غيره من فنون الشعر ، ومظهر إجادته فى هذا الباب قصيدتاه فى رثاء محمد الخضر حسين ، ومحمد فريد . .

ويتخذ « العالم » من التاريخ بعض موضوعات قصائده مثل قصيدة الحسين البطل شهيد كربلاء ، ولا يقف الشاعر عند قصائد التاريخ ، بل يتعداها إلى تأليف المسرحيات الشعرية الموجهة ، مثل مسرحيته : إسلام عمر ، وليلى العامرية ، ودنشواى ، وعرابى ، وإبراهيم الخليل .

وينقل الشاعر قصائد عدة من عيون الأدب الغربى ، مثل قصيدة « القبرة » وهى عن شيلى ، وقصيدة « احتضار الشاعر » وهى عن لامرتين ، وقصيدة « مرثية فى كنيسة » وهى عن توماس جراى .

ويتخذ « العالم » من الموضوعات القومية الكبرى كذلك موضوعات لبعض قصائد له مثل قصيدة : بور سعيد الخالدة ، والحلفاء الثلاثة ، ومجرم الحرب ، ورحلة الموت ، والشياطين الحمر ، ومعركة السويس ، والعدو المغير ، وفرقة

الموت ، والحرية ، وبطولة مصر ، وثورة الجيش ، وأميم القناة ، والجلاء . وتلهم الطبيعة الشاعر بقصيدته الرائعة « قرية الشاعر » التي تستحق من النقاد كل تقدير وإكبار ، وقد قص فيها كثيراً من ذكرياته الروحية والوجدانية في أسلوب عذب جميل ، وصريح ، وله من وحي الطبيعة غير قرية الشاعر ، عدة قصائد تدل على الاستغراق فيها والتفاني في حبها ، ومنها قصيدته : استهلال الربيع ، وقبرة الخريف ، ونشيد الوادي ، ونخلة الشاطىء ، والشادوف ، ورحلة إلى الريف ، والربيع في الريف ، وتبرج الطبيعة ، وأزاهير الربيع ، وزهرة البانسيه ، وشم النسيم ، والطبيعة الساحرة .

- ٣ -

فإذا أردنا أن نتعرف إلى شاعرية « العالم » فحسبنا دليلا عليها قصيدتاه : الحرية وقرية الشاعر ...

أما القصيدة الأولى « الحرية » فيبدؤها الشاعر بهذا المطلع الرائع الجميل :

دين أدين به مع الإسلام ... وأذود عنه بمدفعي وحسامي
كيف الحياة بدون ماحرية ... تعلي مقامي فوق كل مقام
أنا لا أقصر في الجهاد إذا اعتدى ... عاد على حريتي وسلامي
قلبي شجاع لايذل ، وهامتي ... فوق السماء وإن أطاطىء هامي

وفيها يتحدث الشاعر عن مؤامرة الحلفاء الثلاثة ، انجلترا ، وفرنسا ، وإسرائيل . إبان العدوان الثلاثي الغادر ، ويقول فيها الشاعر :

كل الشعوب تطورت وانجلترا ... تحيا بعصر النور بين ظلام
ولى زمان القيصرية وانتهى ... في الناس عهد عبادة الأصنام

ومنها قوله :

ثرنا وقد قصف العدو حصوننا ... أوران عاصفة المحيط الطامي
وتقدمت أسد العرين ، زئيرها ... كالرعد بدد نومة النوام
وقضت على أحلام شعب لم يزل ... بين الشعوب يعيش في أحلام

خابت ظنون انجلترا وفرنسة ... وءنى جنود الغرب بالإعدام
إنا كماة من كماة إن دعوا ... سدرا وكانوا قدوة الأعلام

إلى آخر مايقول فى هـذه القصيدة القوية ، التى نظمها الشاعر إبان العدوان الثلاثى الغاشم ، وهى من شعره الوطنى القومى . .

أما قصيدة « قرية الشاعر » فهى طويلة جدا ، ويكفى أن أنقل منها صورا صغيرة تمثل الشاعر وشاعريته ، ويقول الشاعر فى قريته :

« دقدوس » حاضرة الجمال كأنما ... هى جنة الفردوس والرضوان
فى شرقها « الرياح » فاض نميره ... كدم الحياة يفيض من شريان
والنيل من « غرب » يلوح كأنما ... هو ديدبان خف فى الوديان
ولقد تلاق العاشقان كلاهما ... بعد الفراق « بسبعة الأعيان »
هيهات مثل « فم البوهية » ملتق ... فيه التق بعد النوى الإلفان
وكأنما أخذا لديه موثقا ... إلا يكون سوى لقا وتدان
ومآذن « الكافور » عالية الذرى ... شهدت عقود الحب غير الفانى

وهى صورة أعتقـــد أنها بما فيها من وهج الفن وشعلة الذكاء ، وضرام الشاعرية فى غنى عن الوصف والتصوير . .

— ٤ —

إن شاعرنا « العالم » فى جملة أمره شاعر قوى الشاعرية ، حاد الذكاء الفطرى ، ينظم الشعر عن طبع ، لا عن صنعة ، وهو يسير فى حدود التزامات الشاعر الفنية الموروثة ، ولكنه يجدد فى كثير من الأحيان فى صوره الشعرية الأصيلة ، التى تعد ميزة له .

الفصل الخامس

قضايا الفكر فى الأدب المعاصر

— ١ —

تثير أزمة الأدب اليوم اهتمام الأدباء والنقاد والمفكرين ، فى مصر والعالم العربى ، هذه الأزمة التى صنعها جيل معاصر ، يعيش على هامش العمل الأدبى لافى صميمه ، ويحاول الوصول إلى الصحافة والإذاعة والشهرة من أيسر طريق ، وبأقل جهد ، ويكره الثقافة الأدبية الأصيلة لأنها تحتاج إلى جهاد وجهد طويلين ، وقد استعاض عنها بألوان من الثقافة الشعبية سماها أدبا ، وحاول أن ينال اهتمام الأدباء والجماهير بها ، لينتزع منهم التقدير والثناء ، ففى باب الشعر استعاضت جماهير الشباب بالشعر الحر والمرسل عن الشعر العمودى ، وفى باب القصة والمسرحية استحالت العامية إلى لغة سائدة لم يصلوا بها إلى شىء ، حتى ولا إلى مستوى الفنون الشعبية الأصيلة ، وفى باب النقد والبحوث الأدبية ضؤل حظ الدراسات الأصيلة إلى درجـــة مفزعة ، على أن ملكات الأديب ومواهبه ، وروحه النفاذة العميقة ، قد نالها الإعياء والكلال ، وانتقل الأدب من المثالية والروح الجماعية إلى الأثرة والأنانية وحب الذات ، وعاد الأدب ـ بعد أن كان حظه غير قليل من الدعوة إلى المثل العليا ـ داعية إلى الانحلال والشذوذ والخمول .

وقد يكون لسيادة الاتجاه العلمى أثر كبير فى أزمة الأدب وقد ساد هذا الاتجاه كل شىء حتى مفهوم الأدب والنقد ، إلى أن صار يهدد كيانهما . . ومن ثم وجدنا كثيرا من الباحثين فى الأدب لايهتمون بالعمل الفنى لذاته وفى ذاته ، بل لما يعبر عنه سواء أكان تعبيره عن نفسية الفنان أم عن البيئة الاجتماعية أم الطبيعية أم الاقتصادية . . فهم لايعنون بالعمل الفنى إلا لما يزودهم به من معلومات يبحثون عنها ، ويجهدون أنفسهم فى استقصائها . .

ومن ثم كان لكثرة الإقبال على الجانب العلمى من الحياة المعاصرة أثر كبير فى ضعف الاهتمام بالأدب ، وفى أزمته الحاضرة التى تبدو لنا اليوم رهيبة مخيفة ، وقد تحدث أديبنا الكبير وديع فلسطين عن هذه الأزمة فى فصوله الثلاثة الأخيرة

من كتابه « قضايا الفكر فى الأدب المعاصر » : فى الفصل الأول من هذه الفصول الثلاثة تحدث عن أزمة الكتاب العربى وردها إلى قلة القراء للكتاب الأدبى ، وخاصة الأصيل منه ، مما أدى إلى زهد الناشر فيه . . وفى الفصل الثانى من الفصول الثلاثة تحدث محنة الأدب وحمل مسئوليتها للمثقفين من كبار الأدباء ، ولأساتيذ الجامعات ، ولمناهج التعليم ، وللقراء ، ولدور النشر ، فلكل من هؤلاء ضلع فيها وإسهام فى استفحال خطرها ، كما جعل من أسبابها تفاهة الانتاج الأدبى وضآلته وفى الفصل الثالث يتحدث عن الفكر بين الارستقراطية والغوغائية ، ويمثل توجيه الغوغاء فيه فى رأى أذاع به بعض المتزعمين للأدب المعاصر ، حيث أصبح ينادى بأدب تافه خفيف الدم ، ويفضله على الأدب العبقرى الثقيل . . من حيث تصدر بالأمس الدعوة إلى نبذ قواعد اللغة العربية لأنها - قواعد سخيفة لا لزوم لها ، وتوجيه الغوغاء لا المفكرين اليوم للأدب المعاصر بذيع الأدب العامى ، ويحتفى بأدب الجنس ، ويحارب الأصالة الأدبية وفى هذه الفصول الثلاثة السابقة يرسم أديبنا الكبير وديع فلسطين مشكلاتنا الادبية فى أمانة وإبانة ودقة تصوير ، ويبحث عن أسبابها وعلاجها ، مستقصيا آراء الأدباء والكتاب والمفكرين فيها ، فى إجادة وعمق ظاهرين . .

— ٢ —

وليس كتاب « قضايا الفكر فى الأدب المعاصر » من الكتب العادية التى قد تروعنا ببريقها وزخرفها وصياغتها ، ولكنه كتاب أصيل ، أصالة ماضينا الثقافى والأدبى الطويل عبر الأجيال والقرون .

وقد تحدث المؤلف عن كثير من مشكلات الأدب المعاصر ، وفصل أحكامه الادبية والفكرية فى هذه المشكلات تفصيلا واضحا ، وكل مشكلة من هذه المشكلات هى قضية أدبية ، يحتاج الفصل فيها إلى ضمير القاضى ، ونزاهة الحكم ، وعدالة الحكم ، وسوى ذلك مما كنا نفتقده عند أدبائنا المعاصرين ، حتى وجدناه فى كتاب « قضايا الفكر » وعند مؤلفه العلامة . .

وأولى مشكلات الأدب هى قضية العامية والفصحى ، العامية التى تريد أن تفرض نفسها لغة للتعبير ، حتى فى فنون الأدب ، ويقوم بالدعاية لها نفر من

أصحاب الحظوظ الضئيلة فى ثقافات الأديب ، وفى هذا يقول صاحب « قضايا الفكر فى الأدب المعاصر » : إن الدعوة إلى العامية دعوة إلى امتهان اللغة العربية وامتهان التفكير العربى عموما ، وهى ردة فى التفكير لا تصدر إلا عن قوم عاجزين ، ويستقصى المؤلف رأى القائلين بطريقة وسطى للتعبير بين العامية والفصحى ، منتهيا إلى نتيجة منطقية واضحة ، هى أن اللغة الوحيدة التى يعتز بها فى كل شأن من شئون الحياة الفكرية العربية هى لغة الضاد الفصيحة ، فهى لغة التعبير فى الكتابة والخطابة والمحاضرة والمحادثة والتمثيل والتعليم ، وهى لغة الأدب ولغة العلم ولغة الفلسفة ولغة الاقتصاد ولغة الحياة الفكرية جميعا ، وليس من الأدب فى شىء كل ما يكتب بالعامية ، سواء كتب للترويح عن النفس أو التمثيل على المسرح ، أو التعبير عن رأى ... وينتقل صاحب قضايا الفكر ، إلى قضية المصطلحات العلمية ، التى يرى أنها من القضايا التى يحلها الزمن ، فالزمن وحده هو الكفيل باقرار المصطلحات ، يأخذ منها ما يأخذ لصالحيته ، ويدع منها ما يدع لعيب فيه وهكذا نجده فى فصوله عن قواعد اللغة العربية وأزمة الهجاء ، وأزمة الطباعة ، والحروف اللاتينية ، والترجمة إلى الضاد : . وهذه القضايا كلها تدخل فى قضية اللغة التى نستعملها .

أما فى باب الأسلوب والأداء فان كتاب « قضايا الفكر » يشتمل على فصول أصيلة جليلة فى مقدمتها : أسلوب الإثارة وأسلوب المنهج العلمى ، وكاتب الأمس وكاتب اليوم .

وأما فى باب النقد والمذاهب الأدبية فالكتاب يحتوى على فصول أخرى مهمة هى : الالتزام فى الأدب ، الأدب الواقعى ، الإبانة والرمز ، انحراف رسالة النقد مكان المسرحية خال . : . ومن قضايا النقد التى عالجها صاحب « قضايا الفكر » قضية الشعر الحر وموقفه من الشعر الموزون ، وهنا يتحدث أديبنا الكبير عن هذه المشكلة وآراء النقاد فيها ، وينتهى إلى تأكيد ما تواضع عليه الأدب العربى فى قديمه وحديثه من أن الوزن والقافية دعامتان من الشعر لا سبيل إلى هجرهما أو التحايل عليهما . . ويناقش آراء المؤيدين للشعر الحر مناقشة منطقية رصينة ، وفى آخر هذا الفصل ينبه إلى أن الخلاف فى هذه القضية إنما هو على التسمية فقط ، فهذا الكلام الحر المرسل هل يسمى شعرا أو يسمى شيئا آخر ؟ فان سمى

شعرا أنكره الأدب بقديمه وحديثه ، وإن سمى نثرا مشهورا فتحت له الضاد صدرها رحبا ، ولا سيما إن اتسم بالجودة واتصف بحسن الأداء ، وكان منتق اللفظ بادى العناية ، يساير قواعد اللغة ، فالضاد لا تتنكر لأى كلام عربى مبين .

— ٣ —

وعند ما نزن كتاب « قضايا الفكر فى الأدب المعاصر » نجد أن حديثه عن القضايا اللغوية ، وعن قضية أزمة الأدب المعاصر ومحنته .. كله مفيد بليغ جدير بأن يقرأ بعناية وفهم وإدراك عميق .. وكذلك حديثه عن أسلوب الأداء فى الأدب ، حيث يبلغ المؤلف غاية ما يبلغه أديب واع مثقف مدرك لمسؤلياته الأدبية .

أما حديث المؤلف عن مذاهب الأدب والنقد فكله ذو أهمية كبيرة جداً فى باب الثقافة الأدبية ، وإن صح النقاش حول بعض الآراء الواردة فى هذا الباب . ورأى المؤلف حول الالتزام فى الأدب رأى صائب مقبول .. أما حكمه عن الأدب الواقعى ، فانه حكم على واقعه وحاضره ، لا من حيث هو ، والحقيقة أن أدباءنا الواقعيين المعاصرين يخرج أدبهم فى أكثره تافها مملولا سخيفا منحرفا مترخصا فى تقدير جميع قيم الإنسانية المرموقة .. ولكن هذا لا يعنى حكمنا على الأدب الواقعى فى حد ذاته كمذهب أدبى يفرض على الأديب رسالة نحو مجتمعه .. وفى حديث مؤلفنا الكبير عن الإبانة والرمز تصوير لرأى واحد من آراء المشكلة ، ونفى أديبنا الكبير لوجود مدارس أدبية (١) لكل مدرسة منها خصائصها ومقوماتها ، من مثل مدرسة الكلاسيكيين والرومانسيين والرمزيين والواقعيين وما إليها ، هو لمحض تجنب ظهور شخصية الشاعر فى عدة مظاهر فنية تجعله مع هذه المدرسة حينا ، ومع تلك حينا آخر وإن كان لا ضير فى ذلك فقد اجتمع فى أعمال إبسن الواقعى الأول كلاسيكية الاغريق ، وكلاسيكية شكسبير المتحررة ، والمذهب الواقعى الحديث . والمؤلف فى فصله القيم « مكان المسرحية حال » يبدو فى قمة التفكير الأدبى وفى مقدمة الحكام والقضاة فى مشكلات الأدب وقضاياه .

---

(١) ص ٥٨ و ٦٧ قضايا الفكر فى الأدب المعاصر.

— ٤ —

وخطر وديع فلسطين فى الفكر الأدبى المعاصر يبدو فى صراحته ، وقوة شخصيته وفى إبائه أن يمشى فى الصفوف منافقا أو مجاملا ... بل إنه يقف وحده ليرى المواكب الزاحفة ، وليصوب نظره إليها ، وليحكم عليها بروح القاضى العادل النزيه الدارس والموجه جميعا .

ومن ثم كانت أهمية كتاب قضايا الفكر الذى يعد خلاصة وافية للثقافة الأدبية المعاصرة ، ومتناموجزا ألم إلماما عميقا بجميع مشكلات الأدب وقضاياه ، وصور منهج مؤلفه فى علاجها ، وفى استقصاء أسبابها ، والحكم عليها أحكاما صادقة نزيهة منصفة ، لا تلتوى ولا تنحرف ولا تتجه لخدمة غرض معين من الأغراض الخبيثة التى تكمن فى نفوس كثير من الأدباء والنقاد :

والعيب الأكبر فى أدبنا المعاصر هو نفاق الأدباء ورياؤهم واندفاعهم لتحقيق أهدافهم الذاتية بأى ثمن وأية وسيلة ، دون أن يكون لهم أثر فى التوجيه ودون أن تكون لهم رسالة واضحة يؤدونها نحو بلادهم وشعوبهم . ليس لكثير من الأدباء خط واحد فى التفكير نلاحظه فى أدبهم طول حياتهم ، بل يستقيمون وينحرفون ، ويصعدون ويهبطون ، ويسفون وينافقون فى كثير من المواقف ، فهذا شاعر يمجد الثورة وقادتها ، وقد كان فى العصر الملكى يسبح بحمد فاروق وأسرته حتى كان له ديوان كامل فى مدح فاروق ، وهذا أديب من أدباء اليوم المرموقين كتب قبل الثورة بقليل يقول عن الملك الفاسد فاروق : « اجتمع لجلالة الفاروق - أعز الله نصره - مالم يجتمع لملك قبله من المزايا .. وببعض هذه الخصائص قدس الشعوب الملوك فى الأمس البعيد ، وفضل الناس الملكية فى اليوم الحاضر (١) .. ويقول عن فؤاد فى ذكراه . « كان الملك فؤاد - رحمه الله - مظهر من مظاهر القدر فى الأرض ، يجلس على عرش من أعرق العروش نسبا فى الملك ، ثم يأمر فيطيع شعب ، ويقول فيسمع عصر ، ويعمل فيسجل تاريخ ، ويضع حكمه فى الأمور موضع الإرادة السماوية فيكون شريعة لا تخالف ، وعقيدة لا تنكر (٢) .

---

(١) ٣٧٣ : ١ - وحى الرسالة - الطبعة الثالثة .

(٢) ٢٩٦ : ١ المرجع نفسه

هذا هو ماضى أديب كبير من أدبائنا قبل الثورة، ولما قامت الثورة سبح كذلك بحمدها ، فأين نضع مثل هذا الأديب الذى تمنحه الدولة اليوم مرتبا ضخما ، وتضعه فى قمة المجالس الأدبية والعلمية فى القاهرة .

— ٥ —

وبعكس ذلك كان أديبنا الكبير وديع فلسطين الذى وقف فى الأحداث الكبرى مرفوع الرأس موفور الكرامة ، واضح الشخصية ، قوى التوجيه ، ظاهر الرسالة .

إن وديعا الصحفى الكاتب الأديب الناقد المثالى صاحب « السوانح » وقضايا الفكر ، ومؤلف رحلة صيف ، وأقاصيص من الشرق والغرب ، وصور وصفية ، ومترجم مسرحية لأدب وعدة كتب علمية أخرى ، ليعد قمة شامخة من قمم الأدب المعاصر ، وحكما نزيها من الحكام فى قضايا الأدب ومشكلاته ، وهو بحق حرى بكل تقدير وإعجاب وحمد .

النثر الفني عنـــد العرب[1]

النثر الأدبي أو الفني هو الكلام الذي يصور العقل والشعور ، ولا يتقيد بوزن أو قافية .

ويرى الباحثون من الأدباء المحدثين ، ومن بينهم الدكتور طه حسين ، أن القرن الأول الهجري لم يكن فيـــه نثر فني يعتد به ، إنما كان الشأن للشعر ، وقد احتذى الدكتور في ذلك حذو الأستاذ مرسيه الفرنسي ، وهو أول من ذهب إلى ذلك ، وإلى أن النثر الفني في الأدب العربي يبتدىء بابن المقفع ، وابن المقفع في نظر هؤلاء أول ممثل للتطورات الجـديدة في الإنشاء العربي ، وهو أول مؤلف للإنشاء الأدبي في اللغة العربية ، وقد آمن الدكتور طه حسين بهذا الرأي وبأن الشعر أسبق من النثر الفني في آداب اللغة العربية ، وأذاع ذلك في كثير من مؤلفاته وقد ثار بعض الباحثين في وجه هذه النظرية وهاجموها .

وهذه النظرية ـ وهي أن الشعر سبق النثر الفني في الوجود ـ نجد أصولها عند أرسطو في كتابه « الشعر » فهو يقول فيه :

« والأقدم من الأشعار الأقصر والأولون كانوا يقرون الاعتقاد في النفوس بالتخييل الشعري ، ثم نبغت الخطابة بعد ذلك ، وهي نوع من أنواع النثر ، وقد عمم بعض المحدثين من المستشرقين ذلك الحكم ، فذهبوا إلى أن الشعر أسبق من النثر الفني وجودا ، على أن بعض المستشرقين من علماء الألمان كجولدزيهر وبروكلمان يؤكدون بأن السجع كان المرحلة التي عبرها النثر إلى الشعر عند العرب .

ونحن لا نميل إلى هـذا الرأي الجديد ولا نؤيده ، فالقرآن أثر من آثار النثر الفني ، وكذلك الكتب الدينية والأدبية القديمة التي يشير إليها القرآن الكريم ، وكثير من الأمم القديمة كان لها نثر فني قبل الميلاد بكثير : فلليونانيين آثار كبيرة في الخطابة من قبل الميلاد بقرون عديدة ، وللرومانيين آثار فيها قبل الميلاد وبعده ، فلماذا لا يكون للعرب نثر فني بعـد الميلاد بخمسة قرون ؟ مع أن

(١) مجلة الديار اللبنانية عدد ٣١ آذار ١٩٥٩ .

لعبد الحميد الكاتب آثار كبيرة فى النثر الفنى وهو قبل ابن المقفع على أى حال ، والقدماء من النقاد يؤيدون سبق النثر للشعر ، فابن رشيق يقول : وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها ، وصنعوا أعاريض جعلوها موازين للكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً ، وكذلك صنع كثير من الباحثين كالزهارى وسواه .

وإذاً فالنثر الفنى فى الأدب العربى وجد قبل القرآن بقليل وصاحب نزول القرآن وتأثر به تأثراً عظيما ثم اتصل المسلمون بالفرس بعد الفتح الإسلامى ، واحتذوهم فى ألوان من أدبهم احتذاء ظهر أثره فى النثر الفنى منذ آخر القرن الأول الهجرى على أيدى بعض الكتاب .

كان كثير من الكتاب والموالى يعرف اللغة الفارسية ، وبعضهم كان يعرف الرومية أو اليونانية أو السريانية مما كان له أثر فى النثر .

فزيد بن ثابت تعلم كما يقال الفارسية من رسول كسرى والرومية من صاحب النبى ، والحبشية من خادم النبى ، والقبطية من خادمه ، وتعلم السريانية بأمر الرسول الكريم وأبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وأستاذ عبد الحميد الكاتب ، وأحد الواضعين لنظام الرسائل نقل رسائل أرسطو إلى الاسكندر إلى العربية مما يدل على معرفته للغة غير اللغة العربية . كان جبلة بن سالم كاتب هشام أحد النقلة من الفارسى إلى العربى ، وكذلك كان عبد الحميد الكاتب يعرف الفارسية ، وقد استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللسان الفارسى فحولها إلى اللسان العربى ، وهو أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية ، وكذلك كان ابن المقفع وهو من سلالة فارسية عريقة ، ومن ذلك يظهر بوضوح أثر الثقافات والأدب الفارسى على الخصوص فى تطور الكتابة والنثر الفنى فى أدب لغتنا العربية .

وعبد الحميد الكاتب هو الذى سهل سبيل البلاغة فى الترسل ، وعنه أخذ المترسلون ، وهو أحد كتاب القرن الثانى الذين فهموا الفصول كما كان يفهمها علماء البيان من اليونانيين ، وهو أول من فتق أكمام البلاغة ، وسهل طرقها وفك رقاب الشعر ، وآلت إليه زعامة الكتابة فمهد سبلها ووضع معالمها ، ورسم لها رسوما خاصة فى بدئها وختامها والإطناب فيها مرة والإيجاز أخرى . فكان بذلك

شيخ الكتاب ، وبحق لقد قيل : بدئت الكتابة بعبد الحميد .

ثم ازداد أثر الفارسية فى النثر الأدبى . فنقل الفرس إلى العربيـــة القصص الغرامى والغزل بالمذكر .

ثم ظهر ابن المقفع المتوفى عام ١٤٢ هـ ، وأحدث أثره فى النثر الأدبى ، وفى تطوره كان ابن المقفع من عنصر فارسى ، وهو أحد النقلة من الفارسية إلى العربية — وذاع أنه ترجم كتب أرسطو من الفارسية إلى العربية . والصحيح أن الذى قام بذلك هو ابنه محمـــد بن عبد الله بن المقفع ، وهو الذى كان كاتب المنصور لا أبوه .

وابن المقفع هو إمام المنشئين فى ذلك العصر ، وكان إمام الطبقة الأولى من الكتاب فى العصر العباسى ، وهى الطبقة التى أدركت الدولتين ، ومن شخصياتها : يحيى بن زياد الحارثى وعمارة بن حمزة وأبو أيوب وزير المنصور وكاتبه ، وقد آخى ابن المقفع فى طريقته بين التفكير الفارسى والبلاغة العربية ، وكان مقدما فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعانى وابتداع السير : فأدبه وإن كان عربى اللفظ والأسلوب فهو أعجمى الفكر والتأليف، فقد استخلص من الأسلوب الفارسى والعربى طريقة عرفت به وأخذت عنه ، وتظهر مزيته فى ترتيب أفكاره وحسن تقسيمها ، ويغلب على أسلوب عبد الحميد الصبغة العربية ، كما تشيع فيه الحكمة التى يروضها بعذوبة ألفاظه وسلامة أسلوبه ، وحقا لقد كان أمة فى البلاغة ورصانة القول وشرف المعانى مع وضوح الغرض وسمو الأسلوب ، وهو أكثر كتاب عصره تأنقا فى صوغ الجملة فكان يقوم فى النثر بما كان يقوم به زهير فى الشعر ، وهو أحد الكتاب الذين لم يلتزموا السجع فكان فى كلامهم قليلا ، ولكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ فى الفصول والمقاطع إلا فى مواضع يسيرة ، وقد اهتموا ببسط المعانى وتأكيدها وتركوا مذهب الإيجاز الذى كان شائعا فى القرن الأول إلى الإطناب وتنويع العبارة ، وتقطيع الجملة والمزاوجة بين الكلمات وتوخى الافهام ، وابن المقفع أول من أفسح مكان الأدب العربى بالترجمة فهو الذى ترجم كليلة ودمنة ترجمة مما ينم على جهد بذله المترجم فى تحرير الخصائص الهندية الصميمة التى للكتاب الأصلى ، بنشاشترا ، ليجعله ملائماً للذوق العربى وأضاف اليه فصولا جديدة فى مواضع مختلفة .

خلف ابن المقفع طائفة من الكتاب تأثروا به تأثراً واضحاً بعيد المدى في تطور النثر الأدبي والكتابة الفنية ، ومنهم يعقوب بن داود وزير المهدي ، وأبو الربيع محمد بن الليث ، وكتب للمهدي والهادي والرشيد ، والقاسم بن صبيح وسهل بن هارون ويحيى بن برمك . ثم أبناء جعفر بن يحيى أخوه الفضل والحسن سهل وأخوه الفضل والحسن سهل وعمرو بن مسعدة والعتابي ، ومحمد بن يزداد وزير المأمون .

وفي العصر العباسي الثاني بلغ النثر الفني منزلة سامية وامتاز بسهولة العبارة وانتقاء الألفاظ وجودة الأسلوب كما امتاز بجودة المعاني واختراعها ودقة الأخيلة وابتداعها وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية في نثرهم بل الاحتفال بها والطعن فيما سواها مما شكا منه النقاد ومال الكتاب إلى الاطناب حتى قال ابن قتيبة : « ولو كتب كاتب إلى أهل بلده في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان ، أما بعد فاني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى الخ ، لم يعمل هذا الكلام في أنفسهم عمله في نفس مروان ولكن الصواب أن يطيل ويدور ويعيد ويبدأ ويحذر وينذر . والاطناب مذهب فارس حتى في الأساطير وكتابة التاريخ ويقول ابن الأثير ، والعجم يفضلون العرب في الإطالة فان شاعرهم يذكر كتابه من أوله إلى آخره .

أو هو شرح قصص وأحوال كما فعل الفردوسي في نظم الشاهانامة ، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها ، ولم يحفل الكتاب في أوائل العصر الثاني بالبديع والتأنق الكثير في الأسلوب ، ويعيب البديع الجاحظ لأن كلامه بعيد الإشارات قريب العبارات قليل الاستعارة ليس له لفظة مصنوعة الخ .. كما عابه الباقلاني بقرب كلامه وكثرة الاقتباس فيه .

وكان حامل لواء هذه الطريقة الجديدة إمام البيان الجاحظ واقتدى به كتاب عصره كالصولي وابن الزيات والحسن وسليمان ابني وهب وسعيد بن حميد وأحمد ابن مخلد وبني المدبر ، وسواهم من الكتاب الذين نشأوا في هذا العصر وجمعوا بين الأدب والنقد والبلاغة العربية والدخيلة وقرأوا كتب الفرس واليونان والهند وظهر أثر ذلك في تفكيرهم وإنتاجهم وآثارهم الأدبية المتعددة الألوان .

آثر الجاحظ الطبع والبعد عن التكلف والتعقيد والحوشية والسوقية . كما آثر الوضوح وظهور شخصيته فيما يكتبه من رسائل أو مؤلفات واحتال على نشاط القارىء بالفكاهة ومزج الجد بالهزل وبالاستطراد وبراعة الأسلوب وسحره ، وبالرواية والنقد والتمحيص ، والإطناب الانتباه العقلى والتغلغل الفكرى ودقة الملاحظة والشرح والتحليل والتعمق وشمول الفكرة ونفوذها ، وإحاطتها بشتى جوانب الحياة أظهر سمات أسلوب الجاحظ وهو مع ذلك منقد الحماسة للعرب والعربية بفضل بلاغة العرب على كل بلاغة ويستشهد بكلمة العربى وبيت البدوى كما يستشهد بحكمة الحكيم ورأى المفكر ، وفى إنشاء الجاحظ كثير من أساليب الخطابة والجدل وكان من المعجبين بابن المقفع ونوه بفكره ولكنه لم يسلك مسلكه فى الأدب لأنه رأى أفق الأدب أوسع من أن يقصر على الحكم والمواعظ .

حقا لقد كان الجاحظ وسحر بلاغته وسمو أسلوبه وشخصيته البارزة فى كل فقرة من فقراته وثقافته الواسعة فى شتى آثاره الأدبية نسيج وحده وفريد عصره كما يقولون ، ورسائله التربيع والتدوير والحيوان من مظاهر ثقافتـــه الواسعة العميقة .

وإذا كان ابن المقفع إمام المنشئين فى عصر الترجمة ، فان الجاحظ إمامهم فى عصر التأليف .

نحو أدب جديد

شهد العالم العربي خلال القرن العشرين أحداثا كبرى ، أثرت في حياته وتفكيره ، وفي سير الأدب العربي وتطوره ، تأثيراً كبيراً .

فالحربان العالميتان الكبريان كان لهما صدى مدو ، وأثر عميق ، في الثقافة والفكر والأدب ، وقيام الحركات الوطنية في شتى أنحاء الوطن الإسلامي ترك انطباعات كبيرة في أذهان الأدباء والشعراء وحملة الثقافة العربية في كل مكان ، وقيام المدارس والمعاهد والجامعات ، وكثرة الرحلات ، وتبادل الثقافات والآراء في شتى جوانب المعرفة والفن ، واحتلال الصحافة والإذاعة والفيلم والكتاب مكانتها الضخمة في التوجيه والتثقيف ، كل ذلك أثر في تطور الأدب، في أفكاره وموضوعاته ، وخيالاته وأسلوبه ومذاهبه ، في مختلف البلاد العربية ، على تفاوت في درجة هذا التطور ، وفي مدى تأثر الأدب بهذه العوامل والأسباب .

وقد انتقل الأدب في مصر من المرحلة الاتباعية ، التي كان يمثلها شعر البارودي ونثر المنفلوطي ، إلى المرحلة التجديدية التي يصورها في الشعر صبري وشوقي وحافظ وشكري ومطران وأبو شادي والمازني والعقاد وناجي وعلي محمود طه ، ويمثلها في النثر طه حسين وتوفيق الحكيم ومصطفى صادق الرافعي وأحمد أمين وأحمد حسن الزيات ومحمود تيمور وسلامة موسى .

وتأثرت الشعوب والأدباء العرب بهذه التطورات المستمرة السريعة في الفكر المصري والادب المصري ، لهذا الأدباء في كل مكان حذو أدباء مصر ، في العقول والارواح ، والعواطف والمشاعر ، فالتيجاني يوسف بشير أثر بمدرسة شعراء أبولو تأثرا واضحا ، والشابي استمد أصوله الفكرية والفنية من مدرستي أبولو والمهجر ، ونجد العلوي والصقلي من شعراء المغرب العربي ينزعان في شعرهما منزع علي محمود طه في شعره الرومانسي ، وينحو عبد الله إبراهيم منحى الدكتور طه حسين في تفكيره وأدبه ، والكثير من أدباء المغرب العربي يتأثرون أدب طه حسين أو هيكل أو المازني أو أبي شادي أو العقاد أو الزيات ، والادب

فى المغرب ـ كما يقول الأديب المراكشى الأستاذ زياد ـ مدين ومتأثر إلى حد كبير بتوجيهات الأدب العربى فى مصر ، وورواد الفكر المصرى المعاصر ، ودعاة النهضه الثقافية الحاضرة ، ومن عناصرهذه النهضة يستمد أدباء المغرب أصول نشاطهم الأدبى .

ومع أننا نرى تأثرات مهجرية فى شعر بعض الشعراء المراكشيين مثل : عبد الله الحسين الشرقاوى وعبد الكريم التواتى ، فاننا بجانب ذلك نلاحظ أثر مصر الثقافى والأدبى واضحا فى الإنتاج الفكرى والأدبى فى المملكة المغربية .

وإذا كنا نعد من رواد القصة فى مصر توفيق الحكيم ، ومحمود تيمور ، وعبدالرحمن الشرقاوى وثروت أباظة . فى المغرب نستطيع أن نعد من نظرائهم : عبدالله إبراهيم وعبدالرحمن الفاسى صاحب قصتى « الكاهنة » و « حمى بوشتاق » والذى ينحو منحى الأديب اللبنانى كرم ملحم كرم فى القصة والبحث الأدبى ، وعبد الخالق الطريس صاحب قصة « فاطمة » وعبد المجيد بن جلون صاحب قصة « فى الطفولة » وسواهم .

وفى البحث الأدبى نرى طه حسين وأبا شادى وأحمد أمين والدكتور محمد مندور ومصطفى السحرتى وسواهم فى مصر ، ونرى عبدالرحمن الفاسى وأبا القاسم الزيانى ، وعبد الكريم بن زيدان ، وهو مؤلف « تاريخ الدولة العلوية فى المغرب » وعباس بن إبراهيم صاحب تاريخ أغمات الذى يشابه كتاب « معجم الأدباء » لياقوت الحموى ، وعلال الفاسى صاحب كتاب « النقد الذاتى » و « الحركة الاستقلالية فى المغرب » .

وفى فن المقالة الذى تزعمه فى مصر المازنى وزكى مبارك وأحمد أمين والزيات والرافعى ، وسواهم ، نرى بجوارهم فى المغرب أمثال : عبد الرحيم غلاب رئيس تحرير مجلة « رسالة المغرب » وسواه .

وشعراء المدرسة الرومانسية فى مصر مثل أبى شادى وحسن كامل الصيرفى ، وإبراهيم ناجى وعلى محمود طه ، يتقبل خطاهم فى المغرب : عبد القادر حسن صاحب ديوان « أحلام الفجر » ، ومحمد بن إبراهيم ، ومحمد مكوار ، ومحمد الحلوى ،

وعبد السلام العلوى الذى فتن بشعر أبى شادى إلى حد كبير ، بينما نجد فى المغرب كذلك متابعين لخطا المدرسة المصرية الكلاسية الحديثة الممثلة فى شعر : الجارم، والأسمر ، والجندى ، وعزيز أباظة ، وذلك من أمثال : الحاج محمد الناصرى وعلال الفاسى ، وأبى جندار ، وسواهم .

ولا ريب أن عزلة المغرب العربى قد باعدت بينه وبين تقبل الاستعمار الفكرى والثقافة الغربية فى الأدب ، وساعد على ذلك تأثير جامعة القرويين فى فاس ، وكلية ابن يوسف فى مراكش ، وثانويتى فاس والرباط .

ويرجع تاريخ النهضة الأدبية الجديدة فى المغرب إلى عام ١٩٢٧ ، وهو العام الذى تولى فى أواخره جلالة الملك محمد الخامس العرش العلوى فى المملكة المغربية وتولى قيادة النهضة الوطنية والاجتماعية والثقافية فى بلاده ، والجامعة الجديدة التى أمر جلالته بانشائها ، ستكون بلا شك حلقة اتصال بين الماضى والحاضر ، وستعمل على الاقتباس من تاريخ مراكش وحضارتها العقلية لدعم أصول النهضة الثقافية الجديدة ومقوماتها .

وإذا كان أدباء المغرب العربى اليوم يتابعون التطور السريع الذى تسير فيه الآداب العربية ، ويرون آثار المدارس الأدبية المختلفة ، الكلاسيكية والرومانسية والواقعية ، وينصتون إلى الآراء الجديدة فى النقد والأدب والشعر والقصة والتمثيلية والمقالة والدرامة ، فان من الضرورى دعم هذه اليقظة الأدبية الملحوظة عن طريق الاكثار من إرسال البعثات العلمية إلى القاهرة ، والاستعانة بكفاية الأساتذة المصريين الدائمين والزائرين ، وعن طريق تبادل الزيارات والرحلات ، وتشجيع الثقافات الجامعية ، وإنشاء المطابع ، والعناية بنشر المخطوطات ، وتفهم تراثنا الأدبى بجانب الآداب الحديثة كافة .

والكتاب والصحيفة اليوم هما المدرسة التى يتثقف فيها الشعب بمختلف طبقاته ، وجدير بالكتاب العربى الذى ينتشر فى القاهرة ، وسواها من العواصم العربية ، وأن يشق طريقه إلى المغرب العربى ليعمل على رفع المستوى الثقافى والوعى الفكرى ، على أن تقوم فيه صحافة واعية تخدم الوطن ، وتسهر على دعم النهضة وازدهارها .

والبعد المكانى بين الرباط والقاهرة بلد الأزهر والجامعات ضئيل ، بجانب تقاربهما الروحى والفكرى واللغوى ، والروابط القومية بين الأمتين تستمد من الدين والتاريخ والدم قوتها .

إن ازدهار الأدب ونهضته فى بعض أنحاء العالم العربى يجب أن يعم أثره فى كل إقليم عربى ، وخاصة فى المغرب ، لتستكمل الملكات نموها ، والمواهب قوتها ، وليصبح للأدب رسالة ، وليانتقل الأدب من الذاتية إلى القومية والإنسانية ، وليستعيد الأديب صلته بحاضره وبمشاعر أمته .

وليس ببعيد أن نرى فى القريب مؤتمر أدباء العرب قد عقد فى الرباط ، وأن نرى المهرجانات الأدبية تقام فى عاصمة المغرب العربى ، ويشترك فيها الأدباء العرب من كل مكان .

ومتى انبعث الوعى الأدبى الجديد فقد قويت الثقافة على انبعاث طاقات النهضة ، وفى استكمال الأمة لخصائصها القومية ، وفى سعيها لتحقيق المجد والعزة والحرية لها وللشعوب العربية ، المؤمنة بربها ، وبماضيها وحاضرها ، وبرسالتها فى الحياة .

الأدب والدولة

من حق الأدباء على الدولة أن تعاونهم على النهوض بالأدب والفكر في الجمهورية العربية المتحدة معاونة فعالة تأخذ بأيديهم إلى الحياة الكريمة، وتهيء لهم وسائل نشر إنتاجهم الأدبي، وتكفل لهم حق الإفادة من أدبهم الذي ينتجونه وينشرونه.

والدولة، وقد رصدت في ميزانيات وزاراتها المختلفة مبالغ ضخمة لتشجيع الإنتاج الأدبي - لم تنظم وسائل هذا التشجيع، وتركت لصغار الموظفين أو كبارهم على حد سواء تنظيم هذه الوسائل، فكانت النتيجة المؤسفة أن هذه الأموال كلها ذهبت وتذهب إلى جيوب الناشرين وأصحاب المكتبات، دون الأدباء وأصحاب الإنتاج الثقافي.

في وزارة التربية مثلا إدارة الثقافة لتزويد مكتبات المدارس بالكتب المختلفة وجملة اعتماداتها لا يفيد منها الأدباء شيئا، ولا تمكن أديبا موهوبا من نشر كتاب له، ولا تعاون صغيراً أو كبيراً على أداء رسالته الأدبية بحال من الأحوال.

وفي وزارة الأوقاف ووزارة الثقافة والإرشاد، وفي الأزهر كذلك، إدارات للثقافة كذلك، وحظ الأدباء منها قد لا يكون أحسن حالا من حظهم مع وزارة التربية والتعليم.

وهنالك جوائز الدولة، وجوائز المجمع اللغوي، وجوائز عديدة ترصدها الدولة لأغراض علمية محضة.

ولو قد تسنى للدولة أن تحيل هذه الأموال الضخمة إلى مشروعات لتشجيع الإنتاج الثقافي والفكري والأدبي، لكانت قد صنعت للفكر المصري والأدب المصري والثقافة خيراً كثيراً، ولكانت قد هيأت للعقل المصري أن يكون خير دعاية وثمرة للوطن في مصر وخارج مصر.

يمكن لوزارة الثقافة والإرشاد أن تتبنى مشروعات ثقافية عديدة تفيد الأدب والأدباء فائدة حقيقية. ويمكنها أن تتبنى فكرة نشر كتب الأدب وتوزيعها واختيار الصالح منها لتزويد مكتبات الوزارات المختلفة به. ويمكنها أن تقيم جماعات تعاونية للأدباء تساعدهم على الإنتاج وعلى نشر إنتاجهم على حد سواء.

النزعة الأوربية فى الادب الحديث

عند ما أعود إلى نفسى أسألها عن أدبائنا المعاصرين : ألهم شخصية فكرية وأدبية مستقلة متميزة يعرفون بها وتعرف هى بهم ؟ ألهم فلسفة خاصة ينتمون إليها وتنتمى هى إليهم ؟ أجدنى مشفقا من الجواب ، إشفاق سلامة موسى حينما أعلن أنه لا يوجد بين أدباء مصر أديب يستحق أن يحمل التاريخ آثاره إلى الأجيال القادمة ، وأن يقرأ له أولادنا وأحفادنا بعد عشرة أعوام .

نستطيع أن نسقط من حساب تاريخنا الأدبى المعاصر تسعة أعشار ما أنتجه الأدباء ، فلا نشعر بخسارة ما ، ونستطيع أن نخرج تسعة أعشار الأدباء من ميدان الأدب ، لأنهم صور مكرورة ، ليس لها طابع فنى أو ذهنى خاص :

ولكننا عند ما نقرأ أدب سلامة موسى نشعر بقيمته الفكرية فى حقلنا الأدبى .

ومن منا لا يذكر دعوته إلى الاتجاه الاجتماعى أو الواقعى فى الأدب ، وكيف اتخذ موضوعات أدبه من حياة الكادحين والفقراء يصور آلام مجتمعه وأدواءه ، وينازل الاستعمار والإقطاع والرجعية المتعاونة فى هدمه وتخلفه ، حتى لقبه كثير من النقاد الكاتب الاجتماعى ، أهى النزعة الاشتراكية العميقة فى ذهنه ، أم هى الإنسانية الرحيمة المسيطرة على وجدانه وروحه وقلبه ؟ إنهما على حد سواء عند هذا الأديب الذى اعتزل دنيا الناس وعاش فى دنياه الواسعة المضيئة المتصلة ، كان سلامة موسى يندد بأدب التسلية والترف ، الأدب الملوكى المتخلف الذى يعيش على المدح والنفاق ، ويطالب الأديب بأن يكتب للشعب ، أن يضع أدبه فى خدمة المجتمع ، أن تكون شئون مواطنيه موضوع أدبه واهتماماته وبالجملة أن تكون له رسالة ، وأن تكون نظرته إنسانية شاملة .

واتصال الأدب بالمجتمع ، ومعالجته لشئونه ، واندماجه فى مشكلاته إحدى الخصائص الفريدة فى أدب هذا الكاتب المتعدد الاتجاهات ، الذى بشر بالأدب الاشتراكى أدب الشعب ، أدب التغيير والتطور والإيمان بالمستقبل

ومكافحة الفقر والمرض والجهل ، ونضال الاستعمار والاستبداد ، والدفاع عن حقوق الفلاح والعامل والمرأة ، وحق الشعب في الحرية والكرامة والتقدم والرخاء . ولقـــد مهدت كتاباته لثورتنا الثانية تمهيداً رائعا قويا ، فقد كان يكتب ضد الملكية ، وينادي بتحديد الملكية ، ويدعو دائما إلى التصنيع لرفع المستوى الاقتصادي للشعب ، منذ بدأ يبشر برسالته عام ١٩٠٩ حتى استأثر به الخلود وبقيت الذكرى العاطرة الباقية ما بقيت الحيـاة ، وكان سلامة موسى يقول : إن الكاتب العظيم هو الذي يكتب لا ليسرى عن قارئه همومه ، أو يرفه عنه ، بل ليزيده هموما ، ويبعث فيه اهتمامات روحية ، ويحمله تبعات جديدة .. إنه صاحب الأدب الملتزم أو المرتبط على حد سواء .. صاحب الأدب الكفاحي المتحرر الملتهب ثورة وإيمانا بالإنسانية .

وقد عاش يحارب أدب التسلية والترف ، أدب البـــلاغة ، التي ليس لها هدف ، أو موضوع أو رسالة ، لأنه يؤمن بأن الأديب يجب أن يكون في خدمة المجتمع ، وأن يسير بالحياة الاجتماعية إلى التقدم والإنسانيـة ، وحرية الضمير .

إن الأدب الرفيع عنده هو الداعي إلى التنقيب عن معنى الحياة ودلالتها ، وإلى إقناع الإنسان بأن يكون إنساني النزعة والروح ، وإلى ابتكار القيم الجديدة التي تزيد البشر جمالا وسعادة ، ويستطرد سلامة موسى فيقول : « أجل بل تزيدهم طعاما للجائعين » .

وسمة أخرى لأدبه هي تحرره الذهني والفني ، وقد عاش يحب الحرية ويدافع عنها ، ويؤمن بالتحرر ويدعو اليه ، فلماذا إذاً لا يكتب أدبا متحررا فيه معنى الثورة على مألوف الناس في السياسة والاجتماع والتقاليد ، إن سلامة موسى لم يحن رأسه في يوم من الأيام لطاغية ، ولم يتملق مشاعر الجماهير ، ولم يكتب لزلفى أو لمجد أو لجاه أو لمال ، لقد عاش هـذا المصري الأصيل مكافحا ، وآثر الكفاح طيلة حياته التي أنافت على السبعين ، ذاق الحرمان وتنكيل الطغاة ، وعاش في ظلمـات السجون ، ومع ذلك لم يتخل عن دعوته الكفاح ، من أجل البناء ، وإسعاد الملايين الحائرة التي كانت تحيا في الظلام حياة الفقر والمرض والجهل والتخلف الذهني ، ولم يتخل سلامة موسى عن أسلوبه

المنطق العميق ، الذى كان يؤثره على الأسلوب الأدبى ، ودعا إلى الأسلوب الديمقراطى أو الشعبى لأنه فى رأيه أسلوب المستقبل ، ولم يكن يعنى بهذا أن يكتب الكاتب الشعب بلغته العامية ، بل بلغة فنية جميلة قريبة إلى فهم الجماهير وإدراكها لغة تجمع بين اليسر والعمق ، والوضوح والدقة ، لغة متحررة بعيدة عن الصناعة ومساحيق البلاغة ، لأنها صادرة من العقل ومن إدراكات ذهن يقظ ، يؤمن بأن الأدب هو التعبير الواضح عن الإنسان ودراسته فى اقتصاده وثقافته واتجاهاته الذهنية والعاطفية ، وفى أهدافه المستقبلة ، وبأن غاية الأدب هى الإنسانية لا الجمال ، ولغة سلامة موسى فى مؤلفاته عربية الأسلوب مصرية الروح والدم ، عصرية البلاغة والتعبير ، وطالما دعا هذا الداعية إلى أدب مصرى عصرى ، وإلى أسلوب عصرى فى التعبير ، لا نقلد فيه أحدا ، ولا نجارى فيه إنسانا ، مهما كانت منزلته من البلاغة التقليدية ، أسلوب يؤدى إلى حد ما يحتاج اليه الناس من فهم وإفهام ..

وسمة ثالثة لأدبه هى طرازه الأوربى الخالص فى البـــلاغة النزعة والأدبية ، وقد استفاد ذلك عند ما كان شابا يتأثر بنزعة المقتطف وصاحبه يعقوب صروف العلمية ، وبنزعة فرح أنطون الأدبية الجانحة إلى الآداب الاوروبية الحديثة وبنا بيعها الفكرية العميقة ، وبآراء أحمد لطفى السيد فى الوطنية وفى الدعوة إلى أدب جديد متشبع بآداب أوروبا وثقافتها ، وقد اتصل سلامة موسى بالأدب الفرنسى والإنجليزى اتصالا مباشرا ، وقرأ الأدب الروسى والألمانى مترجما ، ووقف عند نيتشه وشو وولز وإبسن وقفات طويلة .. ومع ذلك فقد حرص على قراءة الأدب العربى ، وخاصة فى روائعه القديمة ، وأشاد بالجاحظ وابن حزم والمعرى ، ويجهر بأنه لا يعادى القدماء ، لأن الثقافة القديمـــة هى تراث بشرى عظيم لا يهمله إلا معتوه ، بل إنه لا يكاد يقرأ كتابا عربيا إلا إذا كان مؤلفه من القدماء ، وينادى بأنه يجب أن نميز بين قديم وقديم ، ذلك لأن هناك قدماء قد يفصل بيننا وبينهم ألف سنة أو يزيد ، ولكنهم قدماء معاصرون ، أى يشتغلون بهمومنا البشرية أو الاجتماعية العصرية ، فليست العبرة فى الأدب أو الفن عنده بالقديم أو الجديد ، وإنما العبرة بقيمة هذا الفنان أو الأديب ، قيمته الإنسانية أو الاجتماعية :

وبتأثير هذا الطراز الأوربي في أدبه نجده يدعو إلى أن نأخذ في النقد الأدبي بالأوزان والقيم الأوربية فنتخذ المنهج الاجتماعي في النقد بأن نسأل عن قيمة الأدب ومدى خدمته لشرف الإنسانيـــة ، ويدعو إلى أن نعالج القصة والمسرحية ، وإلى أن نجعل أدبنا إنساني الغاية عالمي المشكلات .

وبعد فإن هذا الكاتب مدرسة مستقلة في الأدب المصري الحديث ، كان يأخذ منها كل أدبائنا المجددين والمحافظين على حد سواء رضوا هذا أم كرهوا ، وهو شخصية مستقلة متميزة في أدبنا المعاصر ، ورسالته التي تنتظمها مؤلفاته التي أربت على الأربعين هي رسالة الحرية والمساواة والحضارة والعلم ، هي رسالة الإنسانية في أوسع مدلولاتها ، وما بالنا بأديب يجعل الثقافة البشرية بعلومها وآدابها من صميم الدين ، ومن صميم الادب أيضا ، ولا عجب فقد كانت بؤرة إيمان سلامة موسى ، هي الإنسانية بما تشمل من أنبياء وفلاسفة وأدباء ، وبما تحوى من شجاعة وذكاء ومروءة ورحمة وجمال وشرف .

الأدب المهجرى

١ - شاء الله أن يهاجر فريق من أبناء العرب من أوطانهم إلى العالم الجديد، وأن يقيموا فى الولايات المتحدة أو كندا، أو فى إحدى دول أمريكا الجنوبية، وأول مهاجر عربى هو أنطون البشعلانى اللبنانى الذى هاجر إلى أمريكا الشمالية وأقام فى نيويورك عام ١٨٥٤، ومات فيها، وتبعه أفواج من المهاجرين من سوريا ولبنان وفلسطين، وكان بعض المهاجرين من الأدباء، فأخذوا يعبرون عن مشاعرهم بالشعر أو النثر وأقدم أديب هاجر إلى هناك هو ميخائيل رستم والد الشاعر أسعد رستم، وبعده الدكتور لويس صابنجى الذى نظم قصيدة فى نيويورك فى وصف السنترال بارك عام ١٨٧٢. وقد تكاثر عدد المهاجرين بعد الثورة العرابية، حيث سافروا إلى كندا وإلى الولايات المتحدة، والبرازيل وشيلى والأرجنتين وغيرها من دول أمريكا.

وأسس بعض المهاجرين صحفا عربية تنطق باللغة العربية، ومنها جريدة العصر، والأيام، والفيحاء، وأنشأوا كذلك الجمعيات باسمهم وكونوا كذلك جمعيات أدبية عدة.

وفى هذه الديار ترعرع أبو الأدب المهجرى أمين الريحانى، وعميد أدباء المهجر جبران خليل جبران.

٢ - وقد سمى الأدب الذى نطق به هؤلاء المهاجرون فى هذه الأرض البعيدة «الأدب المهجرى»، وهو أدب حديث النشأة، ولد مع القرن العشرين ونما وترعرع حتى اليوم، وكان أبو الأدب المهجرى أمين الريحانى، ثم جاء جبران، وميخائيل نعيمه وإيليا أبو ماضى، وأعلام أدباء المهجر، ممن نطق أدبهم باسمهم وعبر عن مشاعرهم، وصور عواطفهم، ووصف غربتهم وحنينهم والبلاد التى أقاموا فيها.. وكان أدبهم هـذا هو الأدب المهجرى.

أعلام من أدباء المهجر

ومن أشهر المهجريين :

١ - جبران خليل جبران ، وسنفرد له فصلا خاصا .

٢ - شكر الله الجر ، وهو أكثر تنويعاً لموضوعاته وله ديوانان : الروافد وزنابق الفجر ، وقد ترجم بعض القصائد من الشعر البرازيلي .

٣ - ندرة حداد وهو عميد شعراء العربية في أمريكا وشعره يمتاز بنزعة إنسانية وقد تعددت موضوعاته فنظم في الاجتماعيات والإخوانيات والطبيعة والوجدانيات والتأملات ، وله شعر قصصي ، ومن أجمل شعره التأملي قصيدته « الله » ومن شعره في المناسبات قصيدة « طابع البريد » ومن روائع شعره الإنساني قصيدته « مر معي » وقصيدته « أنا إن مت » وهي دفاع عن النزاهة والحرية وكرامة الإنسان .

وندرة حداد أول شاعر هاجر إلى أمريكا إذ وصل إلى نيويورك عام ١٨٩٧ وتبعه نسيب عريضة ، ورشيد أيوب عام ١٩٠٥ ، ومن شعره قوله لابنه :

جئت يا بني مثلما والدك المسكين جاء
جئت دنيا كلما محصتها زدت ازدراء
أغبياء قد أتيناها ونمضي أغبياء
ما طلبناها ولكن هكذا الخالق شاء

٤ - رشيد سليم الخوري الشاعر القروي ويمتاز بشعره في الوطنيات ، ويعد العلم الشامخ للشعر القومي العربي ، وكان يعيش في البرازيل وقد ولد عام ١٨٨٧ هـ في لبنان وشاعريته محلقة وديباجته متمكنة من اللغة والبيان أي تمكن ، وشعره كلاسيكي في أبهى حلله العصرية :

ومن شعره :

أنت حر فاستوطن البلد الحر   وصاحب من أهله إخوانا
مثلك الكون والزمان فلا تلح   مكانا ولا تذم زمانا
ليس فى قضمك الحديد هوان   إن فى بثك الشكاة هوانا
بسمة تظهر الفقــير غنيا   دمعة تمسح الشجاع جبانا
فتلق الحيـاة بالبشر فالعيش   نعيم إن لم تكن شيطانا
كن إله النضار إنك عنـدى   لست شيئا مالم تكن إنسانا
أشبع العقل حكمة واختبارا   واملأ القلب رحمة وحنانا
ولك الأرض والسماء وهل يد   عى فقيرا من يملك الأكوانا ؟!

٥ – إيليا أبو ماضى ، وديواناه «الجداول» ، و « الخمائل » مشهوران وسنفرد له دراسة خاصة .

٦ – عبد المسيح حداد ، وهو مقل فى نظمه ، ونثره غير قليل ، وأدبه خلاق واسع الأفق يتجلى فيه روح التقدم الإنسانى المتصل ، وهو محرر جريدة السائح فى نيويورك .

٧ – الياس فرحات وديوانه « نشيد المجد » مشهور .

٨ – شفيق معلوف وله : الأحلام وهى قصة خيالية اجتماعية ، وديوان « لكل زهرة عبير » ، وملحمة عبقر » . وهو شاعر متزن ، وأديب مفكر ؛ رصين مستوعب للفكر الفلسفى ، قرأ الفلسفة الحديثة وعلم النفس ، وتغلغل كل ذلك فى شعره الجميل الذى يسانده طبع أصيل وقد مات أخوه فوزى المعلوف عن سن مبكرة .

٩ . رشيد أيوب شاعر الدموع وهو شاعر روحى ناطق ، هاجر سنة ١٨٨٦ واستقر فى نيويورك ، وقد أكثر فى شعره من شكوى الزمان ولقب شاعر الدموع ، والشاعر الباكى ، وديوانه « أغانى الدرويش » مشهور .

١٠ - نسيب عريضة الشاعر الثائر هاجر إلى أمريكا عام ، ١٩٠٥ وتوفى عام ١٩٤٦ ، وله ديوان « الأرواح الحائرة » ، وقد أنشأ سنة ١٩١٣ مجلته الأدبية « الفنون » ، وحرر فى جريدة السائح والهدى ومرآة الغرب ، وله كذلك ملحمة أبى فراس ، و « إرم ذات العماد » . ويقول عريضة لابنته يغنى لها كى تنام :

ظلام الليل قد جنا   وبوق الهم قد رنا
فنم يا طفل لا يهنا   غنى بات شبعانا
بكى طفل وما ناما   وقضى العمر صواما
جنى الآباء آثاما   عليها الله جازانا
من الألحان لا أدرى   سوى أنشودة الصبر
أغنيها من القهر   لطفل بات جوعانا

١١ — ومن أدباء المهجر الجنوبى : جورج صيدح ، وهو شاعر رقيق ، وصيدح يرى أن التجديد الأهم الذى قام به المهجريون كان فى الموضوعات والفكرة ، وقد انعكس هذا التجديد فى الأساليب ، إنهم لم يقصدوا إشاعة الفوضى فى اللغة كما يزعم البعض بل إنهم فى حدود التزامهم للاطار العام للغة اتخذو القوالب الأنسب لأفكارهم الجديدة وتفننوا فى تقطيع الشعر ، تقطيع البحور العربية التقليدية ، تقطيعا يناسب أنغام شعرهم ، ولغتنا كانت تحتمل هذا التقطيع ، هم لم يخرجوا على العروض بل واصلوا رسالة الأندلسيين ونوعوا الموشحات وحملوا رسالة الفكر العميق ، وهم خلقوا الحوار فى الشعر فقد كتب إيليا أبو ماضى المسرحيات والملاحم والمطولات ، كما كتب فوزى المعلوف ملحمة « بساط الريح » ، وكتب شفيق معلوف « ملحمة عبقر » ، وهم بعثوا الحياة فى الكلمة العربية . وميزتهم أنهم واقعيون لم ينفصلوا عن حياة المجتمع وإنما لونوا الواقع بألوان الفن ليصبح جذابا . لأنهم أصحاب رسالة إنسانية ورسالة للمجتمع ، وهم لهذا السبب أيضا كان عليهم اختيار أسلوب واضح بسيط لأن شرط الرسالة الشيوع .

هيئات أدبية مهجرية

— ١ —

ومن أهم الهيئات الأدبية المهجرية التى أنشأها أدباء المهجر :

١ ـ الرابطة القلمية ، وقد أنشئت فى نيويورك عام ١٩١٢ ، ومؤسسها هو الأديب المهجرى الكبير عبد المسيح حداد صاحب جريدة السائح المشهورة ، ومؤلف كتاب «حكايات المهجر» ، وقد ولد عام ١٨٩٠ بسورية وهاجر إلى نيورك عام ١٩٠٧ ، وأنشأ جريدة السائح عام ١٩١٢ ، وكان يكتب فيها : جبران ، والريحانى ، ورشيد ، وأيوب ، وندرة حداد ، ويعملون بروح الأسرة الواحدة ، ثم استجابوا لدعوة صاحب السائح ، وأنشأوا الرابطة القلمية عام ١٩٢٠ التى يعد من أعلامها من الشعراء : نعمة الحاج ، وعبد المسيح حداد ونسيب عريضة ، وميخائيل نعيمة ، وأمين الريحانى ، وأسعد رستم ، وإيليا أبو ماضى ، ومن كتابها الشيوخ : نعمة الحاج ، ومن كتابها المخضرمين فيكتوريا طنوس وعيسى خليل صباغ ، ونجلا أبو اللمع معلوف ، وفيليب العقل ؛ وفريد غصين ، وحبيب عيسى . ومن أدبائها الشباب : عبد الله صالح ، وعباس نصر الله ، وإبراهيم داغر .

ومن أعلامها الراحلين : جبران ؛ ورشيد أيوب ، ورزق حداد وندرة حداد ، ونسيب عريضة ، ونعيمة أيوب .

٢ ـ العصبة الأندلسية وقد ألفت عام ١٩٣٢ ؛ أسسها الشاعر ميشال المعلوف ورئيسها الآن شفيق المعلوف الشاعر ، وكان ومن أعلامها رشيد سليم خورى الشاعر القروى .

بماذا تأثر الأدب المهجرى؟

ولقد نشأ الأدب المهجرى أول ما نشأ متأثرا بحركتين : حركة التجديد التى تزعمها مطران فى الشعر العربى منذ مطلع القرن العشرين وحركة البعث الأدبى الأمريكى المتجاوبة مع خير ما فى أوربا من الأدب ؛

واليوم يظهر الأدب المهجرى فى طابعه الإنسانى ذى الشخصية القوية الحرة ، وأدباء المهجر المثقفون موهوبون متعددون ، وإن لم يكن لهم اليوم شهرة من سبقوهم فى العقد الثانى من القرن العشرين ، ومع هذا فلهم آثار قيمة لامعة .

الأدب المهجرى أدب واقعى فى أكثره ، يتجاوب مع الحياة والحضارة ؛ ويبدو فى أكثر آثاره صفة التركيز ، ولقد تجاوب مع الحركة الابتداعية فى الشعر العربى الحديث التى مهد لها مطران ، والصوفية التى اشتهر بها أدب جبران قد انتهت الآن من الأدب المهجرى .

والأدب المهجرى أدب ثقافى ناضج تقدمى كامل التفاعل مع الحضارة الأمريكية وهو أدب مشغول بالحياة وجميع مقوماتها متفاعل معها غاية التفاعل وجدانيا وفكريا بصورة إيجابية ويمثله أدب ميخائيل نعيمة وعبد المسيح حداد ؛ ولقد عرف أدباء المهجر كيف يستوعبون الروح الأمريكى بجميع خصائصه البديعة . . وقد تأثر الأدب المهجرى(١) بكل ما حوله ، فتناول الحياة بكل ما تعنيه ، تناولها فى القصص ؛ وفى المقالة ، وفى النقد ؛ وفى الشعر ، وفى الفن ، وفى المسرح ، وفى كل شىء وعرف هذا الأدب قيمة الوقت ونفاسة التركيز ، فتجنب الثرثرة والبهرج الكاذب والقشور وتعلق باللباب الصريح وهو فى كل هـــذا يجارى الوسط الذى أنشأه التفكير الأمريكى والأسلوب الأمريكى خاصة .

(١) راجع رائد الشعر الحديث الجزء الثانى للمؤلف .

خصائص للادب المهجرى

يمكننا أن نعد من خصائص الأدب المهجرى :

١ - الطابع العاطفى الذى يتجلى فى رقة فى العاطفة ما بعدها من رقة ، حيث الشوق والحنين إلى الوطن البعيد فى نغمات مؤثرة حزينة ، يقول أبو ماضى :

الأرض ، سوريا أحب ربوعها عندى ، ولبنان أعز جبالها
تشتاق عينى قبل يغمضها الردى لو أنها اكتحلت ولو برمالها

٢ - الطابع الصوفى ، ويتجلى فى حبهم للطبيعة واندماجهم فيها وفى وصف جمالها ، يقول الشاعر القروى :

من لنفس تود لو تغمر الكون ، هياما بحسنه المعبود
مثلوا لى هذا الوجود بشىء أنا لا أستطيع ضم الوجود

٣ - الطابع التأملى الفكرى ومن مثل هذا ما فى قصيدة إيليا أبى ماضى « الطلاسم » من شعر تأملى عميق كقوله :

لى ذات غير أنى لست أدرى ماهيه
فمتى تعرف ذاتى كنه ذاتى - لست أدرى
إننى جئت وأمضى وأنا لا أعلم
أنا لغز وذهابى كمجيئى طلسم
والذى أوجد هذا اللغز سر مبهم
لا تجادل ذو الحجى من قال إنى لست أدرى

٤ - الطابع القومى ، ويبدو فى وطنيات أبى شادى والشاعر القروى

٥ - الطابع الإنسانى ، ويبدو فى مثل قول إلياس فرحات :

ربة الحكمة إنى شاعر يعشق الحكمة مذ كان صبيا

لا تخالينى لصيقاً بالثرى لا تمس الأرض إلا قدميا
إن فى الإنسان من فطرته للثرى شيئا وشيئا للثريا

هذه هى بعض خصائص الأدب المهجرى من حيث المضمون .

وهناك خصائص أخرى له منها ما اشتمل عليه هـذا الأدب من تحرر فى الصياغة وتنوع فى الموضوع ومن انطلاق فكرى .

وترى طابع هذا الأدب المهجرى فى كتابات أعضاء « الرابطة القلمية » بنيويورك ، وفى طليعة الاحياء ، منهم : عبد المسيح حداد ، وأما الشعر المهجرى فهو فى نظرنا دون النثر من ناحية التركيز فى كثير من النماذج العربية ، ولكنه ليس كذلك من نواحى الخيال والتحرر والتنويع فى الاساليب والموضوعات . فهى أكثر طلاقة من نظيرتها فى الشرق ولو ان كثيرا من شعراء العرب فى الشرق قد اختطفوا هذا القبس الغربى ؛ ونافس بعضهم شعراء المهجر فى التحليق وكأنهم من صميمهم . . والتحرر التعبيرى فى الشعر المهجرى أظهر مايكون فى شعر نسيب عريضة وميخائيل نعيمة ، ومن شعر الاول قصيدته « النهاية » التى يرثى بها وطنه الاول ومواطنيه فى عهد مضى إبان الاحتلال الاجنبى ؛ كما يقرع المهاجرين لتهاونهم وأنانيتهم وفى الواقع أن أدباء المهجر لا يقل اطلاعهم اللغوى عن إطلاع أقرانهم فى الاقطار العربية فاذا عمدوا إلى تعابير أو ألفاظ أو أوزان مستحدثة ، فانما ذلك منهم تصرف الواعى البصير ، وقد يشتق بعضهم كلمات جديدة لاعتبارهم إياها أبلغ أثرا وأجمل موسيقية ، أو لغير ذلك من الاعتبارات ، بينما يتقدمهم الادباء فى الشرق الذين يرون أن قيمة الأثر الادبى تعتمد أولا وأخيرا على رسالته الرفيعة وبلاغة بيانه وجمال سماته :

لخصائص الادب المهجرى البارزة ،

أولا : التحرر البيانى الذى اتجه « وما يزال » إلى التحرر فى التعابير وفى استعارة الألفاظ ووضعها .

ثانيا : التركيز البليغ الذى يجانب إضاعة الوقت فى التكرار والثرثرة ، فهو إذن أدب حى دائم التجديد ، يعنى بالإنسان أولا وأخيراً ، وليس عبداً للشكليات .

ثالثا : التجاوب مع الحضارة الحديثة ومشكلات الحياة .

وإذا استثنينا كتابات جبران وأشعاره الصوفية ، فالأدب المهجرى عامة أدب واقعى تلمسه قديما فى كتابات أمين الريحانى وميخائيل نعيمة ، ولم يمت من الأدب المهجرى للجيل الماضى إلا الأدب الوجدانى الذى ألفناه عن جبران ، أما فى الوقت الحاضر فجميع الصحف العربية المهجرية وكذلك حلقات رابطة منيرفا الأدبية التى كانت تعقد شهريا فى جامعة كولومبيا بنيويورك ، فياضة بألوان من الأدب والشعر عالية القدرة ، وبعض هذا الشعر تحتفى به مجلات خارج الولايات المتحدة ، وفى طليعة المهجريين الشعراء فى الولايات المتحدة من الشيوخ أسعد رستم وإيليا أبو ماضى ونعمة الحاج ، ومن الشباب : سعيد جبرين ويوسف الخال . وعلى رأس كتابها الأدباء الشيوخ : أديب نعيم ليون ، ومن مشاهير أدبائها وكتابها المخضرمين : فكتوريا طنوس وجورج ديس وعيسى خليل صباغ وعبد الله حنا نصر وحبيب عيسى ونجلا أبو اللمع معلوف وعبد الله حنا ، وفيليب العقل وفريد غصين . ومن أدبائها من الشباب : إبراهيم داغر وعبد الله صالح وعباس نصر الله وليندا كرم .. ولئن مضى جيل جبران ورشيد أيوب وجميل بطرس الحلو ونسيب عريضه ورزق حداد وندرة حداد وأضرابهم فما يزال مشعل الأدب متوهجا فى أيديهم .

وقد تأثر بالأدب المهجرى كثير من الشعراء فى العالم العربى ومنهم الشابى والتيجانى وفدوى طوقان ونازك الملائكة ، نهدا اللون العاطفى الوجدانى الشعرى ، المتحرر من القيود الذى أنشأه أدباء الرابطة القلمية فى مهجرهم ،

والذى استطارت شهرته فى الشرق . قد أصبح عنوانا على مدرسة كبرى فى الأدب ، قلدها الكثيرون من الشباب وجروا فى ركبها

وينوه الدكتور أبو شادى بروائع الأدب المهجرى وملاءمه فيرى أنه مذ صحب المهجريين من الشرق الأوسط إلى أمريكا فى أواخر القرن الماضى كان أدب حياة وقوة بحكم البيئة الجديدة التى غرس فيها ، وما جاء العقد الثانى من هذا القرن وتوطد استقلال الأدب الأمريكى إلا وأخذ الأدب العربى المهجرى يظهر استقلاله أيضاً . صحيح أنه فى روحه بمثابة أدب أمريكى معبر عنه باللغة العربية ، ولكن موضوعاته شرقية غربية معا وروحانيته كذلك .

ويقول أنور الجندى عن الأدب المهجرى : إنه ثورة على الحياة وعلى التقاليد واللغة والفن جميعاً ، وهو الأدب الذى يقول: إن الدودة أخت لنا والغراب ابن عمنا ، الادب الذى تغلب الصورة المرسومة فيه على العاطفة واللوحات المؤلفة على الخاطر ، ويعتمد على الظلال والأضواء وأشعة النور والضباب والثلج وقوس قزح ، وهذه مدرسة الترف الذهنى ، ولكنها لن تكون بأية حال مدرسة للنضال والكفاح فى سبيل تحرير الأوطان .

أبو شادى والأدب المهجرى

— ١ —

قصة الأدب المهجرى أثر نفيس للشاعر الأديب المصرى الخالد ، المرحوم الدكتور احمدزكى أبىشادى ، وهو بحوث ودراسات عميقة عن الأدب المهجرى وأعلامه ، كتبها وهومهاجر فىأمريكا ، قبل أن ينتقل إلى رحمة الله فى الثانىعشر من أبريل عام ١٩٥٥ ، وقد كان الشاعر أرسل فصوله لى لانشرها فى القاهرة ، ولايزال هذا السفر مخطوطا لم ينشر بعد ، ولاشك أنه سيكون مصدرا أصيلا من مصادر الدراسات النقدية عن أدب المهجر وأعلامه ، وهو جدير بذلك ، لمنزلة مؤلفه العالية فى الأدب العربى الحديث والآداب العالمية المعاصرة ، وهذه المنزلة جعلته موضع ثقة العلماء والمستشرقين وإجلالهم وتقديرهم .

— ٢ —

وأبو شادى ناقد ممتاز ، وأديب موهوب ، وعالم أصيل النزعة العلمية ، وشاعر خصب الخيال مشبوب الشعور قوى الشاعرية ، وهو إلى ذلك كاتب حر ، ومفكر رائد ، وطبيب خلف آثارا عديدة فى الطب ، وموسيقى ورسام له لوحات عديدة خلفها لأسرته فيما خلف من تراث جليل

وقد كان صورة زاهية للعقل المصرى المتحرر المتوثب ، وجيلا كاملا من العظمة والمجد والموهبة التى لا تفتأ تبتكر وتجدد ، وتنير للإنسانية طريقها بين الظلام والصخور والأشواك

عاش أبو شادى طول حياته ، يناضل نضال الأبطال الأحرار ، من أجل مصر والعرب ، مصر التى أخلص لها حياته وفكره ، والعروبة التى دافع عن حقوقها وأمجادها :

إن الكنانة والعروبة ملتقى [illegible]ن يوحده الوفى العابد
فلموطنى روحى وكل جوارحى ولكم حنينى والشعور الماجد
يكفى لنا النسب العتيد بجمعها لجميعنا صيد رماه الصائد

وقصائده فى الدفاع عن العالم العربى وحريته ، وفى تأييد حقوق شعوبه ، تسجل لنا أحاسيسه الوطنية والقومية الرفيعة .

ومع سيادة هذه النزعة فى تفكير أبى شادى وأدبه ، تبدو فيهما كذلك مظاهر النزعة الإنسانية ، التى لونت حياته وأدبه وشعره بألوان مشرقة من الحب والإخاء الإنسانى ، وما أجمل ما يقول عن نفسه :

إن كان للوطن العزيز رعايتى   فلدولة الإنسان عهد ولائى

ولم يكن لأبى شادى هدف واحد بل أهداف ، ولم يحى فى الأغلال والقيود وإنما عاش حرا طليقا ، يؤمن بحرية الوطن والعروبة ، وبحرية الفكر والنقد والأدب والفن ، ويكافح من أجل التحرر العقلى والثقافى ، ويذيع آراءه فى مجلاته وكتبه العلمية والأدبية ، التى تبلغ الثلاثين ، وفى قصصه ومسرحياته الشعرية ودواوينه ، مما يبلغ الستة والثلاثين ، ودعوا ه للتجديد فى الأدب والشعر تراث خالد فى أدبنا الحديث .

وكان أبو شادى يرى الرجعية والجمود والتقليد ألد أعداء الحرية ، ومن ثم حاربها وأعلن الثورة عليها ، وكان يؤمن بالإنسانية فى الثقافة ، ومن ثم درس روائع الأدب العربى قديمه وحديثه ، وأدب المهجر وأعلامه ، وتناول أصول الأدب الإغريقى ومذاهب البلاغة عند الأوربيين ، واطلع على آثار العلوم والفكر فى كل لغة وثقافة وعاش يدعو فى الثقافة والسياسة والاجتماع إلى التحرر والثورة على خصوم التقدم مردداً قوله :

وإنى على ضعفى ـ لرائد بيئتى   جريئا أوافيها بحبى وإيثارى

ويدعو فى الأدب إلى الإخاء الإنسانى ، وإلى الإخلاص والديمقراطية والوحدة وخدمة الفكر والإيمان بالمثالية ، ويدعو فى الشعر إلى الأصالة والفطرة والموهبة وإلى الوحدة التعبيرية ، والتناول الفنى السليم للفكرة والمعانى والموضوع .

وقد عمل طول حياته على إنصاف الشعراء ، وخاصة المغمورين منهم ، وأنشأ مجلة أبولو ومدرستها الشعرية من أجل خدمة الشعراء ، وخدمة البحث الحر النزيه

ومؤلفنا فوق ذلك كله ـ شاعر بارز من الشعراء المعاصرين ، وهو رائد من رواد المدرسة الحديثة فى الشعر ، التى حملت لواء الشعر بعد شوقى وحافظ ،

وتابعت خطا المجددين فى الشعر العربى من أمثال : شكرى ومحرم ومطران ، وكانت تدعو إلى التجديد فى أوسع نطاق ، وإلى الأصالة فى أبعد حدودها ، وإلى تمثل روح الفن والموهبة فى إنتاج الشاعر .

ودواوين أبى شادى الثلاثة والعشرون ، وقصصه ومسرحياته الشعرية العشر ، درة متألمة فى جبين الشعر المعاصر ، ففيها روائع من القصيد لم تجد بها قريحة شاعر معاصر .

وقد توفى أبو شادى فى منزله فى ضاحية من ضواحى واشنطون فى الثانى عشر من إبريل عام ١٩٥٥ عن ثلاثة وستين عاما قضاها فى الكفاح والنضال ، وكان ميلاده فى القاهرة فى ٩ فبراير عام ١٨٩٢ م ، ووالده هو محمـــد بك أبو شادى الزعيم الوطنى المصرى المعروف ، ونقيب المحامين فى عصره ، والخطيب المشهور وزميل سعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد فى الجهاد لوطنه ، وتوفى عام ١٩٢٥ ووالدته من أسرة عريقة ، منها الشاعر مصطفى بك نجيب المتوفى عام ١٩٠٢ ، ومنها الممثل المشهور المرحوم سليمان بك نجيب وشقيقه حسنى نجيب ، وقـــد توفيت والدته عام ١٩١٧ ، وتلقى أبو شادى ثقافته الإبتدائية والثانوية فى مصر ، وبدأ يكتب فى الأدب منذ عام ١٩٠٥ فى مجلة الظاهر التى كان يصدرها والده وأصدر كتابه « قطرة من يراع » فى جزئين عام ١٩٠٨ ، وديوانه أنداء الفجر عام ١٩١٢ وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، وفى صدر الديوان تحية من حافظ للشاعر .

والتحق بكلية الطب ثم تركها لإكمال دراسته فى جامعة لندن سنة ١٩١٢ ، وعاد من لندن عام ١٩٢٢ ، وقد نال شهادة عالية فى الطب ، وشغل مناصب طبية رفيعة فى مصر ، ثم أصدر ديوانه الثانى « الشفق الباكى » عام ١٩٢٥

ومن عجب أن يهاجر الشاعر من مصر إلى انجلترا فى طلب العلم فى الرابع عشر من أبريل عام ١٩١٢ ، حيث قضى فى لندن عشر سنوات عاد بعدها إلى وطنه يخدمه ويضحى فى سبيله بكل شىء ، وأن يهاجر فى الرابع عشر من أبريل عام ١٩٤٦ حيث عاش هناك تسعة أعوام بعيدا عن وطنه وأهله ، وفى الرابع عشر من أبريل عام ١٩٥٥ أذيع نعى الشاعر فى مصر ، وطويت صفحة مشرقة بالكفاح والعبقرية والمجد ، وانتهت حياة رجل كانت فخرا لمصر والعروبة والعرب فى كل مكان

والقارئ العربي يعرف أن أبا شادي أخرج مجلة أبولو الأدبية الشعرية المشهورة عام ١٩٣٢ ، وكون مدرسة أدبية جديدة سماها مدرسة « أبولو » ، وكانت ولا زالت تدعو إلى التجديد في الشعر والأدب على أوسع نطاق ، ومن دواوينه المشهورة : مصريات ، ورنين وأنين ، وعودة الراعي ، وظلال وأشعة ، والينبوع .

وكانت هجرته من مصر عام ١٩٤٦ بعد وفاة زوجته الإنجليزية بقليل ، وكان حينئذ يشغل منصب وكيل كلية الطب بجامعة الاسكندرية ، وكان سببها شعوره بالاضطهاد بسبب آرائه الوطنية الحرة ، وكراهيته للفساد السياسي ، ومحاربته للحكم الملكي الديكتاتوري ، وللإقطاع الجشع المتنمر الذي يتنكر لحقوق الشعب ، ويمتص دماء الفلاح

— ٣ —

وصل أبو شادي هو وأولاده إلى نيويورك وأقام فيها ، ثم عمل مستشاراً للوفد السعودي والوفد الأرتيري في هيئة الأمم المتحدة . واختير عضواً في لجنة حقوق الانسان الدولية ، وأسس في نيويورك جماعة أدبية أسماها « رابطة منيرفا » ، وعمل في إذاعة « صوت أمريكا » وأذاع منها بحوثه ودراساته وآراءه ، وكان يدرس الأدب العربي في معهد آسيا في نيويورك وقد احتفت بالشاعر أكاديمية الشعراء وجمعية الشعراء ، وصدر ديوانه « من السماء » عام ١٩٤٩ ، ونظم في المهجر أربعة دواوين ما تزال مخطوطة ، وهي : الإنسان الجديد ، وإيزيس ، النيروز الحر أناشيد الحياة . . ونشر له في مصر كتاب : من نافذة التاريخ ، وكتاب عظمة الإسلام ، وكتاب الإسلام الحي ، ونشر له في بيروت رباعيات الخيام ، ولا تزال مؤلفاته وبحوثه وكثير من دواوينه مخطوطة لم تنشر بعد .

وقد تزوج أبو شادي عام ١٩٥٣ من سيدة أمريكية وانتقل إلى واشنطون في سبتمبر عام ١٩٥٤ بعد انتقال إذاعة « صوت أمريكا » التي كان يعمل بها إلى العاصمة الأمريكية ، وقضى في واشنطون سبعة أشهر لاقى بعدها ربه بعد أن عصره الكفاح ، وجاب الأرض من أقصاها إلى أقصاها ، وترك دوياً لا يزول صداه ، وخلف للوطن مجداً لا تمحى آثاره ، وبعد أن حمل على كتفيه أعباء الكفاح من أجل مستقبل الفكر والثقافة والأدب خمسين عاماً طوالاً :

وهذه التسعة الأعوام التى قضاها أبو شادى فى المهجر الأمريكى جعلته على صلة وثيقة بأدب المهجر وأعلامه، وجعلته عميق الفهم لخصائص الأدب المهجرى وسماته مما يبدو فى هذا الكتاب ..

— ٤ —

وقصة الأدب المهجرى منبع جديد من المنابع التى تمـدنا بالمعرفة لأدب المهجر، وفهمه حق الفهم :. ومؤلفه بحكم اتصاله الوثيق بالجو الذى عاش فيه المهجريون، وبأعلام الأدب المهجرى فى الشمال والجنوب، خير من يحكم على مذاهب المهجريين وآدابهم ومناهجهم فى الأدب والشعر على اختلاف ألوانهما .

ومنابع الأدب المهجرى لاتزال مجهولة فى الشرق العربى ، ومعظم من يكتبون عنه ينقصهم الكثير من الحقـائق التى يمكن على ضوئها الوصول بالبحث إلى غايته ، ولا تزال أكثر مصادر الآداب المهجرية بالإنجليزية والأسبانية والبرتغالية ومن هنا كانت الصعوبة فى الاهتداء إلى كثير من المعلومات الصحيحة عنها .

وكتاب أبو شادى عن الأدب المهجرى أغنى مصدر بالدراسة والنقد والتحليل للأدب المهجرى وسماته وأعلامه ، وأبو شادى لا يقف فيه عند حد العرض والتصوير ، كما فعل غيره ، وإنما يتعدى ذلك إلى التحليل والنقد والحكم ،وهذه ميزات فريدة لهذا الكتاب .

وفيـه يجد القارىء إلماما واسعا بالأدب المهجرى وخصائصه وروحه وسماته ، وبمدارسه وأعلامها ، وبكثير من الآثار الأدبية لأدباء المهجر وشعرائه ، فضلا عما فيه من تراجم لأعلام من أدباء المهجر ، ومن شرح لأدبهم ، وتفسير له ، وتحليل لميزاته ، ونقـد له ، وحكم عليه .

وفى الكتاب أيضا موازنات دقيقـة بين أدب المشرق ، وأدب المهجر ، وتفصيل لأسباب ازدهار الشعر هناك ، ويجمل أبو شادى من ذلك تأثر الشعراء المهجريين بالحضارة فى البلاد التى يعيشون فيها ، وينكر ذلك جورج صيدح فى كتابه جاعلا الأثر الأول والأخير فى الشعر المهجرى لنشأتهم العربية

الأولى فى مواطنهم فى الشرق، و تأثرهم بروح البلاغة الأدبية فى بلادهم ، ومن من الباحثين ، يستطيع أن ينكر أثر الحياة الجـــديدة ـ التى عاش المهجريون فى محيطها ـ فى أفكارهم ومعانيهم وأخيلتهم ومواضيعهم ، بل وفى صورهم البيانية وأسلوبهم التحررى ؟

— ٥ —

ويشمل الأدب المهجرى مدرستين كبيرتين لهما أثرهما الضخم فى حياة الأدب العربى الحديث ، هما : الرابطة القلمية التى قامت فى نيويورك منذ عام ١٩٢٠ ، والتى انضم اليها الدكتور أبو شادى بعد هجرته إلى أمريكا ، ومن أعلامها : جبران ، وميخائيل نعيمة ، ونسيب عريضة ، ونعيمة أيوب ، وعبد المسيح حداد ، ونعمة الحاج ، وأمين الريحانى ، وإيليا أبو ماضى ، ورشيد أيوب ، وندرة حداد .

أما المدرسة الثانية ، فهى : العصبة الأندلسية ، وقد أسسها الشاعر ميشال معلوف عام ١٩٣٢ ، ورئيسها الآن هو شفيق المعلوف الشاعر ، ومن أعلامها : رشيد سليم الخورى الشاعر القروى ، وإلياس فرحات ، وفوزى المعلوف ، وشكر الله الجر ، وإلياس ، وزكى قنصل ، وجورج صوايا ، ونعمة قازان ، وجورج صيدح وسواهم .

وهنالك مدرسة ثالثة لم تمكث غير مدة قليلة وهى رابطة منيرفا التى أسسها أحمد زكى أبو شادى عام ١٩٤٨ فى نيويورك وكان هو رئيسها ، ونائب الرئيس فيها هو الشاعر عبد المسيح حداد ، وكانت على غرار جمعية أبولو ، ويبدو أنها قد انتهت بوفاة الشاعر أبى شادى ، وليس لها كبير أثر فى الشعر المهجرى ، ونشأت الرابطة الأدبية فى الأرجنتين عام ١٩٥٠ ثم اختفت بعد قليل .

وقد نشأ الأدب المهجرى أول ما نشأ متأثراً إلى حد كبير بحركة التجديد التى تزعمها مطران ، وحركة البعث الأدبى الأمريكى المتجاوبة مع خير ما أثمرته قرائح الأدباء فى أوربا .

وتأثر الأدب المهجرى ـ كما يقول أبو شادى ـ بكل ما حوله ، وتناول

الحياة بكل ماتعنيه ، تناولها فى القصص ، وفى المقالة ، وفى النقد ، وفى الشعر ، والفن . والأدب المهجرى أدب إنسانى له شخصيته وأنصاره ، وفيه ألوان من الواقعية الحية المتحررة كما فى شعر أبى شادى وسواه ، ويتسم الأدب المهجرى على العموم بالتحرر فى الصيغة ، والتنوع فى الموضوع ، والانطلاق الفكرى ، والتجاوب مع الحياة والحضارة ، وهو أدب ثقافى ناضج تقدمى كامل التفاعل مع الحضارة الحديثة ، وهو كذلك متأثر بالحياة وجميع مقوماتها ، ومتفاعل معها غاية التفاعل بصورة إيجابية ، ويمثله أدب جبران ، ثم أدب ميخائيل نعيمة ، وعبد المسيح حداد .. ويمتاز الأدب المهجرى كذلك بالتركيز الشديد .

ومن الشعراء فى البلاد العربية طائفة كبيرة تأثرت بالشعر المهجرى ، وكان من هؤلاء : الشابى ، ومنهم كذلك : فدوى طوقان ، ونازك الملائكة .

والشعراء الشباب اليوم فى مصر ، والعالم العربى يقرأون الشعر المهجرى بشغف ولذة لا يعادلها شىء ، ويتأثرونه فى إنتاجهم الشعرى ، تأثراً كبيراً .

الشعر العربي في المهجر

فنون الشعر المهجري

نظم المهجريون الشعر في كل غرض ، وجالوا فيه في كل واد :

١ - نظموه في الحرية التي شعروا بحقيقتها في العالم الجديد . يقول الدكتور أحمد زكي أبو شادي وهو يستقبل العالم الجديد عند ما هاجر إليه من مصر عام ١٩٤٦ :

أمانا أيها الوطن السعيد ... لقد دفن الردى ومضى الوعيد
فأمسى مأتم لفراق أهلي ... ويومى الحر في نجواك عيد
عرفتك ملجأ الأحرار دوما ... إذا ما حورب الحر الشريد

٢ - ونظموه في الحنين إلى الوطن الذي فارقوه ، يقول رياض المعلوف :

هل يا ترى نعود ... إليك يا لبنان
فتصدق الوعود ... ويسمح الزمان
فبلدي المهجور ... وكوخي الأخضر
أحلى من القصور ... والذهب الأصفر
هل يا ترى نعود ... إليك يا لبنان

ويقول رشيد أيوب :

أعلل نفسي إن سئمت بعودة ... ولكنها الأيام تبا لهـا تبا

فلله هاتيك الربا وربوعها   فانى قد ضيعت فى تربها القلبا
ويا حبذا ذاك النسيم فإننى   لينعشنى ذاك النسيم الذى هبا

٣ ـ ونظموه فى الافتخار بالشرق والغرب ، يقول الياس فرحات :

موطنى منبت الرماح وقومى   موردوها الأضلاع والأصلابا
وهم الضاربون فى كل صقع   للمعالى والمعانى قبابا

٤ ـ ونظموه فى الابتهال إلى الله وفى تقديس أنبيائه ، يقول نسيب عريضة من قصيدته « صلاة » :

أيا من سناه اختفى   وراء حدود البشر
نسيتك يوم الصفا   فلا تنسنى فى الكدر
أيا غافراً راحما   يرى ذل أمسى وغدا
معاذك أن تنقما   وحلمك ملء الأبد
مراعيك خضر المنى   هى المشتهى سيدى
وجسمى دهاه العنا   حنانيك خذ بيدى

٥ ـ ونظموه فى الكفاح فى سبيل الحياة .. يقول نسيب عريضة :

يا أخى يا رفيق عزمى وضعفى   سر نكابد ، إن الشجاع المكابد
فاذا ما عييت تسند ضعفى   وأنا بعد ذا لضعفك ساند
سر تقدم لكى نخط طريقاً   لأباة الهوان عند الشدائد
فلنسر فى الظلام فى القفر فى الوحشة فى الويل فى طريق المجاهد

٦ ـ ونظموه فى وصف الطبيعة يقول إيليا أبو ماضى عند ما وقف بفلوريدا يصفها قائلا :

سئلت ماراق نفسى من محاسنها   فقلت للناس : باديها وخافيها
وما حببت من الأشجار ؟ قلت لهم   إنى افتتنت بكاسيها وعاريها
وما هويت من الأزهار ؟ قلت لهم   الحب عندى منميها وذاويها

قالوا : وما تتمنى ؟ قلت مبتدرا   يا ليتني طائر أو زهرة فيها

ويقول ميخائيل نعيمة يصف الغاب وأشجاره وأطياره :

أشجار الغاب تحيينا   وطيور الغاب تناجينا
وزهور الغاب تصافحنا   ونصافحها وتهنينا

٧ - الحيرة والتساؤل والتأمل ، وهو فن ضخم من فنون الشعر المهجرى يقول إيليا أبو ماضي من قصيدته « الطلاسم » يتساءل عن نشأة الحياة وسر الوجود ولغز الموت ومعجزة الفناء :

جئت لا أعلم من أين ، ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت

كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقي – لست أدرى

ويقول الأستاذ رشيد أيوب :

وجئت إلى البحر عند المسا   وللموج عندى غرام شديد
فقلت بربك : ماذا عسى   تقول فقسر معانى النشيد
فقال : أأنت عديم البصر   فإنى أحيى مرور الزمان

ويقول أبو ماضي أيضا :

يريد الحب أن نضحك فلنضحك مع الفجر
وأن نركض فلنركض مع الجدول والنهر
وأن نهتف فلنهتف مع البلبل والقمرى
فمن يعلم بعد اليوم ما يحدث أو يجرى

٨ - ونظموه كذلك فى البكاء والألم ، يقول أبو شادى .

بكى الربيع طروبا فى مباهجه   وقد بكيت أنا حبى وأوطانى

أنا الغريب وروحي شاركت بدني ... هذا العذاب بأشواق وأحزاني
فيم العزاء ، ولا قلب ألوذ به ... ولا حنان يناجيني كتحناني ؟
لي في ثرى « مصر » دمع نائح ودم ... أذيب من مهجتي الأهني ونيراني
تركته مثل غرس الحب ماذبلت ... أزهاره أو أغانت روح لهفان
أشمها في اغترابي حين تلذعني ... ذكرى الشباب وذكرى عمري الفاني

ويقول إلياس فرحات :

يا عيد عدت وأدمعي منهلة ... والقلب بين صوارم ورماح
والصدر فارقه الرجاء فقد غدا ... وكأنه بيت بلا مصباح
يمشي الأسى في داخلي متغلغلا ... بين العروق كبضع الجراح

٩ ـ والقصة في شعر الشعراء المهجريين فن من أهم فنون شعرهم ، القصة التي تتناول كل أحداث الحياة ، القصة الشعرية التي تصور كل مارق وجل من أمور الوجود .. والقصة الشعرية التي نظم فيها من شعراء المشرق : مطران والرصافي وحافظ إبراهيم وشوقي وإلياس أبو شبكة وخليل شيبوب وبشارة الخوري .. نظمها شعراء المهجر وصوروا فيها حيرتهم وتساؤلهم ، وآلامهم وآمالهم وبكاءهم وفرحهم . نظمها إلياس فرحات ورشيد أيوب وأبو شادي وإيليا أبو ماضي ، والشاعر القروي رشيد الخوري وفوزي المعلوف وشفيق المعلوف ، وقصيدة إيليا أبو ماضي « الشاعر والسلطان الجائر » مشهورة ، ويقول أبو ماضي في قصيدته « الشاعر في السماء » :

رآني الله ذات يوم ... في الأرض أبكي من الشقاء
فرق والله ذو حنان ... على ذوي الضر والعناء
وقال : ليس التراب داراً ... للشعر ، فارجع إلى السماء
وشاد فوق السماك بيتي ... ومد ملكي على الفضاء
فالتفت الشهب حول عرشي ... وسار في طاعتي الضياء
وسرت لاينطوي صباح ... إلا بأمري ولا مساء
لكنني لم أزل حزينا ... مكتئب الروح في العلاء
فاستغرب الله كيف أشقى ... في عالم الوحي والسناء
وقال : ما زال آدميا ... يصبو إلى الغيد والطلاء

إلى آخر هذه القصيدة الشعرية الطويلة .

الشعر فى رأى المهجريين

المهجريون يؤمنون بالتجديد فى الشعر ، ويرون الشعر صوراً شعرية حية متحركة نابضة بالحياة ، وموسيقى متوثبة رقاقة تحرك كل شىء فى عقل الإنسان وفكره ، ومعانى جميلة بديعة لا يطغى عليها الأسلوب ، يقول أبو ماضى فى مطلع ديوانه « الجداول » :

لست منى إن حسبت الشعر ألفاظا ووزنا
خالفت دربك دربى ، وانقضى ما كان منا
فانطلق عنى لئـــلا تقتنى هما وحزنا
واتخذ غيرى رفيقا وسوى دنياى مغنى

ويمثل رأى المهجريين فى التجديد فى الشعراء قول شعراء الرابطة القلمية : « إن هذه الروح الجديدة التى ترمى إلى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد إلى دور الابتكار ، فى جميل الأساليب والمعانى ، لحرية فى نظرنا بكل تنشيط ومؤازرة ، فهى أمل اليوم ، وركن الغد » :

وعناية المهجريين بالصياغة والأسلوب واضحة فى شعرهم تمام الوضوح ، وحرصهم على اللغة باد ظاهر .

ولقد افتن شعراء المهجر فى الأوزان الشعرية ، فمال أكثرهم إلى الموشحات ، واختاروا قصار البحور ذوات الموسيقى الجميلة والنغمات الحلوة ، وخاصة البحور المجزوءة .. يقول رياض المعلوف من قصيدته (ليلة الأحد) :

يا مرهقاً كبدى خفف ولا تزد
أتظل مبتعداً عنى وعن بلدى
يا حسن موعدنا فى ليلة الأحد
من بعد فرقتنا شهراً بالعدد
ولنا المنى ضحكت بسعودها الجدد
شفتاك طوع فمى ويداك طوع يدى

وقد نظم بعض المهجريين من الشعر الحر ، وزعيمهم فى ذلك هو ان جبران .. رادى نظمهم منهم إلى محاولتهم التفلت من القيود الشعرية ، وساق بعضهم ذلك فى تيار من التسمح اللغوى وعدم المبالاة وارتكاب الضرورات التى لا يلجأ إليها الشعراء المحافظون إلا كارهين .. وقد نظم أبو ماضى قصيدته « الشاعر والسلطان الجائر » من عدة بحور وسمى المجددون هذا « مجمع البحور » .

وقد سادت النزعة الرمزية فى شعر المهجر ، وتجلت هذه النزعة فى شعر كثير من الشعراء المهجريين وعند جبران بصفة خاصة .

رأى أدباء المشرق فى الشعر المهجرى

— ١ —

اخذ الدكتور طه على إيليا أبى ماضى لغته التى تقارب الرداءة أحيانا حتى توشك أن توغل فيها إيغالا ، وإيليا زعيم من زعماء شعراء المهجر ، فما بالك بغيره من الشعراء .

— ٢ —

ويقول عزيز أباظة فى تصديره الذى قدم به كتاب الشاعر الأستاذ محمد عبد الغنى حسن وهو « الشعر العربى فى المهجر » :

« ثار جبران وطائفة معه على موسيقى الشعر ، ووجهوا طاقتهم الفنية إلى الابتداع فى النثر(١) .. والذى يؤخذ على شعراء المهجر أنهم لم يتعاطوا الفن التمثيلى فى الشعر ، ولم يزاولوا مهنته ، ولشعراء المهجر صناعة بيانية ربما ازورت قليلا عن الذوق العربى السليم . . على أن شعراء المهجر لم يفتحوا آفاقا جديدة فى الفن . والأدب المهجرى لم يتبلور بعد ، ولم يتخذ له صورة واضحة المعالم بحيث يفرد له أثر بعيد المدى فى تطور الأدب العربى المعاصر » :

---

(١) وهو ما يسمى نثرا شعريا ، أو شعرا منثورا ، ويسميه المجددون : الشعر الحر ؛

— ٣ —

ويأخذ صلاح لبكى الأديب اللبنانى على شعراء المهجر ـ كما ذكره فى كتابه « لبنان الشاعر » ـ العيوب الآتية :

١ ـ جمال المرأة ظل غائبا عن الشعراء المهجريين باستثناء جبران .

٢ ـ عنوا بالصورة الشعرية ، أى باللفظة التى تجسد صورة ملموسة ، وأهملوا طاقة اللفظة الإيحائية التى قام عليها مجد المدرسة الرمزية .

٣ ـ الشاعر المهجرى يهمس ، ويفسر ، ويوضح ، ولكنه لا يومىء ولا يوحى .

٤ ـ والشاعر المهجرى يضحى بالمبنى من أجل سلامة المعنى وينحط أحيانا إلى مستوى النثر الردىء .

٥ ـ الضعف اللغوى الملحوظ عند الشاعر المهجرى . ويؤيد هذا ميخائيل نعيمة .

أعـــلام شعراء المهجر

١ ـ الدكتور أحمد زكى أبو شادى :

ولد فى القاهرة عام ١٨٩٢ ، وتعلم الطب فى انجلترا ، وعاد منها عام ١٩٢٢ .. تلقى ثقافته الأدبية عن أعلام الأدب فى عصره ، وأخذ الشعر عن مطران ، وتأثر بالمدرسة الإنجليزية فى الشعر والنقد ، وأخرج دواوين كثيرة منها : الشفق الباكى ، وأطياف الربيع ، والينبوع .. وكون مدرسة شعرية جديدة سماها « مدرسة أبولو » ، وأخرج مجلة أبولو للشعر ونقده ، وأثر فى الشعراء المعاصرين تأثيرا كبيراً .

هاجر إلى أمريكا عام ١٩٤٦ ، وتوفى فى واشنطون فى ١٢ أبريل عام ١٩٥٥ .. وله أثر كبير فى حركات التجديد فى الأدب والنقد والشعر المعاصر(١) ، ومن شعره قصيدته « أين الربيع ؟ » التى يقول فيها :

« أين الربيع ؟ » سألت عنه فلم أجد ... من رد غير تدفق الأمطار
ولى ولم يحضر ، فغاب كأنه ... قد عاش فى الأوهام والأفكار
قالوا : هى الذرات حين تفجرت ... نثرت نظام الجو أى نثار
فغدا الربيع هو الخريف ، كأنما ... قد جن من مطر ومن إعصار
ومن الرعود تكلمت كمدافع ... ذرية ، وتراشقت بالنار
فتحجبت أطياره ، وتبرقعت ... أزهاره ، وبكى الغدير الجارى
وبكيته فى نفسى كأنى فاقد ... أهلى وكل مجالس السمار
وإذا أناخ بنا السكون حسبته ... ضوضاء من قلق ومن إنذار
أين السماحة والهدوء تآلفا ... والأمن فاحتكمت على الإبصار ؟
أين الجمال برقصه وبلهوه ... فى النور أبدع فاتن الأنوار ؟
أين الأزاهير التى كم سابقت ... شغفى فما احتجبت عن الأنظار ؟
أين المروج الحاليات عرائسا ... كعرائس الأحلام فى (آذار) ؟

---

(١) راجع كتاب رائد الشعر الحديث « جزآن » تأليف محمد خفاجى .

أين العصافير التى لم تكتمل ... أعشاشها بالحب والاسرار ؟
ضاعت جميعا كالطيوف إذا هوت ... واللحن فوق مقطع الأوتار
احلم بها يا قلب ، أو لا فانسها ... لجميع ما وهب الربيع عوارى

ويقول من قصيدة له :

ذهب الملوك بعصرهم وتمخضت ... نوب الحوادث عن أذى الملكية
حق الشعوب أجل من إرضائه ... لمشيئـــة فردية علوية
الشعب أعلى من إرادة حاكم ... ولو أنه فى بزة نبوية
لم تترك الأحداث عندى مأملا ... بمملك ما دام رب رعية
حسبي حوادث نصف قرن كامل ... لتزيدنى كرها لها(١) كبلية
وكفى وثوب الخلق نحو خلاصهم ... جيلا لجيلا من رؤى الرجعية
فملام نخذل عصرنا فيفوتنا ... فى شبه أحلام لنا أبدية ؟
بعض الركود هو النكوص بعينه ... ومن الجمود غذاء كل دنية !

٢ - إيليا أبو ماضى :

ولد فى لبنان عام ١٨٩١ ، وهاجر إلى الاسكندرية عام ١٩٠٢ ، وأخرج فيها ديوانه « ديوان (أبو ماضى) » قبل أن يبلغ العشرين . . وفى عام ١٩١٦ هاجر إلى نيويورك ، وتعرف إلى جبران ، وأصدر فيها الجزء الثانى من ديوانه ، وقد قدم له جبران . . وصار من شعراء « الرابطة القلمية » . . . وفى عام ١٩٢٧ أصدر ديوانه « الجداول » ، وفى عام ١٩٢٩ أنشأ مجلته « السمير » ، وفى عام ١٩٤٦ أصدر ديوانه « الخمائل » .

ومات أبو ماضى فى نيويورك فى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٥٧ . . وقد بلغ أبو ماضى غاية نضوجه الشعرى فى « الجداول » ، ولا سيما فى قصيدته « فلسفة الحياة » . . والنزعة الإنسانية سائدة فى شعره ، وتتردد فيه النزعة الواقعية أحيانا والنزعة التأملية ، وهو من شعراء الطبيعة ، وله العديد من المطولات الشعرية التى من بينها : الحكاية الأزلية ، والطلاسم . . وقصيدته

---

(١) أى للملكية .

(الطين) تعد من أشهر قصائد أبي ماضي . ويقول فى مطلعها :

نسى الطين ساعة أنه طين ... حقير فصـــال تيها وعربد

ويقول أبو ماضى من قصيدته « اليتيم » :

خبرونى ماذا رأيتم أطفالا ... يتامى أم موكبا علويا؟
كزهور الربيع عرفا زكيا ... ونجوم الربيع نورا سنيا
إننى كلما تأملت طفلا ... خلت أنى أرى ملاكا سويا
قل لمن يبصر الضباب كثيفا ... إن تحت الضباب تجرا نقيا
اليتيم الذى يـــلوح زريا ... ليس شيئا لو تعلمون زريا
ربما كان أودع الله فيــه ... فيلسوفا أو شاعرا أو نبيا(١)

٣ - نسيب عريضة ١٨٨٧ - ١٩٤٦ :

من أبناء سوريا ، هاجر إلى أمريكا عام ١٩٠٥ ، وأصدر فى نيويورك مجلة الفنون . طفح أدبه وشعره بالشكوى من تعاسته وشقائه فى الحياة ، إلى شقائه بالهجرة . . وديوانه « أغانى الدرويش » مشهور ، وقد أصدره عام ١٩٢٨ ، وأصدر قبله ديوان « الأيوبيات » عام ١٩١٧ ، وأصدر عام ١٩٣٩ ديوانه « هى الدنيا » وآخر دواوينه هو : « الأرواح الحائرة » .

ومن شعره قوله عن نفسه :

وقفنا عند مرآه ... حيارى ما عرفناه
عجيب فى معانيه ... غريب فى مزاياه
له سربال جواب ... غبار الدهر غشاه
ووجه لوحته الشمس ... غارت فيه عيناه
سألنا الناس : من هذا ؟ ... فقالوا : يعـــلم الله

---

(١) راجع : من تاريخنا المعاصر تأليف محمد عبد المنعم خفاجى

٤ ـ جبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١) :

هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٨٩٥ ، كان باكورة إنتاجه الأدبي كتابه « الموسيقى » الذي أصدره عام ١٩٠٥ ، ثم أخرج كتبه : عرائس المروج ، الأرواح المتمردة ، والأجنحة المتكسرة ، وأصدر ديوانه الشعري الوحيد « المواكب » ، وظهر له عام ١٩٢٠ كتاب : العواصف ، وكان آخر كتاب ألفه بالعربية . . وأذيع كتب جبران هو كتابه « النبي » .

ولجبران فضل تأسيس « الرابطة القلمية » عام ١٩٢٠ بنيويورك . . ويعد من الفلاسفة المفكرين ، ومن الشعراء الملهمين .

ومن شعره قوله :

هو ذا الفجر فقومي ننصرف عن ديار ما لنا فيها صديق
ما عسى يرجو نبات يختلف زهره عن كل ورد وشقيق
قد كفانا من مساء يدعي أن نور الصبح من آياته

٥ ـ ميخائيل نعيمة :

ولد في لبنان ، وهاجر عام ١٩٠٢ إلى فلسطين ، ثم سافر إلى روسيا ، فأمريكا عام ١٩١١ ، وانضم إلى الرابطة القلمية ، ومن أشهر كتبه : الغربال وكتابه عن جبران خليل جبران ، ودروب ، وزاد المعاد . . وهو الآن يعيش في لبنان.

ومن شعره قوله :

هل من الأمواج جئت
هل من البرق انفصلت
أم مع الرعد انحدرت
هل من الفجر انبثقت
أم من الشمس هبطت
هل من الألحان أنت
أنت فيض من إله

٦ ـ الشاعر القروى :

ولد فى سوريا عام ١٨٨٧ م . . وهاجر إلى البرازيل عام ١٩١٣ ، وأصدر عام ١٩٣٦ ديوانه « الأعاصير » . . وفى عام ١٩٤٧ طبع كراسا يحتوى على ثلاث قصائد « اللاميات الثلاث » ، وفى عام ١٩٥٣ طبع ديوانه الضخم « ديوان الشاعر القروى » .

وعاد منذ عام إلى سوريا ، حيث أقام فيها بعد غربته الطويلة . . وأهدته حكومة الجمهورية العربية المتحدة أرفع أوسمتها ، وقررت طبع ديوانه .

ومن شعره قوله :

مررت بأترابى العابسين ... فلم ألق إلا العبوس الوقورا
فلت إلى الحقل حيث الصغار ... تناغى الطيورا وتجنى الزهورا
فهل صار كل رفاق كهولا ... وهل أنا وحدى ظللت صغيرا
فأسمعنى الطير عند الصباح ... جواب الطبيعة لى تنشد
بنى ولدتك طفلا جديدا ... فقل للرفاق الألى تمهد
لقد ملأ الأرض أولادكم ... وأنتم إلى الآن لم تولدوا

٧ ـ إلياس فرحات :

ولد عام ١٨٩٣ فى لبنان ، وهاجر عام ١٩١٠ إلى البرازيل ، وظهر ديوانه عام ١٩٣٢ فى مدينة سان باولو بالبرازيل . . ثم طبع شعره كله فى أربعة دواوين هى : الربيع ـ الصيف ـ الخريف ـ رباعيات فرحات . . وأشهر قصائده « خصلة الشعر » التى يقول فيها :

خصلة الشعر التى أعطيتنيها ... عندما البين دعانى بالنفير
لم أزل أتلو سطور الحب فيها ... وسأتلوها إلى اليوم الأخير

ومن شعره :

فر عصفور شبابى من يديا ... تاركا فى مهجتى جرحا زكيا

طالما أوحى نغنيت على مسمع الليل نشيدا عبقريا
كان إن أطلقته فى جنـــــة يلثم الزهر ويرتد إليـــــا

ومن شعراء المهجر كذلك : شفيق المعلوف ، وفوزى المعلوف ، ورياض المعلوف ، ونعمة الله الحاج ، وشكر الله الجر ، وجورج صيدح ، وزكى قنصل ، وسواهم .

ومن أدباء المهجر المشهورين :

أمين الريحانى (١٨٧٦ - ١٩٤٠) ، وله مؤلفات عدة فى التاريخ والأدب ، ومن كتبه : الريحانيات ، ملوك العرب ، الشعر المنثور ، تاريخ الثورة الفرنسية .

الشعر المهجرى وخصائصه

ميزة الشعر المهجرى فى تحرره التحرر الذى يشمل الموضوع والصياغة والروح

فأما الموضوع فجد منوع لأن الشعر العربى فى العالم الجديد ، كان ولا يزال مشكاة وضاءة هادية لنقاد العرب ، وشعرائهم المغتربين . فألهم الأولين مقاييس جديدة فى النقد رألهم الآخرين الابتعاد عن التضييق والحصر ، مادامت موضوعات الحياة - وهى لب الأدب ومنه الشعر - لا حصر لها ، ولو أن مبلغ تجاوب النقاد والشعراء مع الأدب العربى فى المهجر متفاوت ، كما هو الحال فى الاقطار المختلفة .

وأما الصياغة فهى كذلك منوعة ، وربما كان حظها من التنوع أكثر من حظ الموضوع .

وأما الروح فهى غالبا تقدمية .

ونعود إلى النظر فى هذه الأسس الثلاثة للشعر المهجّرى : فنجد عند البحث أن تنوع الموضوع قلما يخص شاعراً بالذات . . فنظم جبران فى جملته محصور فى الرمزيات التصوفية التى تفادت مجابهة مشكلات الحياة ، وقد يمثل أحيانا رأيا فلسفيا شائعا .

فاذا انتقلنا إلى الصياغة الشعرية فاننا نجد تحررا فى التعابير ؛ حتى ولو كان الأسلوب كلاسيكيا أو أندلسيا أو بين بين ، وهو فى الوقت ذاته متين اللغة ونرى شعراء المهجر جريئين فى استعاراتهم ، حسنى التصرف فى أدواتهم البيانية من استعارة وتشبيه ومجاز الخ ، يعرفون قدر لغتهم ويحبونها ، ويرون من البر بها أن لا يقفوا معها جامدين ، والشواهد على ذلك عديدة ، لا فى الدواوين المطبوعة فحسب ، بل فى سواها من نشرات ومطبوعات ، وفى حلقات الأدب ، وفى الصحف المهجرية ، حتى لادباء مجهولين .. ونذكر على سبيل المثال للشعر المهجرى المتحرر قصيدة « أنا ابن عقيدتى » وهى من نظم أبى شادى من الشعر المرسل الحر ، أى أنها تجمع بين الضربين فى صياغتها :

أنا ابن عقيدتي وسليل فكري ولست بنبت أرض أو سماء(١)

وأما عن التحرر في الروح فأظهر ما يكون في الولايات المتحدة الأمريكية، لأن الحرية فيها شاملة بأوفى معانيها، ولكل إنسان أن يعبر عن خوالجه كما يشاء، وعلى هذا النحو أبدع المهجريون في تصوير خوالجهم دون أي تحفظ وكانوا ألسنة للحرية وللكرامة الإنسانية، ومن مثل ذلك قصيدة «أنا إن مت» للشاعر المهجري الإنساني ندرة حداد، فهي دفاع حار عن النزاهة والحرية وكرامة الإنسان، أي عن طابع الحياة الأمريكية الذي أعجب به ندرة حداد.

فالتحرر في الشعر المهجري يفوق في جملته التحرر في الشعر العربي في أقطار كثيرة، ومن ثمة كان جديرا بالدرس، ليستفاد من قيمه الفكرية والروحية والبلاغية، ومن نزعته الإنسانية الحسنة التوجيه، والتي لا ريب أنها تسهم في صقل النفوس وفي تحرير الأذهان من قيود التقاليد البالية والدعايات الفاسدة.

وإذا تأملت مثلا في ديوان الأيوبيات الصادر سنة ١٩١٦ وجدت رشيد أيوب على الرغم من رومانسيته الجديدة، ومن الثقافة الفرنسية التي تغلغلت فيه حينئذ، يعشق الواقعية ويبرزها في أجمل صورة وصفية، استمع مثلا إلى هذه الأبيات من قصيدته الجامعة «نيويورك»: (٢)

بنوها بروجاً خافقات بنودها على قمم باتت تعز على النسر
تضيء بها الأنوار ليلا، كأنها تلوح لنا بين الكواكب والزهر
إذا لمحتها الشمس تبدو لناظر عرائس تجلى في ثياب من التبر
وإن ضحك البرق الهتون مداعباً ذراها انثنى بين المخافة والذعر
تمر الرياح الهوج غضبى عواصفاً على كل برج شامخ باسم الثغر

(١) راجعها في الجزء الثاني من رائد الشعر الحديث للمؤلف.
(٢) ديوان «الأيوبيات» ص ٩.

كأن يد الأيام عنه قصيرة ... وطرف الليالى تاه فى المهمه القفر
كأنى بالصبواى (١) يوم تجمهرت ... بها الناس خلت الناس فى موقف الحشر
تروح بها الكارات (٢) ملأى خلائقا ... وترجع فيها مثقلات إلى الجسر
وما ضرها والكهرباء تجرها ... وكم مثلها من فوقها قد غدت تجرى
عجبت لأرض كيف غصت بشعبها ... وما برحت تلق التهافت بالبشر !
فيحسد من فى الظهر من سار بطنها ... ويحسد من فى البطن من سار فى الظهر
ونهر تمر القاطرات بجوفه ... يبيت خلى البال منشرح الصدر
حكى القبة الزرقاء تسرى بواخر ... عليه بأنوار كأفلاكها تسرى
إذا لعلع الرعد الهتون بجوها ... غضوبا أجابته البواخر فى النهر (٣)
تخاف اصطداما فى دجاه ، كأنها ... تقول له : يارعد ، لا تعتمد ضرى !

فى هذا الشعر نجد حرية التركيب وحرية استعمال الألفاظ فى معان جديدة وهذا ما كان يصنعه جبران خليل جبران ذاته على الرغم من ولوعه بالشعر الجاهلى وحفظه الكثير منه ، لحب الابتكار والتحرر العقلى والبيانى من الصفات التى يتسم بها الأدب الأمريكى المعاصر وكذلك الأدب العربى المهجرى ، وشعراء المهجر هم شعراء مبتدعون ، ومن صفوة شعراء المعانى ، فاذا ما شغل بعضهم باللعب بالألفاظ وبالرنين صار غريبا عنهم وصار شعره عجيبا بين شعرهم ، أنه وشى براق ، منمنم ، كبير الحجم ، ولكنه قليل المادة . وهذا الضرب من الشعر يفرح به فى المهجر ذوو التعليم السطحى أو عامة الجوالى العربية ، ويفرح به فى الشرق طلبة المدارس .

ولم يقطع الشعر المهجرى صلته بالشرق أو بالعروبة أو بالإسلام ، لجميعها مؤثرة عليه من النواحى العاطفية غالبا ، وهذه تشمل الوطن والسياسة والدين ، وتتجلى فى الموضوعات المعالجة وامل رومانسية الشعر المهجرى مستوحاة فى بدايتها من الشرق ، من خليل مطران ، وكذلك الأساليب الكلاسيكية المجددة اتباعا لمدرسة البارودى ، ثم سرعان ما استقل شعراء الطليعة المهجريون بكل شىء تحت تأثير البيئة الأمريكية . وظهر مثل لذلك إيليا أبو ماضى

---

(١) الصبواى : نفق للقطارات الكهربائية الجوفية .
(٢) الكارات : جمع الكار ، أى المركبات .
(٣) يريد نهر الهدسن غربى نيويورك حيث وقف الشاعر ينظم قصيدته .

فشعره الأول فى مصر وشعره المهجرى الأول غير شعره المهجرى الأخير بعد أن طال استيعابه لتيارات الفكر الامريكى التى تلائم ذوقه وتعاليمه ، ومع ذلك لا يزال يؤثر الموسيقى على عمق المعانى ، خلافاً لنسيب عريضة وميخائيل نعيمة مثلا ، استمع إلى هذه الأبيات من قصيدته التى نظمها على لسان (لبنان) يخاطب بها المهاجرين (١) :

يا شاعرى ! قل للألى هجرونى　　أنا ما نسيتكمو فلا تنسونى !
ما بالكم طولتمو حبل النوى　　ياليت هذا الحبل غير متين
هل أنبتت (كالأرز) غيرى بقعة　　فى مجده وجلاله الميمون
أورأيتمو فى ما رأيتم فتنة　　كالبدر حين يطل من (صنين) ؟
أو كالغزالة وهى تنفض تبرها　　عند المغيب على ذرى (حرمون) ؟
أنتم ديون لى على (آميركا)　　ومن المروءة أن ترد ديونى
(لبنان) فيكم ماثل إن كنتمو　　فى (مصر) أوفى (الهند) أوفى (الصين)

من حيث نجد نسيب عريضة لا يرضى إلا التعمق ، فينشد بلسان (سورية) هذه الأمروجة بموسيقاه الخاصة :

يا شاعر الأوطار　　خل الهيام !
قم حطم القيثار　　وانض الحسام !
واصنع من الأوتار
قوسا لأخذ الثار
واخلع قميص العار
والبس ردا الجبار !
ثاراتنا شتى عند الزمان
لا تمحى حتى تأبى الهوان
فما نزل عن الأقمار
لا ترقب الأقدار
أشعل لدينا النار
واضرم بها الأفكار !

---

(١) ديوان الأرواح الحائرة ؛ ص ٨١ .

وتجد الشاعر نعمة الحاج تدفعه وطنيته إلى أن يقول فى قصيدته « بلادى » (١)

أنبكى ؟ وما يجدى البكاء ، وإنه   اشر سلاح يحمل المرء مرغما
سلاح ضعيف العزم ليس بنافع   ليدفع غرما أو ليجلب مغنما
فلا قول إلا للحسام مجرداً   ولا حق إلا للسنان مقوما
ويا حبذا يوم الجهاد ، فانه   ليطربنى فيه الرصاص مدمدما
أأبناء (سوريا) وهذا أوانكم   لكى تظهروا للناس فى مظهر سما
أخاطبكم فى ذا المصاب ، وإننى   لأكبر فيكم أن أخاطب نوما
كفانا اختلافا فى النوى ونكاية   ألم تكفنا الأرزاء أن نتعلما ؟

فهذه القصيدة هى من القصائد الواقعية الكلاسيكية الأسلوب العصرية الروح ويتمثل فى الشعر المهجرى الاطلاع والتفكير والشعور والأداء والنقد، فأما الاطلاع فقد بلغ شأواً كبيراً عند أمثال جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحانى ونسيب عريضة ، ولذلك تجد تعمقا فى إنتاجهم نظما كان أم نثراً، رغما من اختلاف مناحيهم ، ولكنهم إجمالا أحفل من سواهم بالحياة ورسالتها ، وكان كلا منهم يبشر بها . وهذا التعلق بالمثالية نادر بين المشارقة العرب ، فما أقل أمثال حافظ إبراهيم وجميل صدقى الزهاوى وأبى القاسم الشابى وأحمد محرم . وقد نجد بين شعراء المهجر الذين لا يعنون بالاطلاع ، أى المحدودى الثقافة والمعروفين بالسطحية فى الآراء ، وكل بضاعتهم الخيال والرنين وما إليهما ما يرضى الجمهور المحدود الثقافة وأصحاب الأقلام الهزيلة من النقاد المتطفلين . وأما التفكير فمجاله فى الأدب المهجرى فسيح بفضل الحرية الشاملة . وهو تفكير حضارى تمتد جذوره إلى صميم المدنية الأمريكية وتمتد فروعه إلى جميع نواحى الحياة ، وتشمل الشعر كما تشمل القصة والمسرحية والمقالة والخطبة والبحث الاجتماعى وغيرها . وقد يتلون هذا التفكير بالنزعة الدينية التصوفية كما نقرأ فى قصيدة « سر معى » لندرة حداد (٢) :

---

(١) ديوان نعمة الحاج ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
(٢) ديوان أوراق الخريف . ص ١٧ .

يا أخى الساعى لنيل المجد خفف عنك جمحك
أنت لا ترضى سوى نفسك إن أحرزت فتحك
سر معى فى الأرض تنس المال والجاه وطمحك
أنا راض بالعصا ، يا أيها الحامل رمحك
وسأرضى خبزك الأسود فى الحب وملحك
وسأنسى جرح قلبى كلما شاهدت جرحك
وأرى ليلك ليلى ، وأرى صبحى صبحك
وإذا أخطأت نحوى فأنا الطالب صفحك !

ويلاحظ أن تفكير الشاعر المهاجر بل الأديب المهاجر عامة تفكير مزدوج - فشطر منه يخص مهجره ، والشطر الآخر يخص وطنه الأصلى ، وهو يوحد بينهما . فن جهة نراه يستوعب مسائل محيطه الراقى ويتفاعل معها تفاعلا واقعيا وعاطفيا معا ، غانما بذلك أى غنم ، ومغنيا أدبنا المعاصر الذى يتلقى تفكيره ، ومن جهة أخرى نراه على البعد لا يكتفى بحنينه الجياش إلى وطنه الأصلى بل يسهم فى معالجة مشاكل ذلك الوطن ، وقد يكون على البعد المكافح الرائد وحامل علم الثورة . استمع إلى هذه الأبيات من قصيدة «حكاية مهاجر سورى» (١) لنسيب عريضة :

غريبا من بلاد الشرق جئت   بعيدا عن حمى الأحباب عشت
تخذت (أمريكا) وطنا عزيزاً   فكانت لى كأحسن ما اتخذت
أتاها الغنى غيرى ، وإنى   كما جاؤوا مع الإقدام جئت
ولكنى طلبت بها حياة   مع الحرية المثلى فنلت !

وتجدون أن قصائد شعراء المهجر الأمريكى فى الحنين إلى أوطانهم الأولى ، أو فى التحرق لما أصابها من ضيم ، أو فى الدعوة للكفاح من أجلها . تستحق الدراسة الواسعة . وإلى جانب هذا نجد شعراء المهجر الأمريكى عامة . وعلى رأسهم رشيد سليم خورى (الشاعر القروى) - أحفل بقضايا العروبة والذود عنها لأنها تبدو فى جلاء لهم فى وسطهم الحر الذى يساعدهم بتجاريبه على الحكم الراجح فضلا عن مساعدة ثقافتهم إياهم . فاعتزاز شعراء المهجر بالعروبة اعتزاز كبير عميق والمثل الأعلى لذلك هو الشاعر القروى .

(١) ديوان الأرواح الحائرة لنسيب عريضة ، ص ٢٦٧

وأما عن الشعور المتجلى فى الشعر المهجرى فهو أولا شعور الإنسان الحر ، ثم شعور الغيور المصلح ، ثم شعور الإنسان المتمدن الذى عب من أرقى الحضارات ، ثم شعور العربى الرائد ، على الرغم من بعده . وربما بفضل بعده عن بلاد العروبة ، ثم شعور الشاعر المثقف الذى أخذ من جميع عناصر الشعر المتعددة حوله بنصيب . وأما عن الأداء فهو أداء حر عادة ، أى أنه بعيد عن التصنع . حتى ولو اتخذ الأسلوب الكلاسيكى أو الاتباعى كما كان يصنع معظم شعراء (الرابطة القلمية) ، وفى العهد الأخير تجلى الشعر المرسل والشعر الحر وأمثالهما من ضروب النظم الطليق فى القصص والمسرحيات المهجرية فى أمريكا الشمالية ، وأما النقد فهو غالبا نقد فنى معنوى ، أى أنه أبعد ما يكون عن نقد اللفظ . ويعد ميخائيل نعيمة فى كتابه (الغربال) بين أدباء الطليعة الماهدين النقد الأدبى المستقيم القويم فى العالم الجديد . ويقول الشاعر القروى فى مناسبة عيد الأضحى منذ سنين منوها ببطل موقعة ميسلون :

إن (بالعظمة) أعلى مثل   الفدى تنشده النفس الأبية
ودع (الغوطة) يبغى جنة   غيرها تحت ظلال المشرفية
والتقى النار طروبا للردى   طرب اللاثق على العدم لقية
نكس الجانى عليه سيفه   مكبرا .. فى مصرع الحر الرزية
يا معيدا مجدنا الضائع ثم   مستريحا فى ظلال الأبدية
رحمة الله على كل فتى   عربى راح للعرب ضحية
وليعد فينا وفى أعقابنا   عيد إيمان بدين الوطنية

قيمة الأدب المهجرى

لاشك أن الأدب المهجرى قد أفاد الأدب العربى وضوح أثر ، وقوة تجديد ، وقد عرف هذا الأدب فى جملته بالاتجاه العاطفى والوجدانى والتحرر من القيود ، وقد تأثر المهجريون بطاغور والخيام ، فجاء أدبهم مزيجاً من الصوفية والرواقية، فيه الشرق والغرب ، أمريكا ولبنان وسوريا ، والنزعة الرومانسية واضحة فيه .

وقد نقد هذا الأدب عزيز أباظه بأنه لم يجدد شيئاً ولم يضف للأدب العربى جديداً ، ولم يتبلور بعد ، ولم يتخذ صورة واضحة المعالم .

وينوه الدكتور محمد مندور بالأدب المهجرى (١) ذاهبا إلى أن فيه خير ما فى الشرق ، فيه تلك اللهفة الروحية التى وجهت أجدادنا . . فيه تطلع إلى المجهول وإحساس بالواقع . . فيه تلك الموسيقى الرتيبة التى تميز إحساسنا الشرقى .

ويذكر الشاعر المهجرى الكبير جورج صيدح التجديد الذى قام به المهجريون ، وأنه كان فى الموضوعات والفكرة ، وقد انعكس هذا التجديد فى الأساليب ، وهم لم يخرجوا على البحور ، بل واصلوا رسالة الأندلسيين، فنوعوا الموشحات ، وحملوها الفكر العميق، وقد خلقوا الحوار فى الشعر ، فكتب إليا أبو ماضى المسرحيات والملاحم والمطولات ، كما كتب فوزى المعلوف « ملحمة على بساط الريح » وكتب شفيق معلوف ملحمة عبقر ، وميزتهم أنهم بعثوا الحياة فى الكلمة وأنهم واقعيون لم ينفصلوا عن حياة المجتمع .

ودافع العقاد عن الأدب المهجرى وقال : إنه ثمرة أربعين سنة، وإنه ثروة وربح للغة العربية .

ويرى الدكتور أبوشادى أن الأدب المهجرى لم يقطع صلته بالشرق وبالعروبة والإسلام ، فجميعها مؤثر عليه من النواحى العاطفية غالبا ، وهذه تشمل الوطن والدين والسياسة وأبرز ملامح الأدب المهجرى عنده هو حريته وثقافته وإنسانيته وهو مزيج من الواقعية والرومانسية والرمزية والسريالية :

---

(١) مجلة الثقافة — ابريل ١٩٤٣ .

إن الأدب المهجرى يصوغ لنا تجارب اتصال العقل العربى بالحضارة الأمريكية هذا الاتصال القوى ، ويضع أيدينا على أثر هذا الاتصال مباشرة ، وينقل إلينا الكثير من التأثرات المختلفة بأدب الغرب وحضارته .

وجملة الأمر أن الأدب المهجرى فى أمريكا متأثر إلى درجة محسوسة بالبيئة الأميريكية الحرة ، فهو مزيج من الواقعية والرومانسية والرمزية والسريالية وغيرها كما ذكرنا ، وإن كان للواقعية نصيب وافر منه وإذا كانت الواقعية لاتزال منبوذة فى العالم العربى تحت تأثير الأدب الفرنسى ، أو على الأصح تحت تأثير الرومانسية الفرنسية المتمكنة من الشرق الأوسط وعلى الأخص من لبنان ومصر ، فان لها محلا محترما فى الأدب الأميريكى — أدب الحياة الشاملة .

والأدب المهجرى أدب إنسانى له شخصيته القويه الحرة ، وأنصاره مثقفون موهوبون متعددو الجوانب وإن لم يكن لهم بريق من سبقوهم فى العقد الثانى من هذا القرن .

صور من الشعر المهجري

- ١ -

قال إيليا أبو ماضى من قصيدته «الطلاسم»:

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيت
ولقد أبصرت أمامى طريقا فمشيت
وسأبقى سائرا إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقى؟ لست أدرى

إننى جئت وأمضى وأنا لا أعلم
أنا لغز، وذهابى كمجيئى طلسم
والذى أوجد هذا اللغز لغز أعظم
لاتجادل، ذو الحجى من قال: إنى لست أدرى

أنا لا أذكر شيئا من حياتى الماضيه
أنا لا أعرف شيئا عن حياتى الآتيه
لى ذات غير أنى لست أدرى ماهيه
فمتى تعرف ذاتى كنه ذاتى؟ لست أدرى

ويقول الشابى متأثرا بإيليا فى هذه القصيدة وذلك من قصيدة الشابى «فى ظل وادى الموت».

نحن نمشى وحولنا هذه الأكوان تمشى، لكن لأية غاية
نحن نمشى مع العصافير الشمس، وهذا الربيع ينفخ ناية
نحن نتلو رواية الكون للموت ولكن ماذا ختام الرواية

ومثل هذه الحيرة تبدو واضحة فى قصيدة فوزى المعلوف(1) «لغز الوجود»

---

(1) لفوزى المعلوف: سقوط غرناطة، وأربعة دواوين: شعلة العذاب - تأوهات الربيع - من قلب السماء - أغانى الأندلس.

كيف جئنا الدنيا ؟ ومن أين جئنا ؟
وإلى أى عالم سوف نقضى
هل حيينا قبل الوجود؟ وهل نبعث
بعد الردى ؟ وفى أى أرض ؟
هو كنه الحياة ما زال سرا
كل حكم فيه يؤول لنقض
كيف أجلو غدى وأدرك أمسى
وأنا خرت كيف يومى سيمضى
قد حيينا قبل الولادة لكن
بجدود قضوا كما سوف نقضى
وسنحيا بعد الردى ببنينا
فى كيان نعطيه بعضا لبعض

— ٢ —

ويقول فوزى المعلوف من ديوانه « على بساط الريح » :

فى عباب الفضاء ، فوق غيومه
فوق نسره ونجمته
حيث بث الهوى بثغر نسيمه
كل عطره ورقته
موطن الشاعر المحلق منذ البدء
لكن بروحه لا بجسمه
أنزلته فيه عروس قوافيه
بعيدا عن الوجود وظلمه
ملك قبة السماء له قصر
وقلب الأثير مسرح حكمه
ضارب فى الفضاء موكبه النور
وأتباعه عرائس حلمه

— ٣ —

ويقول الشاعر إلياس فرحات من قصيدته « حياة مشقات » :

أراقب فى الظلماء ما الليل يحجب   واقرأ فى الأسحار ما الله يكتب
واستعرض الأيام يومى الذى مضى   دليل على يومى الذى أترقب
فلا تسألوا عنى وحظى فاننا   لأمثال مافى الشرق والغرب مضرب
طوى الدهر من عمرى ثلاثين حجة   طويت بها الأصقاع أسعى وأداب
أغرب خلف الرزق وهو مشرق   وأقسم لو شرقت كان يغرب
لئن غردت للشاعرين بلابل   فان غراب الشؤم حولى ينعب
وإن كان علما ثابتا قول بعضهم   لكل إمرىء نجم ، فنجمى « المذنب »
ومركبة للنقل راحت يجرها   حصانان : محمر هزيل وأشهب
لها خيمة تدعو إلى الهزء ، شدها   غرابيل أدعى للوقار وأنسب !
جلست إلى حوذيها وورائنا   صناديق فيها ما يسر ويعجب
حوت سلعا من كل نوع يبيعها   فتى ما استحل البيع لولا التغرب
وراحت كأن البر بحر نجاده   واغواره أمواجه ، وهى مركب
تبين وتخفى فى الربى وحيالها   فيحسبها الراؤون تطفو وترسب
وتدخل قلب الغاب والصبح مسفر   فتحسب أن الليل لليل معقب
تمر على صم الصفا عجلاتها   فنسمع قلب الصخر يشكو ويصخب
وترقص فوق الناتئات من الحصى   فنوشك من تلك الخلاعة نقلب !
نبيت بأكواخ خلت من أناسها   وقام عليها البوم يبكى ويندب
مفككة جدرانها وسقوفها   يطل علينا النجم منها ويغرب
عليها نقوش لم تخطط بريشة   تظن صباغا لونها ، وهو طحلب !
يغنى لنا فيها الهواء كأنه   ينومنا ، والبرد للنوم مذهب
فنمسى وفى أجفاننا الشوق للكرى   ونضحى وجمر السهد فيهن يلهب
وما كلنا مما نصيد ، وطالما   طوينا لأن الصيد عنا مغيب
ونشرب مما تشرب الخيل تارة   وطورا تعاف الخيل مانحن نشرب
حياة مشقات ! . ولكن لبعدها   عن الذل تصفو للأبى وتعذب . .
وقد نلتقى بعض الجميلات صدفة   فيطربننا والمبدع الفنيه مطرب

وكل مكان فيه للحسن مرتع ... والطرف ملهى فيه للحب ملعب
وما تلتقى عينا فتاة حبيبة ... وعينا فتى إلا لكوبيد مأرب !
وهل أنا إلا شاعر لان قلبه ... فليس له من صولة الحسن مهرب ؟
نفتنى من المدن العواصم عزتى ... فرحت بأطراف الولايات أضرب
أعاشر من لو عاشر القرد بعضهم ... لما رد عن « داروين » قبر مقبب
وأنصت مضطرا إلى كل أبله ... كأنى بأسرار البلاهة معجب !
وأكره أشياء رفيق يحبها ... وأرغب فى أشياء عنهن يرغب
وأرهب قطاع الطريق . . وربما ... تعمدت إظهار السلاح ليرهبوا . .
فعز الفتى الطاوى الفيافى « مسدس » ... كما أن عز الليث ناب ومخلب
وما صين حق لا سلاح لربه ... وأضعف أنواع السلاح التأدب
ولولا نيوب الأسد كانت ذليلة ... تساط ، وتعنو للشكيم وتركب
وكم ظالم يستبعد الناس عنوة ... وحجته الكبرى الحسام المشطب

أقول لنفسى كلما عضها الأسى ... فآلمها : صبرا ففى الصبر مكسب
لئن كان صعبا حملك الهم والأذى ... لحملى من الناس لاحملك أصعب
فلولا إباء مازج الطبع لم يكن ... لمثلى مجىء فى البرارى ومذهب
ولولا رجائى أن تظلى بعيدة ... عن الضيم لم يوطأ برجلى سبسب
فلا تعذلى صحبا درواتى وما عنوا ... بأمرى فهم منى إلى الفقر أقرب
ولا تأملى من غير صحبى معونة ... فما تخصب الكفان والقلب مجدب
ولا ترتجى الإخلاص من كل باسم ... ففى الباسمين المغضب المتحبب
ولو كان كل المظهرين لى الوفا ... وفيين لم يعجزك يا نفس مطلب
عتبت على ناس أضاعوا مودتى ... وكل كريم خانه الصحب يعتب
فقد زعموا أنى هجوت حبيبهم ... وأنى سأهجو غيره حين أخطب
ولست بهجاء ولكنه الهوى ... إذا قاد نفس المرء فالنور غيهب
أنا من يرى أن الرياء معرة ... وأن خبيث القول فى الصدق طيب
وما أنا إلا كالزمان وأهله ... أعاف وأستحلى ، وأرضى وأغضب
فأى هجاء فى مقالى لعقرب ... له ولع بالشر : انك عقرب ؟!
تعبت إذا استنظرت خيرا من الورى ... ومستقطر السكرى من الصاب يتعب

— ٤ —

وهذه هى قصيدة « ياسلم » للدكتور أحمد زكى أبى شادى من ديوانه المخطوط « إيزيس » الذى أتم الشاعر أبو شادى عام ١٩٥٤ نظمه فى أمريكا أى قبل وفاته بعام واحد ، وهذه القصيدة طارت شهرتها فى كل مكان :

يا سلم ! خير أن نراك مزعزعا   من أن نرى الحرب سوقا بيننا
يا جاعل النيران جنات لنا   ومطهر الإنسان حتى آمنا
لا تلقنا يأسا ، وصبراً ، ربما   علمتنا وصقلتنا نخالقتنا
إن كنت ترجونا الفداء فكن لنا   بعض الفدى ، فترى السعادة والغنى
يا نفحة الأرباب حين تجاوبوا   والفن ، فابتدعوا سناك ، فهيمنا
إن تبق حارسنا رفعت نفوسنا   وإلى الحضيض نزل إما فتنا
ولئن تمادى الأشقياء بغبننا   فكن الملاذ ولا تسوغ غبننا
إن نحن ضعنا ضعت أنت وإن تصن   آمالنا صانتك كنزاً يقتنى
ويجىء يوم للحياة مقدس   فتكون معبود الحياة المعلنا
لولاك كانت مثل أشباح الردى   بجهنم ، لا مثل أطياف المنى
فأجب دعاء البرية ، شاملا   من قد أساء لنا ومن قد أحسنا

— ٥ —

وهذه بعض نفاح لشفيق معلوف صاحب كتاب « الأحلام » ، وصاحب ديوان « لكل زهرة عبير » :

أنا إن سقطت فخذ مكانى يارفيق فى الكفاح
واحمل سلاحى ، لا يخفك دمى يسيل من السلاح
وانظر إلى شفتى أطبقتا على هوج الرياح
وانظر إلى عينى أغمضتا على نور الصباح
أنا لم أمت ! أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح

هذا هو الشعر الذى لا يعرف النقل والانتحال والتقليد ، وإنما هو التعبير القوى الأصيل عن روح الشعب دون أى تصنع ودون أى بهرج وفوق كل تعمل وافتعال .

إن الشعر ـ ككل فن جدير بهذه التسمية ـ هو فى صميمه تعبير وتفسير خلاق وهذا ما يتجلى فى آثار شفيق معلوف . وما (الأحلام) إلا قصة خيالية اجتماعية شريفة ، وما ديوانه (لكل زهرة عبير) إلا إسهام رفيع فى إبداع لبنات الشعر وهذه اللبنات لا يمكن أن يستهين بها شاعر يحترم الحق ويحترم فنه وشفيق معلوف

شاعر متزن وأديب مفكر رصين مستوعب الفكر الفلسفى وقد قرأ شفيق معلوف الفلسفة الحديثة وعلم النفس ، فتغلغل كل هذا فى شعره الجميل الذى يسانده طبع أصيل اشتهر به وراثة وثقافة أدباء أسرة المعلوف .

وواضح أن شفيق معلوف جمع بين خيال أخيه فوزى الذى مات فى سن مبكرة وبين النضوج الفنى الشخصى الذى صهرته تجاربه هو وسوته ثقافته الخاصة ، كانت طاقة فوزى الشعرية طاقة ممتازة وكانت موسيقاه حلوة جذابة للجماهير . أما شفيق معلوف فطاقته الشعرية ممتازة كذلك ، ولكن موسيقيته ليست من ذلك السهل السلسال الذى تولع به الجماهير ، كما يقول الدكتور أحمد زكى أبو شادى فوزى يمثل النبوغ فى باكورته ، وأما شفيق فقد جمع بين ذلك النبوغ المشترك وبين نضوجه هو ، وقد انضم إلى جانب ذلك بطابعه الخاص فى التأمل والموسيقى والاستيعاب الفلسفى والنظرات النفسية العميقة . وفنه الشعرى يتجلى فى ذروته بملحمته الخالدة (عبقر)

فى هذا الوقت نجتاز مرحلة نبغ فيها طراز جديد من الشعراء يتعلقون بالرمزية والسريالية وما إليها ، وينتقصون أشعار الأعلام الكلاسيكيين أو الابتداعيين .

ولا ريب فى أن جيلا ثم أجيالا ستأتى وستهتف لأشعار شفيق معلوف وزملائه الشعراء الذين كرموا الأدب العربى بنفائسهم الأصيلة التى سمت فوق الابتذال ، واستمدت جمالها من قلوبهم وعقولهم ولم تكن عالة على غيرهم ، ولم تعتصم بموسيقى الرنين وبالسهولة العامية ستراً لضعف الطاقة الشعرية ذاتها لدى أولئك المزمارين . وهذا ما جرى أيضا لخليل مطران ولعبد الرحمن شكرى ، وسيجرى لغيرهما من النوابغ المنسيين أو المغمورين أو المنكورى الفضل والألمعية .

ولشفيق معلوف قصيدتان فى « الشاعر » مختلفتا المعانى والموسيقى ، وبينهما

زهاء ثلاثين عاما . فى القصيدة الأولى يقول شفيق معلوف الشاب :

أمر نسيم العشية كفا على جبهة الشاعر الشاحبه
دعوه يزحزح عن قلبه بقية حياته الذائبـــه
ولا توهجوه لئلا توقف فى صدره روحه الواثبه
ليستخلص الشعر من نسمات تهيم فى اللجة الصاخبه
ويستنزل الوحى من شعلات النجوم وأنوارها الساكبه
وتستنزف الدمع من طبقات الأثير فأجفانه ناضبه
هو الشاعر ابن إله الخلود ، وإن تك آماله ذاهبه !

وفى القصيدة الثانية يقول شفيق معلوف الكهل :

لو كان مافى السماء يلتهم   لما ارتوى منه قلبه النهم
يود والنيرات فائضة   لو أن جفنيه تحتهن فم
ويشتهى والرجوم هاوية   لو كان منها لروحه لقم
لا يأتلى يرمق السماء فهل   ضاع له فى طباقها حلم
أم شام فوق النجوم آلهة   فضه أن يعيش تحتهمو
يطاول النجم فوق قبته   وكل ما فى الثرى له غنم
فالغاب والنهر والفراشة والزهر وعشب المروج والنسم
وكل ما يكشف الصباح وما تلقى عليه رداءها الظلم
ماهو إلا الأوتار تنقرها   الليالى والشاعر النغم
تالله كم شاعر أخو حرق   يغص بالدمع وهو يبتسم
إذا رأى الشمس وهى غاربة   أدرك كيف الآمال تختتم
شم هل الزهرة الأسى ورعى   ماقالت الكأس وهى تنحطم !

فى القصيدة الأولى تجد شعرا سهلا مأنوس الديباجة تحبه الجماهير حينما تطلع القصيدة الثانية بديباجة جزلة هى أشبه ما تكون بديباجة المتنبى الرصينة القوية التى تستهوى الخاصة بأسلوبها ومعانيها معا .

وقد جمع شفيق معلوف ما بين تجارب الحياة الواسعة المنوعة وبين عواطف الشاعر الحارة وأخيلته الرائعة وصب كل هذا فى قالب من شعره التأملى الفريد

الذى يعنى بها خاصة الأدباء وإن لم يستهو جمهرة القراء ، ومن رباعيته «بسمة» التى هى مرآة نفسه الحنون :

كن بسمة بفم الضعيف ، ولاتزد … تالله . أتراحا على أتراحه
ماضر أن يحظى أخوك بحقه … فترى فلاحك ناجزا بفلاحه
أنحق بطلان الوجود ولا ترى … أشباحه تحنو على أشباحه ؟!
ضرب الشعوب قويها بضعيفها … كالطير تذبحه بريش جناحه !

ويقول من سداسيته الجميلة الساحرة :

حلمت بزهرتها القديمة صخرة … حنت إلى عهد التراب الفائت
فتفتقت آمالها عن زهرة … بيضاء لم تك غير حلم نابت
ينشق عنها الصخر وهى كأنها … حى تململ فى ذراعى مائت
سالتها فاستجمعت أطيابها … ومضت تقول بهمسها الخافت :
«أنا لست إلا ومضة الذكرى على … تقطيبة الصخر الكئيب الصامت»
قبح يخالطه وميض خلابة … أحلى لعينى من جمال باهت !

وكما يقول الدكتور أبو شادى : صدق شفيق معلوف «لكل زهرة عبير» وكذلك لكل شاعر أصيل فنه وجماله ، وثروة الشعر العربى هى مجموع الثروات الابتداعية للشعراء المطبوعين الأصيلين كيفما كانت آفاق شعرهم الرفيع ، وكيفما تنوعت عناصرها وألوانها .

— ٦ —

ويقول جبران خليل جبران من قصيدته «البلاد المحجوبة» :

هو ذا الفجر فقومى ننصرف … عن ديار مالنا فيها صديق
ما عسى يرجو نبات يختلف … زهره عن كل ورد وشقيق
وجديد القلب أنى يأتلف … مع قلوب كل ما فيها عتيق
هو ذا الصبح ينادى فاسمعى … وهلمى نقتفى خطواته
قد كفانا من مساء يدعى … أن نور الصبح من آياته
قد أقمنا العمر فى واد تسير … بين ضلعيه خيالات الهموم

وشهدنا اليأس أسرابا تطير فوق متنيه كعقبان وبوم
وشربنا السقم من ماء الغدير وأكلنا السم من فج الكروم
ولبسنا الصبر ثوبا فالتهب فغدرنا نتردى بالرماد
وافترشناه وسادا فانقلب عندما نمنا هشيما وقتاد
يا بلاداً حجبت منذ الازل كيف نرجوك ومن أى سبيل؟
أى قفر دونها أى جبل سورها العالى ومن منا الدليل؟
أسراب أنت أم أنت الأمل فى نفوس تتمنى المستحيل
أمنام يتهادى فى القلوب فاذا ما استيقظت ولى المنام
أم غيوم طفن فى شمس الغروب قبل أن يغرقن فى بحر الظلام
يا بلاد الفكر يامهد الألى عبدوا الحق وصلوا للجمال
ما طلبناك بركب أو على متن سفن أو بخيل ورحال
لست فى الشرق ولا الغرب ولا فى جنوب الأرض أو نحو الشمال
لست فى الجو ولا تحت البحار لست فى السهل ولا الوعر الحرج
أنت فى الأرواح أنوار ونار أنت فى صدرى فؤاد يختلج

وقد ولد جبران فى ديسمبر ١٨٨٣ فى مدينة « بشرى » بلبنان ، وتعلم فى مدرسة الحكمة ببيروت ، ثم رحل إلى باريس فأقام فيها شهرا ، ومنها سافر إلى مدينة بوسطن بالولايات المتحدة ، فأقام فيها يشتغل بالكتابة والتصوير ، ثم عاد عام ١٩٠٨ إلى باريس لإكمال دراسته فى التصوير فى معهد الفنون الجميلة ، وفى باريس فتن بشعر الشاعر الإنجليزى الفنان « وليام بليك » ، وصار جبران شاعرا يلتقى فيه الفن الجميل والشعر ، الشعر المتحرر من قيود الوزن والقافية فى كثير من الأحايين . . ومن قصائده العمودية « المواكب » ، وقد ذاعت مؤلفاته ونالت شهرة كبيرة ، مثل « النبى » ، و « التائه » ، « والمجنون » ، و « رمل وزبد » ، والأمواج والعواصف ، والأرواح المتمردة ، والبدائع ، وعرائس المروج ، ودمعة وابتسامة ، والأجنحة المتكسرة .

وفى عام ١٩٢٠ أسس جبران الرابطة القلمية فى نيويورك ، وصار رئيسا لها ، ومات جبران فى إبريل سنة ١٩٣١ فى نيويورك ، ونقل جثمانه إلى لبنان فدفن فى

بلدته « بشرى » وترك وراءه ذكرا مدويا ، وشهرة ذائعة ، وتلامذة معجبين متأثرين بأدبه ودعوته التحررية فى الشعر والفن والأدب جميعا .

وقد ميز جبران خليل جبران قلقه العميق المتواصل بين الشك والمحبة ، هذا القلق الذى أجج ناره فيه اصطدامه بالفيلسوف الألمانى فريدريك نيتشه هذا الاصطدام الذى أخرج جبران خليل جبران من وحدته ليعيش من جديد فى صراع عنيف بين الإيمان بالله وبين الكفر بكل عقل أو نظام فى الوجود من جهة ، وبين النزعة الإنسانية المحبة للإنسان ، وبين إهدار كل قيمة إنسانية .

وظل جبران يتأرجح بين تيارات مختلفة من الثقافات : أبرزها فلسفة نيتشه الوجودية الاجتماعية الملحدة . وبهذا كان الرمزية عند جبران خليل جبران إلى جانب ما أوتى من قوة الخيال هذا النوع من النزوع الصوفى الانسانى إلى الله سبحانه وتعالى .

والرمزية فى أسلوبه تظهر فى شكلين : رمزية جزئيات الجملة عنده بين تشبيه واستعارة رمزية ، شأنه فى هـــذا شأن عامة الأدباء وخاصة العرب القدامى ، ورمزية أسلوبه الذى كان الحوار والقصص الرمزيان مظهرين من مظاهره التعبيرية الفنية جسدتها أبرز كتب جبران خليل جبران ، وهى : المواكب ؛ والنبى ، وآلهة الأرض ، وحديقة النبى :

وقد بدأ جبران حياته الأدبية والفنية والفكرية قاصا روائيا تراوحت كتاباته بين الغنائية الذاتية وبين الواقعية القريبة من الغنائية الذاتية ، يتناول فيها أمور المجتمع ومشكلاته أو مشاكل حياته الخاصة ومناسباتها ناقداً فاحصا كما تنطق بهذا كتبه الأولى : الأرواح المتمردة ، عرائس المروج ، الأجنحة المتكسرة ، إذا نحن لم نغفل مافى « الموصف » ، « ودمعة وابتسامة » من قصص أيضاً ، ولكنه عندما ازداد اوار انطوائيته المضطربة القلقة المتأملة جنح إلى الحوار والقصص الرمزيين متخذا الأشخاص والموضوعات والحركة الحوارية والقصصية رموزاً لأفكاره ومشاعره ، وكلها من صميم معاناته للوجود ومشكلاته وجانبه الفلسفى : الدينى أو الاجتماعى الأخلاقى .

وكان الرمزية عند جبران خليل جبران إلى جانب تلك التصوفية المسيحية القلقة هذه الأنماط من الأسلوب الرمزي الحواري القصصي التي دعمها خياله المصور الخلاق في تعبيرها عما حضنته هذه التصوفية من معان ووجدانات انسانية .

- ٧ -

ويقول ميخائيل نعيمة من قصيدته « الطريق » المملوءة بالحيرة :

نحن يا ابني عسكر قد تاه في قفر سحيق
نرغب العود ولا نذكر من أين الطريق ؟
فانتشرنا في جهات القفر نستجلي الأثر
نسأل الشمس عن الدرب ونستفتي الحجر
وسنبقى نفحص الآثار من هـذا وذاك
ربما ندرك أن الدرب فينا لا هناك
وسنبقى في انتقال وشقاء وعذاب
وصعود وهبوط وذهاب وإياب
وسنبقى نهجع الليل وفي الصبح نفيق
ربما نلقى حنانا ، ربما نلقى الطريق

ويقول من قصيدة أخرى له :

ذمك الأيام لا ينفعك   فهي لا أذن لها تسمعك
لا ولا عين ترى عقربا   في دياجير الأسى تلسعك
لا ولا قلب يرق وإن   جف من طول البكا مدمعك
عندما ضيان يا صاحبي   أزهرت أم أقفرت أربعك
ذمك الأيام لا ينفعك   إنما الأيام لا تسمعك
فهي منك الظل يا صاحبي   عجبا ظلك كم يخدعك

ويقول ميخائيل نعيمة من قصيدته « أخي » وهي قصيدة ثرية بالمعاني الانسانية :

أخي إن ضج بعد الحرب غربي بأعماله

وقدس ذكر من ماتوا ، وعظم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا ، ولا تشمت لمن دانا
بل اركع صامتا مثلى بقلب خاشع دام
لنبكى حظ موتانا

ونعيمة أحد شعراء المهجر المبدعين المجددين ، وقد أودع كتابه « الغربال » الذى أصدره عام ١٩٢٣ آراء فى النقد والأدب ومشكلات الشعر.. ومسرحيته « الآباء والبنون » كان لها أكبر الأثر فى المسرحية العربية ، وقد نشرها عام ١٩١٧ ، ويتلاقى « الغربال » مع « الديوان » الذى أصدره العقاد والمازنى عام ١٩٢١ فى نقد المدرسة القديمة ووضع مناهج جديدة للشعر والنقد ، ويقول نعيمة : إن هدف الأدب هو الإفصاح عن عوامل الحياة ، ويطلق الدكتور مندور على شعره لقب « الشعر المهموس » لأنه يقع فى النفس موقع الأسرار التى يتهامس بها الناس ، وكلمة الهمس فى رأى مندور هى إحساس بالأدب المصنوع من الحياة كأنه قطعة منها .

وقد ولد نعيمة فى لبنان عام ١٨٨٩ م ، والتحق بمدرسة روسية كانت قد أنشئت حديثا فى بلدته ، ثم اختير لإكمال تعليمه فى دار المعلمين الروسية فى مدينة الناصرة بفلسطين ، ثم اختير فى بعثة دراسية إلى روسيا على نفقة الجمعية الامبراطورية الروسية الفلسطينية ، وطالع الأدب الروسى باهتمام وتأثر به . . وعاد إلى لبنان ، ومنها إلى ولاية واشنطون ، حيث والى دراسته فى إحدى مدنها وحصل على إجازة فى الحقوق وإجازة أخرى فى الأدب عام ١٩١٦ ، وخدم فى الجيش الأمريكى حيث عمل فى صفوف القتال فى فرنسا ، وقد كره الحرب ، وندد بها طول حياته .

ثم عاد إلى الولايات المتحدة ، واشتغل بالتجارة ، وبالأدب ، وكتب فى مجلة « الفنون » ـ التى كانت تصدر فى نيويورك بالعربية ـ فصولا فى الأدب والنقد ، وانتقل إلى نيويورك ، واتصل بجبران ، ولما كونت الرابطة القلمية عام ١٩٢٠ كان جبران رئيسها ، ونعيمة مستشاراً لها ، ومن أعضائها إيليا أبو ماضى ، ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، وعبدالمسيح حداد . . وسجل نعيمة فى صدر قانون الرابطة « ان هذه الروح الجديدة التى ترى الخروج بآدابنا من دور الجمود

والتقليد إلى دور الابتكار فى جميل الأساليب والمعانى ، لحرية فى نظرنا بكل تنشيط ومؤازرة ، فهى أمل اليوم ، وركن الغد » .

وفى عام ١٩٣٢ عاد ميخائيل نعيمة إلى وطنه لبنان . حيث عكف على الاطلاع والكتابة ، ونظم القصائد . ولا يزال حتى اليوم يعيش فى قريته « بسكنتا » الوادعة النائمة فى حضن جبل لبنان الأشم . . ويعد كتابه « الغربال » من أمهات كتب النقد والدعوة إلى التجديد ، وقد كتب العقاد مقدمة طبعته الأولى عام ١٩٢٣ . ولنعيمة ديوان « همس الجفون » ، ومن كتبه : « زاد المعاد » ، « والبيادر » ، وجبران خليل جبران ، وسواها من مؤلفاته وروائع إنتاجه الذى عد به قمة فى الأدب المهجرى ، وعلما شامخا فى حركة التجديد فى الشعر العربى الحديث .

— ٨ —

ويقول الشاعر المهجرى جورج صيدح فى قصيدته « البحر » :

مستودع اللؤلؤ والمرجان ومسكن الضارى من الحيتان
مر على حسن به فتان مستأسد مستنجد فى آن
حرباء فى مختلف الألوان البحر ؟ أم قلب بنى الإنسان ؟
ذو سمة تعصى على التحديد لكنه يطمع فى المزيد
يحاول الطغوى على الحدود وقيده « الرملى » لا الحديدى
يكرهه دوما على الاذعان البحر ؟ أم قلب بنى الإنسان ؟
سكونه سكون لا مرتاح تنتابه طائشة الرياح
موقظه شاهية الكفاح فى جائع يقتات بالأرواح
جان تخفى فى ثياب العانى البحر ؟ أم قلب بنى الإنسان ؟
يسعى إلى من عافه مقاما فى المد . . حتى يلثم الأقداما
أما إذا وافاه صب هاما ورام أن يقضى له مراما
آب صريع الجزر . . . والخذلان البحر ؟ أم قلب بنى الإنسان ؟
ذو زأرة كالأسد الموتور وزفرة كالبلبل المأسور
وقصفة كالرعد فى الديجور ورجفة كالوتر المسحور
ضاحكة باكية الألحان البحر ؟ أم قلب بنى الإنسان ؟

يتصل العمران بالعمران إن شاء ، والركبان بالركبان
وإن أبى ثارت على البلدان أعاصر التنكيل والطغيان
فتهدم البنيان كف الباني البحر ؟ أم قلب بنى الإنسان ؟
يا بحر ، يا قلب بنى الإنسان كفا من الشطآن والأبدان
حرمتماها العيش فى اطمئنان ولم تصيبا مغنما ذا شان
حفنة رمل ، أو رميم فان كلاهما المسدود ، والنسيان

ويقول من قصيدته « ساعة التجريح » التى نظمها فى ابنة له حين أسلمها إلى مباضع الجراح :

رفقا بها يا مبضع الجراح شرحت قلب الوالد الملتاح
إن زدت إيلاما فصحت تجلدى وجمعت بين صياحها وصياحى
والله لو أطلقت روحى لارتمت تحت النصال ، تصدها بجراحى
هذى القطاة قصاصة من ريشها تبكى إذا انتثرت لقص جناحى
ماذا جنت وهى الفطيمة فى الربى حتى تذوق خثارة الأقداح
بالأمس مدت عنقها من وكنها واليوم تشهد مدية الذباح
الياسمين الغض فى أكمامه غبن النضارة لمسه بالراح
أنا لا أخدشه بغير نواظرى وبغير شم عبيره الفواح
مالى أراه على الخوان مجرحا وأكاد ألثم أنمل الجراح ؟
وبحى ، دفعت إلى المشارط فلذة كنت الضنين بها على الأرياح
صرعت من الآلام فى غيبوبة سكرت بها وأنا الصريع الصاحى
قالوا غلوت بحبها ، فأجبتهم : ويل الشجى من الخلى اللاحى
النوح إن يثقل على أسماعكم صلوا لأجل نجاتها ، وصداحى
هى فرحة الوالدين وحيدة يتآسيان بها على الأتراح
إن الذى أشفى على خوض الدجى
مثلى ، ليقدر قيمة المصباح .
آمنت فى علم الطبيب ، وأن فى جرح الجسوم سلامة الأرواح
وبله ، سدد كفه وسلاحه إنى طرحت على يديه سلاحى

ويقول فى قصيدته « الغربة الثانية » :

كللى بالزهر هامات الصبايا ... وانشرى الرايات يادار صبايا
وانقى فى الأفق ركبا طائرا ... حاملا للوطن الغالى هدايا
المنارات اشرأبت نحــوه ... والطيور انطلقت تهدى التحايا
حج لبنان ، وكم من نازح ... روحه حجت إذا الجسم تمادى
إنما الغياب أفــلاذ الحى ... سلخت عنه وعادت للحنايا
رجعوا كالجنــد من معركة ... باد فيها جيشهم إلا بقايا
تركوا الجرحى الأسارى خلفهم ... والضحايا ـ رحم الله الضحايا !
ما سمات النصر فى جبهتهم ... غير آثار حراب وشظايا
احص ما نالوه من غاراتهم ... هل يوازى ما أضاعوا من مزايا
رب كهل عاد منهوك القوى ... كان قبل البين طلاع الثنايا
لم يجد من عهــده فى قومه ... باقيا غير المخازى والشكايا
أكل الدهر عــلى أترابه ... فاذا عف فمن بعض النفايا
اللذاذات التى يشتاقهــا ... أصبحت فى ارذل العمر رزايا
والغوانى ان ترفقن بــه ... قلن ياشيخ اجتنب برد العشايا
ولقد ينكره الأهــل إذا ... لم تعرفه بأهليه العطايا . . .
يالها من غربة « ثانية » ... فى صميم الدار ، ما بين الولايا !
نحن فيها سلع معروضــة ... بين جدران النوادى والسرايا
غربة « ثانيــة » ، ننشدها ... ان تكن بلوى ، فما أحلى البلايا

ويقول جورج صيدح حين استضافته لبنان :

حسدونى وضيف لبنان يحسد ... أنا منه فى واحة بعد فدفد
أتملى ، وما ارتويت بماء ... وأسارى ، وما اهتديت بفرقد
يا سماء تغفو الكواكب فيها ... بينما عاشق الكواكب يسهد
ان برجا اطلت فيه اعتكافى ... كان أسى لو اننى كنت أبعد
كان ذنبي ـ وليس ذنب بلادى ـ ... أن تخيلت غير ما الآن أشهد
غيرها تجرح القيود يديه ... وهى تمتد بالقيود وتفتد
غيرها يصلح الفساد وفيها ... لا يعيش الصلاح إن لم يفسد

غيرها أعتز بالنظام وفيها   تاه واعتز من عليه تمرد
غيرها حطم العروش وفيها   ألف عرش لألف ملك مسود
برلمان فى كل حى ، وشعب   مستقل فى كل ناد ومعهد
وحدود ما بين فرد وفرد   كظلال من القطيعة تمتد
تتحدى مشيئة الله فينا   وتنافى حكم اللسان الموحد
إن أرضا غصت بكل دخيل   لا تبالى إذا الأصيل تشرد
إن أكن ضفتها فمن صاحب   الدار ؟ وفى ذكر أينا تتمجد
اطلقونى يا أهل لبنان ، إنى   بالأيادى التى اصطنعتم مقيد
أرجعونى إلى غياهب أمسى   رب ليل صفا وفجر تلبد
لست أدرى منازكم غاب عنى   أم تداعى أم أننى صرت أرمد
سامح الله من حدانى إليكم   فارانى من ناركم ما تراه
نار فحم ، فى سطحه ومضات   من شعاع الآداب والقلب أسود

ويقول من قصيدته « الكوكتيل على الشاطىء »

خطر الساقى فقلنا هاتها   نحن نرضاها على علاتها
رب كاس زاد فى لذاتها   أثر الأفواه فى حافاتها
هاتها !

طف ولا تمسح عن الكاس الخضاب   طبعته شفة الحلوة الكعاب
إن مززناه سكرنا بالرضاب   قبل أن نسكر من مزاتها
هاتها !

هاتها ذوب لجين وذهب   سلطوا الثلج عليه فالتهب
خضخضوه فتلوى وانسكب   كسموط دردرت حباتها
هاتها !

جمعوا الأضداد من شتى الخرر   وأداروا الحرب فى طاس تدور
فاذا فى النقع أرواح تفور   فورة القهوة فى مغلاتها
هاتها !

هاتها تعكس أشباح الغروب   فى خليط من عصارات تروب
كلما غص بها حلق الطروب   طلب التكرار من غصاتها
هاتها !

مالنا يحلو لدينا مرها ؟ تلك دنيانا وهـذا سرها
خيرة اللذات طعما شرها ؟ ويل من ينفر من ويلاتها
هاتها !

لا تقل ولى زمان الطيبات دونك البحر وهاك الغانيات
لم يزل فى الرأس «كوكتيل الحياة» طافح الكاس ، بتذكاراتها
هاتها :

هاتها وارفع بها عبء السنين عن كهول مرحوا كاليافعين
إنما الساعة عند العارفين ساعة الـكوكتيل فى ميقاتها
هاتها !

والصيدح فى الشاعر القروى حين دعى إلى تكريمه وكان على موعد سفر ، فكتب إليه هذه الأبيات :

أطل من ليل النوى رائما كالشمس غابت وهى لم تخمد
شعت قوافيه شعاع اللظى ورفرفت رف النسيم الندى
أرثى لقوم مسهم لفحها ولم يحسوا نفحها السرمدى

والصيدح كتابه المشهور « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية » ، الذى اتى صدى كبيرا من القراء فى كل مكان . . . وله ديوانه الأول « النوافل » وقد طبع فى بوينس إيرس عام ١٩٤٧ ، وقد وقف نسخه فى سبيل فلسطين وقضيتها ، كما فعل أبو شادى بعده بنسخ ديوانه « من السماء » ، أما ديوانه الثانى « النبضات » فقد طبع فى باريس . . وله ديوان آخر قدمه للمطبعة وعنوانه « مختارات من شعر جورج صيدح » :

ويقول جورج صيدح وقد سئل عن مذهبه الشعرى :

مذهبى هو أن لا يكون لى مذهب معين ولا أسلوب مفروض . على أنى مولع بالشعر الواقعى الذى ينبع من صميم الحياة اليومية ويعرض تجاربها فى صدق ويسر ، موشى بتهاويل الفن ، فلا هو من الألغاز المعماة ولا هو من الكلام العادى المقفى الموزون ، إن الواقعية الشعرية ترسم الحقيقة الموضوعية صورا موشاة

موشاة بأحاسيس الشاعر الباطنية وبألوان الواقع الخارجية . فيرتفع الواقع إلى مقام الفن دون أن يخرج من إطار الحقيقة . هذا وقصيدته « ساعة التحريج » شاهد على مذهبه هذا .

ويرى أيضا جورج صيدح أن الأديب المعاصر حائر بين القديم والجديد ، ولكن الأديب الشرقي قد بدأ يعترف بأن زميله الغربي راح يتحول مع الأدب الواقعي ، أدب الجماهير ، ويدور في دوامته ، ليخرج على الناس بأفكار جديدة تخاطب القلب ، وتتغلغل في أعماق النفس . . ومن هنا بدأ يتوارى ، على مر الزمن أدب كان يعتمد في الماضي على اللفظ المنمق ، والحلة المترفة التي تغرق في التصنع والافتعال !

وأحب الأدباء الشرقيين إلى قلبه هو توفيق الحكيم : . هذا الأديب الذي استطاع أن يلبس فكرته ثوبا بسيطا ، ولكنه - على بساطته - يضج بكل مظاهر الفتنة والإغراء . . والفكرة بعد هذا كله ، تمشى على الطبيعة - بثوبها البسيط دون أن تتزين ، وتتبرج ، وتعرض ثوبها المصطنع على الناس !

ولقد قرأ صيدح محاولات كثيرة لكتاب القصة في الشرق ، ولكن هذه المحاولات لم تصل بعد إلى مرتبة العمل القصصي الناجح . . إنها محاولات كثيرة تتأرجح ، وتتعثر ، لتنتهي إلى لاشيء . . بعضها ينقصه الحبكة ، وبعضها ينقصه الخيال ، وبعضها ينقصه الموضوع . . ولعل محمود تيمور هو القصصي الوحيد ، في الشرق ، الذي استطاع أن يستكمل جميع عناصر القصة القصيرة التي راجت سوقها هذه الأيام !

وقد ولد جورج صيدح في دمشق عام ١٨٩٣ ، وتلقى علومه الابتدائية في دمشق ، وفي عام ١٩٠٨ انتقل إلى مدرسة عينطورة ، وفي عام ١٩١١ سافر إلى القاهرة للتجارة . وفي سنة ١٩٢٥ ترك القاهرة إلى أوروبا فباريس ، فمكث فيها حتى سنة ١٩٢٧ ، وتزوج هناك بباريسية .

وفي أواخر عام ١٩٢٧ غادر باريس مع زوجته إلى فنزويلا ، وفي عام ١٩٤٧ غادر فنزويلا إلى الأرجنتين حيث ألقى عصى الترحال ، ليريح نفسه من عبء

العمل التجارى ، وليفرغ للأدب والشعر .

وفى فنزويلا أصدر مجلة شهرية باللغة الأسبانية كان ينقل فيها إلى قراء الأسبانية صورا عن أدبنا العربى فى ماضيه وحاضره .

وفى عام ١٩٥١ زار الشاعر صيدح سوريا ولبنان ، وكرمته الهيئات الأدبية فى الدولتين ، ففى دمشق كرمه النادى العربى ، ونوه به وبأدبه وشعره الأدباء : فؤاد الشايب ، أمجد الطرابلسى ، نزار قبانى ، أبوسلمى ، أنور العطار .
وفى مناسبة تقديم الوسام المهدى من الجنرال بيرون رئيس جمهورية الأرجنتين إلى هاشم بك الأتاسى رئيس الجمهورية السورية ، قال صيدح هذه القصيدة :

هشت سماء الشرق المغرب ولوحت بالشمس للموكب
بين الدرارى مركب طائر يشق باب الفجر فى الغيهب
ما أليق القادم بالمحتفى ما أعلق (الفضى) بالمذهب
جلالة تسعى إلى أختها من أفق رحب إلى أرحب
حتى إذا الغوطة ضمتهما صفقت الأركان فى يثرب
من مبلغ (بيرون) عن جلق تحية الأطياب للطيب
وإنها قصر له أخضر عن (قصره الوردى) لا يختبى ؟
عيدت الشام لوفد أتى من أبعد الأقطار عن يعرب
لكنه الأقرب من قلبها والقلب حنان إلى الأقرب
فتح بلا حرب سبيل الهدى نرسمه للفاتح الأجنبى
بشربه أيقظ ضمير الورى يا حامل الكوكب للكوكب
وسام « سانمرتين » أودعته صدر الرئيس الألمعى الأبى
حل يبارى سابقيه سنا كالبدر بين الأنجم الثقب
لم يعطه أترابه فسحة فزاحم الأمجاد بالمنكب
قل للأب الزاهد فى حمله حملت أوطانك عن الأب
حسب الرعايا أنه (هاشم) وحوله صحب كصحب النبى !
يفيض من (فيضى) سنا همة قعساء لم تتعب ولم يتعب

ويطلب (الجابي) على قرمه   فتــذعن الأقدار المطلب
ما أهنأ الشام بمن أنجبت   وأهنأ الأبناء بالمنجب
لولا رجال شرفوا قومهم   بسيرة أسمى من المنصب
ومثلوا النازحين الحمى   في شكله المستحدث المعجب
ما بادر النائي إلى واجب   فدله (الجابي) على الأوجب
ولم يجذف نحوكم بينما   يدفعــه التيار المغرب
سفيركم غذى معين الوفا   في المهجر القاصي فلم ينضب
مثولنا اليوم دليل على   أنا له أطوع من مركب
جئنا كما شاء وشاء الهوى   حمائم توجى إلى أعقب
مولاى ، هل للشعر من سامع   لا يحسب الشاعر ذا مأرب
أنا لسان ناب عن ألسن   ضاع صداها وهي لم تعتب
صادقة إن شكرت أوشكت   أنطقها الحب فلم تكذب
عدنا إلى فردوس أحلامنا   بذكريات الدار والملعب
نرى بأم العين أوضاعه   وننقل الأخبار للغيب
هذا عقيق الروض ، ذي فضة الأنهار ، هذا ذهب السبسب
هنا المراعي كم سرحنا بها   أضحت بلا راع ولا ربرب
الدرب قد الغاب في المنحنى   والقصر هد الكوخ في المضرب
والخصب في الوادي على غير ما   تعهده في الزمن المجدب
معاقل الأجناد منبثة   تقوم المعوج بالأحدب
وللصناعات رجالاتهــا   إن غولبت في الفن لم تغلب
أما السياسات فألوانها   لما تزل تركية المشرب
كل له من نفسه دولة   توطيدها أول ما يجتبي
في سلمه حرب على أهله   في حربه بكر على تغلب
يا ليته استأصل من نفسه   أثرتها يوم جلا الأجنبي
إذا لما بعت فلسطيننا   تستغضب العرب فلم نغضب
أنت لها يا قطب أقطابها   حي على إصلاحها هذب
الشعب من حولك ذو أهبة   والجيش قوام على المرقب
يكفيك أن تطلقها صرخة   ما أسرع النجدة في يعرب

وفى حفلة النادى العربى بدمشق أنشد صيدح قصيدته «أم النسور»:

أم النسوّر، تفرسى وتأملى … أعرفت وجه القادم المتهلل؟
هذا فتاك. إلى متى نكرانه … أو ليس فى ابد سمات الأجدل؟
ما عابه الجسم المهيض تبدلت … قسماته، والقلب لم يتبدل
هو من بزاة العرب، جشمه السرى … وأحاله صرف الزمان الحول
شرع القوادم للجهاد أسنة … عشراً. فان يجهل عليه يجهل
ولوى الجناح على الخوافى، عله … يخفى ضآلة ريشه المتهدل
قه يا عهد الصبا، أين الصدى … يحكى متى أعيت لهاة البلبل؟
غيرى ذكرت وقوفه وبكاءه … يا ليتنى بين الدخول وحومل
أغشى الحدائق أستميل غصونها … فتميل عنى كالرعيل المجفل
وأخالس الأزهار بعض طيوبها … فتصدنى ونباتها فى الشمأل
ذهلت عن الصب الذى رضع الهوى … من ثديها، والصب لما يذهل.
أفدى معذبتى التى عذبتها … أفدى تدللها على المتدلل!
هبنى جرحتك، ها أنا مستغفر … حاشاك يا وطنى ترد السهم لى!
وأنا الذى قربت روحى للحمى … وسجدت فى محرابه والهيكل
بدم الشباب خضبت ورد رياضه … ورجعت أغسلها بدمعى المسبل
ما زلت أستجديه حتى رق لى … بردى ومد زراعه فى الجدول...
غنى وثنى شاديا ومرحبا … أيكون من خطباء هذا المحفل؟
لولاك يا نادى العروبة لم أقم … من عثرة الآمال جد مؤمل
حييت فيك أحبتى فأجازنى … نثر المقفع بعد شعر الأخطل
فكأننى أبصرت وجه أمية … وسمعت معبد منشداً والموصلى
لا مست فى الأدب المخدر يقظة … فتحت نواظره على المستقبل
بشرى لعشاق البيان أزفها … نفض الغبار عن التراث المهمل
وتحفزت لغة الكتاب لوثبة … هدفت إلى النهج الجديد الأفضل.
قد يصلح (العطار) من شعرائكم … ما أفسدته سياسة المستعمل...
ويقوم من علمائكم من يلتقى … وهو الأخير زمانه بالأول.
إنى دخلت على عكاظ تطفلا … لولا قيام العذر لم أتطفل

طبع التغرب فى اللسان غرابة ... فاذا رطنت فمادة فى المقول
بقيت وقد زال الفراق فوارق ... بينى وبين الناطقين المثل
فاذا أردت الشعر يجمع بيننا ... أرسلته عيا ولم أسترسل
أمضى وقلبى فى دمشق رهينة ... أردعتها قاب الثرى والجندل
لغفرت للأم الجراح لو أنها ... شفعت بأختى من قضاء منزل(١)
فى جيرة الشهداء حلت منزلا ... وإخالها أخذت تهيء منزلى

وفى هذه الرحلة منحته سوريا وسام الأستحقاق السورى ، ومنحته لبنان وسام الأرز من رتبة فارس .

وفى صيدح قال أمين نخلة : جورج صيدح شاعر مليح فصيح ، ومن العجب أن يظل محافظا على ديباجته ، وهو تحت سماء غير عربية .

وقال ميخائيل نعيمة : صيدح من الشعراء الذين أطلق عليهم لقب شعراء المهجر ، ولكن شعره لم ينتشر فى الوطن كشعر زملائه أمثال : أبى ماضى ، والقروى مثلا ، فعلى أدبائنا هناك أن يصلحوا هذا النقص .

وقال بشارة الخورى : أتسألنى رأيى فى هـــذا الشاعر ؟ ألم ترنى فى حفلة إمارة الزجل كيف كنت أترنح لدى سماعى شعر صيدح .

وخلاصة حياة الشاعر أنه ولد عام ١٨٩٢ فى دمشق ، وتخرج من كلية عينطورا فى لبنان عام ١٩١١ ، ثم اشتغل بالتجارة فى القاهرة حتى عام ١٩٢٥ .. سافر إلى باريس ثم هاجر إلى عاصمة فنزويلا ، وبقى بها حتى عام ١٩٤٧ مشتغلا بالتجارة ، ثم تقاعد عن العمل وانصرف إلى الدراسات فى الارجنتين ثلاث سنوات . ومنذ سنة ١٩٥٠ وهو يقوم برحلات فى أقطار العالم ، ثم عاد إلى بيروت سنة ١٩٥٣ .

وأخيراً فهذه مختارات من قصيدة لشاعرنا العربى الكبير ، يقول صيدح من قصيدته « شفق » :

---

(١) لجع الشاعر بشقيقته بعد وصوله إلى دمشق بأيام قليلة .

أيدرم لنا هـذا الشفق   نتلاق فيه ونفترق
ونعود وعالمنـــا فتن   والشمس تلوب(١) وتنسحق
كمحارب قوم منهتـــك   لا ترس يقيه ولا ذرق(٢)
والأفق شفاه من لهب   وغـدائر شعر تحترق
والزهر يهق غـلائله   طيبا ، وكنهدك ينطلق
وعطور الغابة تحمل من   شهوات الأرض وتنعتق
وتهم شـذا ، فتلملها   شفة من نار تنـدلق
وأفكر فيك ولست أعي   قولا فى من سعدوا وشقوا
وتروع شفاهك لونها   وهـــج يحمر ويأتلق
تندى وكأن بها قبلا   تشتاق البوح فتختنق
وتذوب بصمت يحرقها   شهقات ذاب بها الشفق
ويمد الصيف إليك يدا   تتلظى ، فيهب العبـــق

— ٩ —

ويقول إيليا أبو ماضى من قصيدته « الطين » :

نسى الطين ساعة أنه طيـ   ـن حقير ، فصال تيها وعربد
وكسا الخز جسمه فتباهى   وملا المال كيسه فتمرد
يا أخى : لا تمل بوجهك عنى   ما أنا فحمة ولا أنت فرقد
أنت لم تصنع الحرير الذى تلـ   ـبس واللؤلؤ الذى تتقلد
أنت لا تأكل النضار إذا جعـ   ـت ولا تشرب الجمان المنضد
أنت فى البردة الموشاة مثلى   فى كسائى الرديم تشقى وتسعد
لك فى عالم النهار أمان   ورؤى ، والظلام فوقك ممتد
ولقلبى كما لقلبك أحلا   م حسان ، فانه غير جلمد

---

(١) تلوب : تعطش .

(٢) هو الترس من الجلد بلا خشب ولا عقب .

ثم يقول منها :

فلك واحـــد يظل كلينا   حار طرفى به وطرفك أرمد

قمر واحـد يطل علينا   وعلى الكوخ والبناء الموطد

إن يكن مشرقا لعينيك إنى   لأراه من كوة الكوخ أسود

النجوم التى تراها أراها   حين تخفى وعندما تتوقد

لست أدنى على غناك إليها   وأنا مع خصاصتى لست أبعد

ثم يقول :

ألك القصر دونه الحرس الشا   كى ومن حوله الجدار المشيد

فامنع الليل أن يمد رواقا   فوقه والضباب أن يتلبد

وانظر النور كيف يدخل لا يطلب إذنا فما له ليس يطرد

مرقد واحد نصيبك منه   أفتدرى كم للذر فيه مرقد

ذدتنى عنه والعواصف تعدو   فى طلابى والجو أقتم أربد

بينما الكلب واجد فيه مأوى   وطعاما ، والهر كالكلب يرفد

فسمعت الحياة تضحك منى   أترجى ، ومنك تأبى وتجحد

ألك الروضة الجميلة فيها الـ   ـماء والطير والأزاهر والند ؟

فازجر الريح أن تهز وتلوى   شجر الروض ، إنه يتأود

والجم الماء فى الغدير ومره   لا يصفق إلا وأنت بمشهد

ألك النهر ، إنه للنسيم الـ   ـرطب درب وللعصافير مورد

وهو للشهب تستحم به فى الـ   ـصيف ليلا كأنها تتبرد

تدعيه فهل بأمرى يجرى   فى عروق الأشجار أو يتجمد

كان من قبل أن تجىء وتمضى   وهو باق فى الأرض للجزر والمد

ألك الحقل؟ هذه النحل تجنى الـ   ـشهد من زهره ولا يتردد

لو ملكت الحقول فى الأرض طرا   لم تكن من فراشة الحقل أسعد

أجميل؟ ما أنت أبهى من الور   دة ذات الشذى ولا أنت أجود

أم قوى؟ إذن مر النوم إذ يغـ   ـشاك والليل عن جفونك يرتد

وامنع الشيب أن يلم بفوديـ   ـك ومر تلبث النضارة فى الخد

أيها الطين لست أنقى وأسمى   من تراب تدوس أو تتوسد

سدت أو لم تسد فما أنت إلا   حيران مسير مستعبد
لا يكن للخصام قلبك مأوى   إن قلبي للحب أصبح معبد
أنا أولى بالحب منك وأحرى   من كساء يبلى ومال ينفد

— ١٠ —

صفية أبو شادى : هى من أديبات المهجر وشاعراته ، تقيم فى واشنطون ، ووالدها هو المرحوم الدكتور أحمد زكى أبو شادى ، وقد ولدت فى وطنها مصر ، وتلقت تعليمها فيه ، ثم هاجرت مع والدها إلى أمريكا عام ١٩٤٦ .. وأكملت دراستها فى الجامعات الأمريكية ، وعملت فى عدة وظائف ، وهى اليوم فى الإذاعة العربية لمحطة صوت أمريكا .. وقد خرج لها فى القاهرة ديوان من الشعر الحر بعنوان « الأغنية الخالدة » .

وها هى ذى نماذج من شعرها الحر الجديد مما ينشر فى الديوان .. تقول من قصيدتها « سألونى » :

سألونى لم هذى التنهدات والدموع المنهمرات
سألونى لم هذى العزلة وسنة السكون تأبى الانفرد
لكل مخلوق صنوه وكل قلب يبحث عن صنو هواه
وأبيت إلا أن أبقى وحدى مع حزنى والذكريات
سألونى لم حبست نفسى فى برج عاجى لا باب له
وأدرت وجهى صوب النجوم وهجرت أهل الأرض
ونشدت أن ألمس القمر الوضاء وأن أقطف نجما من كبد السماء
وأن أحلق فوق أعالى الجبال ، حيث لا يبلغ صوت البشر
سألونى وسألونى وحرت جوابا ، فأبيت الإصغاء بعد .
ونظرت إلى الأرض فرأيت البؤس والشقاء ، والدماء تسيل
ففاضت دموعى وأشحت بوجهى ، وآثرت أن أبقى وحدى
مع حزنى والذكريات .

وتقول من قصيدتها « لحظة هاربة » :

أكان لقاؤنا لحظة هاربة
وقفة على عتبة الحياة واستراحة لطيفة
جاءت عفواً وبدون قصد ولا تدبير
وكان كل منا فى طريقه يسير
أفقنا ذا يوم فاذا بنا قد التقينا
ولم تعد الفيافى والبحار تعنى شيئاً لدينا
وإن كان قلبانا قد تناجيا قبل اللقاء
فقد تعانقنا على ود ونقاء وصفاء :
رشفنا من كأس السعادة قطرات معدودات
وذقنا طعم الهوى ولكن كسرات وفتات
وأقبلنا على الحياة بقلوب مترعة بالآمال
وطرقنا أبواب الأبدية فأبت أن تفتح
وعلى شاطىء الحياة وقفنا فى حيرة وذهول

ومن قصيدتها « متى تعود ؟ » تقول :

متى تعود يا صديق متى ؟
طال الفراق وفاض دمعى
وما زلت أنتظر . . .
بجوار نافذتى اتخذت مجلسا
وبرداء الليل الأغبر التحفت
وجلت ببصرى فى الفضاء الواسع
عبر السهول والوديان
إلى حيث ترنو الأنوار المتلألئة
فوق أعالى الجبال . . .
إلى حيث تترنح أشجار الصنوبر العتيدة
نشوانة والنسيم المتلهف يداعبها

إلى الأفق البعيد حيث الأرض
تعانق السماء فى قبلة أبدية .
فى الوادى ترقد المدينة الناعسة
مستظلة فى اطمئنان الطفل الوليد .
فاعالها حقلا من الأزهار المتناثرة الألوان
أو دبوسا من الماس يزين ثوبا من المخمل الأسود
طال انتظارى وأخذ الليل يرفع نقابه عن وجه السماء
ألم أسمع وقع قدميك تخطوان مسرعة فى الطريق المقفر
ولم أر وجهك الوديع يتطلع فى شغف ولهفة نحو النافذة الصغيرة
حيث جلست أنتظر . . .
أنتظر عودتك ياصديق
ولقياك بعد الغياب .

ومن قصيدتها « هيهات » تقول :

إليك أقدم باقات الزهر
وإليك أهدى نغمات شعرى
يطرب قلبى نشوة كلما سمع صوتك الجميل
يداعب أوتاره .
ويرقص فؤادى طربا كلما همست باسمى
بعطف وحنان .
إليك تتجه أفكارى فى يقظتى ومنامى
وإليك أرفع بصرى فى خشوع وابتهال
هيهات أن تخفف الأحلام لوعة الفراق .

- ١١ -

ومن قصيدة عنوانها « تحية الوطن » للشاعر ميشال مغربي نزيل سانباولو بالبرازيل ، وقد ألقاها في حمص مسقط رأسه يوم زارها بعد غياب عقود من السنين :

هذي تحية مدمعي الهطال ... يا أيها الوطن الحبيب الغالي
في يقظة ألقاك أم في غفوة ... من بعد أعوام مرون طوال
إني لأمحو للزمان ذنوبه ... وأكاد أحسبها من الأفضال
من أجل يوم واحد لا أرتضي ... بدلا به جيلا من الأجيال

* * *

ياحمص ، ياحمص الحبيبة مرحبا ... بنسيمك المتعطر الأذيال
برياضك الغناء ، بالأزهار ، ... بالأثمار ، بالأشجار ، بالأظلال
بديار أحبابي ، بأربع صبوتي ، ... بسرير أحلامي ، بأفق خيالي
أحجارك السوداء فتنة ناظري ... لا تلكم الأبهاء في « فرسال »
يا موطن الجندي يا فردوس ... ديك الجن يا نجواي في أغزالي
أن تنجب الشعراء لست بعاقر ... من خالد الشهداء والأبطال
السيف «سيف الله» أنت قرابه ... فبدرة الأمجاد جيدك حالي

* * *

عاصي ، يا عاصي ، ها أنا عائد ... خل الأنين ، وخف لاستقبالي
أواه ، واحر الفؤاد لجرعة ... من مائك المترقرق السلسال
وبضجعة فوق الضفاف طويلة ... ذكرا بضجعات الزمان الخالي
مستعرضا أشباح أمسي ناظرا ... في الشمس غاربة مثال زوالي
تمسي وتصبح باكيا متضاحكا ... أتظل يا عاصي حالك حالي ؟
طوباك إنك في إهابك لم تزل ... أما أنا فانظر إلى سربالي
الشيب في فودي شاع بياضه ... إلا بقايا من رسيب بالي
هذا حطام سفينة الآمال ... قته رياح اليأس فوق رمالي

* * *

حسرا امره على ربوع طفولتى   ومواكب الذكرى تمر حيالى
مترفق الخطوات لا أطأ الثرى   إلا وقلبى سابق لنعالى
ولقد أكب على الرمال مقبلا   وأعفر الأهداب بالصلصال
وأرى ديار أحبة ، حبى لهم   ما زال فى الأعراق والأوصال
فيمضنى ألا أرى جدرانها   تهتز من طرب بعود وصالى
تلك المنازل بدلت نزالها   فاليوم ما شوقى إلى النزال
شوقى لمن غدت القبور ديارهم   فكأنهم فى الحى منهم خالى
ولقد هرعت جوى إلى أرماسهم   دامى المحاجر خائب الآمال
وغرقت فى بحر الذهول تطوف بى   أشباحهم عن يمنتى وشمالى
وأنا الذى باع الشبيبة خاسراً   بجلاده وجهـــاده المتوالى
أثر النضال على الجبين تزينه   ما الاغتراب سوى حياة نضال
أوهل ترانى كنت يوما نازحا   إنى نوحت وما قطعت حبالى
من كان يصحبه هوى أوطانه   ولئن جلا عنها فليس بجال
هذى ، بنى وطنى ، تحية طالب   لبلاده خيراً وذخر معالى
شطر المهاجر لا تولوا أوجها   كالخاسرين ربوعهم أمثالى
أوطانكم أولى بكم وبسعيكم   وبما ملكتم من كريم خصال
ولأنتم أولى بطيب هوائها   وجمالها المزرى بكل جمال
كن فى الثرى يا موطنى أو فى السما   أهواك فى حلى وفى ترحالى
الأم تجمل فى عيون وليدها   حتى ولو فى أخلق الأسمال
حبى الحيا دون المواطن موطنا   فيه أرى دارى وأنظر آلى
ويظلنى علم الذى فى قلبه   يثوى صليبى فى جوار هلالى
لا يعشق الأحرار غير بلادهم   ولو أنها طلل من الأطلال

— ١٢ —

والشاعر القروى الذى أخرج ديوانا ضخما عنوانه «ديوان الشاعر القروى» منزلة رفيعة فى الشعر المهجرى ، وله الديباجة المتمكنة من اللغة والبيان أى تمكن ، والشعر الكلاسيكى فى أبهى حلله المصرية البليغة ، يقول الشاعر القروى رشيد سليم خورى من قصيدته «اجمل الأرض حيث كنت جنانا» :

صفرت نفس حاضر النفس فى ... أشبار أرض يعدها أوطانا
أنت حر فاستوطن البلد الحر ... وصاحب من أهله إخوانا
مثلك الكون والزمان فلا تلح ... مكانا ولا تذم زمانا
ليس فى ضمك الحديد هوان ... إن فى بثك الشكاة هوانا
بسمة تظهر الفقير غنيا ... دمعة تمسح الشجاع جبانا
فذاق الحياة بالبشر فالعيش ... نعيم إن لم تكن شيطانا
كن إله النضار ، إنك عندى ... لست شيئا ما لم تكن إنسانا
أشبع العقل حكمة واختبارا ... واملأ القلب رحمة وحنانا
ولك الأرض والسماء وهل ... يدعى فقرا من يملك الأكوانا ؟

ويقول من قصيدته « أين وجدت الله » :

هو الحب حتى ليس فى الأرض مجرم ... ولا مدمع يجرى عليها ولا دم
وحتى كأن القلب فى خفقانه ... يود به نطقا كما نطق الفم
فقل للذى لم يعرف الحب قلبه ... ولم يلف إلا شاكيا يتألم
أيا صاحبى إن العداء جهنم ... وما فيه من عز لتحلو جهنم
ويا صاحبى إن التجهم يقتضى ... من الجهد مالا يقتضيه التبسم
ألا كل دين ما خلا الحب بدعة ... ألا كل علم ما عداه توهم
ولا عجب أن ينكر الله كافر ... فماذا ترى من يجهل الحب يعلم ؟

ويقول من قصيدته « الغفران » :

قمت قبل الطيور أشدو حبورا ... لا أرى علة لفرط حبورى
مؤنسا وحشة الفضاء كأنى ... نبأ طيب سرى فى الأثير
وعلى وجنتى للورد ظل ... عائم فوق موجة من نور
أتهادى بين الغصون كغصن ... وأناغى العصفور كالعصفور
قلت : ربى ! أزال عهد شقائى ... أم أرانى فى عالم مسحور ؟
وإذا زهرة كوجنة طفل ... جنبها شوكة كناب هصور
فتذكرت ليلة الأمس حلما ... منذ أدركت سر هذا السرور
إن كف الرحمن تحت سكون الليل ... بالعفو غلغلت فى سريرى

فرمت نفحة من العطر فى قلبى   وعادت بشوكة من ضميرى !

والشاعر القروى - كما يقول الدكتور أحمد زكى أبو شادى - العلم الشامخ للشعر القوى فى دنيا العروبة .

ولئن عاش من قبل فى البرازيل ، فهو كالشمس أينما كان محله أضاء وأحيا ، وإن صدور ديوانه الكامل الضخم لحدث أدبى جليل ، فالديوان بمثابة كتاب قومى للعروبة جمعاء .

وقد ولد الشاعر فى ليلة عيد الفصح سنة ١٨٨٧ ، كما يقول فى مقدمة ديوانه ، ومسقط رأسه قرية « البربارة » على هضبة مشرفة على البحر الأبيض بين مدينتى جبيل والبترون من جبل لبنان ، وقد عرف أهلها بالقوة البدنية ، وبحلاوة الصوت لا يكاد يشذ منهم فى الميزة الأخيرة أحد ذكورا وإناثا ، وكان الشاعر من أسرة يجرى فى دمها حب الأدب والفن ، ونبغ فيها أكثر من شاعر ، وأديب وفنان .

ويمتاز الشاعر بولوعه بالأدب ، وافتنانه بالطبيعة وبروحه الإنسانية العالية وتضحيته بكل نفيس فى سبيل مبادئه الشريفة التى تدور حول إنصاف العروبة لتسهم الإسهام الواجب فى خدمة الإنسانية . وقد شغف بالطبيعة ، وهام بها ، يقول الشاعر القروى من قصيدته « بين الحقول » :

هل تذكرين لقاءنا فى روضة   سحرية والطير تهتف باسمك
والشمس تلقى فى المروج ظلالنا   عمداً لتحتفظ المروج برسمك
والنحل يطعمنى برشف لماك   والاغصان تغرى ساعدى بضمك
لما شغلتك بالزهور هنيهة   وشغلت عن شم الزهور بشمك
ثم ارتمينا بين أحضان الربى   تملين فى الغصن الندى كجسمك
وغدوت كالعقد النثير على الثرى   أعجزت أبلغ شاعر عن نظمك !

ولد الشاعر القروى كما قلنا بقرية البربارة من جبل لبنان ، وكان والده شاعرا أديبا فورث منه الشاعرية ، وتعلم فى قريته ، ثم فى مدرسة الفنون الأمريكية بصيدا ، فالكلية السورية الإنجيلية ببيروت ، واشتغل معلما فى مدرسة

طرابلس الأمريكية ، ثم فى الكلية الشرقية فى زحلة ، فدرسة الأمريكان فى سوق الغرب ، وهاجر الشاعر من وطنه إلى البرازيل عام ١٩١٣ حيث دعاه عمه إلى الهجرة ، وكان قد سبقه من قبل ، واشتغل بالتجارة فى البرازيل .

وفى عام ١٩٥٨ عاد الشاعر إلى سوريا ، وأقام فيها . . ويمتاز بروحه الوطنية العالية ، وهو وزميله إلياس فرحات يمثلان لحولة الشعر العربى فى المهجر ، ويؤثران الرصانة ، وصحة الأسلوب ، وبلاغة الأداء ، وتمكن القافية ، والسلامة اللغوية ، وقد ظهر ديوانه فى ٩٢٨ صفحة .

ومن شعره قصيدته « عيد البرية » فى ذكرى المولد النبوى ، مع أنه مسيحى إلا أن دين الإنسانية جعله يهتف باسم محمد الرسول ، قال :

عيد البرية عيد المولد النبوى ... فى المشرقين له والمغربين دوى
عيد النبي ابن عبد الله من طلعت ... شمس الهداية من قرآنه العلوى
بدا من القفر نورا للورى وهدى ... يا للتمدن عم الكون من بدوى
يا صاحب السيف لم تفلل مضاربه ... اليوم يقطر ذلا سيفك الدموى
يا فاتح الأرض ميدانا لقوته ... صارت بلادك ميدانا لكل قوى
يا حبذا عهد بغداد وأندلس ... عهد بروحى أفدى عوده وذوى
من كان فى ريبة من ضخم دولته ... فليتل ما فى تواريخ الشعوب روى
يا قوم هذا مسيحى يذكركم ... لا ينهض الشرق إلا حبنا الأخوى
فان ذكرتم رسول الله تكرمة ... فبلغوه سلام الشاعر القروى

الشاعر القروى رشيد سليم الخورى

- ١ -

كانت تربطنى بالشاعر الكبير رشيد سليم الخورى صلات روحية وثيقة منذ أمد طويل ، فقد كان لأدبه وشعره دوى فى العالم العربى لم ينقطع صداه . . وكان صديقنا الدكتور أحمد زكى أبو شادى رحمه الله ينقل إلينا صورا زاهية عن الشاعر القروى تحببنا فيه ، وتجمعنا حول أدبه .

ثم شاء الله أن يعود القروى الشاعر من المهجر ، وأن يترك سان باولو فى البرازيل إلى الجمهورية العربية المتحدة ، وأن ينزل على القاهرة بعد فترة ضيفا على وزارة التربية والتعليم المركزية ، وقد زار دار رابطة الادب الحديث زيارات عدة ، واحتفت به الهيئات الادبية فى القاهرة احتفاء يليق بمنزلة شاعرنا القروى فى الشعر المعاصر . ومكانته بين أعلام الشعراء المعاصرين .

- ٢ -

والشاعر القروى شاعر الوطنية العربية ومن الشعراء الذين نادوا بالوحدة العربية فى شعرهم ، وكان ميلاده فى قرية « بربارة » بلبنان عام ١٨٨٧ م ، وتلق تعليمه فى لبنان ، ثم اشتغل بالتدريس ، وورث الشعر عن أسرته ، وألهمته ثقافته العربية روائع القصيد ، وقد ظهر ديوانه الرشيديات ، وهو فى مقتبل العمر ، ثم هاجر إلى البرازيل ومعه أخوه قيصر عام ١٩١٣ م ، وكافح من أجل القوت والكفاف وفى عام ١٩٣٦ ظهر ديوانه الاعاصير ، وفى عام ١٩٤٦ ظهرت لامياته الثلاث مطبوعة ، وفى عام ١٩٥٣ ظهر ديوان الشاعر القروى الضخم يجمع جميع شعره ، ويقع فى نحو ألف صفحة .

والقروى ذو شاعرية محلقة ، وديباجة متمكنة من اللغة والبيان أى تمكن .

ويقول الشاعر فى مقدمة ديوانه : إنه ولد فى الخامس من نيسان ١٨٨٧ م ،

ويقول عن والده : إنه كان يجيد النثر والنظم ، وللشاعر أخوة أشقاء منهم : قيصر ويلقب بالشاعر المدنى ، ويقيم هو وأولاده فى سان باولو ، وفيكتوريا وتقيم هى وزوجها وأولادها فى الولايات المتحدة ، وفيليب ، وأديب ، ودعد ونديم ويقيمون فى البرازيل .

وتلقى الشاعر القروى تعليمه - كما يقول فى مقدمة ديوانه - فى مدرسة القرية ثم فى مدرسة الفنون الأمريكية فى صيدا ، ثم فى الكلية السورية الإنجيلية ببيروت . ثم اشتغل بالتعليم سبع سنوات متوالية فى مدرستى طرابلس والمينا الأميركيتين ، وفى مدارس أخرى حتى هاجر إلى المهجر الأمريكى فى البرازيل .

وفى مقدمة ديوان الشاعر القروى تفصيل أسباب هجرته :

- ٣ -

وحياة الشاعر فى المهجر الأمريكى الجنوبى كانت حافلة بألوان الكفاح ، والنضال الأدبى ، وكان يعيش معه فى سان باولو رفقة من الأدباء العرب المهاجرين ، ولكنه شغف بمتابعة الأحداث السياسية فى الوطن العربى ، وبالنظم فيها ، وكان طوال حياته شديد الإيمان بالوطن الأم ، وبالقومية العربية ، وفى ذلك يقول : « تساهلنا فى وطنيتنا شر علينا من تعصبنا لأدياننا » ويقول : إن وطنية العربى ما كانت قط اعتداءاً أثيما ، ولا حقداً لئيما ، إنها رسالة تكبير وتوحيد ، ودعوة تعاون على البر ، ويقول : إن العروبة شعار الأمة العربية ، وروحها وشمس أوطانها ومهوى أفئدتها وملتقى ما تعدد من أقاليمها ولهجاتها ، وهى دين الأمة الشامل . . وهكذا يتفجر إيمانه بالقومية العربية والوحدة العربية من أعماق قلبه ، فيقول : العروبة أن يشعر اللبنانى أن له رحلة فى الطائف ، والعراق أن له فراتا فى النيل . . ويقول يصور حبه للعروبة والعرب : « أنا واحد من سبعين مليونا من العرب ، كل واحد منهم أنا ، فينبغى أن أحبهم سبعين مليون ضعف حبى لنفسى » . . وقد وضح هذا الاتجاه فى شعره وضوحا كبيرا . . ومن ثم نجده يقول فى شعره :

أمتى أنا مكثراً وطنى أنا مكبراً

— ٤ —

والقروى رأى فى الشعر سجله فى مقدمة ديوانه ، قال : الشعر أرفع الفنون ، والشاعرية كاللانهاية لا حدود لها ، وكل ما يقع ولا يقع تحت الحس فى هذا الوجود العظيم يستحق أن يكون موضوعا للشعر ، ويعلل ظهور اللون الوطنى الحماسى فى شعره فيقول : لقد سلب اللصوص نصيب أمتى من خبز الحرية والعدالة والحق ، وما شعرى الحماسى إلا ألم صارخ من أغوار نفس أزعجت عن ذلك المحل الأرفع ، ومثله العليا ، فهى دائمة الحنين إليها ، والتوجع لفراقها :

والقروى يفتخر بأمجاد العرب فى كثير من قصائده ، ويقول :

مهلا أخى مهلا ظلمت ولم تكن	لولا العروبة بالأخ المستمهل
تالله لم هذا الجفاء لأمة ؟	ما أنجبت غير المهم المخول
أتريد أعظم من أبى بكر ومن	عمر إذ انتسب الكرام ومن على
أتعف أوراق العروبة فى ربى	لبنان وهى نضيرة فى يذبل
ماذا يضيرك لو جمعت المجد من	طرفيه من صنعاء حتى ييبل

وفى نكبة فلسطين — وكان جرحها عميقا فى نفسه — يقول عاتبا لإخوانه العرب من قصيدة له فى ذكرى المولد النبوى :

يهنىء بعضكم بعضا وإنى	أهنى النفس أنى لا أهنى
أرى تفاح هذا العيد جمرا ولو	قطفوه من جنات عدن
والمس ناعم الأزهار شوكا	وأنشق عطرها نتنا بنتن
ويطرف ناظرى حسن الغوانى	ويجرح مسمعى شدو المغنى
أأرضى والرسول قتيل غيظ	وأفرح والمسيح شهيد حزن

وهكذا نجد شعره الوطنى والقومى واضحا كل الوضوح فى شعره يقول من أبيات له وجهها إلى « دول الاستعمار » :

جهلت لساننا ولنا حديث	يترجمه لكم عنا الحسام
يبلغه مكان الفهم منكم	وصيغته كلوم لا كلام

ويقول فى وعد بلفور :

الحق منك ومن وعودك أكبر ... فاحسب حساب الحق يا متجبر
تعد الوعود وتقتضى إنجازها ... مهج العباد خسئت يا مستعمر
عد ما تشاء بما تشاء فإنما ... دعواه خاسرة ووعدك أخسر

ويقول من قصيدة له فى فيصل يوجه الخطاب إلى السفير الإنجليزى :

وما شأن ملك سامه العبد ذلة ... وأبرق صعلوك عليه وأرعدا
وكم تاج ملك صار نيرا لربه ... وكم صولجان عاد فى العنق مقودا
أيزعم ذو القرنين .. أنك عبده ... ومثلك من يلقى السلاطين أعبدا
ليعلم عبيد التاج أنك سيد ... تزيد به التيجان مجدا وسؤددا

ويقول الشاعر القروى ينادى بالحرية الناس جميعا ، الحرية بأوسع معانيها ، وأضخم مدلولاتها :

أنت حر فاستوطن البلد الحر ... وصاحب من أهله إخوانا
مثلك الكون والزمان فلا تلخ ... مكانا ولا تسب زمانا
ليس فى قضمك الحديد هوان ... إن فى بثك الشكاة هوانا
بسمة تظهر الفقير غنيا ... دمعة تمسخ الشجاع جبانا
فتاق الحياة بالبشر فالعيش ... نعيم إن لم تكن شيطانا
كن إله النضار إنك عندى ... لست شيئا مالم تكن إنسانا
أشبع العقل حكمة واختبارا ... واملأ القلب رحمة وحنانا
ولك الأرض والسماء وهل يد ... عى فقيرا من يملك الأكوانا

وقد وصفوا الشاعر القروى بأنه قديس الوطنية العربية ، يقول الشاعر نظير زيتون عنه : ولد الشاعر القروى مع الأعاصير فى الغابات ومع الزلازل فى الجبال ومع الصواعق فى البحار ، ولد مع الندى فى الفجر ومع الأزاهير فى الربيع ، ومع البلابل فى الجنان ، ومع الجمال فى نشوة نيسان ، ولد مع الأسطورة فى عبقر ، ومع الأنبياء فى الوادى المقدس ، ومع الرؤى فى ومضة الروح ، ومع السحر فى أهداب العذارى ، ولد مع أمته فى شروقها وغروبها ، وماومد جزرها :

وقد وبخ الشاعر القروى الملوك والأمراء والحكام العرب الذين كانوا سوط عذاب على بلادهم مع الاستعمار الأجنبي ، اقرأ له وهو يقول من قصيدته لسلطان الأطرش :

فتى الهيجاء لا تعتب علينا   وأحسن عذرنا تحسن صنيعا
تمرستم بها أيام كنا   نمارس فى سلاسلنا الخضوعا
فأوقدتم لها جثثا وهاما   وأوقدنا المباخر والشموعا
إذا حاولت رفع الضيم فاضرب   بسيف محمد واهجر يسوعا
« أحبوا بعضكم بعضا » وعظنا   بها ذئبا فما نجت قطيعا
فياحملا وديعا لم يخلف   سوانا فى الورى حملا وديعا
غضبت لذات طوق حين بيعت   ولم تغضب لشعبك حين بيعا

ويكشف الشاعر القروى سر تغلغل الجانب الوطنى فى شعره فيقول من حديث له مع مجلة مصرية ـ آخر ساعة ـ فبراير عام ١٩٦٠ :

هاجرت إلى البرازيل من قريتى « البربارة » فى أول شهر آب (أغسطس) سنة ١٩١٣ بعد أن ضاعت ثروة أبى ، وظللت أشهرا لا أجد بارة واحدة ، وفى ولاية ميناس فى البرازيل . . تعرضت لأشد ألوان الفقر ، ثم انتقلت إلى ريودى جانيرو فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وهناك كنت أرتزق بتعليم العزف على العود ، ثم بالتدريس فى إحدى المدارس ، ثم انتقلت إلى سان باولو عام ١٩٥١ ، ورحت أعمل فى التدريس فى بعض المدارس العربية والأجنبية ، ثم تركت التعليم لأنصرف إلى العمل معتمدا لبعض المحلات التجارية ثم اشتدت على الأزمة من الناحية المادية إلى أن أوسع الله على بعد أن تعرفت إلى أحد الفتيان ممن يهوون العزف على العود فأعطيته بعض الدروس ، وهكذا انفرجت أزمتى .. وتاجرت مرة أخرى ، وظللت ٣ سنوات أصنع الكرافتات فى نفس مدينة سان باولو ، ولكننى بعد ذلك أقفلت مصنع الكرافتات لضياع نصف رأس مالى . وكان الشعر فى ذلك الحين هوايتى الأولى وكانت هناك جالية لها أندية وجمعيات وصحافة ، وكانت تقيم الحفلات بكثرة ، فى سبيل الأغراض الاجتماعية والوطنية ، وكانوا يدعوننى لأقول شيئا من الشعر فألبى دعوتهم ، فكثرت الحركة الفكرية ، وكنت أراقب هذه الأحداث بنفس ثائرة وأصورها بشعرى»

وكان ذلك هو أول عهدى بالجهاد الأدبى فى « سان باولو » التى كنا نسميها عاصمة الوطنيين ، أى حاملى اللواء ، هؤلاء الشبان ، الذين كانوا يوغلون داخل البلاد للاكتشاف والتعمير .

وكل الحفلات كانت تحتاج إلى القصيدة والأنشودة ، وقد كنت اللسان المعبر عن ذلك ، وفى البرازيل كان أعداء العروبة يأخذون على هذا الهوس بالشعر الوطنى الحماسى ، وبالذات حينما كنت أردد مثل هذه القصيدة التى أسائل فيها أبا الطيب المتنبى . . وبدأ ينشد بعض أبياتها :

بشاعرها فلتفتخر كل أمة ... يهددها بالموت والعار طغيان
إذا طويت أعلامها فهو بيرق ... وإن أخمدت أنفاسها فهو بركان
يهز رفات الغابرين صراخه ... فتنشق أرماس وتنحل أكفان
وتبعث أبطال وتمضى صوارم ... وتنشر أعلام وتنصف أوطان

— ٥ —

ولما عاد الشاعر القروى إلى وطنه العربى عام ١٩٥٨ ، ووطئت قدمه أرض سورية كرمته الدولة ، وألقى فى حفل تكريمه قصيدة وطنية رفيعة جعل عنوانها « عودة الشاعر » ، وذلك فى نيسان عام ١٩٥٩ ، ويقول الشاعر فيها :

حتى م تحسبها أضغاث أحلام ... سبح لربك وانحر أنت فى الشام
لم يأذن الله يا بوق العروبة أن ... تقضى الحياة غريبا بين أعجام
وكنت فى أبعد الأمصار أقرب من ... أهلى إلى وأخوالى وأعمامى
أضناك طول السرى والسير يا ولدى ... فاطرح رداءك وامسح جرحك الدامى
هذى عيونى وجنانى وفاكهتى ... فاملأ يديك وبرد قلبك الظامى
وارتع بقلبى واسبح كالشعاعة فى ... عينى ونم بين أهدابى وأحلامى
يا آل جلق يا أزكى الأصول إذا ... باهى السراة بأصلاب وأرحام
حسبى بكم شرفا أنى على ضعتى ... كأن كل ملوك الأرض خدامى
أعيت بيانى وشكرانى عوارفكم ... يا أكرم الناس بالغتم بإكرامى
كم لائم لامنى فى حبكم سفها ... فبدله القرب حسادا بلوام

لبيت بالفرح المجنون دعوتكم ... وإخوتى ورفاق دمعهم هام
يا يوم جدد فى الحضر آيته ... لما أطلت على بيروت أعلامى
والوحش منفغر الشدقين يرصد لى ... والبغى أسطوله خانق وقدامى
أعدى على بظهر الفلك شرذمة ... عن تضرروا على فتك وإجرام
لم يجدهم طول إغرائى بصحبتهم ... فحاولوا حين عيل الصبر إرغامى
هموا بأخذى فثارت كل محصنة ... وكل حر عريض الصدر همام
من إخوتى السمر من أشبال ناصر من ... مصر العزيزة من أرض الدم الحامى
فأدبر البغى مدحورا وعدت إلى ... سربى وقلت لها يا مقلتى نامى
وبت ليلى وعين الله تحرسنى ... حتى وضعت بأغلى الترب أقدامى
فى اللاذقية فى شط يمت إلى ... بربارتى بجمال جل عن ذام
فى أرض قومى فى الدنيا التى احتكرت ... أقطارها كل آمالى وآلامى
ما الأرز والشام إلا توأما وطن ... وأمة بالنجوم الزهر متآم
وسرت فى موكب الأحرار مرتقيا ... إلى صلنفة من سام إلى سام
ترى الصفا بين خضراء الربى انتثرت ... على بساط من الاستبرق النامى
هشت عليها الغصون الوارقات كما ... هش الرعاة على قطعان أغنام
والحور يخفض للسماق هامته ... كما تواضع جبـــار لأقزام
والريح تهمس والأفنان فى قلق ... كأنها عاشق يصغى لنمام
مد السماط فلم أشهد سوى نجب ... صيابة من لباب العرب أعلام
فرسان علم على خيل مجنحة ... تغزو السماء بأوراق وأقلام
فاقوا الليوث كما فاقت عرائنهم ... شتان بين فراديس وآجام
وعدت ريان من ماء ومن أدب ... شبعان من خبز أرواح وأجسام
تغذ بى وأصيحابى مطهمة ... لا تستقاد بإسراج وإلجام
مطالها من وعود الغرب مصطنع ... وبوقها من أغانى عمها سام
ما أدلجت موهنا إلا وناء بها ... أطواد علم وأخلاق وأحلام
كواكب يهتدى السارى بصحبتهم ... ويأمن الركب من ظلم وإظلام
من كل ندب كنصل السيف منصلت ... طلق المحيا كثغر الفجر بسام

القفر أمرع حولى من بشاشتهم ... ونافست ليلتى فى الحسن أيامى
فلم نزل بين تمريض وتضحية ... ولم نزل بين إحجام وإقدام
حتى بلغنا بها الفيحاء فارتبعت ... قريرة العين مثل رغم أسقامى
حيث العروبة شدت إصر وحدتها ... وأسلم الأمر ضرغام لضرغام
حر بنى وأخ حرانم فيــا ... ليعربيين بناء وتمــام
إذا فشت علل التفريق فى بلد ... داوت يد الحزم إعلالا بإدغام
فالأرض تياهة العطفين راقصة ... على الأهازيج فى مصر وفى شام
كم قبلة لهما عبر الخضم وكم ... تحية فى السحاب المرسل الهامى
لنجرفن السدود السود بينهما ... بمارج من لظى مهدودها طام
أنا العروبة لى فى كل مملكة ... إنجيل حب ولى قرآن إنعام
سل عهد شامى وبغدادى وأندلسى ... عن عمق فلسفتى عن عدل أحكامى
ما اخضوضر الشرق إلا تحت أقدامى ... وازدهر الغرب إلا تحت أعلامى
تمشى البطولة والسحر الحلال معى ... فالأرض مسرح آساد وآرام
نقشت فى الشمس طغرائى وما برحت ... مرسومة فى جبين البدر أختامى
ما غيرت نكبات الدهر من شيمى ... وإن طوت فى ثنايا الترب آطامى
حطمت أشرس ضار فى جزيرته ... ما ابتل نعلى ولا دنست أقدامى
فارتد عن بورسعيد جيشه كلما ... خطت على الرمل أو أشباح أقلام
كم نبضة من فؤادى فى عمان لها ... قصف يدك الصياصى فى بكنهام
وزأرة من جبال الأطلس اخترقت ... كالنصل سمع المصلى فى نتردام
لا أسأم الحرب ما طالت وما حزبت ... فالعام كاليوم حين اليوم كالعام
حتى أفوز بحق غير منتقص ... ويذعن الخلق إنشائى وإتمامى
والحق أغلب والأعداء جانحة ... للسلم بعد رضى أو بعد إرغام
وابنى فتى النيل حلانى بجوهرة ... عزت على كل غواص وعوام
من بيك عبد المرامى والدمى فأنا ... والحمد لله قد حطمت أصنامى
شغلت قلبى بحب المصطفى وغدت ... عروبتى مثل الأعلى وإسلامى
بناصرى وبأسوانى فخرت إذا ... باهى الدعى بفرعون وأهرام

عاقن الذى أدب الطاغى وكبكبه ... عن السويس ذليلا خافض الهام
وع ذكر كل عظيم حين تذكره ... وقف دقيقة إجلال وإعظام
فما رمى رمية إلا مسددة ... ولا خطا خطوة إلا بإلهام
كم خطبة كالندى والجمر منه شفت ... أكبادنا وشوت أكباد ظلام
نفوسهم تحت أطباق الثرى ضمة ... وشرهم بين أفلاك وأجرام
ما قط كلهم إلا وكلمهـم ... كأن ألفاظه من حد صمصام
ولا رأوا رسمه إلا لحرقتهم ... ودوا لو انتقموا من كل رسام
وزاعمين مساواة وأسودهم ... من أرض آبائه فى دار أيتام
ما ضنة العبد إن قيست بسمعتهم ... فى الأرض إلا شذا ورد بأكمام
لا يستبين المصلى فى كنائسهم ... إن كان يصغى لقس أو لحاخام
حرية للملوك المال خاضعـة ... تساق فيها الرعايا سوق أنعام
فما الرئيس وأتباع الرئيس لهم ... إلا الأرقاء فى أزياء حكام
ما ضر إيدن لو تمت أناقته ... أو كان بدل أخلاقا بهندام
يود بالنفس لو ردت مكانتـه ... ولو قضى العمر فى أطمار فحام
ألوخة الدرس أم سيناء غارقة ... من العـدى بجنود أم بأرقام
محام الله منها عوة تركت ... فى مهجة الغرب جرحا غير ملتام
لما تحالف أثلاثا على بطل ... فرد خبير بعلم الكسر حطام
قام الزمى على ساقيه منتصبا ... ولم يزل جاثما فى أرضه الدامى
ينام ذو البغى فى المهد الوثير على ... جمر الصلال ويمشى فوق ألغام
قل الأولى سخروا بى وازدروا أدبى ... من خائن وشعوبى ونظام
وكل هشام أعراض له قلم ... وغد وليس له عرض لهشام
وشامت بى مسرور بحرقى مستـشف بدائى ملتذ بآلامى
قولوا له مرحبا تقعدوا عليه فان ... يسلم فثنوا بقرآن وإسلام
كم من سيوف على أعدائكم شهرت ... صيغت مضاربها من قلبى الدامى
وراية حرة فى جوكم خفقت ... حيكت حفائفها من غزل أوهامى
ما أبعد النقطة السوداء عن صحفى ... وما أعز التقاء الدال واللام

آمنت بالنصر إيمان الذى لمست ... كفاه لا خارص بالغيب رجام
خروشوف كنت على الأفواه أغنية ... فلا تبيعن تمداحا بتذمام
حاطاك ناصر كأس الود صافية ... وجل كأسك عن ريب واتهام
تأبى العروبة أن تنفى الصديق لكى ... ترضى العدو ويأبى دينها السامى
والحق لم يعل إلا بعد أن ضربت ... ألطاف ربك هداما بهدام
قيض بغداد لم تبرح مزورة ... بعروة تتحدى ألف مفصام
ما أقرب الوحدة الكبرى معجزة ... أحلام كل شعوبى وقسام
سيان بعد التلاق يا بلادى لو ... خلدت أو حكم الطاغى بإعدامى
أما وجمت؟ ألم أنشق هواك؟ ألم ... ألثم ثراك؟ ألم أسمعك أنغامى
أحس بالراحة الكبرى كأنى قد ... طرحت فى البحر عنى كل آثامى

ومن قصيدته « عرائس الإلهام » ، وهى القصيدة التى أنشدها الشاعر القروى فى نادى متخرجى الجامعة الأمركية ببيروت مساء الأحد فى ٢٧ – ١٢ – ١٩٥٩ أثناء الحفلة التكريمية التى أقامتها له جمعية إنعاش القرية :

إلام تبيت الليل رهن الهواجس ... تطوف بوادى عبقر شبه يائس
وحولك من لبنان فى كل مسرح ... مراح ومغدى للظباء الأوانس
نواعس أجفان إذا سهد البكا ... عيون اليتامى كن غير نواعس
زنابق طهر ما تحال مسها ... ولا شمها إلا لثم المعاطس
حوال وراء الدر بالعلم والحجى ... روافل بالأخلاق تحت الاطالس
أيستلهم الغيلان فى القفر واجد ... من الأنس حورا رتعا فى الفرادس
ويسأل عن جنية الشعر من له ... عرائس إلهام كهذى العرائس ؟
تحية روحى ، بنت قومى : تحية ... ذكت كبخور العيد ملء الكنائس
وشكر غريب عن أخيه وأخته ... فقير إلى القلب الحنون المؤانس
أرى الناس حولى لا يعد عديدهم ... وأكثرهم فى كل شىء معاكس
أودع صفوى حين أدعى لمجلس ... فوا فوعى من جو تلك المجالس
أبثن لهلاهى وأنعى حقوقهم ... ويعمى عيونى بالدخان مجالسى

فلم أر كالانذخين فى الضر عادة ... مقاربها يؤذى بها كالممارس
فرانس إدمان أجارى بذنبهم ... قتيلا بقتلاهم فريس الفرائس
وويدك رهن المحبسين فاننى ... من الزهد والحرمان رهن المحابس
أمر من الحساد فى كل بلدة ... باطلال أخلاق كبيتى دوارس
ضننت على نفسى لانفع غيرها ... وعشت كأهل البؤس من أجل بائس
ولولا إباء عن جدودى ورثته ... لبت الليالى غارقا فى الطنافس
يفيض على السعد من كل جانب ... فأجمله وقفا على كل تاعس
كأنى طود كلل الثلج هامتى ... وفاضت سفوحى بالعيون البواجس
هدمت نظيرى فى وفائى لامتى ... فقل عشيرى حين قل مجالسى
فلا أشرب الوسكى يصدرها العدى ... ولو كنت علق الخزمن عهد باخس
ولا كنت المستعمرين مواليا ... ولا ابتعت منهم منذ جيل ملابسى
وكم غادة فى الغرب أنكرت حبها ... وأعرضت عن أملودها المتمايس
كعنترة العبسى إن يدعنى الحمى ... إلى البأس إلا أننى غير عابس
وما ضرنى الا أسل مهندا ... وأورى زندا من وراء المتارس
فرب خطاب لى يسوق كتيبة ... وقافية ترمى العدى بالفوارس
وكم غارة لى « بالأعاصير » حمحمت ... وضجت بأبطال الجهاد الاشاوس
بروحى ملأت الارض نسلا مباركا ... بنى تلاميذى . بناتى مدارسى
بتلقيح أفكار وغرس مبادىء ... سلوا كل أحرار الحمى عن مغارسى
تناسل أرواح الورى بجسومهم ... فيالى شيخا عانسا غير عانس
وشيخ كريم أطربته قصائدى ... وهزته هز العضب فى كف فارس
فأسهنى ما دمت حيا هدية ... تليق بسلطان على العرش جالس
تفجر نفطا أسودا فأردها ... بيمناى نبراس الليالى الدوامس
ككف أمير « جابر » كل عثرة ... ووجه « صباح » داحر كل دامس
على عبقريات البلاد حبستها ... وأعظم بمحبوس عليه وحابس
فلا هى عندى فى البنوك تجمدت ... ولا ذاب منها درهم فى الخسائس
أسالت لعاب الطامعين وأرجفت ... لرخصها أنى حسود منافسى

يحاول سبق الموت فى حجب غيثها ‏ ‏ بقلب جديب الحس كالصخر يابس
ولا خير فى خل نشيد بحبـــه ‏ ‏ جهارا ويجفونا لهمسة هامس
نودعه عند الرواح بقبلة ‏ ‏ ويغدو كأنا بيننا حرب داحس
لتنفث أفاعى الغدر كل سمومها ‏ ‏ ويضرب عداتى سادسا إثر خامس
فما كان صدرى للضغينة موطنا ‏ ‏ ولا كان رأيى مهملا للسائس
شغلت بموسيق الكواكب مسمعى ‏ ‏ بعيدا بعيدا عن هيم الخنافس
« شهابى » رأيى فى الخطوب « وناصرى »
بقينى بأن الله لا شك حارسى

— ٦ —

وينادى الشاعر القروى بأدب قومى فيقول من بحثه : « أدب اللامبالاة أدب الشماتة والعقوق » ، وقد كتبه ردا على الأستاذ وديع ديب فى كتابه « الشعر العربى فى المهجر الأمريكى » الذى ملأه هجوما على القروى وشعره :

نحن أحوج إلى أدب يخشاه المستعمرون ، لا أدب يكونون هم أول ناشريه ، والداعين إليه والمروجيه . وبالاختصار أنكم تهملون كل الإهمال ما يجدر بكم أن تعنوا به كل العناية . فأنت ، كسواك من معظم مؤلفى الكتب فى الشعر المهجرى ، قد حشدت فى كتابك ما حشدت من الأمثلة على الحنين والغزل ، والتفلسف والأمومة ، والتصوف ، وما إلى ذلك من النواحى ، ولكنك أعرضت إعراضا تاما عن الحماسيات . ولم تقدم شاهدا واحداً من هذا الشعر الذى بصدوره عن القلب ، ودفاعه عن أنبل مطالب الحياة ، يحقق شرطين جوهريين من شروط الشاعرية ، وقد بلغ بك أن تجانفت عنه ، حينما اتفق دنوك منه . كأن فيه برصا . فانك لما ساقك إلمام الشعر المهجرى بالطقوس الدينية ، إلى إيراد مثل من قصيدتى « وداع قنديل » جئت بهذا المخمس :

فقل لمن ضلوا سبيل الهدى
وضاع فيهم كل نصح سدى
يا وطنى عنك نفضت اليدا
فمن يحاول عنك دفع الردى

حاول أمراً دونه المستحيل

ثم قفزت منه إلى مرادك ، فأظهرت الشاعر ، وتركت القارئين معه ، في هذا التشاؤم اليائس ، وأكلت عليهم المخمس التالي الذي فيه الرجاء والبره والعافية :

لا ! لا ! ستحيا رغم أنف الزمن
بل أنت حي رغم هذا الكفن
ما دام حر واحد في الوطن
فهو بهذا الحر حر وإن
عاش به مليون عبد ذليل

ولو أنك يا أخي الوديع قاطعت الشعر الوطني مقاطعة سلمية لحسب ، لهان الخطب ، ولكنك أبيت إلا أن تشهر عليه حربا . باختيارك منه ما استعبت ، واتخاذه جسراً للهجوم على ناظمه بلواذع الكلم . فهل ذكرت من هذا الشعر الذي يسمع بلادك المستعبدة صوت الحرية ، والذي يعمر به ديواني البالغ ألف صفحة غير بضعة أبيات وجدت فيها مغمزاً لقناة أو مجالا لتعريض ؟ ألم تعم عن كل ما في عينية « سلطان الأحارش والتنك » . من الفن الذي طالما أعجب أقرانك ، محاولا تدمير أقوى أبياتها التي آسف أنك لم تحسن تأويل المراد من مخاطبتي السيد المسيح فيها على هذا الشكل المستثير المستنصر ؟ :

أحبوا بعضكم بعضا وعظتنا	بها ذئبا فما نجت قطيعا
فيا حملا وديعا لم يخلف	سوانا في الورى حملا وديعا
ألا أنزلت إنجيلا جديداً	يعلمنا إباءً لا خنوعا
أجرنا من عذاب النير لا من	عذاب النار إن تك مستطيعا

فهل من دليل على صدق هذا الشعر أنصع من تهافتنا على أقدام هذه الدول الغربية التي تحتقرنا ، واستمرارنا على احتمال صفعاتها المتوالية بروح فقدت كل إباء ؟ وأي خير وأي جمال ترجو الإنسانية على أيدي أدباء يجبنون عن ذكر مآسيها ، فيتغاضون عن الظالمين . ويغذون بأدبهم الأفيوني روح الاستعمار .

إنى ما عرضت قط فى شعرى لدين أو الكفر كباحث فى العقائد ، بل مستغرا إياها البلاغ الوطنى الذى وقفت عليه معظم أدبى وحياتى :

إنها رسالة الحرية الفكرية ، والجرأة الأدبية ، والغيرة الوطنية . التى مع كل تطرفنا المزعوم منك ، لم نبلغ فيها حد الضرب بالكرابيج فى الهيا كل . . . هى التى أملت علينا ما أنكرت . وإننا لنعجب كيف خطر على بالك أننا اقتبسناها من تعاليم نيتشه أو غيره من الغربيين ، وعندنا المعلم الذى صاح فى وجوه فريسى زمانه « يا أولاد الأفاعى » . وأخوه الذى هتف بعده بستة قرون : قل الحق وإن كان مرا . إننا عن هذين المعلمين الأكبرين أخذنا ، ولسنا نتطلب من أى أديب عربى ، لكى يتلمذ لها معنا . أكثر من أن يساوى وطنه بدينه ومذهبه . . وأن يضع أمته وبلاده موضع أسرته وبيته ، وهذا كل السر فى الفرق بيننا وبين الذين ينقمون منا غلونا فى الوطنية ، إذ كيف تنتظر من امرىء أن يغضب وهو لا يشعر أنه أهين . . . أو أن يقاوم ، وهو لا ينذر بعدو .

القروى جرفته القوافى فى تيارها . . . القروى استهواه تصفيق المنابر . . . القروى ما نظم الكثير من شعره الوطنى إلا وفى نفسه شوق إلى اعتلاء المنابر وتصفيق الناس . . . القروى يستدرجه المنبر إلى ما يرضى عباد المنابر الخشبية . . . القروى فى شعره تطرف فى القول تأباه النفوس . . . القروى يميل إلى مجاملة الخاصة وإرضاء العامة وتهريج النقاد . . . إلى غير ذلك من التهم الباطلة ، والتجنيات الجائرة ، حتى ليستغرب المطالعون تخصيصك القروى بهذه الشدة فى نقدك . فبعض يكاد لا يخفى ريبته فى عدم تمييزك ، وبعض يغالى فيقول : كأنك لم تؤلف كتابك إلا لتشن هذه الغارة على . وانك ما تداركتنى بشفة من الشكر فى تقريظك إلا لأستسيغ ما جرعتنى من الخروج فى نقدك .

أما أنا فانى لم يخامرنى شك فى نبل شعورك نحوى ، وعذرك عندى أنك تصوبت التصفيق على أبيات معدودة أكرمتنى بعض مواقفى تمام الاستشهاد على

أن ألمس فيها وتر الدين ، وأتصدى لنزعة روحية قد يكون لها فى نفسك جذور عميقة ، وإليها مرد حملتك المتطرفة على ، ومثلك كثير من خلص إخوان الأدب الذين يحسون إحساسك ، ويمضهم من هذا الشعر ما مضك ، ولولا الكياسة التى يفرضها عليهم أدبهم وثقافتهم لما اختلفوا فى هذه النعرة عن عامة الناس ، وأنا أعرف هذا الضعف فيهم فأعذرهم وأحبهم كما أعذرك وأحبك :

ولكن إذا برأتنا هذه النزعة الموروثة من سوء القصد ، فان تاريخ جهادنا القومى لن يبرئنا من سوء مغبتها على الوطن . إنها عبودية ثانية أشد علينا من عبوديتنا السياسية ، وعلى الدين الصحيح والأدب الصحيح أن يتعاونا على تحريرنا من كلتيهما . إن الأمة العربية واستقلالها وبقاءها ، ومثلها غيرها من أخواتها الشرقيات الرازحات تحت نير الغرب ، لأهم عندى بكثير من رجل فرد يقيم فى عاصمة الرومان . . . أنا عرضت بالسان من أجل مبدأ . من أجل أمة منكوبة . من أجل سلام الإنسانية التى تبشر أنت أكثر منى بخيرها وسعادتها ، وأنت ذممتنى علنا من أجل إنسان ، مهما سما قدره فانه يخطىء ، ويصيب كسائر الناس ، وقد أساء قبل إلى نفسه ، باساءته إلى ذلك المبدأ ، وتلك البلاد ، وهذه الإنسانية . فما أعظم الفرق بين حملتى وحملتك يا أخى . وما كان أقربك إلى العدالة لو أنك حولت عظاتك إلى الذين تهز رياح البغى جبالهم ، ولا تهز الريشة . . . التى بين أناملهم ، ولا يثورون كالعاصفة إلا على من يثور من إخوانهم على الظلم ، ويكافح الاستعمار ، وينشد الحق السليب ، ويذود عن الحمى المستباح .

وما كان أولاك بأن تقول معنا الذين يسمون دفاعنا هجوما ، ونظلمنا ظلما ، ويعدون كل هبة ريح ساكنة منا تطرفا : ألا ساء ما تتصورون يا إخوانى وما تحكمون ، لئن كنتم ترفعون عن التعاون مع حماة الوطنية أمثال فرحات والقروى فدعوهم على الأقل وشأنهم . لكم دينكم ولهم دين .

وهل يتهم « بالهوس » حسب تعبيرك ، والتعصب الأعمى لوطن أو دين يا عزيزى الوديع من يخاطب علم بلاده بمثل هذه الأبيات :

إن كنت الحق فلتخضع لك الأمم   أو كنت الظلم لا حييت يا علم

إني أعيذك من مجد يغض له ... جفن الإباء ويستحيي به الكرم
قد يحسب المرء نذلا وهو منتصر ... وقد يعد شريفا وهو منهزم

وهل يكون مثل هذا النفس الهابط المحلق . الذي يستدبر نجوم الأثرة ، والذي يضع القيم الأخلاقية في أعلى مرتبة ، شعرا سياسيا إقليميا عقيما . كما يطيب لبعض الناقدين ، والمقصرين في مجاله أن يدعوه ؟ وإني لأربأ بعلمك الغزير يا أخي أن تعوزه الزكانة التي لاغنى عنها لمن يمارس النقد ، وإلا فكيف توفق بين اعتقادك ورأيك المتناقضين . اعتقادك الذي أقابله بأعظم الشكر وعدم الادعاء ، إني « في نظرك أخلص شعراء العرب للقومية العربية لا تستثني منهم أحداً » ورأيك « أني ما نظمت الكثير من شعري الوطني إلا وفي نفسي شوق إلى اعتلاء المنابر وتصفيق الناس ؟ » أيجتمع الإخلاص والرياء في صدر ذي رسالة نبيلة كمن وصفت ؟ وهل روى التاريخ أن حرا بعيد الهم . كبير مراد النفس ، ألقى بالا إلى « تصفيق العامة ، ومجاملة الخاصة ، وتهريج النقاد ؟ » .

المضحك المبكي أني كثيرا ما أرضيت العدو ، وأغضبت الصديق . فيما رأيته حقا جهرت به ، أو باطلا حملت عليه :

لأقول كل الحق حين عدوي ... الراضي وحين صديق المستاء
فلكم تنكر لي صحاب لم أرد ... إغضابهم وتشكر الأعداء
العدل قسطاس بكفي قائم ... العرب والأفرنج فيه سواء
خلق أموت عليه غير مهاود ... ولو أن خسران النعيم جزاء

إني مثلك لا أجحد فضل وطننا الصغير الحبيب لا على البلاد العربية وحدها بل على كل بلاد هاجر بنوه إليها ، وأنه « كان بوق التحرر ورسول النهضة الأدبية والفكرية لمن حوله » ولكن كل هذه الحسنات القلبية لم تغنه عندنا عن حريته التي لو أرادها في ذلك الحين لما عدم وسيلة غير السيف يعلن فيها رغبته ، وحملتنا الثورية عليه لم تكن لقعوده عن الجهاد فحسب ، بل لأنه كان بالانتداب راضيا ، وله طالبا ، وعلى من أراد تحريره منه ثائرا :

صبرنا على عيش من الذل أنكد ... وأنكده ألا ترى العيش أنكدا

وكانت مصيبة أحراره به أشد من مصيبته بالمستعمرين :

ما إن ذممت غريبا يستبد به … إلا أتاني ذم من أهاليه

ولذلك إذا تمعنت في قصيدتي ـ عيد استقلال لبنان ـ وأما الآن ـ تعلم بأية محبة وغيرة ولهفة ورحمة كنت أحمل على حبيبي الأول إجلالا له عن حياة الهوان ، وهذه الروح المتجلية في أقوالي ، تجسمت مرارا في أفعالي ، فأنى حينما أبصرت راية الأرزة ـ الأرزة البريئة من أي شعار أجنبي ـ ترفرف لأول مرة في مطار صنبول . وسمعت صدى « كلنا للوطن » يتجاوب في سماء مهاجرنا السحيقة ، طغى شعوري بالعزة القومية حتى كاد يتفجر صدري وطفقت أبكي وأنشج كالطفل الصغير ؛ لشدة فرحي ، وأحسست في تلك الساعة السعيدة ، إني أستطيع أن أقبل ألف أسخريوطي يختال على صلبي ، وأن أجرف العداوات كلها بفيض العاطفة المقدسة التي غمرت قلبي ، ولقد عبرت عن هذا الشعور الطاغي ، والروح السمحاء ، ببيتين من قصيدة حال من لا أسميهم دون إلقائها في المهرجان : حيلولة أضافت حسكة جديدة حادة في إكليل الشوك الذي ما ضفره لي غير اللبنانيين إخواني ، والذي طالما أدمى جبيني وفؤادي في سبيل حرية وطنهم وطني ، وهاك البيتين :

لنمح خطايانا بدمع سرورنا … عفا الله عما لفقته الجرائد
تعالوا أقبلكم فلبنان جنة … ولا يستحق العيش في الخلد حاقد

ولقد أفرط يوما بعضهم بالتبجح حتى خيل إلى سامعيهم أن لبنان لم ينل حريته إلا بجهادهم وتضحياتهم فأخرجني مفكرتي وكتبت :

للاستقلال يوم المجد معنى … هدمتم روحه أثرا وعينا
فلو عادت حبيبتكم لعدتم … وعدنا للنضال كما ابتدينا

فيا أرباب البيان ، ويا أساطين الفكر في شرقنا العزيز ، إن الأمة العربية ، أمتنا لا سواها ، على شفا جرف من التفريد العام ، والافناء التام ، وعلى أدبها ، قبل أي جندي فيها ، أن يفتح العيون على هذه الحقيقة المرعبة ، لا أن يوسعهم خمضا وسياحة في عوالم الأحلام . إن في الكلمة لسرا يحيي ويميت وليس في هذا الأدب الذي شهره كل اهتمامنا صلاح لأمة مدنفة ، بل هو إلهي

باضعاف القوى والإجهاز على الضعيف ، وما احتجمنا بالأدب الانسانى إلا كل من لا يعد قومه فى الناس ، أو كل عريض الدعوى ، يتطاول إلى الأبعد ، وهو يقصر عن الأدنى .. وانى لأعيذ كتابنا وشعراءنا ، اللاهين منهم بالزهور والخمور والشهوة الحمراء ، والمعالجين منهم كل فنون النظم والنثر . ما عدا أدب الواقع المرير ، أدب الحاجة الملحة ، أدب النضال الطبيعى الشرعى فى سبيل البقاء ، أدب الرجولة والحمية والنخوة والنجدة والتعاون على البر بالأهل والأوطان ، الأدب الذى هو اليوم وحده دون سائر ألوانه ، بوق بعثنا ، وكوكب رجائنا ، وخبز كياتنا ، وعماد بليائنا . انى لأعيذ هؤلاء الإخوان العباقرة ، ان يحيروا التاريخ يوما ، فى أى عصر وجدوا ، ومن أى أمة كانوا .

- ٧ -

وفى شعر القروى جوانب عدة من شعر الوطنية والقومية وشعر الوجدان وشعر الطبيعة وشعر التصوير والشعر الانسانى ، وتعد قصيدته « حضن الأم » من أروع قصائده وأجلها . ويشتمل ديوانه الضخم على المقدمة ، والبواكير والأعاصير وهى مختارات من شعره الوطنى ، والزمازم ، وشعر المحافل والمجالس ، وزوايا الشباب ، والموجات القصيرة . والأزاهير :

وقد أهدى ديوانه إلى روح أبيه ، ومن أروع قصائد الشاعر : « تحية الأندلس » ، و « عيد الفطر » التى يقول فى مطلعها :

صياما إلى أن يقطر السيف بالدم   وصمتا إلى أن يصدح الحق يافمى

وقصيدته « إلى شباب العرب » تعد من روائع شعره ، وكذلك قصيدته « أين وجدت الله ؟ » ، وقصيدته « اليأس » ، « والدمعات العشر » وسواها من روائع شعره .

والقروى شاعر مؤمن بنفسه وبكرامته ، يقول فى قصيدته « أنا إن ثرت » :

أنا إن ثرت أو شكوت فما ثر   ت لبطل ولا شكوت لعجز

بعدت همتى فعفت كنوز   الأرض لما عرفت قيمة كنزى
لا أبالى شبعت أم جعت والفن   شرابى وعزة النفس خبزى
ذل قومى ذلى وإن كنت أغنى   الناس طرا ، وعز قومى عزى

وروائع شعره فى الطبيعة كثيرة ، تدل على هيامه بها وفنائه فيها ، وعشقه لها إلى حد بعيد .. يقول القروى :

مررت بأترابى التاجرين   فلم ألق إلا العبوس الوقورا
فملت إلى الحقل حيث الصغار   تناغى الطيور وتجنى الزهورا
فهل صار كل رفاق كهولا   وهل أنا وحدى ظللت صغيرا
فأسمعنى الطير عند الصباح   جواب الطبيعــة لى تنشد
بنى ولدتك طفلا جديدا   فقل للرفاق الألى تمهـد
لقد ملأ الأرض أولادكم   وأنـتم إلى الآن لم تولدوا

— ٨ —

والقروى من زعماء المدرسة الكلاسيكية المجددة المعبرة عن الشاعر وانفعالاته وأحاسيسه وتجاربه ، ولا يكاد يجاريه أحد فى حسن الديباجة وجمال الأداء وروعة التصوير ورقة التناول .

إنه شاعر من أعماق نفسه ، شاعر رفاف الشاعرية حلو الموسيقى عذب الأداء جزل الأسلوب .

إنه شاعر فى شتى صوره ، وفى ارتعاشات فنه ، وفى كل ما يتصل بشعره وشاعريته .

القروى الشاعر كما عرفته

- ١ -

شاعر فى رقة الهواء ، وصفاء الماء ، طارت شهرته فى كل مكان ، وهزت شاعريته العرب فى كل قطر ، وسارت أغانيه وأناشيده القومية والوطنية على كل لسان ورددت أهازيجها على كل فم .

شاعر عاش مؤمنا بعروبته ، مخلصا لقوميته ، مضحيا فى سبيل إيمانه الوطنى بكل غال ونفيس .

عاش منذ عام ١٩١٣ فى المهجر الأمريكى الجنوبى فى البرازيل ، بعيدا عن الوطن العربى الأم .

ومع ذلك فقد ظل يعيش لينشر فكرة العروبة والقومية العربية ووحدة شعوب العرب بين إخوانه المهاجرين فى امريكا ، وبين أبناء عمومته العرب فى شتى البلاد العربية .

لم يفته حدث وطنى عربى إلا تحدث عنه ، ولم يترك محنة سياسية لشعب عربى إلا ونظم فيها ، جاهد القوميين فى المهجر وفى سوى المهجر بقصائده الرفيعة ، وناضلهم بلسانه العربى البليغ ، نضالا مرا جريئا قويا لا هوادة فيه .

كان القروى ينظر إلى الآفق لعله يحمل إليه نسيما يهب من وطنه العربى ، أو يحمل إليه نبأ يبشره ببدء البعث فى العالم العربى ، وكان يتنقل بين البرازيل والأرجنتين يخطب فى وفود المهاجرين ، يبث فيهم روح الإيمان بالعروبة والقومية العربية ويذكرهم بذكريات المجد الخالد لآبائهم العرب الميامين ، ويشعل فيهم روح العروبة القوية الكمينة لتظل شعلتها المقدسة خالدة فى قلوبهم وفى عقولهم خلود أمجاد العرب وبطولاتهم .

هذا هو الشاعر القروى رشيد سليم الخورى ، الذى لم يتغير على مرور الزمان ، ولم يحد عن العهد ، ولم يترك قضايا أمة العرب لحظة من لحظة حياته المجيدة الكريمة .

- ٢ -

وعاد الشاعر القروى من أرض الغربة إلى أرض الوطن عام ١٩٥٨ فاستقبلته دمشق الفيحاء واستقبلته أرض العرب استقبال الأم الحنون لابنها البار الذى طالما كان يحن للقائها ، والذى طالما ردد فيها قوله :

أخت العروبة هيىء كفنى   أنا عائد لأموت فى وطنى

وبين سورية العزيزة ولبنان الجبل العربى الأشم قضى القروى شهورا جميلة يفىء فيها إلى ذرى وطنه ، ويلثم ترابه ، ويشم عبق زهرة ورده ، وفى يناير عام ١٩٦٠ وصل القاهرة ضيفا على مصر العربية ، ليشرف على طبع ديوانه الذى قررت الدولة طبعه على نفقتها تقديرا منها لجهاد ابن من أبر أبنائها ، ولكفاحه فى سبيلها أكثر من ربع قرن قبل اغترابه ونحو نصف قرن وهو فى المغترب .

هذا الشاعر الذى بدت بواكير شاعريته فى مثل قصيدته الرائعة « لو ترين » التى يقول فيها :

أين ياهند أنت أين   لترى آه لو ترين
شبحا باسط اليدين   يسكب الدمع جدولين

أحمرين

شفه الحزن والجوى   فهو أحنى من الهوا
كلما أن للنوى   أرسل الآه مرتين

مرتين

إن شكا اغرورق النسيم   وبدت فى السما غيوم
وتجلت على النجوم   حيرة الدمع وهو بين

عاملين

لاصق الجسم بالتراب   عالق الجفن بالسحاب

كل أيامه عذاب ليس يروى عن عاشقين

هائمين

تارة يركب القطار تارة يركب البحار

يشهد الليل والنهار أنه بين نارتين

مرتين

من وداع إلى وداع ليس فى ليله شعاع

ضربات بلا انقطاع أيها الدهر بين بين

بين بين

كل حظى من الوجود قلم ناحل وعود

وأنا والورى مجرد أتسلى ببلبلين

شاديين

إيه لبنان هل يراك هائم شفه هواك

حبذا العيش فى حماك حبذ العيش ليلتين

ثم حين

وفى هذه القصيدة الجميلة يبدو طابع شعر القروى فى عهد الشباب واضحا جليا ، هذا الطابع الرومانسى الحالم البعيد عن القيود والحدود .

ثم أخذت نفسه تفىء إلى حقيقة الواقع الأليم فى وطنه العربى الذى كبله الاستعمار بالسلاسل والأغلال ، فأخذ يشدو فى أعاصيره بوطنياته الرفيعة ، ويردد مثل قصيدته : « الاستقلال حق لا هبة » ، « ووعد بلفور » ، « ونكبة الشام » ، « وصيحة للجهاد » ، « وسقوط أورشليم » ويردد مثل قوله من قصيدته عيد الفطر :

صياما إلى أن يفطر السيف بالدم وصمتا إلى أن يصدح الحق يافمى

أفطر وأحرار الحمى فى مجاعة وعيد وأبطال الجهاد بمأتم

أكرم هذا العيد تكريم شاعر يتيه بآيات النبى المعظم

ولكننى أصبو إلى عيد أمة محررة الأعناق من رق أعجمى

إلى علم من نسج عيسى وأحمد وآمنة فى ظله أخت مريم

وفى المهجر برز الشاعر القروى بوطنياته الرفيعة ، وبشعره فى القومية العربية ووحدة العرب ، ونظم فى شعر الطبيعة ، ووصف بره بالأمومة ، وتحدث عن أمانيه الإنسانية وعن مشاعره ووجدانه ، حديث الشاعر الحكيم .

وتقرأ له فى قصيدته « أوما فى العرب ؟ » مثل قوله :

زعم الأغرار أنى شاعر   ضيق الآفاق محدود الحدود
وستبلى وطنياتى التى   رفلت منها البوادى فى برود
والتى يحسد هداب الضحى   خيطها المفتول من حبل وريدى
إن يكن غير الذى قد زعموا   واضياعى بين أصنام الجمود
أو يكن للموت قلب واثب   فى ضلوعى كلما نادى ونودى
و« الأعاصير » التى اجتحت بها   أعظم الموتى كأجفان الرقود
و« التسابيح » التى رتلتها   لبنى أمى على أنات عودى
ففدى استقلال قومى شهرتى   وأغاريدى وشعرى وخلودى
جعلوا الرقة مقياسا وما   أبعد الرقة عن تلك الكبود
أرأيتم شاعرا تطربه   أنة الثكلى على رطب وحيد
ويرى إخوانه تثرثم   زمزع البغى على كل صعيد
وهؤلاء ينسب الشعر على   رنة الكأس بقد وبجيد
ليس هذا شاعر الخلد كما   وهموا بل شاعر « العصر الجليدى »
ليس فيهم منصف يخبرهم   أننى شاعرهم رغم الجحود
قبل أن أجتاز عقدا ثانيا   زنت جيد الدهر بالعقد الفريد
أى فن من فنون الشعر لم   أقرع الأفذاذ منه بشرود
أنا للحب وللحرب معا   وقوافى لمن شاء شهودى
لست بالمزهو لكن أدبى   صنته عن كل مهذار بليد

وتقرأ له كذلك مثل قوله من قصيدته « جئناك » يفتخر بقومه فى مجال الأدب والشعر :

يا منكرا أدبى هديت إلا   إنا من صميم عشيرة الأدب
من دولة الفن التى عصمت   وتنزهت عن مدع وغبى

من أسرة النور التى تركت • ليل الغرور بمرق الحجب
الفجر أختى والصباح أخى والشمس أمى والنهار أبى
لا تنكروا عجزى وقلبى فى نارين من حزن ومن غضب
أنى يجيد الشعر مضطرب أوطانه نهب لمنتهب ؟

ومن روائع قصائده فى المهجر قصيدته « أما الأولى » ، وقصيدته « حضن الأم » ، و « الأزهار الغريبة » ، و « زهرة ليوفى » ، و « تسبيحة الحب » ، و « أين وجدت الله ؟ » ، و « الربيع الأخير » ، و « اليأس » التى يقول فى مطلعها :

هل بينكم من راحم قائل يزحزح الأيام عن كاهلى
يقذف بى فى درك اللج لا يلفظنى موج إلى ساحل

ـ ٣ ـ

ووفد الشاعر إلى مصر ، فكرمته هيئاتها الأدبية وأدباؤها وشعراؤها ، تقديرا لجهاده الطويل فى سبيل أمته ، فى رابطة الأدب الحديث نوه به وبأدبه : السحرتى ووديع فلسطين والخفاجى وعبد الجبار وعبد المعطى جلال وحليم مترى وجليلة رضا والدكتور مندور ورضوان ابراهيم وسواهم ، وفى حفلة التكريم الرسمية التى أقامها له مجلس الفنون والآداب الأعلى تحدث السادة : كمال الدين حسين وطاهر الطناحى ومهدى وعلام ومحمد طاهر الجبلاوى وصالح جودت وعبد الله شمس الدين ومحمد أحمد وسواهم وفى منزل القائد العربى عبد الله التل تحدث القائد الكبير التل والأديب الفلسطينى كامل السوافيرى والشاعر محمد الحومانى والشاعر الكبير على الجندى فنوهوا بادب القروى وبوطنيته ، وفى ندوة الشاعر خالد الجرنوسى تحدث خالد وشمس الدين والشاعر على الجندى ومحمود جبر وسواهم ، فنوهوا بالقروى وبشعره ، وفى ندوتى جمعية الشبان المسلمين احتفى الأدباء ، عزيز أباظة وعبد المنعم خلاف وعمر الدسوقى ومصطفى السحرتى وأحمد الشرباصى وسواهم بالشاعر القروى فكرموه وكرموا وطنيته وشعره ، وفى ندوة الأستاذ ابراهيم فودة وندوة الأستاذ عبد الله عبد الجبار كرمه الأدباء والشعراء واحتفوا به احتفاء بالغا .

وفى حفل الاتحاد القومى بالسويس ، وفى أعياد الوحدة ، وفى شتى الحفلات الأدبية التى أقيمت لتكريم الشاعر ، تحدث القروى وأنصتت له الجماهير مكرمة محيية محتفية به وبأدبه خير احتفاء .

« هذا هو الشاعر القروى الذى يتسم بالغيرة على مستقبل أمته ، وبالحب العميق لعروبته ، والذى جمع إلى رقة الخلق وداعة النفس وصفاءها وعمق الروح وسموها ، ونبل الضمير والوجدان والمشاعر ، حيا العروبة بأدبه ، والعروبة اليوم تحييه وتهتف به وبأدبه ، ترد له بعض ماقدم ، وأوفى بعض ديونه التى طوق بها جيد العرب فى كل مكان ،

إن ديوان الشاعر القروى بيواكيره التى تنتظم ديوانيه « الرشيديات » ، المطبوع فى سنة ١٩١٦ « والقرويات » المطبوع عام ١٩٢٢ فى سنبولو بأعاصيره وأزاهيره وبرمازمه ومحافله وبشتى أبوابه وفصوله دليل عبقرية فذة وشاعرية محلقة ، وموهبة جليلة .

إيليا أبو ماضى

– ١ –

وفجأة مات الشاعر العربى إيليا أبو ماضى ، بعـــد أن ردد اسمه على كل لسان ، وغنى بشعره فى كل مكان ، إن إيليا أبا ماضى حى بقصائده الرفيعة ، وأدبه الإنسانى ، وموسيقاه الرائعة ، وقصصه الجميل ، وتسلسل الحركة والصور فى شعره تسلسلا عجيبا ، إنه شاعر الصور ، والتجارب الباطنة العميقة ، والإيحاء الذاتى المؤثر . »

مات إيليا فى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٥٧ عن ثمانية وستين عاما ، إذ كان مولده عام ١٨٨٩ م . مات بعد أن حمل – كما يقول الأستاذ الكبير والشاعر المبدع محمد عبد الغنى حسن – « لواء الشعر العربى فى المهجر ، وكانت أنغامه عزاء المنكوبين ، وطمأنينة الحائرين ، وابتسامة فى وجه الزمان إذا عبس ، وأثبت كيان الفكر العربى فى العالم الجديد » .

وقد بلغ أبو ماضى غاية نضوجه الشعرى فى (الجداول) ، ولا سيما فى قصيدته (فلسفة الحياة) التى تعـــد من أشهر شعر أبى ماضى وأروعه (١) ، والنزعة الإنسانية سائدة فى شعره ، وتتردد فيه النزعة الواقعية أحيانا ، والنزعة التأملية ، وهو من شعراء الطبيعة ، وله العديد من المطولات الشعرية التى من بينها : الحكاية الأزلية والطلاسم .

– ٢ –

وفى الجداول نجد نزعة الحيرة والتفاؤل بالحياة جد ظاهرة ، وقصيدة الطين تعد من أشهر قصائد أبى ماضى ، بل من أشهر القصائد فى الشعر العربى الحديث :

نسى الطين ساعة أنه طين   حقير فصال تيها وعربد

---

(١) ص ١١ إيليا رسول الشعر العربى الحديث للناعورى .

ويعقد الأديب الأردنى الكبير روكس العزيزى شبها بينها وبين قصيدة الرميثى التى كانت هى الأصل الذى احتذاه أبو ماضى وأخذ منه معانيه ، وهو ينظم قصيدته ، وقصائده . (المساء) ، (وزهرة أقحوان) ، (والعميان) ، (واليتيم) ، (والمجنون) : (والأشباح الثلاثة) من القصائد المشهورة ، ومن روائع الديوان قصيدته (الطلاسم) :

جئت ، لا أعلم من أين ، ولكنى أتيت
ولقد أبصرت أمامى طريقـــا فمشيت
وسأبقى سائرا إن شئت هذا أو أبيت
كيف جئت ، كيف أبصر ت طريقى ، لست أدرى

والقصيدة لها شهرة ضخمة لا تعادلها شهرة ، وفى قصيدته (اليتيم) يقول أبو ماضى :

خبرونى ماذا رأيتم ؟ أأطفالا يتامى أم موكبا علويا
كزهور الربيع عرفا زكيا ونجوم الربيع نوراً سنيا
والفراشات وثبة وسكونا والعصافير بل ألذ نجيا
إننى كلما تأملت طفلا خلت أنى أرى ملاكا سويا
قل لمن يبصر الضباب كثيفا إن تحت الضباب بحرا نقيا
اليتيم الذى يلوح زريا ليس شيئا لو تعلمون زريا
ربما كان أودع الله فيه فيلسوفا أو شاعرا أو نبيا

— ٣ —

أما ديوان الخمـــائل فمن أشهر قصائده : (الشاعر والملك الجائر) ، و (الفراشة المحتضرة) ، و (الأسطورة الأزلية) ، والديوان مملوء بروائع الفن القصصى الشعرى البديع ، مع الموسيقى العذبة ، والألحان الجميلة ، يقـــول أبو ماضى فى الخمائل من قصيدته (أنت والكأس) :

أنت والكأس فى يدى فلمن أنت فى غدى ؟
فاستشاطت لقولتى غضبا فى تمرد

وأشاحت بوجهها وادعت أنى ردى
كاذب فى صبابتى ماذق فى توددى
قلت : عفوا فانها سورة من معربد
وجرى الصلح والتقى ثغرها وثغرى الصدى
أذعن القلب طائعا بعد ذلك التمرد
فنعمنا هنيهة بالولاء المجدد
بين ماء مصفق وهزار مغرد
ثم عادت وساوسى فأنا فى تردد

إلى آخر هذه القصة الحائرة ، وفى قصيدته « أنا وابنى » يقول أبو ماضى :

قال ابنى وهو حيران بما يحكى ويقرأ
كيف كان الله إنى قد وجدت الله سرآ
أسمع الناس يقولون به خير وشرا
فأفدنى ، قلت : يا ابنى أنا مثل الناس طرآ
لى فى الصحة آراء وفى العلة أخرى
كلما زحزحت سترا خلتنى أسدل سترآ
لست أدرى منك بالأمر ولا غيرى أدرى

— ٤ —

وإيليا (١) ابن « المحيدثة » تلك القرية الوادعة إحدى قرى لبنان الجميلة ، ولد فيها عام ١٨٨٩ م ، وفى عام ١٩٠٠ وفد على مصر مهاجرا ، وأقام فيها إحدى عشرة سنة بين الإسكندرية والقاهرة ، يعمل فى التجارة ، ويهوى الأدب ويحضر ندواته ومجالسه ، ويكتب فى صحفه ومجلاته ، وينظم الشعر ، ويشارك الشعراء فى تذوقه وفهمه ، متأثرا فى موسيقاه الحلوة بمدرسة شعراء الإسكندرية وفى عام ١٩١١ نشر ديوانه « تذكار الماضى » ، وفى العام نفسه هاجر إلى العالم

---

(١) راجع ص ٩٧ وما بعدها « الشعر العربى فى المهجر » للاستاذ محمد عبد الغنى حسن .

الجديد مقيما فى سنسناتى ، وفى صيف عام ١٩٢٦ انتقل إلى نيويورك يعمل فى الميدان الأدبى ، وأسهم فى الرابطة القلمية التى أنشئت فى نيويورك ، وتولى رياستها جبران خليل جبران ، وإن لم يكن من الذين حضروا أول اجتماعاتها فى أبريل ١٩٢٠ . وفى عام ١٩٢٩ أنشأ جريدة « السمير » بنيويورك ، وكانت من أوسع المجلات العربية ذيوعا فى العالم الجديد .

وفى المهجر الأمريكى أخرج ديوانه « ديوان إيليا أبى ماضى » عام ١٩١٦ (١) ، وطبع فى نيويورك ، ويشمل شعره التأملى والوطنى والقصصى ، ثم نشر عام ١٩٢٧ ديوانه « الجداول » الذى طبع فى مطبعة مرآة الغرب فى نيويورك ، وقدم الديوان للقراء ميخائيل نعيمه ، وفى عام ١٩٤٦ أخرج ديوانه « الخمائل » (٢) . وبقى من شعره مجموعات كبيرة لم تجمع فى ديوان .

وخطرات أبى ماضى الفلسفية ، وقوة الفكر وتركيبه ، وعمق التجربة وحيويتها ، وحيرته بين التفاؤل والتشاؤم والانطوائية والانبساطية ، وموسيقاه العذبة الجميلة التى تجدها فى كثير من قصائده ، ومن بينها قصيدته « تعالى » التى يقول فيها :

تعالى نتعاطاها كلون التبر أو أسطع

وكذلك انطواء الرمزية فى موضوعه الشعرى أو تجربته مع الإبقاء على الصياغة المألوفة ، وصبغة الرمزية الفلسفية فى بعض قصائده ، من مثل « الطين » التى تتضمن محاورة بين غنى متكبر ، وفقير وديع ، ومثل « التينة الحمقاء » التى تؤامر نفسها على ألا تثمر كى لا يطرقها طير ولا بشر ، واتجاهه إلى اتخاذ موضوع قصيدته من أتفه الموضوعات فى مثل قصيدته « الحجر الصغير » . . كل هذه من خصائص شاعرية أبى ماضى الذى يعد من فحول الشعراء الابتداعيين فى الشعر العربى الحديث .

---

(١) يذكر الناعورى أنه صدر عام ١٩١٩ ، ص ١١ إيليا أبو ماضى رسول الشعر العربى الحديث طبع عمان .

(٢) فى المرجع السابق ص ١١ أنه خرج عام ١٩٤٠ ، وأعيد طبعه عام ١٩٤٩ .

— ٥ —

إن إيليا خالد في روائعه .. وموسيقى أبي ماضي وطيوف القصة وملامحها في شعره ، وشتى ألوان الجمال التي يصبغ بها شعره ، وروح البساطة والوضوح والصدق التي ترفرف على قصائده ، كلها من عناصر الخلود في أدبه ، وقد لا يستطيع الشعر العربي أن يعوض الخسارة فيه بعد سنين طوال (١) .

وأخيرا وفي يوم الأحد ٢٤ من نوفمبر ١٩٥٧ ـ الثاني من جمادى الأولى عام ١٣٧٧ هـ نعى الشاعر إيليا أبو ماضي حيث توفي في نيويورك فحزن العالم كله لوفاته ، حزن لوفاة طفل قرية المحيدثة الغريب ، وصاحب دكان (السجاير) في مصر الذي عشق الأدب والشعر ، وشاعر الطلاسم والطين ووطن النجوم وسواها من روائع القصيد ، والذي أسهم في تطوير الشعر العربي : من حيث الموضوع والشكل ، حتى عد أحد رواد الحركة الشعرية الجديدة ، والذي عرض الكثير من المشكلات الإنسانية وناقشها في ملحمة الطلاسم الخالدة ، كمشكلة القضاء والقدر وموقف الإنسان منها ، والذي دعا إلى الطمأنينة والثقة والتفاؤل بالحياة ، والإيمان بجمالها الموهوب ، في مثل قوله :

أيهذا الشاكي وما بك داء كيف تغدو إذا غدوت عليلا
إن شر النفوس في الأرض نفس تتوقى قبل الرحيل الرحيلا

هذا الشاعر الذي تألقت موهبته في ديوانه « تذكار الماضي » الذي صدر في مدينة الاسكندرية ، ثم في « ديوان أبي ماضي » الذي ظهر في نيويورك ، ثم في الجداول والخمائل ، حتى صار أبرز شعراء المهجر الأمريكي ، وأسيرهم شعرا ، وأظهرهم في بساطة الأسلوب ، وإنسانية الموضوع .. وجهود إيليا أبي ماضي مع رشيد أيوب وجبران خليل جبران وعبد المسيح حداد وسواهم في إنشاء الرابطة القلمية سوف تبقى ذكرى لا تنسى على مرور الأيام .

وسوف يظهر له قريبا ديوان جديد بعنوان « تبر وتراب » .

---

(١) راجع ما كتبته عن إيليا أبي ماضي في كتبي : الشعر والتجديد ، ودراسات في الأدب والنقد ، ورائد الشعر الحديث ، ومن رواد الأدب المعاصر .

حكاية مغترب

هذا أحدث ديوان ظهر لشاعر عربى عام ١٩٦٠ ، إنه ديوان « حكاية مغترب » للشاعر المهجرى الكبير جورج صيدح ، صاحب « النوافل » ، والنبضات » وهما من أبلغ الدواوين الشعرية الحديثة ، والأول صدر فى بونس ايرس عام ١٩٤٧ ، والثانى طبع فى باريس عام ١٩٥٣ ، وصاحب كتاب « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر » .

وقد أهدى صيدح ديوانه إلى كل عربى اللسان والوجدان ، ويضم « حكاية مغترب » أكثر شعر الديوانين السابقين ، والشعر الجديد الذى نظمه الشاعر ولم ينشر بعد فى ديوان . . . ، ويشتمل على أبواب كبيرة هى : آفاق ، أشواق ، حكاية مغترب ، أصداء ، أهواء ، تراويح تباريح ، أكباد ، أزباد .

أما القسم الأول « آفاق » فأكثر قصائده فى الطبيعة . وإن احتوى على عديد من القصائد فى موضوعات أخرى . . ومن مثل شعره فى الطبيعة قصائده الجميلة الرفافة : ساعة الغروب ، الكوكتيل على الشاطىء ، المطر ، البحر ، على قمة الجبل ، شلال نياجرا . والشاعر فى هذا الجانب من شعره عميق التصور ، دقيق التصوير ، أحب الطبيعة ، ورآها بعينه وقلبه ومشاعره وعاش فى حناياها الحنون يقول الشاعر من قصيدته « طائرات الشعر » :

شعراء العصر أعلام الحجى ... قطب الاشعاع فى الشرق السعيد
عفوكم لا أدعى مرتبة ... بينكم أو عصمة الرأى السديد
غير أنى عشت عمرى فى الشذا ... فعرفت الفرق ما بين الورود
إنما الشعر انطلاق للذرى ... واندفاق نحو أغوار وبيد
إنه البحر الذى أمواجه ... تتثالى حرة ضمن الحدود

والبيت الثالث من هذه الأبيات يشير إلى صلة الشاعر بالطبيعة وحياته معها . . ومن قصيدته « ساعة الغروب » :

هناك على مذبح الرابية يموت النهار
وفى هيكل الغابة الكابية شموع تنار
يهز الشعاع رؤوس الشجر فتجرى الدما
كأن إله الجمال انتحر بباب السما

إلى آخر هذه الصور الرومانسية الجميلة :

ومن مثل قصائد هـــذا القسم فى غير الطبيعة قصائده : وصيتى ، سورة العيد ، عام جديد ، سلة المهملات ، الجندى المجهول ، وصيتى ، بين شاعر وقومه ، المهاجر ، أديب المهجر ، وهما قصيدتان من عيون ، الشعر العربى الحديث ، العائدون ، الألم الجبار . . وهذه القصائد تنم عن شاعر أصيل محلق رومانسى النزعة . . يقول الشاعر فى قصيدته « أديب المهجر » وهى على نمط الموشحات الأندلسية :

ياوردتى طرت كذات الجناح ولم تعودى فى معاد الطيور
رباه سلطت عليها الرياح فحومت فوق الربى والثغور
وانطرحت كالعندليب الصدى فى صفحة المستنقع الأربد

إلى آخر هذه القصيدة الجميلة التى تعد مرثية رفيعة لوردة ، وتعد من أرفع موضوعات الشعر الحديث وقصائده .

أما القسم الثانى من الديوان وهو « أشواق » ، فيشتمل على قصائد رفيعة نظمها الشاعر فى الحنين إلى وطنه وملاعب صباه ، وكل قصائده رائعة جميلة ، ومنها إلى مدرستى عينطورة ، العيد فى المنفى ، حنين إلى دمشق وهى من روائع شعر صيدح ، وفى مطلعها يقول :

ذكرتها نائيا والدمع هتان أم تناست بنيها حالما بانوا

ونحن نعلم أن الشاعر قد ولد فى دمشق وعاش فيها فترة من طفولته حتى غادرها إلى القاهرة فباريس فالمهجر الأمريكى ، الذى أقام فيه ربع قرن إلى أن عاد إلى أرض العروبة وأقام فى لبنان عام ١٩٥٣ . . وقصيدته هذه حنين إلى دمشق جديرة بكل تأمل وإعجاب ، يقول الشاعر فيها :

أنا وليدك يا أماه كم ملكت ذكراك نفسى وكم ناجاك وجدان

منذ افترقنا نعيم العيش فارقنى ... والهم والغم أشكال وألوان
كأنى لم أبت والحب فى سكنى ... والشعر فى خاطرى وحى وتبيان
والفكر حر طليق فى مساريه ... لا المال عبء ولا الأشغال أرسان
مشى الزمان على الأحلام فاندثرت ... ياليت لم تعقب الأزمان أزمان
عهد الشباب وعهد الشام إن مضيا ... فكل ما أعطت الأيام حرمان

ثم يتحدث الشاعر فيها عن هجرة أبنائها وسعيهم لطلاب الرزق ، ويستمر فى هذه القصيدة الرفيعة شاديا حزينا وفيا حتى يختمها بقوله :

حسبى من الوجدان هجران منيت به ... وحسبك العهد لا ينسيه هجران

والقصيدة بحق عنوان على شاعرية صيدح المتمكنة القوية الرفيعة الملهمة ، بل إنها صيدح نفسه الشاعر الحر المتوثب الوفى الوديع .

ومن قصائد هذا القسم قصائده : وطنى ، بردى ، حنين إلى مصر ، حائم لبنان .

أما القسم الثالث وهو حكاية مغترب ، وبه سمى الديوان كله ، فيشتمل على قصائد تمثل حياة الشاعر بين الهجرة والاغتراب ، وأولى قصائده الخطوة الأولى من المدرسة إلى المتجر ويتحدث فيها الشاعر عن هجرته إلى مصر وبواعثها ، ثم تليها قصيدته « التاجر الخاسر » ، وهى قصيدة عالية فى المنزلة الفنية . ويصور الشاعر فيها أسباب هجرته من مصر عام ١٩٢٥ ، ومطلعها :

أظلم الناس من ظلم ... يائسا تاه فى الظلم

ويقول فى آخرها :

إنما العيش نائيا ... عنك يامصر كالعدم

ومن قصائد هذا القسم قصائده : فى سفينة المهاجرين ، وتتمثل فيها مشاعره وعواطفه وهو سائر فوق البحر إلى المهجر الامريكى ، وقصيدته « وكان الصباح » وقد نظمها حين استقر به المطاف فى كراكاس عاصمة فنزويلا ، وقصيدته « فى البرازيل » وقصيدته « فى دمشق الشام » ، وفراق الوطن الام ، ولقاء بيروت وفى ضيافة لبنان ، وفى وداع لبنان ، وكل قصائده هذا القسم حرية بالدراسة المستفيضة المستوعبة .

أما القسم الرابع « أصداء » ايشتمل على ألوان عديدة من شعره فى المناسبات ومن قصائد هذا القسم : قصيدته « داء الشباب » التى يقول فى مطلعها :

نصحت فؤادى فلم يصغ لى　　وكررت نصحى فلم يحفل

وقد نظمها وهو على سرير المستشفى فى المدرسة ، ويصور فيها طموحه والفرق بين حياته فى الطفولة وما بعدها ، وهى قصيدة متينة عذبة رائعة ، ومن قصائد هذا القسم : سوريا ، ســلام على نيويورك ، البوكر ، سلمى ، نسمة الشام ، وسواها .

والقسم الخامس من الديوان « أهواء » قصائد وجدانية حالمة ، بين الطبيعة والحب ، ومن قصائده : الصبوح والغبوق فى حدائق دمشق ، إلى جارتى ، على الشرفة ، سائقة السيارة ، ليلة البحيرة وهى من ذكريات رحلته فى سويسرا ، العاصفة فى غابة بولون ، على الهاتف ، سأراك ، اللقاء الأخير ، فى القطار التى يقول فى مطلعها :

نظرت اليك ولم تنظرى　　تكسر طرفى على المرمر
سكونك أحدوثة الشامتين　　فلا تحرجى موقفى ، ثرثرى
حضرت وداعى وذكرك ساه　　شريد ، كأنك لم تحضرى
عهدتك أوهن منى مراسا　　فكيف صبرت ولم أصبر
أهز يديك ولولا الحياء　　هجمت على فمك السكرى

إلى آخر هذه القصيدة الحلوة الجميلة « السكرية » التى هى مثال لطبع صيدح المطبوع ، وشاعريته الملهمة .

أما القسم السادس « تراويح » فهو قصائد وطنية وعربية وقومية ومنها : بنى فلسطين ، دمشق الجريحة ، جلوة الحرية وقد نظمها فى عيد الجلاء فى سوريا ، المولد النبوى ، عبرات ، عيد الأضحى ، سوريا فى يومها وغدها . . ومطلع هذه القصيدة الرقيقة :

لمن تشتكى والهوى قاهر　　إلى الله أمرك ياشاعر

عذرناك لو لم تكن ثائرا　　　وفى العشق لا يعذر الثائر

وفيها يرد على الناعبين قديما الذين كانوا ينادون بضم سوريا إلى العراق . ومن قصائد هذا القسم أيضا : « بعد الهدنة » الحجيج . ذكرى فلسطين . انقلاب فى سوريا . دير ياسين . هواجس . . وقد نظمها صدى المؤتمر الذى عقده ملوك العرب ورؤساؤها فى بيروت على أثر العدوان الثلاثى على مصر .

وهذا القسم ترجمان صادق لوطنية صيدح وعروبته وإخلاصه للوطن العربى والقومية العربية الصاعدة .

والقسم السابع من الديوان وهو « تباريح » تضم قصائد نظمها فى المناسبات واهداها لأصدقائه ، ومنها قصيدته « إيليا أبو ماضى » وسواها .

والقسم الثامن « أكباد » يشتمل على شعره فى أسرته التى عاش صيدح وفيا لها وفاءه لوطنه ، ومن قصائده قصيدته « رسالة جد » . « مع الحفيدين » . وأجل قصائد هذا القسم قصيدته فى رثاء أمه وعنوانها « نعى الوالدة » . ويقول فى مطلعها :

ودعوها شيعوها　　　بتراتيل الخشوع
وعلى الهام ارفعوها　　　واغسلوها بالدموع

والقسم الأخير وهو « أزباد » يحتوى على قصائد مختلفة من بينها : سيارة الدكتور . صلعة الشاعر . ياطبيبى . القهوة فى سان باولو . شاعر المطربا وبانتهاء هذا القسم ينتهى ديوان صيدح البديع صاحب الشاعرية العميقة . والمثالية الرفيعة والأسلوب الأنيق . والديباجة الحلوة . وصاحب الطبع الأصيل فى الشعر العربى الحديث .

شاعر من عبقــر

- ١ -

يقول شاعرنا المهجرى الكبير إلياس فرحات :

يقولون : عمن أخذت القريض … وممن تعلمت نظم الدرر
وأين درست العروض وكيف … تلقفت هذا البيان الأغر
وما كنت يوما بطالب علم … فإنا عرفناك منذ الصغر
فقلت : أخذت القريض صبيا … عن الطير وهى تغنى السحر
وعن خطرات عليل النسيم … يمر فيشفى عليـــل البشر
وعن ضحكات مياه الجدا … ول فوق الجلامد تحت الشجر
وعن زفرات المحب الأديب … يزاحمه الموسر المحتقر
وعن نظرات الحسان اللواتى … يكدن يفلقنها فى الحجر
وعن عبرات الحوالى الضعاف … ففى عبرات الحوالى عبر
كذلك تعلمت نظم اللآلى … لفرط الغرام وطول السهر
فإنى سهرت كثيرا وكنت … إلى النيرات أطيل النظر
وإن الكواكب كانت تغيب … وتبقى بقلبى جليل الأثر
فهذى القصائد منها السماك … ومنها الثريا ومنهـا القمر
لئن كنت لم أدخل المدرسات … صغيرا ولا بعد هذا الكبر
فذا الكون جامعة الجامعات … وذا الدهر أستاذها المعتبر
فمن يحى يوما ولا يستفيد … أعمى البصيرة أعمى البصر

وهذه القصيدة « منابع الشعر » تفسر لنا كل مجهول فى حياة فرحات ، وكل خفى من أسرار فنه وشاعريته :

وأول شىء نعرفه منها أن الشاعر فرحات ليس صورة لغيره من الشعراء ، وليس فنه تقليدا لشاعرية أخرى ، . إنه عبقرية كاملة منحها الملهم القاهر ، وظهرت فى فنه الأخاذ الجليل الباهر ، وكأنه خيوط من ضوء القمر ، أو لمعة

من نسيم السحر . ومن تمام شخصية الشاعر هذه الذاتية الفنية ، التى تأبى التقليد ، وتسعى فى مجالات التجديد ، وترى الشعر طبعا لاصنعة ، وروحا ناطقا لاصورا موشاة بحلى الأسلوب ، وبدائع الزينة . وهذه الذاتية أوضح ما تكون عند فرحات الذى يخاطب بشعره الجماد فيتحرك ، والحجر فيهتز ويطرب . . وتتضح هذه الذاتية فى موسيقى فرحات الجميلة ، وفى بساطة تعبيره وسلاسته ، وفى صدقه فى الأداء والتصوير ، وفى تمثيل شعره لتجاربه الدفينة فى أعماق نفسه .

والشاعر هنا يؤكد أنه لم يأخذ الشعر تقليدا ولا تعلما ، ولا تلمذة على شعراء آخرين . إنما أخذه عن أستاذه الكون ، وعن ملهمته الطبيعة ، وعن مدرسته الحياة . . وهو هنا ينقل موضوع الشعر من ميدان النظرة المدرسية المحدودة إلى مجال الحياة الواسع الممتد الشامل . . وهو بهذا أحد الملهمين الرواد من شعرائنا المعاصرين الذين أحدثوا ثورة فى الشعر المعاصر تعد من أخطر ثورات التجديد فيه ، وتعد كذلك فاصلا كبيرا بين مدرستين فى الشعر العربى الحديث : مدرسة المقلدين الذين يحسبون الشعر طرازا فنيا مصنوعا ، ومدرسة المجددين الذين اتسعت نظرتهم إلى الشعر اتساعها إلى الحياة فى القرن العشرين بما احتوت عليه من مظاهر ومشاهد وثورات ، والذين عبروا بالشعر إلى المجالات الإنسانية الكبيرة حتى أصبح موضوعا لكل حدث ، ومتناولا لكل تجربة ، وتعبيرا عن كل صورة .

وثانى خاصية لفرحات ، أن شعره ليس فيه من المناسبات الخاصة إلا النزر اليسير ، ولم ينظم فرحات فى المناسبات العامة إلا إذا هزته هزا عنيفا ، وانفعلت بها نفسه انفعالا قويا . . إنه يعبر بشعره عن نفسه وانفعالاته ومشاعره وتجاربه ، فهو لا يلهو بشعره ، ولا يتخذه حرفة أو تسلية أو متعة مادية ؛ بل قد عاش ينسج الشعر يوشيه بآلامه ، ويلسجه من خيوط أمانيه ، ويصوغه من ذات عواطفه ، ويضمنه تجاربه الكثيرة العميقة فى الحياة ، ومن ثم كثرت الحكم والأمثال فى شعره كثرة ملحوظة حتى لتصح أن نسميه بذلك «متنبى المهجر» ومع ما فى شعره من تهذيب وتجويد ، حتى إنه أحرق بعد الحرب العالمية الأولى كل ما نظمه من شعر قبلها لعدم رضائه الكامل عنه . إلا أن هذا التهذيب

لم يجعله شاعرا مصنعا ، بل قوى من طبعه ، وصقل من فطرته ، وجلى مواهبه الكامنة ، ونأى به عن التصنيع ، فقد كان تجويده وتهذيبه ليس من الجانب اللفظى الاسلوبى فحسب ، بل كان راجعا قبل كل شىء إلى حرصه على الصدق فى التعبير والتصوير والعاطفة ، وعلى أداء تجربته كاملة بكل ما احتوت عليه من صور ومشاهد وموسيقى ، وألوان وحياة : . وقد استتبع هذا التجويد إيثار فرحات فى شعره لرقة اللحن ، وبلاغة العبارة ، وتمكن القافية ورصانة الأداء ، وإحكام النسج ، . مع أنه هاجر من لبنان وهو ينظم الزجل العامى ، ويقرأ الميسور من المكتوب ، ويجهل أصول العربية وقواعدها ،

وثالث ميزة لشعر فرحات ما احتوى عليه من تحرر فكرى وشمول إنسانى . فجوانبه الإنسانية كثيرة متعددة الألوان ، حتى لنراه يبكى لذبول الزهر ، وشحوب القمر ، ويثور لشتى مناظر الحياة الحزينة . . وقصيدته « الراهبة » مع إعجازها الفنى - جديدة فى روحها الإنسانية الرفيعة ، وفى مطلعها يقول الشاعر :

أطلت من الدير عند الضحى وفى ناظريها بريق الأسى
فتاة كأن الإله براها ليجعلها فتنة للنهى
ولكنها فى صباح الحياة علا وجنتيها شحوب المسا
تصلى فتحسبها دمية من العاج ساجدة للدمى
وتلثم تلك الدمى بخشوع فيوشك يلثمنها من جوى
تحاول نسيان محبوبها وزهو الشباب وعز الغنى
وأقسى من الحب كتمانه وأذكى من الهجر فقد الرجا

إلى أن يقول :

وفى الليل سارت إلى خدرها وفى قلبها مثل نار الغضا
ولما نضت ثوبها لتنام تبين من حسنها ما اختفى
فدبت إلى صدرها كفها وقد فتح الورد تحت الندى
وقال لها قائل صامت وكان الذى قيل رجع الصدى
وأنت تعيش فى عزلة فلا فى السماء ولا فى الثرى
لمن خلق الله هذا الجمال ومن يقتنى هذا المقتنى

وتبدو هذه النظرة الإنسانية كذلك فى قصيدته فى ميلاد ابنته التى يقول فيها :

أولى فراخ البلبل الفرد   هذا جناح أبيك فاعتمدى
هذى الرياض منابت الزهر
تلك البحار مصـــادر الدر
ذاك الفضـاء نجومه تجرى
بالله يا بنتى   من أيها أنت   فى أيها كنت
ما أنت من هذا التراب ولا   تلك المياه وذلك الجلد
بل أنت من روحى ومن كبدى

أما مظاهر التحرر الفكرى فكثيرة فى شعره ، فهو من الرواد الذين أسهموا فى حرب الجمود والرجعية والضعف وفقدان الأمل ، وبذروا بذور الإيمان بوحدة العرب . وبالقومية العربية ، فى صدور جيلنا العربى المعاصر ، حتى نما الغرس ، وطاب الثمر ، وازدهر الروض ، وآتى كفاح الشاعر فى هذا السبيل أكله جنيا شهيا . . يقول فرحات يعبر عن إيمان الشباب العربى بالوحدة بين شعوب العرب :

إنا وإن تكن الشآم ديارنا   فقلوبنا للعرب بالإجمال
نهوى العراق ورافديه وما على   أرض الجزيرة من حصا ورمال
وإذا ذكرت لنا الكنانة خلتنا   نروى بسائغ نيلها السلسال
بنا ومازلنا نشاطر أهلها   مر الأسى وحلاوة الآمال

ويقول كذلك :

وطنى حببتك سيدا ومسودا   وحببت أهلك عوسجا وورودا
أبغى لهم رتب العلا ولو انهم   تخذوا على جسدى الطريق صعودا
ماذا تفيد العرب ثروة بعضهم   ما دام حائط مجدهم مهدودا
ما أفقر المتمولين إذا هم   كسبوا بخسران البلاد نقودا
لو كان لى نفط الكويت جعلته   يمشى على جثث اليهود جنودا

ويقول يخاطب أنصار التفرقة والمذهبية الضيقة ويرد عليهم ويفحمهم :

هذى دمشق وذى بيروت إنهما في طلعة الوطن المعبود عينان
لسنا نفضل مهما ناق من عنت عينا على أختها ، لسنا بعوران

إلى ما سوى ذلك من قصائده فى القومية العربية ، وفى تعزيز الإيمان بالوحدة الشاملة بين العرب فى كل مكان .

وقصيدته « يارسول الله » مثل من أمثلة تحرره الفكرى ونزعته الإنسانية معا ، ويقول فيها الشاعر :

غمر الأرض بأنوار النبوة كوكب لم تدرك الشمس علوه
لم يكد يلمع حتى أصبحت ترقب الدنيا ومن فيها دنوه
بينما الكون ظلام دامس فتحت فى مكة للنوركوه
ويقول فيها : إن فى الاسلام للعرب علا إن فى الاسلام للناس أخوه
فادرس الاسلام ياجاهله تلق بطش الله فيه وحنوه

ومن شعره فى تمجيد الاسلام قوله :

سلام على الإسلام أيام مجده طويل عريض يغمر الأرض والسما
نمــا فنمت فى ظله خير أمة أعدت لنصر الحق سيفا ومرقما

وإيمانه الوطنى ، وتضحياته الجسيمة طول حياته استجابة لوطنيته ، مثل من أمثلة الإباء والاعتزاز والصلابة التى عرف بها فرحات طول حياته ، حتى رفض المساومة واعتز بعقيدته دون أن يتزحزح عنها . ومن قصائده الوطنية المشهورة قصيدته « موطنى » المشهورة . وهى على نمط الموشحات الأندلسية التى شهر بها فرحات ونظم منها كثيرا من القصائد . ويقول فى هذه القصيدة :

نازح أقعده وجد مقيم فى الحشا بين خمود واتقاد
كلما افتر له البدر الوسيم عضه الحزن بأنياب حداد
يذكر العهد القديم فينادى
أين جنات النعيم من بلادى
زانها المبدع بالفن الرفيع منصفا بين الروابى والبطاح
ملقيا من نسج أبكار الربيع فوق أكتاف الربى أبهى وشاح
حبذا راعى القطيع فى المراح
ينشد اللحن البديع للصباح

موطنى يمتد من بحر المياه   عمنا شرقا إلى بحر الرمال
بين طوروس وبين التيه تاه   بجمال فائق حــد الجمال
ذكره يغرى فتاه بالمعالى
أنا لا أرضى سواه فهو مالى

- ٢ -

أما حياة فرحات فهى مع قطعة من الكفاح والنضال . فقد كافح ابن « كفرشيما » المولود فى لبنان عام ١٨٩٣ الفقر طفلا صغيرا . فترك المدرسة وهو فى العاشرة من عمره ليعمل سبع سنين متواليات فى الحرف الصغيرة . ثم هاجر إلى البرازيل عام ١٩١٠ . وكان قد سبقه اليها أخوه سعد ووديع . وحل رحله فى أرض المهجر فى السابع والعشرين من سبتمبر من العام نفسه ، ولحق به إخوته كريم وسليم وأخته غنم . وبقى فى لبنان والده وشقيقاه الصغيران سعيد وجرجس وإخوته زينة ووديعة ونظيرة .

وتنقل فى البرازيل ، وعمل فى كل الحرف . ولاقى كل الأهوال . وعاش فى الغابات والأكواخ : ولقى من الفقر فى مغتربه ما أذكى فيه روح الشاعرية وتمثل حياته فى المهجر قصيدته الرائعة « حياة معذبات » . وقد نظمها بعد الحرب العالمية الأولى عام ١٩٢٣ ويقول فيها :

أغرب خلف الرزق وهو مشرق   وأقسم لو شرقت كان يغرب
لئن غردت للشاعرين بلابل   فإن غراب البين حولى ينعب
أقول لنفسى كلما عضها الأسى   فـآلمها : صبرا ففى الصبر مكسب
لئن كان صعبا حملك الهم والأذى   لحملك من الناس لاشك أصعب
فلولا إباء مازج الطبع لم يكن   لمثلى مجىء فى البرارى ومذهب

وفى قصيدته « بين البر والبحر » كذلك صورة لحياة فرحات وكفاحه وآلامه : : وأدب فرحات كله نبع من بيئة المهجر فقد أحرق كل ما قاله من زجل وشعر قبل قبل عام ١٩٢٠ ، وصدرت رباعيات فرحات عام ١٩٣٢ وقدم له جورج حسون ، واشتغل بالصحافة فى عدة صحف ، واشترك مع توفيق ضعون فى إصدار مجلة « الجديد » فى سان باولو عام ١٩١٩ ، ثم اشترك فى تحرير « المفرعة » عربيا وطنيا حرا ثائرا ، وكان ينشر شعره فى صحيفة « أبى الهول » وجريدة « الأفكار » .

وفى عام ١٩٢١ تزوج الآنسة جوليا بنت بشارة جبران . . وقصيدة « خصلة الشعر » كانت من أشهر قصائده فى مرحلة حياته الأولى ، واحتلت منزلة عالية بين أشهر القصائد فى الشعر المعاصر . . وطبع ديوان فرحات أخيرا فى سان باولو عام ١٩٥٤ مشتملا على (الرباعيات ، الربيع ، الصيف ، الخريف) ، ولفرحات كتاب « أحلام الراعى » ، وقد ظهر عام ١٩٥٣ وهو نقد اجتماعى لاذع .

— ٣ —

هذا هو فرحات ، شاعر من عبقر ، تتمثل حياته وعبقريته فى شعره ، وفى دعوته للتجديد ، التجديد فى الصور والتعابير والمعانى والموسيقى ، التجديد الذى ينطوى عليه مثل قوله من قصيدته « السكرة الخالدة » :

فكم صوروا المقل الساحرات ... فهل صوروا سحر تلك المقل
وكم صوروا قبل العاشقين ... فهل صوروا طعم تلك القبل

وهذا هو فرحات المؤمن بالعروبة وبالعرب كما يصوره لنا مثل قوله :

العرب واقفة يا شمس فانطفئى ... والعرب زاحفة يا أرض فاشتعلى

والداعى إلى القومية العربية التى يصورها مثل قوله :

ما الشام ما لبنان ما حوران ما ... عمان والقدس الشريف الخالد
هذى الدويلات المبعثرة القوى ... عمد يقوم بهن بيت واحد
قسما بأمة يعرب وبتربه ... فيها أبو الجرات يعرب خالد
لولا مكائد بعضنا للبعض لم ... تنجح لأعداء الجميع مكائد
إن التعصب للمذاهب شر ما ... أبقى لأمتنا الزمان البائد

وهذا هو فرحات الفنان الذى يتمثل فنه مشرقا باهرا فى مثل قوله :

فر عصفور شبابى من يديا ... تاركا فى مهجتى جمرا ذكيا
طالما أوحى فغنيت على ... مسمع الليل نشيدا عبقريا
كان إن أطلقته فى جنة ... يلثم الزهر ويرتد إليا

وهذا هو فرحات الفيلسوف الساخر الذى تتمثل لنا سخريته فى مثل قوله :

ولما رأيت الغنى الغبي   يفوز على الفيلسوف الفقير
تنهدت حزنا ورحت أقول   مخاطبا الله بارى الشعوب
إلهى لماذا خلقت العقول   بعصر تفكر فيه الجيوب

وفى مثل قوله :

ترى هل أعيش بقول أجدت   ويالك من شاعر مفلق
خلقت شقيا وعشت شقيا   وأحسب انى أموت شقى

والذى يتمثل لنا إبانه فى مثل قصيدته « لولا ضميرى » :

وإذا كان لفرحات صورة فهى صورة حسه وبدنه ، فلتكن هى صورة ملاك ساحر أو شاعر فذ من عبقر ، عرف الناس أروع ما سمعوه من ألحان ، وأبدع ما طربوا له من موسيق . صورة هزار يحلق فى السماء ، ولا يبغى الهبوط إلى الأرض ، ولا يرى الناس منه إلا صوته العبقرى ولحنه العلوى .

إن فرحات فى قلب الشعب العربى المقدر لكفاحه وعبقريته ، ولفرحات المجد والعزة ، ولأدبه وفنه البقاء والخلود ، وهذه بعض قصائد له :

لولا ضميرى :

توالت هموم الحياة عليا   ولولا ضميرى لعشت خليا
فكم ثروة تعجز الحاسبا   تسلمت وهى لبعض التجار
فقلت أفر بها هاربا   فقال ضميرى حذار حذار
فأرجعتهـــا وغسلت يديا   ولولا ضميرى لكنت غنيا
وبكر أتت حجرتى موهنا   يقود خطاها غرور الصبا
فقلت سأبلغ منها المنى   فقال ضميرى ألست أبا
فأغمضت عن حسنها ناظريا   ولولا ضميرى جنيت الصبا
شكوت ضميرى شكوى الجهول   ونحت على الحظ نوح الغراب
فأسمعنى الله صوتا يقول   أتشكو ضميرك يا ابن التراب
ولولا ضميرك ماكنت شيا   ولو كنت من نيرات الثريا

يا هند :

أنى التفت أرى الحلائق تحتسى   راح الصفا وأنا المدامع راحى

فكأنهم قد أردعوا أتراحهم … في مهجتي فتضاعفت أتراحي

بين البدر والبحر :

أمشي من الأحزان خلف جحافل … ومن الدواهي الدهم تحت لواء
ومن البلايا المهلكات بموكب … يمشي أمامي تارة ، وورائي
العليا ، بهذي الظلمة الغراء … يا أيها البدر المنير بحرمة
قل هل رأيت بمن رأيت من الورى … شخصا يقاس شقاؤه بشقائي
يا أيها البحر المحرك موجه … جيشا يهدد فسحة البيداء
خذني اليك إنه أقصى أذى … وأخف شرا من بني حواء
أنا في الوجود كمركب في لجة … لا ساحل يبدو بها للرائي
غضبت عليه الكائنات فأقبلت … تجتاحه بعواصف هوجاء
شق الهواء شراعه وتناولت … سكانه الواهي يد الأنواء
بحر الحياة أما بقربك ساحل … أرتاح عند صخوره الملساء؟
تبدو الدموع على الجفون جواللا … فيصدهن عن السقوط حيائي

نظير زيتون

– ١ –

إذا كان هناك من يجلس على قمة البيان ، ويتولى إمارة النثر ، ويعد صاحب مذهب فى الأسلوب ، ورئيس طريقة من طرق التعبير ، وحامل لواء الوشى الفنى بزخارفه وبريقه ووشيه .

وإذا كان هناك خليفة لعبد الحميد الكاتب وابن العميد والصاحب والبديع فلن يكون ذلك إلا نظير زيتون .

هذا الأديب الألمعى ، والذهن المتوقد ، وصاحب الرسالة القومية فى الأدب المهجرى ، وأحد رواد الحركة الفكرية فيه ، والذى أسهم بأسلوبه البليغ ونثره البديع فى أداء الرسالة الوطنية التى شاركه فى حمل رايتها القروى وفرحات ، وآخرون من أدباء المهجر الأمريكى الجنوبى .

– ٢ –

كان « زيتون » من أركان « العصبة الأندلسية » وأدبائها الأعلام ، تولى أمانتها فترة طويلة ، وشارك إخوانه أدباء العصبة ، وشعراءها فى حمل رسالة الأدب ، وخدمة قضايا العرب .

وتولى رياسة تحرير جريدة « فتى لبنان » اليومية التى كانت تصـــدر من « سان باولو » .

وكان خطيب « النادى الحمصى » فى « سان باولو » كذلك ، عشرين عاما ، يجمع القلوب حول راية القومية العربية ، ويشحذ الأذهان ويلهبها إلى وحدة شعوب العرب ،

ومؤلفاته القيمة شاهد صدق له بعلو المنزلة فى صناعة النثر ، وبالتفوق والتفرد فى بلاغة الأسلوب ، إلى ما احتوت عليه من جدة البحث ، وحسن المنهج . . . ومن بين هذه المؤلفات رسالته فى استقلال البرازيل ، وكتابه

« روسيا فى مواكب التاريخ » ، وكتابه الأخير : « ولادة أمة » ... ورواياته « ذنوب الآباء » و « هيرودس الكبير » و « يسوع المصلوب » و « النبى الأبيض » . . . وسواها .

هذا إلى مقالاته وفصوله الرنانة الدائمة التى كانت تنشرها فى شتى صحف المهجر ومجلاته ، والصحف المختلفة فى البلاد العربية ، والتى جمعت حولها طائفة كبيرة من الأدباء والمعجبين والتلاميذ وشداة الأدب . . ويعد « كتاب الشعلة » الذى يحتوى على مجموعة من خطب « زيتون » منارة رفيعة لطلاب البيان الرفيع ، والنثر المترسل المصنوع ، مع تمكن الطبع ، واكتمال الموهبة ، وشدة مراس الملكة .

ولا نجد شيئا نصف به أدب « زيتون » أبلغ من وصفه هو لأدب المهجر حيث يقول : أدبنا شق الصخور ، ثم نما وسمق . ونضجت ثماره ، فى حرارة الشمس ، وزئير العاصفة ، وتناغم النسيم وتساوق فصول الحياة .

— ٣ —

وعندما هاجر « زيتون » إلى « سان باولو » عام ١٩١٤ كان فى الرابعة عشرة من عمره ، فتى ذكيا تبدو عليه مخايل النبوغ ، وملامح الطموح ، ودلائل الشخصية القوية ، التى كانت تبشر بأن صاحبها سوف يكون من حملة الرسالة ... وكان ما كان ، عالج أبواب الرزق بالعمل فى التجارة فأخفق ، فاتجه للأدب ، يقرأ روائعه القديمة والحديثة ، ويتتبع مذاهبه ومدارسه فى بلاد العروبة والمهجر ، ويدرس ويكتب ويشترك فى ندوات الأدب وحلقاته ومواسمه فى المهجر الجنوبى ، حتى استقام له منهج مستقل ، ومذهب خاص ، وصار علما من أعلام الأدب العربى الحديث ، ورائدا من أكبر الرواد والمجددين فيه .

— ٤ —

هذا هو « نظير زيتون » الذى عاد من المهجر عام ١٩٥١ ، ليقيم فى وطنه العربى فى عهد حريته واستقلاله ، وليشهد بعض ثمرات كفاحه من أجله ، وليرى الآمال وقد استحالت إلى حقائق وأعمال ، وليمتع عقله وبصره بمواكب الحرية

الصاخبة ، التى تسهر فى كل قطر من أقطار العروبة منادية العرب بالعزة والمجد والسيادة فى ظل حريتهم الكاملة ، ووحدتهم الشاملة .

هذا هو « نظير زيتون » ابن الستين ، وصاحب الرسالة ، والمكافح من أجل بنى قومه ، والمؤمن بأمجاد العروبة وبحاضرها ومستقبلها ، إيمانه بمقدسات العرب وقوميتهم .

وفى أمسيتنا الأدبية العاطرة ، تتشرف دارنا دار « رابطة الأدب الحديث » بأن تحيي أديبنا المهجرى الكبير « نظير زيتون » ، تحية التقدير والإعجاب والحب ، تحية الأخ لأخيه ، والمواطن لمواطنه ، تحية الإجلال لعملاق من عمالقة الأدب ، وبطل من أبطال العرب ، تحية مشفوعة بأطيب التمنيات له ولآله وقومه والعرب أجمعين .

الفصل السادس

المستشرق المجرى الكبير

عبد الكريم جرمانوس

— ١ —

جرمانوس شخصية فذة بين المستشرقين الأوربيين ، فيه وداعة العالم وتواضعه ، وفيه حب البحث والكشف عن الحقيقة ، والإيمان بما يؤدى إليه العقل والدليل .

إنه مثال كبير للإنسان الذى يتمثل حقيقة الإنسانية ويشعر بها ويسعى فى الحياة من أجلها ، بما تحتوى عليه من شعائر كريمة كالشعور بالإخاء والحرية والمساواة والتسامح والإنصاف :

منذ سنوات كتب جرمانوس فى صحف أوربا عن الإسلام يقول : « إنى — وأنا الرجل الأوربى الذى لم يجد فى بيئته إلا عبادة الذهب والقوة والسطوة الميكانيكية — تأثرت أعمق التأثر ببساطة الاسلام ، وعظمة سيطرته على نفوس معتنقيه ، إن الشرق الإسلامى سيبقى مستوليا على لبى بروحانيته ومثله العالية ، والإسلام حافظ دائما على مبادئه الداعية إلى الحرية والإخاء والمساواة بين أبناء الجنس البشرى ، إنه لا يوجد فى تعاليم الإسلام كلمة واحدة أو عمل واحد من شأنه أن يعوق تقدم المسلم ، أو يمنع زيادة حظه من النور والمعرفة والقوة ، ولقد أخطأ المسيحيون إذ لم يفهموا الإسلام على حقيقته ، وبالتالى لم يتشبعوا بروحه ، إن ما يميز الانسان عن الحيوان هو إدراكه أن الكون تحكمه قوانين روحية ، وتسيره قوى غير محسوسة ، وهذه الحقيقة هى أساس كل دين ، ولكنه لا يوجد دين يؤكدها أكثر من دين الإسلام . ليس فى تعاليم الإسلام شىء لا يمكن تحقيقه عمليا ، وهى مفخرة عظيمة يتميز بها عن سواه ، إن أحجار الزاوية فى بناء هذا الدين هى أن الناس أمام الله سواء ، من آمن منهم بهذا الدين وارتضى شريعته وسواه إن أوربا لم تعرف الإخاء بين الناس إلا بعد الثورة الفرنسية بينما دعا الاسلام إليه وطبقه المسلمون قبل ثورة فرنسا بنحو ألف عام ، ولقد كانت فكرة المساواة والديمقراطية من ابتكار القرن السابع عشر فى أوربا ،

بينما هى حقيقة من حقائق الإسلام وأصوله منذ نشأ . ولم يعترف حكام أوربا بالاشتراكية إلا فى السنوات الحديثة بينما سبقهم الإسلام إلى النظام الاشتراكى الصحيح ، واستمتع فى ظل نظامه كافة الناس بكافة الحقوق الإنسانية ، وقد نسق الإسلام نظامه الاشتراكى : فشملت جميع الطبقات والثقافات والأجناس على اختلافها ، وذلك فى عقد اجتماعى مرتكز على حسن التوازن . ومنح الإسلام المرأة حقوقا قانونية أكثر مما كان لها فى ظل المسيحية ، واعترف بإباحته تعدد الزوجات فى حدود معقولة بالأمر الواقع أى بما تقتضيه غريزة الرجل ، فحال بهذا دون تعـــدد الزوجات غير المشروع الذى يسود الجماعة الأوربية فى هذه الأيام .

لقد وضع الإسلام حدا للنظرية التى كانت تعتبر الإنسان وحدة فى قبيلة ، أو وحدة فى شعب ، أو ابنا للغة من اللغات ، وسما بالأفراد من وحدة الحيوانية إلى آفاق إنسانية فسيحة . . . وإنى لأؤمل بل أتوقع أن يكون الإسلام قادرا مرة أخرى على تحقيق هذه المعجزة فى الوقت الذى تحيط بنا فيه ظلمات كثيفة (١) :

بهذه السعة فى الأفق ، والسماحة فى التفكير والإنسانية فى البحث يفكر المستشرق جرمانوس .

— ٢ —

والذين اتصلوا بجرمانوس ينعتونه بالشيخ العجوز الذى يصارع الدهر ، ويغالب الأيام ، بعزمه ودأبه فى الدراسة والبحث والاستقصاء ، من غير نظر إلى صحته ، ولا إلى شيخوخته ، وأحيانا يلقبونه بالشاب لذى الخمسة والسبعين

---

(١) عن الانجليزية باختصار . . راجع تعريب الأستاذ فتحى رضوان .
راجع كتاب « لماذا أنا مسلم » لعبد الرحمن العيسوى و ص ٣٥٩ - ٣٦٣ من كتاب « لماذا أؤمن بالقرآن » لهلال على هلال .

عاما ، الذى يسحر سامعه بحديثه العربى العذب ذى اللكنة الأعجمية ، ويستوقف نظر الناس بطربوشه الأحمر القانى ، ويكلمك فتأسى له لهمومه الكثيرة ، التى من أهمها أنه يعيش وحيدا بعيدا عن أحبائه وأصفيائه فى الشرق العربى ، نائيا عن موطن الوحى والعروبة ، إنه كما يقول تلميذه الدكتور عبد المنعم مختار المدرس بجامعة بودابست ذو حيوية متجددة تدفعه إلى العمل طوال الليل والنهار ، غارقا بين الكتب والمخطوطات ، يقرأ ويختار ، ويعد لطلابه المحاضرات عن الأدب العربى وفلسفه الإسلام طيلة خمسين عاما ، ومع ذلك فان تواضعه يجعله يكرر دائما أمام تلاميذه بأنه ما زال رغم تجاربه فى الاستشراق ، وجهوده فى خـــدمة اللغه العربية فى أول الطريق ، نعم فى أول الطريق ولكنه طريق الخلود .

— ٣ —

وقد ولد الدكتور جرمانوس فى بودابست عام ١٨٨٤ م ، ودرس فى جامعات بودابست وفى جامعة استامبول ، وبعد تخرجه عمل فى تنظيم القسم الشرق للمخطوطات العربية فى المتحف البريطانى ، وألف وهو فى لندن رسالة عن أرباب الحرف فى تركيا القديمه ، ونال عليها جائزة علمية ، وترك لندن ليعمل استاذا بأكاديمية العلوم الشرقية ببودابست فى أوائل القرن العشرين ، واشترك فى الحرب العالمية الأولى ، ثم قضى مدة ثلاث سنوات فى الهند ودرس فى إحدى جامعات كلكتا بناء على دعوة من الشاعر الهندى طاغور ، وأسس فيها قسما للدراسات الشرقية ، وقام هو بتدريس الثقافة الإسلامية ، وألقى محاضرات عديدة فى نفس المادة فى جامعات هندية أخرى عديدة . . . ثم دعته الكلية الإسلامية فى الهند عام ١٩٣١ لكى يلقى عدة محاضرات عن الأدب التركى الحديث ، وقد طبعت مذكراته التى ألقيت فيها .

وكان جرمانوس أحد الأوربيين القلائل الذين زاروا الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة ، حيث سافر عام ١٩٣٥ من مصر إلى جدة ضيفا فى رحلته على الملك عبد العزيز آل سعود ، وأقام فى المدينة فترة ، ثم سافر منها إلى أوربا بعد مرض أصيب به ، وكتب رحلته إلى الأماكن المقدسة باللغة المجرية ، وترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات ، وعنوان كتابه هذا « الله أكبر » ثم عاد لزيارة

الأماكن المقدسة عام ١٩٣٩ ، وفى هذه المرة نقب عن بعض الآثار الإسلامية المهمة فى المدينة المنورة .

وفى شتاء عام ١٩٥٧ دعته مصر لإلقاء عدة محاضرات فى جامعات القاهرة والاسكندرية ، حيث اتصل بالأدباء المصريين ، وزار رابطة الأدب الحديث ، وألقى كلمة فيها ، وتعرف إلى نشاطها . . ومن قبل كان جرمانوس صديقا حميما للدكتور أبى شادى ولمدرسة أبولو بالذات ، ومن القاهرة سافر إلى دمشق ، فألقى بها عدة محاضرات . . وفى عام ١٩٥٨ دعته حكومة الهند لزيارة الجمهورية الهندية والتعرف إلى مختلف وجوه النشاط الثقافى والأدبى فيها ، وفى عام ١٩٥٩ زار فنلندا ، وألقى فيها عدة محاضرات عن الآداب العربية .

وهو الآن أستاذ اللغة العربية وآدابها وللتاريخ الإسلامى بجامعة بودابست ، وفى العام الماضى اختير عضوا بالبرلمان المجرى ممثلا للهيئات العلمية المجرية ، ومنذ مدة طويلة وهو عضو مراسل بالمجمع اللغوى بالقاهرة ، وبالأكاديمية الإيطالية ، وكذلك بالمجمع الاسلامى بالجزائر . . ومنذ أشهر أنعم عليه رئيس الجمهورية المجرية بأعلى وسام فى المجر تقديرا لجهوده المستمرة فى خدمة وتوثيق العلاقات بين المجر والعالم العربى ، وكان ذلك نتيجة لاهتمام رابطة الأدب الحديث به وبآثاره الاستشراقية بمناسبة مضى خمسين عاما على عمله فى الاستشراق .

وجرمانوس على وشك الانتهاء من كتاب ضخم ألفه بالمجرية عن الأدب العربى من الجاهلية إلى الآن ، ويتضمن أشعار أكثر من مائتى شاعر ، وهو يعد الآن كتابا عن الأدب المهجرى باللغة الانجليزية بتكليف من جامعة حيدر آباد ، وكذلك هو على وشك الانتهاء من مؤلف آخر نفيس عن تطور اللغة العربية وآدابها منذ حملة نابليون إلى الآن . وسيصدر باللغة الألمانية .

وجرمانوس يعرف اللاتينية واليونانية والألمانية والفرنسية والانجليزية والعربية والتركية والفارسية والأوردية وبعض اللغات السامية القديمة .

وله نحو ستة وخمسون مؤلفا وبحثا باللغات العربية والألمانية والفرنسية والايطالية والمجرية والهندية والأوردية والانجليزية .

وعدد تلاميذه فى الاستشراق الآن فى المجر أكثر من مائة وعشرين طالبا ، وقد أقيمت عدة معارض فى المجر لآثاره وبحوثه ودراساته .. ورسالته الأولى هى الكشف عن روائع الأدب العربى القديم والمعاصر والتنقيب عن معالم الحياة العربية الاسلامية ، وتذاع محاضراته العامـــة وأحاديثه من محطات الإذاعة المختلفة . . .

هذا هو الشاب جرمانوس الذى بلغ الخامسة والسبعين ، والذى احتفل هنا بمرور خمسين عاما على اشتغاله بالاستشراق .

فتحية له وتمنياتنا الطيبة لصحته . . . وسلام على جرمانوس فى الخالدين .

— ٤ —

ومن مصنفات الدكتور عبد الكريم جرمانوس :

(١) الشعر التركى : بالألمانية نشر عام ١٩٠٦
(٢) تورك درناى : بالانجليزية نشر عام ١٩٠٩
(٣) الانجليز فى المجر : بالمجرية نشر عام ١٩١٠
(٤) دراسات عثمانية : بالألمانية نشر عام ١٩١٠
(٥) التراث الأدبى للعرب المسيحيين : بالألمانية نشر عام ١٩١١
(٦) الجهاد المقدس : بالمجرية نشر ١٩١٤
(٧) مسائل وطنية عربية : بالمجرية نشر عام ١٩١٦
(٨) التورانية والتاريخ : بالمجرية نشر عام ١٩١٦
(٩) التورانية ، دراسة لغوية . بالمجرية نشر عام ١٩١٩
(١٠) تأثير البيئة والجنس على التاريخ : بالمجرية عام ١٩٢٠
(١١) الأدب التركى الحديث ، دراسات تورانية : بالمجرية
(١٢) الصوفية الشرقية والدراويش البكتاشيين بالمجرية عام ١٩٢٨.
(١٣) ذكريات بجوار قبر جول بابا الولى الاسلامى : بالمجرية عام ١٩٢٨
(١٤) النحو والصرف التركى : بالمجرية ١٩٢٥

(١٥) الثورة التركية : بالمجرية ١٩٢٨
(١٦) دراسات إسلامية : بالانجليزية كالكتا عام ١٩٢٩
(١٧) هل اللغة الموندا أثر في أوربا : بالانجليزية كالكتا عام ١٩٢٩
(١٨) دور الأتراك في الإسلام (جزءين) كالكتا بالانجليزية ١٩٣٣ ١٩٣٤
(٢٠) يقظة الأدب التركي (جزءين) : بالانجليزية ١٩٣٣
(٢٢) الوطنية العربية : بالفرنسية ١٩٢٨
(٢٣) أفكار حول الثورة التركية : بالفرنسية ١٩٢٨
(٢٤) لغة وثقافة الاتراك : بالفرنسية ١٩٢٨
(٢٥) محاضرة عن الأدب الشعبي التركي الحديث : بالانجليزية ١٩٣٠ لاهور بالهند
(٢٦) الحركات الحديثة في الاسلام : بالانجليزية عام ١٩٣٠ لاهور بالهند
(٢٧) ترك إسلام خدمات : بالهندوستانية ١٩٣٢
(٢٨) الهند اليوم : بالمجرية ١٩٣٣
(٢٩) غرام في الصحراء : بالعربية القاهرة ١٩٣٧
(٣٠) الشاعر بيتوفي : نشر بالعربية في المقتطف ١٩٤٠
(٣١) نور الهند : بالمجرية ١٩٣٧
(٣٢) تنقيب وفتوح من البلاد العربية، سوريا، وميزوبوتامية : بالمجرية عام ١٩٤٠
(٣٣) الله أكبر : بالمجرية ١٩٣٦
(٣٤) الله أكبر : بالألمانية ١٩٣٦
(٣٥) حياة محمد بالايطالية (جزئين) ميلانو ١٩٣٨
(٣٦) تجديد الروح العربية : بالمجرية ١٩٤٤
(٣٧) الجندي والأدب العربي : بالعربية ١٩٥٠ بها مقدمة المستشرق الروسي «كراتشكوفسكي»
(٣٨) أسس لغوية للوحدة العربية : بالانجليزية ، لندن ١٩٥٠
(٣٩) محمود تيمور والأدب الحديث : بالانجليزية ، لندن ١٩٥١
(٤٠) أصول ألف ليلة وليلة : بالانجليزية ، لندن ١٩٥١

(٤١) ملاحظات على الأبجدية العربية : بالانجليزية لندن ١٩٥١
(٤٢) روائع أدبية عربية مجهولة . بالانجليزية ١٩٥٢
(٤٣) الجغرافيون العرب . لندن ١٩٥٤
(٤٤) القبر الموهوم للمسيح فى سيرلينا جار . بالانجليزية ١٩٥٢ دوربان
(٤٥) دراسات عربية . بالانجليزية ١٩٥٤ لندن
(٤٦) أسباب تقدم الشعوب الاسلامية . بالانجليزية ١٩٥٣ لاهور بالهند
(٤٧) اللغة الهندوستانية عام ١٩٥٦ كراتشى
(٤٨) شرب الخمر فى الاسلام . بالانجليزية ١٩٥٤ دوربان
(٤٩) شعر ابن الرومى وترجمته . بالألمانية ١٩٥٧
(٥٠) الادب العربى المعاصر . بالانجليزية ١٩٥٧ لندن
(٥١) العالم العربى فى مفترق الطريق بالانجليزية ١٩٥٧
(٥٢) بين فكرين . بالعربية ، نشر فى دمشق ١٩٥٦
(٥٣) المخترعات الإسلامية لكتب العميان بالانجليزية ١٩٥٦
(٥٤) ضوء البدر الشاحب . بالمجرية ١٩٥٧
(٥٥) بعض نواحى الأدب العربى الحديث بالانجليزية
(٢٦) الادب العربى فى القرن العشرين . بالمجرية ١٩٥٩

كتب تحت الطبع :

(١) تراجم فى الشعر العربى من الجاهلية حتى اليوم (تراجم ١٤٠ شاعرا) ستطبع فى أوائل عام ١٩٦٠ بالمجرية .

(٢) الأدب العربى فى المهجر .
خصيصا للثقافة الاسلامية بحيدر آباد بالانجليزية

(٣) نهضة العروبة منذ حملة نابليون إلى اليوم بالألمانية ـ وعدد صفحاته ١٥٠٠ :

وهذا كله عدا ما نشره من مقالات باللغة المجرية .

والدكتور عبد الكريم جرمانوس بالاضافة إلى عمله أستاذا للتاريخ الإسلامى بجامعة بودابست ، مندوب فى البرلمان المجرى ، ومن أعضاء اللجنة المستشرقية للمجمع العلمى المجرى ، ومن أعضاء المجمع الإيطالى لثقافة البحر المتوسط فى روما ، وعضو بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وعضو الشرف لرابطة الأدب الحديث .

-- ٥ --

وهذه ترجمة حياة الدكتور عبد الكريم جرمانوس ، بقلم تلميذه الوفى الدكتور عبد المنعم مختاز :

ولد الدكتور عبد الكريم جرمانوس فى بودابست عام ١٨٨٤ وهو يعمل الآن أستاذا لآداب اللغة العربية والتاريخ الإسلامى بجامعة إيفتش لورانت ببودابست .

وقد اختير فى العام الماضى عضوا بالبرلمان ممثلا للهيئات العلمية المجرية

وهو عضو مراسل بالمجمع اللغوى بالقاهرة ، وعضو مراسل بالأكاديمية الإيطالية ، وكذلك بالمجمع الإسلامى بالجزائر .

تلقى العلم فى جامعات بودابست وفيينا وليبزج وبرلين واستامبول .

عمل على تنظيم القسم الشرقى للمخطوطات العربية فى المتحف البريطانى ، وبعد عمله هذا كتب رسالة عن أرباب الحرف فى تركيا القديمة ، ونال عليها جائزة بانجلترا .

زار فى أولى مراحل حياته استامبول حيث درس هناك ، وزار الشرق

الأوسط ومصر ، وعند عودته عين أستاذا باكاديمية العلوم الشرقية ببودابست فى أوائل هذا القرن .

قضى مدة ثلاث سنوات فى الهند ، ودرس فى جامعة سنتيينكانان بالقرب من كلكتا : وذلك بناء على دعوة من الشاعر الهندى رابيندرانات طاغور وذلك عام ١٩٢٩ : وهناك أسس قسما للدراسات الشرقية بتلك الجامعة وقام بتدريس الثقافة الاسلامية ، وألقى محاضرات عديدة فى نفس المادة فى جامعتى دلهى ولوكنوف .

دعته الكلية الاسلامية فى عام ١٩٣١ لكى يلقى عدة محاضرات عن الأدب التركى الحديث ولقد طبعت مذكراته إلى باللغة الهندوستانية فى جامعة اورانج آباد فى منطقة دكاز

وهو أحد الأوربيين الثلاثة الذى زاروا الاماكن المقدسة فى مكة والمدينة ، وقد بدأ رحلته للحج محترما من مصر على أحد سفن الحجاج فى عام ١٩٣٥ ونزل على شاطىء جدة واشترك فى أداء الفريضة والحج والطواف والزيارة وقد درس خلال مدة إقامته عادات وطباع سكان المنطقة .

كان ضيفا على الملك عبد العزيز آل سعود ، وقد لزم المدينة المنورة محترما ومجاورا للرسول إلا أنه أصيب بالمرض مما ألجأه إلى العودة إلى أوربا :

كتب عند عودته كتابا من مجلدين عن طريقة الحج وذكرياته ومشاهداته بالأراضى المقدسة ـ صدر باللغة المجرية وترجم إلى عدة لغات والكتاب اسمه « الله أكبر » .

الح عليه حب الرسول عليه الصلاة والسلام فدفعه ذلك لمعاودة الحج للمرة الثانية فعاد إلى الأراضى المقدسة عام ١٩٣٩ — ١٩٤٠ وفى هذه المرة اكتشف بعض الآثار الدينية الهامة بالمدينة المقدسة .

دعته الحكومة المصرية فى خريف عام ١٩٥٧ إلى مصر حيث ألقى عدة محاضرات فى جامعات القاهرة والاسكندرية وحيث اتصل بالأدباء المصريين.

زار الجمهورية العربية المتحدة فى نهاية عام ١٩٥٧ وأوائل عام ١٩٥٨

حيث ألقى عدة محاضرات بها فى دمشق .

دعته حكومة الهند لزيارة الهند وهناك سافر فى عام ١٩٥٨ للمرة الثانية واتصل بالأدباء هناك .

قام بزيارة لفنلندا عام ١٩٥٩ وهناك ألقى عدة محاضرات عن الآداب العربية ، وقد أم جموع المصلين من مسلمى بولندا فى صلاة الجمعة وألقى خطبة عظيمة عن الاسلام وسياسة السلام التى هى من أسس ودعائم الدين الحنيف .

ونتيجة لجهوده المستمرة فى خدمة العروبة وفى توثيق الصلات المجرية العربية أنعم عليه رئيس الجمهورية المجرية بأعلى وسام فى الجمهورية وذلك بمناسبة مرور خمسين عاما على عمله بالجامعة .

وقد أقيم معرض عن حياة وأعمال جرمانوس فى أكثر من مدينة بالمجر فى هذه المناسبة فى شهر نوفمبر ١٩٥٩ .

انتهى حاليا من كتابة موسوعة ضخمة تضمنت أشعار ١٥٠ شاعرا من الجاهلية إلى الآن .

يعد الان كتابا عن آداب شعراء المهجر ، باللغة الانجليزية بتكليف من جامعة حيدر آباد .

وكذلك كتابه الضخم عن تطور العروبة وآدابها منذ حملة نابليون إلى الان سيصدر باللغة الألمانية .

يعرف جرمانوس اللغات الاتية : اليونانية اللاتينية ، الالمانية ، الفرنسية الانجليزية ، العربية التركية ، الفارسية ، الاردية وعددا من اللغات السامية بجانب إلمامه باللغات الفنواورانجية .

عمل فى أول حياته مدرسا للاهوت بمعهد الريفورمات الديني .

اشترك فى الحرب العالمية الأولى .

يبلغ عدد مؤلفاته وأبحاثه ٥٦ كتابا ومقالا ، باللغات العربية والألمانية والفرنسية والايطالية والمجرية والهندوستانية والاوردية .

ويقول الدكتور عبد المنعم ممتاز يصف جرمانوس كما عرفه .

كنت أيام دراستى بالجامعة ومن قبلها أيام كنت اتتبع الأبحاث العلمية التى تتناول الآثار والتاريخ الاسلامى ، كنت كثيرا ما أسمع عن جرمانوس ، أسمع الكثير عن ذلك الشيخ العجوز يصارع الدهر ويتغلب عليه بعزمه ودأبه فى الدراسة والبحث والاستقصاء غير ناظر إلى صحته وكبره ، ذلك الشاب الذى يبلغ الخامسة والسبعين من عمره ، سمعت عنه الكثير وقرأت له الكثير حتى التقيت به عام ١٩٥٥ فى شهر مارس وهناك أسرنى بحديثه العربى ذى اللكنة الأعجمية وبطربوشه الأحمر القانى ، أسرنى وفرض على حبه وانهمل على سيل إرشاداته القيمة التى فتحت لى السبيل إلى المعرفة الحقة وإلى التوصل إلى دقائق علم الاستشراق ، وتفارقنا على غير لقاء ، إلى أن دعيت فى عام ١٩٥٦ لزيارة المجر وهناك اشتقت إلى رؤيته فاذا به طريح الفراش ملازم المستشفى وقد أجريت له عملية جراحية خطيرة فذهبت إليه فاذا بحديثه يفيض قوة ويده تتحرك شارحة لى فلسفة ابن الرومى الذى أقض مضجعه وهو نزيل المستشفى فلم يستطع أن يكمل بحثه عن الشاعر الفيلسوف ، وطال حديثنا ساعات طوال ودار حول مستقبل الاستشراق فى المجر وكيف أنه يعيش وحيداً فى معزل عن الشرق بعيداً عن أحبائه والكتب وأصدقائه بعيداً عن منبت الوحى والاسلام إلا من رسائل الأصدقاء ، وقد عرض فى حديثه الممتع رغبته فى أن يعمل معه عربى يقوم لغة طلابه .

ودارت الأيام والتقيت به فى المملكة العربية السعودية حيث عملت مدرسا بها ، وهناك التقيت بالكثير من أعلام الأدباء السعوديين الذين أعادوا إلى ذاكرتى لقائى به وجددوا شوقى لزيارة المجر مرة ثانية ، وفعلا شددت رحالى إليها لإعداد رسالة الدكتوراه فى التاريخ القديم وهنا قابلته ثانية ، وتجدد اللقاء وازداد حبى وإعجابى به وإيمانى بمقدرته وعلمه ، وهنا راقبته عن قرب فعرفت فيه الشاب المتجدد الحيوية الذى يعمل طوال الليل والنهار باحثا متقصيا آثار كلمة شاردة أو كلمة غامضة المعنى . رأيته غارقا بين الكتب والمخطوطات يقرأ ويختار ويعد محاضراته لطلابه عن الأدب العربى والشريعة وهنا عرض على أن أعمل معه فى الجامعة ، وكم سعدت كثيرا بذلك وكم كان مشجعا لى على دراسة اللغة

المجرية وتفهم موضوع دراستى .

ويوما من الأيام وكنا نتباحث ونتجادل عن مدى معرفة المستشرقين للغة العربية ودقائقها : فقال لى : هل تعرف كيف تعلمت العربية ؟ قلت له : بعقلك ومقدار تفهمك لها . . قال : إن العقل قد يعجز والإدراك قد يتوقف . . . اننى ياصديقى لم أتعلم بعقلى . . بل بعجزى الذى تعرف ومن كثرة الجلوس الساعات الطوال بجانب الكتب والمعاجم ، إن له الفضل فى تفهمى اللغة العربية، ومازلت فى أول الطريق والنهاية بعيدة صعبة المنال .

نعم إنه يقول فى أنه فى أول الطريق ، نعم إنه فى أول طريق الخلود عرفته مدققا محاضراً مرحا ينتقل بك من طريقة إلى أخرى ومن ملحة إلى أخرى خلال محاضراته العامة للجمهور والتى يؤمها الكثير من الأدباء المجريين الذين يتفتح أمامهم الطريق لتفهم تراثنا العربى العظيم .

وكان من نتيجة عمله الدائم على نشر روائع الأدب العربى والحياة العربية ومحاضراته العامة وأحاديثه فى التلفزيون والراديو أن أصبح عدد طلاب اللغة العربية هنا فى بودابست أصبح عدداً لا يمكن أن يتصوره إنسان .

هؤلاء يكتبون فى النقد

— ١ —

العجب العجيب أن يتصدى للكتابة فى النقد صحفى مثـــل عبد الفتاح أبو مدين ، الذى كتب فى مجـــلة الأضواء مقالات لا تمت إلى الأدب والنقد بصلة .

وأبو مدين من الشباب الذين يعتقدون أنهم يجيدون حين يكتبون ، ولست أدرى ماذا يكتب هو وجماعة من إخوانه الذين لم يجلسوا فى مجالس العلم والعلماء ولم يعرفوا شيئا من أصول الثقافة الأدبية ، ولم يطلعوا على شىء من تراثنا الأدبى القديم .

وقد جمع أبو مدين مقالاته الصحفية فى كتاب اختار له عنوان « أمواج وأثباج » ، وهو عنوان لطيف مثل كتابة صاحب الكتاب ، وفى الكتاب آراء عجيبة ، تدل على سطحية ظاهرة ، وسذاجة واضحة .

— ٢ —

ومن الكتب التى تعرض لها فى مقالاته وفى كتابه كتابان : أولها : الشعر والتجديد ، وثانيهما : من تاريخنا المعاصر .

يقول أبو مدين فى الشعر والتجديد (١) :

١ — الخفاجى كثير المؤلفات ، وقد قيل : المكثر غير مجيد ، وبهذا المنطق السوفسطائى يسير أبو مدين فى نقده .

٢ — الخفاجى يشير فى هامش الصفحات إلى أسماء كتبه السابقة التى نقل عنها وإلى آراء الآخرين ينقلها على علاتها .

---

(١) راجع ص ١٢٦ وما بعدها من كتاب أبى مدين « أمواج وأثباج » .

وهذه هي الأمية التي تحكمت في أبي مدين كما تحكمت في غيره ممن ادعوا أنهم أدباء في البلاد المقدسة ، والأمية التي يتصور بسببها أمثال أبي مدين أن الرجوع إلى المراجع في البحث والتأليف عيب كبير ، الأمية التي تجعل من المقالات الصحفية التافهة الجوفاء أدبا ونقدا ولا تجعل للكتابة العلمية المنهجية المعتمدة على المراجع قيمة ، وأمثال أبي مدين ممن يدعون أنهم يحملون رسالة القلم يجب أن يعرفوا أن منزلتهم من البحث الأدبي والثقافي في النهضة العربية المعاصرة منـــزلة الذين يطوفون بالطبول في الشوارع والحارات ليلهوبهم الأطفال والنساء .

وأمية صاحبنا لا تجعل لرأيه قيمة ، ولا تجعل له حكما ، فهو لا يدرى هـــل الآراء العلمية المنهجة في النقد المعتمدة على المراجع والمصادر يصح أن تسمى بحوثا علمية أصيلة أو تسمى نقلا عن آراء الآخرين على علاتها ، ولوكان أبو مدين تتلمذ على الطبقه الخمسين من التلاميذ الذين تتلمذوا على الخفاجي لعرف قيمة العمل المنهجي في البحث العلمي والأدبي وفي النقد المعاصر .

٣ ـ كتاب الشعر والتجديد قد فرغ منه الناقدون هنا .

أي أن الكتاب قد حكم عليه النقاد في الحجاز وبماذا حكم عليه النقاد ، لعله يريد أنهم حكموا عليه بمثل أحكام أبي مدين ، وإذا فأبو مدين لم يأت بجديد ، بل هو بوق لغيره ، وناقل لآراء سواه ، ومن هم هؤلاء النقاد الذين فرغوا من الكتاب ؟ إنهم العواد والساسي ، وبارك الله في العواد والساسي من ناقدين أمناء ، بل من مغرورين أدعياء ، تتلمذ على غرورهم ودعاويهم أمثال أبي مدين التلميذ الفاشل الذي لم يحمل في يمينه إجازة علمية ، ولم يحمل في صدره ثقافة أدبية أو نقدية ، ولكنه أديب وناقد ، مادام يجد القلم الذي يكتب به ، ومادام يجد الصحيفة التي تنشر له هراءه الأجوف المكذوب .

٤ ـ أود أن أقف على نقط في كتاب الشعر والتجديد ، ومن هذه النقط قوله عن الأستاذ أحمد العربي : وهو شاعر من طبقة زملائه شعراء المدينة » ، ولم يحدد الخفاجي ، ولم يدرس درجة هذه الطبقة التي يشير إليها ، ولم يذكر من هم شعراء المدينة الذين يعنيهم ، ويعتبر الخفاجي شعر العربي شعرا مدرسيا

ضعيفاً ليس فيه معنى ، وأسلوبه عادى هزيل .

وأبو مدين بهذا يثبت أن كتابى « الشعر والتجديد » ليس كما زعم من أنه كتاب سطحى ، وها هو ذا قد نقل عنه آراء نقدية مدروسة ، وأحكاما أصيلة فى النقد الأدبى لم يفهمها لأنه لا يستطيع أن يفهمها ولا أن يعرف الأسس التى بنيت عليها ، ولو كان أبو مدين ممن يتذوقون الأدب لقرأ شعر العربى وعرف صحة حكمى عليه ثم إن أبا مدين نسى أن هذا الكتاب ـ الشعر والتجديد ـ قد اشتمل قسم منه على دراسة الشعر الحجازى المعاصر ، وعلى أحكام صادقة قوية نزيهة منصفة على مئات الشعراء الحجازيين ، وفيه لو قرأه بيان لزمـــلاء العربى وإخوانه فى مدرسته الشعرية .

٥ ـ ويقول أبو مدين : إن الخفاجى كتب عن الشاعر حسين عرب ستة أسطر نقلا عن المرصاد ، وهنا يبين الحقد الدفين فى نفس أبى مدين من المرصاد وصاحب المرصاد ، وكأن الرجوع إلى المرصاد وهو من أمهات كتب النقد فى الأدب الحجازى جريمة لا تغتفر ، واليوم الذى يصل فيه أبو مدين إلى فهم آراء الفلالى فى كتابه « المرصاد » يكون قد استحق أن يكتب فصولا فى النقـــد تنشر له فى صحف الحجاز .

٦ ـ وينقد أبو مدين ما قلته عن الشاعر الحجازى المبدع طاهر الزمخشرى من أن شاعريته غنائية قوية وأنغامه عذبة وإن كانت حزينة ، زاعما بأن شاعرية الزمخشرى قد تكون غنائية ولكنها مهزوزة ، لا تعرف القوة ولا تعرفها القوة ..

وهنا كذلك يبين ما يعتمل فى نفس أبى مدين من مؤثرات ، ولو أن أبا مدين استطاع أن يفهم دواوين الزمخشرى لكان قـــد اقتنع بما قلته عنه وعن شاعريته .

٧ ـ ويقول الخفاجى عن الشاعر المبدع حسين سرحان : وشاعريته كما يقول الفلالى لا تستقيم على وتيرة واحدة تعلو تارة وتهبط أخرى ، ولماذا لا يقول الخفاجى أقول أنا .

هذا هو نقد الأطفال الصغار وكنت أريد من أبى مدين أن يكون رجلا

يفهم ما أكتب فى النقد والحكم على الشعراء ، ولكن الذى يقول ما لا يفهم هو الذى لا يفهم ما أقول ؟ .

- ٣ -

والكتاب الثانى الذى تعرض له أبو مدين بالنقد المزعوم هو « من تاريخنا المعاصر (١) » ومن مثل نقده لهذا الكتاب الذى يدل على عقلية أبى مدين قوله :

١ - كتب - الخفاجى - عن أحمد الصافى النجفى وما كتبه عن بعض دواوينه موجز أشد الإيجاز . !!

٢ - وما كتبه الخفاجى - عن الشاعر العراقى عباس شبر صفحة واحدة . !!

٣ - وترك الشاعر العراقى موسى الطالقانى لأن نصيبه من دراسة الخفاجى لا يزيد عن نصيب صاحبيه . !!

٤ - يقسم الخفاجى الشعراء - أى فى الحجاز - إلى طبقات كأنه فى سوق عكاظ !!

وهذه والله هى عقلية أبى مدين الناقد العظيم فى نقده .

٥ - ويحسب أبو مدين أن الشاعر إذا كان من الطبقة الأولى فلا بد أن يسلم من الخطأ ولا بد أن يكون قد بلغ غاية الجودة ، وعلى ذلك ينقدنى فى أنى جعلت الغزاوى والعربى من شعراء الدرجة الأولى ثم نقدتهما .

٦ - والعامودى وعبد القدوس الأنصارى فى رأى أبى مدين لا يستحقان أن يعدا من شعراء الطبقة الأولى ، ومسكين والله أبو مدين الذى يفهم فى نفسه أنه ناقد . ويعيب أبو مدين على الخفاجى أن كتب عنهما فى كتابين من كتبه . !! .

---

(١) راجع ١٣٩ أمواج وأثباج لأبى مدين .

٧ ـ ظلم ـ الخفاجى ـ الأساتذة السرحان والفقى والقرشى ، ولم يبين فى أى شىء ظلمهم الخفاجى ؟ أظلمهم حين جعلهم من شعراء الدرجة الثانية أم فى شىء آخر ؟ وإذا كان أبو مدين لا يفهم معنى كون هذا الشاعر من شعراء الطبقة الأولى أو كونه من شعراء الطبقة الثانية فلم هذا العناء ؟ .

٨ ـ ظلم ـ الخفاجى ـ أحمد جمال وعبدالسلام هاشم حافظ ! ! ولعل أبا مدين يريد أنى ظلمتهم حين جعلتهم من شعراء الطبقة الثالثة . ومرة أخيرة أقول لأبى مدين بارك الله فيك أيها الناقد العظيم .

٩ ـ ترك الخفاجى شعراء كان ينبغى أن يحتفى بهم وأن ينقل نماذج من أشعارهم لأنهم جديرون بالعناية مثل : محمود عارف ، وهاشم رشيد ، والأستاذ ابراهيم فودة ، وفؤاد شاكر : وسعد البواردى ، وأشكر أبا مدين على هذه الملاحظة التى كتبها بسرعة فهدم بها كل ما كتب .

إنه إذا كان على الخفاجى أن يحتفى بهؤلاء الشعراء ، فان مغزى ذلك أن لكتابته فى النقد ولكتبه التى تعرض فيها للأدب الحجازى قيمة تذكر ، وإلا لما كان ينبغى للخفاجى أن يحتفى بدراسة هؤلاء الشعراء .

وعند ما تركت الكتابة عن شاعر كبير موهوب مبدع مثل الأستاذ إبراهيم فودة لم يكن ذلك عن جهل بمقدار هذا الشاعر الكبير فى الشعر الحجازى المعاصر ، وفى الأدب الحجازى عامة ، بل لأنى استأنيت حتى أحصل على مجموعات شعره المخطوطة لأستطيع أن أدرسها دراسة عامة شاملة ، ولو كان عملى هو العمل السريع ـ كما يزعم أبو مدين ـ لكتبت عن شاعرنا الكبير إبراهيم فودة كتابة سريعة خاطفة .

أما الشاعر فؤاد شاكر فله شعر كثير ، ولكنى لم أكتب عنه ، لأن الكتابة عن الأستاذ فؤاد شاكر لا بد أن تنطوى على تقدير رسالة الشاعر فى الحياة ، ومادام الأستاذ فؤاد شاكر قد ارتضى لنفسه مذهبا معينا فى الشعر وقف شعره عليه ، وهو فن المدح ، وجعل هذا الفن والإجادة فيه هو رسالته ، فان كتابتى عنه أمر متروك لى ولمنهجى فى النقد .

هذه نماذج من نقد أبي مدين الذي هدم آخره أوله ، والذي نقض في نهاية كلامه كل ما كتبه في مطلع نقده .

وهنيئا لأبي مدين ، الناقد الرهيب ، الذي تصور أن الكتاب الصحفية هي من النقد الرفيع ، وأنها تحشر صاحبها مع أعلام الأدب والنقد ، وتجعل له حظا في اقد النقاد .

هنيئا لأبي مدين ما كتب وما نقد بل ما ناقض فيه نفسه ، وما أبان فيه عن ادعائه الطويل العريض .

واحب أن أقول إن أبا مدين كشف بما كتب عن نفسه ، هذه النفس الملتاعة التي جزعت لنقد الخفاجي لبعض الشعراء الحجازيين الذين يعتز بهم أبو مدين أو يتتلمذ عليهم ، أو ينتفع من مدحهم وتملقهم والظهور بمظهر المدافع عنهم ، كما جزعت لإهمال الخفاجي الكتابة عن بعض الشعراء ، ولتقدير الخفاجي لبعض الاخرين ، وهذا الجزع تجلى في كتابة أبي مدين عن الخفاجي وعن كتابيه ، فهنيئا لأبي مدين هذا الجزع والفزع ، وهذا التعثر ، وتلك الحيرة . . .

التيارات الأدبية فى قلب الجزيرة العربية

— ١ —

هل هناك تيارات أدبية فى الجزيرة العربية حقا أو أن الأدب هناك لا يزال بعد فى بدء مرحلة التطور والنمو ؟ .

إن الأستاذ عبد الله عبد الجبار مؤلف كتاب التيارات الأدبية فى قلب الجزيرة العربية يجيب على سؤالنا هذا فيقول : إن الحديث عن هذه المذاهب — أى مذاهب الأدب — هناك — أى فى قلب الجزيرة العربية — بوصفها تيارات محددة المعالم يبدو أسطورة أو شبه أسطورة . ومع ذلك فلا معدى لنا عن الحديث عنها بوصفها نزعات فردية أو جماعية ضيقة ، وسنقسم المبحث إلى ثلاثة تيارات جوهرية : التيار الكلاسيكى ، التيار الرومانسى ، التيار الواقعى » (١) .

وهنا نجد المؤلف النابه عبد الجبار ، وهو من أعلام الأدب الحجازى المعاصر ، يرى بحق أن الأدب هناك لا يزال يسير فى طور من أطوار النمو والتجدد ولم يتخط ذلك إلى طور المذاهب العامة المحددة ، وإنما هى نزعات فردية أو جماعية ضيقة .

ولا نجد نقدا أكثر صدقا وبعدا عن التعصب من هذا النقد ، ولا فهما أكثر واقعية ومرونة لطبيعة الأدب فى قلب الجزيرة العربية من هذا الفهم .

ومن هذه البداية فى دراسة الأدب هناك تبدأ صميم هذه الدراسة القيمة الخصبة التى عانها عبد الجبار لتقييم الأدب فى الجزيرة العربية ، وإن كانت هذه البداية صحبها تمهيد ضخم يستغرق ٢٤٧ صفحة ، ولكنه تمهيد اقتضته طبيعة الدراسة ، وطبيعة المنهج الذى سار عليه المؤلف .

ويكمل هذه الفكرة عن الكتاب الحقيقة التالية التى قررها المؤلف فى صدر الكتاب وهى قوله : وبعد فحين نظهر هذه المحاضرات بين دفتى كتاب ، ستكون

(١) ص ٢٤٧ التيارات الأدبية .

أول كتاب فى هذا الموضوع ، وحسبى أنى وضعت معالم ومشاعل على الدرب ليهتدى بها الدارسون (١) .

وإنى لأقرر هنا فى صراحة وإخلاص ضعف روح البحث الأدبى ، والدراسات النقدية فى الجزيرة العربية ، أو انعدامها ، وكم تساءلت : هل عقم الأدباء الحجازيون فلم يستطيعوا مجاراة النهضات الادبية والنقدية فى مصر وغيرها من أركان العالم العربى ؟ حتى أصبح أدب الجزيرة العربية هو الأوحد المجهول عند كافة شباب العالم العربى ومثقفيه ، ويعترف مؤلفنا الجليل عبد الجبار بذلك فيقرر فى صدر الكتاب أيضا هذه الحقيقة إذ يقول : « نحن أمام أدب مجهول يشبه قارة مجهولة ، ولم يكن لهذه الحال من سبب إلا العزلة التى تعرضت لها الجزيرة العربية لافى العصور المتأخرة فحسب ، بل منذ العصر العباسى » . (٢)

وإذا وجد دارس متعمق ، وناقد ملم بمذاهب الادب وبالحركات الادبية فى العالم العربى وفى العالم الغربى كذلك ، مثل عبد الجبار ، فاننا قد نحاول عبثا إذا أردنا أن نجد كوكبة كبيرة تكرس جهدها فى خدمة الادب فى الحجاز ونجد ، وتقف نشاطها على هذا المجال ، إذ أن ظهور الحركة الادبية بدأ هناك متأخرا كل التأخير عن جميع البلاد العربية ، وبدأ فى وقت صرفت فيه مادية الحياة وكثرة الاموال الشباب عن التفرغ للأدب والاقبال عليه ، ودليل ذلك أنه على الرغم من كثرة الطلاب من قلب الجزيرة العربية فى جامعات مصر ودمشق وسواها من الجامعات العربية ، فلن تستطيع أن نجد رسالة ماجستير أو دكتوراه لطالب حجازى أو نجدى فى صميم الدراسات الادبية لأدب الحجاز ونجد ، وهما الإقليمان الذان يبدو لى أنهما المرادان بقلب الجزيرة العربية .

ومن حسن الحظ لأدب « قلب الجزيرة العربية » أن نجد عبد الجبار ، وهو طليعة طيبة لحركة التجديد والتطور فى الادب فى هذه البلاد المعزولة فكريا وثقافيا وأدبيا عن العالم العربى .

---

(١) ص ح ، من الكتاب .

(٢) ص ه ، من الكتاب .

ولست مؤمنا بأن جامعة الرياض سيكون لها أثر قريب فى التيارات الادبية فى هذه البلاد إذ أن أثر الجامعات لايظهر إلا بعد حقبة طويلة من الزمن من جانب ، ومن جانب آخر فليس فى جامعة الرياض أساتذة يستطيعون دراسة الادب الشباب الجامعى هناك ، وإذا كان هناك أفراد قد ندبوا من بعض البلاد العربية لتدريس الادب فهم أبعد ما يكونون عن حركات التجديد فى الادب ، ولأكثرهم طابع خاص لا يتيح للحركة الادبية أن تزدهر أو تنمو فى هذه الجامعة الناشئة المحددة الاهداف والخطط ، وطبيعة الاساتذة المندوبين الوقوف عند المظهر الجامعى وحده دون أن يستطيعوا التأثير فى الحركة الادبية وفى روح الجو الجامعى ، وإذا أردنا لكلية الآداب فى جامعة الرياض أن تؤدى رسالتها حقا فان وجود عبد الجبار أستاذا الأدب العربى فيها خير معين لها على تأدية رسالتها الثقافية والادبية .

ونتمنى لجامعة الرياض أن تسير على منهج الاساتذة الزائرين الذى سارت عليه الجامعه المصرية قديما ، فتستقدم كل موسم طائفة من الاساتذة المتخصصين فى الآداب ليحاضروا فيها بجانب الاساتذة المتفرغين .

وإذا أريد إحداث نهضة فكرية فى بلاد وقلب الجزيرة العربية ، فيجب أن يعتمد لكلية الآداب فى جامعة الرياض ، ولكلية اللغة العربية فى الرياض أيضا أضخم ميزانية فى تاريخ الكليات الجامعية بحيث يمكن استخدامها فى زيادة طاقة الاساتذة ، وفى نشر التراث الادبى القديم والحديث فى هذه البلاد ، وفى تكوين مكتبة ثقافية حية لهاتين الكليتين خاصة ، وفى إقامة المواسم الادبية الكبيرة ، وفى تبنى مؤتمرات الادب هناك ، وإذا كانت مؤتمرات الادباء العرب قد عقدت فى القاهرة ودمشق ولبنان والكويت فأولى بها أن تعقد فى مكة كذلك ، ثم فى إصدار المجلات الادبية والثقافية القوية ، واعتقد أن كلية آداب جامعة الرياض لو استطاعت أن تطبق نظام كلية آدب جامعة القاهرة مع بعض تحوير لكان ذلك أدعى للنجاح .

— ٢ —

ولقد درس عبد الجبار فى كتابه الضخم التيار الكلاسيكى وعرض لأعلامه

ونماذجه ، سواء الكلاسيكية القديمة أو الجديدة أو التي بين بين ، ثم درس التيار الرومانسي مثلا في شعرائه ، والتيار الواقعي وصوره وأعلامه ، سواء منه الشعر الاجتماعي أم الثوري أم الوطني أم القومي .

ونؤكد هنا مرة أخرى أن هذه الألوان لم تصل بعد إلى مذاهب وحركات أدبية وتيارات حقيقية . وأن الفرق بين الرومانسية في شعر قلب الجزيرة العربية والرومانسية عند مدرسة أبولو أو مدرسة شعراء الديوان مثلا واضح كل الوضوح ليس فيه خفاء ، وهكذا نجد أن الأدب في هذا الركن العربي العزيز في حاجة إلى تجديد وتطور ونمو ، وأن بينه الآن وبين ما نريده له تخلفا لا يقل مداه عن نصف قرن من الزمان .

وعند ما يقول عبد الجبار في خاتمة كتابه : « في قلب الجزيرة شعر رائع ، وشعراء يقفون جنبا إلى جنب مع الشعراء المجيدين في العصر الحديث ، ولكنها العزلة ، عزلة الشعب العربي في سائر البلاد العربية ، عن أدبهم ، هي السبب في عدم نيلهم المكانة اللائقة بهم (١) » ، نجده لا يصف الشعراء في هذه البلاد بأنهم أصحاب ومذاهب إنما يصف شعرهم بالجودة فحسب ، وهو في ذلك جد خبير بطبيعة الآداب العربية في بلاده وتطورها ، ونرجو أن نرى في القريب جدا جدا هذه المذاهب الجديدة وقد ظهرت في أرض النبوة ومهابط الوحي ، وبلاد المعجزات .

- ٣ -

والقسم الأول من كتاب « التيارات الأدبية » هو في دراسات عن جغرافية قلب الجزيرة العربية وتاريخها الحديث ، وهي دراسات تعين على فهم بيئة الأدب هناك والعوامل التي أثرت فيه ، ويقع هذا القسم في نحو الـ ١٣٠ صفحة .

أما القسم الثاني من الكتاب فهو عن التيارات الأدبية في قلب الجزيرة ويشتمل على أبواب :

١ - فالباب الأول في ميلاد الأدب الحديث في قلب الجزيرة ، وقد بدأ

---

(١) ص ٣٥٩ من الكتاب .

بميلاد الثورة العربية الكبرى على يد الحسين فى التاسع من شعبان عام ١٩١٦ ، وتحدث المؤلف عن الشعراء الذين وقفوا مع هذه الثورة وساروا فى اتجاهها ، مثل : فؤاد الخطيب ، والأسكوبى ، والصحاف ، وعبد الوهاب آشى ، وعبيد مدنى ، ومحمد صبحى ، والشيخ محمد سرور الصبان الوزير العربى الأشهر الذى تزعم الحركة الأدبية وآزرها ، وسوى هؤلاء من الشعراء ، وقد درس المؤلف أثر الثورة العربية فى الشعر الحجازى ، كما درس أثر المدرسة المهجرية ، وأثر الثقافة المصرية .

٢ - والباب الثانى فى دراسة العوامل المؤثرة فى الأدب . وهى :

ا - الصحافة والطباعة والإذاعة .

ب - التعليم والمكتبات .

ج - الرقابة والمنتديات الأدبية .

٣ - والباب الثالث فى دراسة أثر البيئة فى شعر الجزيرة .

٤ - والباب الرابع فى دراسة الرمزية الخاصة فى أدب الجزيرة .

ويصور عبد الجبار حب الأدباء الحجازيين والنجديين للمعارك الادبية فى قوله : « إذا انصرف الجيل الجديد فى مصر اليوم عن تلك المعارك النقدية لأنه يتطلع إلى ألوان جديدة من الفكر والادب ، فان أدباء قلب الجزيرة لا يزالون يهتمون بتلك المعارك ، ويقارنون بين طه حسين والعقاد ، ويبلغ بهم الاهتمام أن يستفتوا طائفة كبيرة من الادباء فى المقارنة بينهما ، وأيهما أثر فى الحياة الادبية الحاضرة ، كما فعل الساسى فى كتابه .

ونضيف إلى ذلك أن هناك ظاهرة خطرة جدا على الادب الحجازى المعاصر ، وهى شراء بعض الادباء هناك لجهود الادباء العرب وانتحالها لانفسهم ، ونسبتها إليهم . وطبعها طباعة أنيقة وكتابة أسمائهم عليها ، للظهور بمظهر المؤلف والمفكر أمام الرأى العام ، وللكسب المادى من وراء ذلك ، وإن كان ذلك معروفا للناس ، ولجمهور الادباء والعلماء هناك :

ثم خصص المؤلف قسما لدراسة التيارات الادبية ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا القسم .. الذى ينتهى الكتاب بانتهائه .

— ٤ —

وخلاصة ما نقوله عن هذا البحث - الذى ألفه الاديب الحجازى الجليل عبد الله عبد الجبار مدير البعثات التعليمية - والاستاذ المحاضر بمعهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية - أنه يعد ثمرة ناضجة ، ودراسة عميقة منهجية للادب الحديث فى قلب الجزيرة العربية ، وسوف تحدث له نتائج أدبية طيبة فى الجزيرة العربية ، وهذا ما نرجوه بأذن الله .

وحى الشاطىء

- ١ -

شاعر مرهف الحس ، عميق الشعور ، قوى الملكة ، تام الموهبة . ينظم الشعر طبعا لاصنعة ، ويصور تجاربه الوجدانية تصويراً واضحا سهلا لا تعقيد فيه ولا إغراب ولا تكلف .

ذلك هو الشاعر الحجازى محمد إبراهيم جدع ، صاحب ديوان : « وحى الشاطىء » الذى طبع فى القاهرة عام ١٩٥٨ فى نحو المائة والخمسين صفحة ، واحتوى على مجموعة من القصائد ذات المضمون الاجتماعى والوطنى والقومى ، والوجدانى ، وأعرب عن نفس الشاعر وتفكيره إعرابا قويا بينا لاخفاء فيه :

- ٢ -

وديوان وحى الشاطىء يدل على أن الشاعر يعيش على شواطىء الحجاز ، ويستلهم شعره من وحى الطبيعة ، ويستمد من « البحر » كثيراً من إلهامه وعبقريته الشاعرة ، وذلك هو الحقيقة . فالشاعر من « جدة » ثغر الحجاز الأول فيها ولد ، وفيها شب ونشأ وعاش . ونجد صور البحر والطبيعة فى كثير من شعر ديوانه الذى نتحدث عنه . . من مثل قصيدته « أنشودة البحر » ، وهى قصيدة ملهمة عميقة الإحساس بروعة البحر الأحمر وجماله ، وقصيدته « وقفة على شاطىء جزيرة الواسطة » التى تقع فى جنوبى جدة الغربى ، وعند شاطئها البهيج ترتمى رمالها البيض الناعمة فتبدو كأنها قطعة من الصحراء هربت من حرارتها ورمالها المحرقة ، واختارت مقعدا بين البحر العميق ، لتستريح بعد إعياء ، وتستجم بعد عناء « كما يقول الشاعر » ، والقصيدة من روائع شعر الطبيعة فى الأدب الحجازى المعاصر ، ويقول الشاعر فى مطلعها :

أنفت من الصحراء مفعمة الهوى ... قد أيقظتها لفحة الصحراء
فبدت على البحر العميق مطلة ... تهوى الجمال ممثلا فى الماء

جنحت إلى حرية أبدية   تسمو عن الإجحاف والإيذاء

ويبدو تأثر الشاعر بالبحر فى كثير من قصائد شعره مثل قصيدته « نغمة سابحة » ، ويكثر فى شعره أوصاف البحر وصوره ، مثل « سابحة » ، و « حورية » و « الموج » ، و « اللج » ، و « الشاطىء » ، و « الماء » ، و « النسيم » و « العبير » . . حتى « السراب » ، و « الينبوع » .

وقصيدته « حنين الجزيرة » ، ويقصد بها طبعا « جزيرة الواسطة » تمثل عمق إحساس الشاعر بالطبيعة ، وحياته فيها ، وحبه لها ، وتمثله إياها . . والقصيدة بديعة ، وقد جعل الشاعر قافيتها هى الهاء ، وكان الأولى أن تكون هى الحرف الذى قبل الهاء . ومن ثم فلم يلتزم الشاعر ألف التأسيس فى قافيته فى القصيدة ، وكان الأولى التزامها . . ويكون الحرف الذى بين ألف التأسيس والهاء هو الروى وتلتزم حركته . . لكن الشاعر قد استراح من كل ذلك ، فجعل الهاء هى القافية . . والمجددون من الشعراء المعاصرين يفعلون ذلك كثيرا ، من مثل أبى شادى والصيرفى ، وناجى ومطران ، وسواهم .

ومن صور الطبيعة فى الديوان قصيدة « تأملات » ، وكذلك قصيدته « الربيع » ، وهى قصيدة ساحرة ، وفى مطلعها يقول الشاعر :

التفت الدنيا بثوب عاطر   وتعرت لعيون الناظر
وشدت فى الروض ألحان المنى   وتغنت بغناء ساحر

وشعر الطبيعة فى الديوان من أجمل وأعمق وأبدع ما نظم الشاعر ، هذا الشاعر الذى يؤثر من الشعر الشعر القوى الموجه الطليق الثائر الحر ، كما يعبر هو نفسه فى قصيدته « ينابيع الشعر » حيث يقول :

غنى الشعر كالرياح عتيا   يوقظ النفس من سبات الحياة
غنى الشعر بالحياة قويا   صارخا قد أهاب بالعزمات
غنى الشعر من فؤاد طليق   وضمير مشرف الغايات
غنى الشعر كالطبيعة ينمى   ويمد العقول بالمبدعات

— ٣ —

ونظرات الشاعر القومية والوطنية قوية واضحة فى الديوان ، من مثل قصيدته « تحية » التى نظمها بمناسبة اجتماع سعود وعبد الناصر وإمام اليمن عام ١٣٧٥ هـ ، وقصيدته « الوحدة العربية » ، وقصيدته « يوم العروبة » ، وقصيدته « نشيد البلاد » ، وقصيدته « الاتحاد العربى » وقد نظمها بمناسبة اجتماع لأقطاب الأربعة بالقاهرة عام ١٣٧٦ هـ ، وقصيدته « دعاة الحروب » التى يجادل فيها دعاة الأحلاف ويؤكد حياد العرب ، وكذلك صنع الشاعر فى قصيدته « قمم الخلود » وقصيدته « تحية البلاد » . : وهى قصائد عامرة بالروح القومى ، والمضمون الوطنى ، ويطول بنا المقام لو حللنا هذه القصائد تحليلا كاملا .

— ٤ —

والشعر الدينى كثير قوى فى الديوان ، ومن مثله قصائده : نشيد المعراج ، وذكرى الهجرة ، ومزايا الحج ، ومولد الرسول ، وسواها .

والنزعة الدينية كذلك واضحة فى شعر الديوان متمثلة فى كثير من قصائده ؛ وقصيدتاه : شيخ الأبالسة ، وأيها الشيطان ، طريفتان ، وقصيدته « قضاء وقدر » تمثل إيمانه العميق ، وفى قصيدته « عبرة » يناقش الماديين والجاحدين والمنكرين ، وقصيدته « ينبوع الحياة » كذلك صورة لنفسه الصافية المؤمنة . .

وفى قصيدته « الخليقة » يصور الشاعر فناء الحياة وبقاء الأرواح وحياتها فى عالم أفضل وأمثل وأكمل . . وفى قصيدته « حقيقة » يرنو الشاعر بمظاهر الحياة وقدرة الله فيها ، فيتخذ منها الدليل على وجود الخالق وحكمته . . وهكذا نجد الشعر الدينى فى الديوان يمثل نزعة فكرية عنيفة عند الشاعر ، ويصور فلسفة عميقة بناءة يؤمن بها الشاعر ويتخذها عقيدة له فى الحياة .

— ٥ —

وفى الديوان كثير من الشعر الاجتماعى وخاصة فى جانب الأسرة ، من مثل قصيدته « أمومة » ، و « ولدى » التى يخاطب فيها ابنه فيقول :

فهيا بنى وهيا إلى وهيا تعال ، وقل لى نعم

وقصيدته « فتاة الجيل » التى يدعو فيها الفتاة العربية لفك قيودها ، والسير بجانب الرجل فى معركة الحياة . . وفى قصيدته « صحيفة الآلام » يعدد مشكلات الأسرة فى المجتمع العربى ، ويثور على هذه المشكلات ويسخر منها ، ويدعو إلى حلها .

إلى آخر هذه القصائد ذات المغزى الجليل ، والهدف الحر . . وقصيدته « معجزة العلم الطائرة » تدل على حبه لتجديد المجتمع العربى عن طريق العلم ، والابتكار والتسلح بأسلحة الغرب المادية .

– ٦ –

وفى الديوان شعر كثير يمثل الجانب الإنسانى عند الشاعر خير تمثيل . . ومن قصائد هذا الجانب قصيدته : « المثل العليا للحياة » ، و « دنيا الإخاء » ، وفيهما يدعو الشاعر إلى الإخاء الإنسانى ، وإلى الحب الاجتماعى ، وكذلك يكرر هذه الدعوة فى قصيدته « قيم وأخلاق » ، وقصيدته « الحب » ، و « إيثار » ، و « مبدأ » وسواها .

ويمثل نزعة الشاعر الإنسانية قوله من قصيدته « هذا الوجود » :

هذا الوجود بغير حب زائف وبغيره نجنى على الأنضال

وقوله من قصيدته « حقيقة » :

وأهوى جمال الكون فى كل مظهر وألهو بما شاء الفؤاد وأطرب

وفى قصيدته « موطنى » – ويريد بموطنه جدة – يتحدث الشاعر عن تغير أخلاق الناس ، وزوال الحب من النفوس ، ويتمنى أن يعود العهد القديم والماضى الزكى . . وقصيدته « النشأة الأولى » تمثل فطرة الشاعر الخيرة المتسامية النبيلة ، وكذلك قصيدته « رحلة العمر » .

— ٧ —

وفى الديوان شعر كثير يمثل تأثر الشاعر بالأدب المهجرى ، وفى مقدمة هذا الشعر نزعة الحيرة والشك البادية فى الديوان ، ومن مثلها قصيدته : دنيا الحظوظ ، وسراب ، وحيرة ، وما وجودى ؛ و « ينبوع الحياة » ، والنفس الباغية ، وخطرات ، والقصيدتان الأخيرتان من عيون قصائد الديوان ، وكذلك قصيدته « عبرة » .

وهذه القصائد تدل على تطور عقل الشاعر وفكره ، وعلى إيمانه بالتجديد وبالنزعات الجديدة فى الشعر ، ولاداعى للاقتباس منها ، لأنها كلها مما يصح الرجوع اليه فى الديوان . . ومن مثل هذا الجانب كذلك قصيدته « تسليم » .

— ٨ —

ويبق بعد ذلك جانب أخير من شعر الديوان هو الجانب العاطفى . . وتمثله قصائد : الحب ، ونغمة ساحرة ، وأمل ، وتأملات ، ونجوى ، وحب مكين ، وليل العاشقين . يقول الشاعر من قصيدته « نغمة ساحرة » :

حسناء سافرة الجمال هيفاء تخطر بالدلال
هى مصرع العشاق إن مرت على صرعى الجمال
هى أنس من يحظى بلفتـ ـتها ، ولفتتها محال
لا أن تجود بوصلها أبدا ولا ترضى الوصال
أنشودة بل نغمـــة سبحت بآفاق الخيال
إنسانة لكن من الـ ـكون العلى لها اتصال
حورية شيطانة إنسية شتى الخصال

— ٩ —

وشعر المناسبات فى الديوان ليس مما ينال التفاتنا .. ويبق بعد ذلك أن نقول : إن آخر قصيدة فيم الخلود ، أى آخر بيتين فيها ليسا مما يتلاءمان مع باقى القصيدة من حيث أحكام القافية ، وإن الديوان قد شوهته المقدمة التى وضعت

فى صدره ، والتى صورته ديوانا هزيلا ليس فيـــه ما يستحق التفاتة الناقدين والدارسين .

-- ١٠ --

إن ديوان « وحى الشاطىء » يبشر بشاعرية ثرة فياضة ملهمة .. هى التى سوف تطالعنا بوضوح وقوة فى ديوان الإلياذة الإسلامية الجديدة « أيام الرسول الأعظم » .. وهو كذلك أكثر الدواوين الحجازية المعاصرة وصفا للبحر والطبيعة وتأثرا بالشعر المهجرى المعاصر .. وهو من أجل ذلك حرى بالتفاتنا واهتمامنا .

والشاعر محمد إبراهيم جدع صاحب ديوان وحى الشاطىء يمثل نزعة جديدة حرية بالتقدير والتشجيع ، وحبذا لو وقف شعره على الطبيعة والبحر ، وعلى النزعة الإنسانية والتأملية .. فقد رأيناه فى هذه الجوانب الثلاثة مجيدا مبرزا متفوقا .. وأحسبه لا بد أن يكون كذلك إن شاء الله . . .

وقد ولد عام ١٣٣٠ ﻫ بمدينة جدة - الحجاز ، وتخرج من المدرسة السعودية بجدة عام ١٣٤٨ ﻫ ، وكان شغوفا بالاطلاع على تفسير القرآن والأحاديث وكتب الأدب القديم والحديث ، ولما رزق طفلا فى عام ١٣٥٧ ﻫ نظم أول قصيدة له بعنوان « ولدى » وهى منشورة بديوان « وحى الشاطىء » وكان يبلغ من العمر فى ذلك الوقت العشرين عاما وأخذ يمضى فى نظم القصائد منذ ذلك السن ، ومنها « أنشودة البحر » وقصيدة « وقفة على شاطىء جزيرة الواسطة » ، ولم يجسر على جمعها فى ديوان « وحى الشاطىء » ونشرها بالصحف المحلية إلا فى عام ١٣٧٥ ﻫ أى عندما بلغ الخامسة والأربعين من عمره إذ كانت الخصومات الأدبية التى تحدث كثيرا بين الأدباء فى الحجاز تحول دون إقدامه على نشر إنتاجه ومنذ عام ١٣٥٧ﻫ بدأ بنشر بعض قصائده التى طبعت بعد ذلك فى الديوان فى مجلة قافلة الزيت وفى جريدة البلاد السعودية وجريدة حراء ، وقد نقلت مجلة عربية تصدر فى أمريكا اسمها « الرسالة » قصيدته « أنشودة البحر » من مجلة « قافلة الزيت » .

وبعد صدور الديوان كتب عنه الأديب عبد الله الحصين الموظف بالإذاعة والصحافة والنشر دراسة قيمة أشاد فيها بانتاج الشاعر ، ونشرت فى جريدة البلاد السعودية وقد لقى الديوان قبولا واهتماما من الأدباء والنقاد والدارسين .

حـــيرة

- ١ -

حيرة ديوان تحت الطبع للشاعر الحجازى المدنى ماجد الحسينى ... صاحب الترانيم الحلوة ، والهمسات الخافتة ، والشعر المهموس ، والصور الرفافة ، الموشاة بروح المهجريين وشعرهم . ويكاد يمثل انطلاقة الشعر المدنى نحو التجديد ، هذه الانطلاقة التى رأينا طلائعها عند الرفة ومحمد العامر الرميح ، وعبد السلام هاشم ، وسواهم من شعراء المدينة المنورة .

والشاعر ماجد الحسينى يصور لنا رأيه فى الشعر فى قصائد من الديوان :

أولها قصيدته التى صدر بها ديوانه ، وعنوانها باقتى . . أى باقة الشعر لا الزهر ، ويصر الأديب المصرى الأستاذ عبد العزيز الاسلامبولى صاحب مجلة المعرفة المحتجبة على وجوب التعبير « بطاقة » بدل « باقة » . .

وثانيهما قصيدة « شعرى » التى يقول فيها :

أحل عن الشعر شكوى لواعجى   وأسكب فيه دمعى وأنينى
وهل كان إلا الشعر سلوى لبائس   ونفثة مكروب ورجع حزين
يضمنه الإنسان ذكرى حياته   وأيامه من ناعم وضنين
ويبعث فيه خالجات ضلوعه   يخلدها فى أسطر ولحون
يراجع فيه سالفات شبابه   وعمرا تقضى فى شجى وفتون

والثالثة عنوانها « الفن » ، والرابعة عنوانها « شاعر » ، وهى أوضح القصائد الثلاث تعبيرا عن رأى الشاعر فى الشعر ، ويقول الشاعر فيها :

هام بالروض والزهر   والنسيمات والسحر
شاطر الطير لحنها   فى الأماسى والبكر
واصطفى الجدول المتدفق على شاطىء نضر

مفردا لا تروعه جفوة الناس بالكدر
راضيا من حياته بالخيالات والذكر
مل من عشرة الأنا م ومن قسوة القدر
وارتضى الزهر صاحبا وتآخى مع القمر

إنه ـ كما يقول ـ شاعر يحب الطبيعة ويهيم بها ، ويأنس إلى الوحدة ويصطفيها ويرتضى الزهر صديقا ويناجى القمر ويركن إلى إخائه ، إلى آخر ما يقول فى هذه القصيدة الرومانسية ، التى يختمها بقوله :

هكذا يعبر الحيا ة ويصفو له العمر
يكبر الله فى الجما ل وفى رائع الصور

وإن أردنا أن نبحث عن مظاهر شعر الطبيعة التى أحبها الشاعر وهام بها ، وجدناها تتمثل فى كثير من قصائد الديوان ، ويقف عليها الشاعر قصيدته « نشيد الربيع » الذى يقول فيها :

هذه الدنيا خيال الشاعر معقل القلب وسحر الناظر
هذه دنيا الربيع الناضر حلم الحب ولهو السامر
هذه الأرض عروس تبسم كل ما فيها بديع ملهم
ههنا يسلو المعنى المغرم لوعة الوجد وذكرى الغابر
هذه الأرض مساء وشروقا تبعث الوهم مع الشعر طليقا
أفق يبسم وردا وشقيقا وعلى الأفنان شدو الطائر

إلى آخر هذه القصيدة الحالمة . . ومن مثل ماوشى به الشاعر قصائده من أوصاف الطبيعة قصيدته « الفن » ، وقصيدته « همسة » التى يقول فيها :

يا حبيبى هجع الناس فقم وامض بنا
سكن الليل وهذا الكون قد نادى بنا
يا حبيب القلب قم نطفىء لظى من حبنا
ونناجى بهوانا الفجر إن مر بنا
بين أضواء النجوم وترانيم النسيم

والفضا عذب الوجوم والرؤى ملء الصميم
ونغنى وبصمت الليل قد يحلو الغناء
قد سئمنا الهمس بالنجوى وأضنانا الخفاء
فليسمعنا الليل كم فى الليل سلوى وعزاء
إلى آخر هذه القصيدة الحماسة المشبوبة .

- ٢ -

وديوان حيرة يمثل تأثير الشعر الحجازى المعاصر بالشعر المهجرى ، وقد سمى باسم أولى قصائد باب «التأملات» وعنوانها «حيرة» ، ويقول الشاعر فيها :

يا آخـــذا بأزمة الأبد
متحجبا فى اللا نهايات
يزجى الخلائق من يد ليد
يمضون فى مجهول غايات
رباه حرت فخذ إليك يدى
وأنر لقلبى حالك الحجب
ما كنت با للاجئ إلى أحد
إلاك فارحمنى من النصب
قد أجهدت فكرى الظنون ولم
أبرح من الألغاز فى تيه
حيث ابتدأت رجعت بعد ولم
يكشف لقلبى عن خوافيه
وإذا بنور فى السماء بدا
إلاى لم يشهده من أحد
وإذا بصوت رن منه صدى
يجرى من الأزمان للأبد
وطغى الشعاع فلا أرى الكونا
وجميع ما أبصرت إشراق
وعميت ثمة لا أرى لونا
وطغى على الاحساس إغراق

ويستمر الشاعر فى حيرته وقلقه ، هذه الحيرة النفسية العميقة ، يصور تطلعه للنور ، واحتجاب هذا النور عن كثافة الإنسان المظلمة ، وعدم إدراكه لسر الإله الخالق ، مؤمنا الإيمان الوجدانى ، البعيد عن التعاليم والعلم والمنطق :

متمنع عن كل تعليم
لكنه إشراق ووجدان

ويختم هذه القصيدة الحائرة القلقة بقوله :

آمنت يا رباه بالقدر
وعلمت أنك فوق أفكارى
قد حرت فى أعجوبة البشر
أنى بصنع المبدع البارى

وهذا القلق الفكرى يصور لنا الشاعر وقد قرأ كثيرا من الأفكار ، وتاه فى دوامتها ، ثم عاد إلى وجدانه ، إلى إيمانه ، إلى إنسانيته وفطرته المثلى الأصيلة فأخذ يسرد قصة هذا القلق ، ويرد على أفكار الفلاسفة والمتفلسفين ، والقائلين بأن الوجود أساسه الحركة ، أو أنه قوى موزعة ، أو طاقة متنوعة ، إلى آخر ما ذكره الشاعر وصوره .

والحيرة التى جعل منها الشاعر اسما لديوانه تتمثل كذلك فى قصيدته « الميلاد » التى يقول فيها :

يولد الطفل ويأتى الحياة
صارخا كالمستغيث الهاتف
فتحييه وجوه وشفاه
باسمات فرحا بالهاتف
ماله يبكى فهل أبصر ما
خبأ الدهر له فى طيه
أو ترى استنكر هذا العالما
ورأى سوآته فى حيه

والعيون الجذلات الفرحات
مالها بشرا به تبتسم
أدروا هل هو للخيرات آت
أو ترى بالشر يوما يوصم

إلى آخر هذه القصيدة التي تنظر وراء الأشياء إلى روحها وسرها وجوهرها لا إلى مظاهرها وصورها وطيوفها . . .

وكذلك تبدو هذه الحيرة نفسها في قصيدته « فيلسوف » .

وفي قصيدته « ياليلى » تبدو روح الخيام وفلسفته واضحة جلية . . . يقول الشاعر :

يا ليلى بسم الزمان لنا
فدعى الشكاة وأبعدي الحزنا
من ضيع اللذات إن حضرت
سيروح يندب بعدها زمنا
فلنشرب الكأس التي حضرت
نطفىء بها في الوجد غلتنا
ودعي غدا فغدا له قدر
الحاضر المرياح يطلبنا
فلنجن جهد القلب من وطر
لا تذهب اللذات نزوتنا

ثم يقول :

فاضحك مع الأيام كيف أتت
وخذ اللذاذة آمنا مرنا

ثم يقول :

اليوم لي فلأجن لذته
مادمت لم أكسب عنا وخنا

ويقول :

الكون معركة فسر قدما
راح القتيل فلا تنح حزنا
من سوف يبكينا إذا غربت
عنا الحياة ومن سيندبنا ؟

وهكذا نجد قسم «التأملات» فى الديوان كله حيرة وقلق وجهد فكرى عميق وروح رومانسى هامس. ونقلب بعده الصفحات لنجد قسم «الاجتماعيات» الذى تطالعنا فيه فلسفة القوة فى قصيدته «آهات» ذات النزعة العربية القوية، وفلسفة الوطنية فى قصيدته «وطنى»، وفلسفة الاشتراكية الاجتماعية فى قصيدته «صورة بلا عنوان» وفلسفة الثورة على الأخلاق المنحلة فى قصيدته «زفرات» التى تصور انهيار الأخلاق فى البيئات المتحضرة، وفى قصيدته «أرتسع» ذات النزعة الإنسانية النبيلة والجرأة فى التصوير والتعبير، هذه الجرأة التى نلمسها فى قصيدته «صورة بلا عنوان»، وما أروع ما يقول فى ختام قصيدته «أرتسع» على لسان هذه الفتاة :

إن ذنبي ليس ذنبي
ذنب حكام وشعب
دفعوا للإثم قلبي
فتهـــاويت برغمي
وتبذلت بجسمي

وهى صورة نرى شبيها لها فى قصيدته «صورة بلا عنوان» التى يقول فيها أيضا :

الكانزون الغافلون
ولمن تراهم يجمعون
الشعب هل هم عاملون
ما أنشأوا ويؤسسون
ويقال فيهم : مؤمنون

أما القسم الثالث أو الأخير من الديوان فهو « أهواء » : وهو يمثل وجدان الشاعر وعاطفته ، يمثل حبه ورأى الشاعر فى المرأة ، التى يصورها فى قصيدته « حواء الخالدة » ، ومن أظهر قصائده الوجدانية فى هذا الديوان قصيدته « التجربة الأولى » و « أشواق » وقصيدته الأخيرة « همس » التى أشرنا إليها من قبل . . .

- ٣ -

إن الشاعر ماجد الحسينى الذى يجتاز أواخر العقد الثالث من عمره ، والذى عاش فى الحجاز يقرأ ويطالع ، لتبدو تجربته الشعرية عميقة حادة نفاذة ، توحى بمضمون اجتماعى قوى ، وتستمد من حيرة الشعر المهجرى وقلقه هذه الحيرة وذلك القلق اللذين يوشيان تجربة الشاعر بالرؤى البعيدة ، والأحلام الخفية ، والخيالات الصامتة ، والرومانسية الحالمة . . .

والشاعر ماجد الحسينى يمثل بحق تأثر شعراء المدينة بالمهجريين وشعرهم ، ويمثل خطوات الشعر الحجازى السائرة نحو التجديد بقوة وتصميم .

وديوانه صدى عميق للفلسفة الفكرية التى تسود عقول المجتمع العربى بعد الحرب العالمية الثانية . . .

وإنى لأتمنى لماجد الحسينى أن يعبر هذه المرحلة من حياته الشاعرة ، وأن يصبح صاحب رسالة يدعو لها . ويلهم قومه وأمته أروع ما يلهمهم شاعر يؤمن بالحق والقوة والجمال .

أغاريد الصحراء

— ١ —

أغاريد الصحراء هو الديوان الخامس للشاعر الحجازى الموهوب ، طاهر زمخشرى ، صاحب : أحلام الربيع ، وهمسات ، وأنفاس الربيع ، وأصداء الرابية .

والزمخشرى صاحب شاعرية غنائية بديعة ، وأنغام عذبة ، وموسيقى حلوة ، وسمات الزمخشرى وقصائده تنم عن حزن عميق ، كأنه فى جرحيا ته كفاح الرجل الذى يريد أن يعيش ، وانتابته الهموم فصارعها (١) . وتصور أحزانه هذه قصيدته « الحرمان » ، وقصيدته « زفرة » ، و « أغاريد الصحراء » اسم ينم عن معناه إنه أغاريد يرددها شاعر من الصحراء ، وهو شاعر عرف بالغنائية الحلوة الجميلة ، وكما يقول الشاعر محمد مصطفى حمام فيه :

رب الأغاريد وشادى المعشر
وصائغ الشعـــر كصوغ الجوهر .

— ٢ —

وفى صدر الديوان قصائد رقاقة ذات ألحان جميلة : الله أكبر ، رباه ، موطن القداسات ، النفس المؤمنة ، وهى قصائد عامرة بالإيمان الروحى والاطمئنان النفسى ، فى قصيدته « الله أكبر » يضرع إلى الله أن يغفر ذنوبه وأن يزيده يقينا :

وأنت الذى تمحو الذنوب جميعها ... وعفوك أدنى ما ينال المقصر
دعوتك يارباه فاقبل ضراعتى ... وزدنى يقينا ، إنك الله أكبر

---

(١) ص ٥ ديوان أصداء الرابية .

وهذه الضراعة نفسها نجدها فى قصيدته « رباه » .

أما قصيدته « موطن القداسات » فأولى بها أن تكون النشيد القومى للجزيرة العربية ، وما أحلى مايقول طاهر :

منبع الإشراق ، صداح المنى   يملأ الدنيا ضياء هاهنا
والقداسات السخيات الهبات   منهل يجرى يفيض البركات
يعبر الأجيال من ماض لآت   بالهدى فاض نميرا من هنا
يغمر الدنيا جلالا وسنا   وهو ينساب دفوقا محسنا .

وقصيدة النفس المؤمنة أولى بها أن تكون شعارا لكل مسلم ، وما أجمل مايقول فيها الزمخشرى :

سبحى لله يانفس وصلى واشكريه   وإذا عاشت بك البلوى وهاجت فاذكريه
إنه الشيطان يغويك لتشقى فاحذريه   فاذا غالك إثم جامح فاستغفريه.سبحى الله

وهنا يبدو طبع طاهر وموسيقاه وألحانه الجميلة المحببة كما كانت نفس طاهر دائما جميلة محببة إلى قلوب الناس جميعا ، ، إن طاهر نفسه لحن جميل عذب لا تمـــل سماعه ، ولا تسأم ترداده . وما أبدع ظرفه متحدثا ، وأروع أسلوبه شاعرا .

وقصيدة « بلادى » ، كذلك يجب أن تكون نشيدا الشباب فى الجزيرة لحلاوتها وعذوبتها ولحنها العذب ، يقول طاهر فى مطلعها :

بلادى فدتك روحى وعينى   لنور يشع من المسجدين

ويستمر فى هذه القصيدة كما يسير اللحن الطروب الساحر الممتع الجميل .

وقصيدتاه التى يوجههما إلى الشباب :

يازهورا تبسمت فى الوجود   بعبير المنى وعطر الجدود
ويازهور الربا الشوادى الغوالى   والصدى العذب هاتف فى الجبال

من أرفع قصائد زمخشرى الوطنية .

وقصائده القومية « جميلة » التي خلد فيها بطولة جميلة بوحريد ، « وفي الخيام » التي تحدث فيها عن حياة اللاجئين . تمثلان الجانب القوي في شعر زمخشري تمثيلا قويا واضحا .

- ٣ -

أما الشاعر نفسه فتمثله في الديوان قصائده الجميلة : « زعموا » .

زعموا أنني بعد الطلاب   سوف أحيا مضيع الآراب
« زعموا أنني سأطوي الليالي   نادبا أسكب المنى في انتحابي
« زعموا أنني ابث شجوني   في فسيح من الفجاج اليباب

وتمثله كذلك قصيدته « زورق الأحلام » ، وقصيدته :

أنا بالله لا بصوغ اللآلى   سوف أحظى بأعذب الآمال

وقصيدته الجميلة المشرقة « قالوا » :

قالوا أجدت نفقات في   تبديد أيام الشباب

التي هي صورة لفلسفة الشاعر ولحياته معا ..

وقصيدة « زمخشري » التي عنوانها « أولئك » تمثل تفاؤل الشاعر بالحياة وابتسامه لها على الرغم من الهموم والأحزان التي يعيش فيها ..

وكذلك يصنع الشاعر في قصيدته :

يا رؤى أشرقت بدنيا وجودي   مرحبا مرحبا بفجري السعيد

وفي قصيدته الأخرى :

يا مني تغمر أفقي نغما   والصدى ينساب وقدا في دمي

أما قصيدته « إليك عني » ففيها تأثرات بأدب المهجر وشعر إيليا أبي ماضي وهي قصيدة رائعة حقا ، ويكفي أن يشتمل الديوان عليها وحدها .. وتمثل نفس الشاعر المتطلعة إلى الفرح النفسي والجمال الأبدي ، والمحرومة من هذا الفرح ومن التمتع بذلك الجمال ، وكما يقول الشاعر في قصيدته « زفرة » :

سوف لا أخدع نفسى بالأمانى
لا ولا أرجو ابتسامات زمانى
أنا مازلت صريعا فى مكانى

— ٤ —

وإذا كانت رؤى الحجاز ومشاهده تتمثل فى قصيدة حجازية معاصرة ، فأولى بها أن تتمثل فى قصيدة زمخشرى « إلى المروتين » التى يقول فيها فى حلاوة نغم وعذوبة كافية :

أهيم بروحى على الرابية ... وعند المطاف وفى المروتين
وأهفو إلى ذكر غالية ... لدى البيت والخيف والأخشبين
فيهدر دمعى بآماقيه ... ويجرى لظاه على الوجنتين
ويصرخ شوقى بأعماقيه ... فأرسل من مقلتى دمعتين

— ٥ —

أما قصائد الديوان الوجدانية : شهر زاد ، وأنت لى ، وتعالى ، وفى الطريق ولقاء ، وغفوة ، وبسمة ، وصدى ضحكة هاتفية . وقبلة ، وفجر الأمل ، وظلامه ، وساعتها ، ورسالة ، وصورة ، وهمسة ، وأطياف المنى ، وحنين ، وشمل ، وآهة ، ونفثة ، وصليبى ، وهناك ، والموعد الأخضر ، وعند البحر . فهى قصائد عامرة بالصبابات الدفينة ، والحب الآسر ، والهوى القاتل ، وهى تمثل روحا كلفة بحب الجمال تتبعه ، وتعشقه وتفنى فيه : . وحسبك منها قصيدة « غفوة » :

فى دمى أنت ثورة وبعينى ... قبس من شعاع بدر منير

وقصيدة « بسمة » :

بسمة منك نورت عمق ذاتى ... فأنيرى الحياة بالبسمات

وقصيدة « ساعتها » :

أحلى يد وساعد تطوقين قاصدى
والتهنئ بلمسها من دون أى أحد

وقصيدة « صورة » التى يعز وجود مثلها فى الشعر المعاصر :

أمامى أمسى وخافى غدى
وفى ثورة العيلم الأسود
من الليل فى لهثة المجهد
خطاى تسير إلى الموعد
إلى موعد كان أحلى المنى
وما زلت أرقبه ها هنا

إلى آخر هذه القصيدة الرائعة .

- ٦ -

ورباعيات زمخشرى فى ديوانه طريفة غاية الطرافة كطاهر نفسه ، وهى تحتوى على العديد من الموضوعات والأغراض . . ومن بين هذه الرباعيات : رباعية القمر الصناعى ، ورحلة على الصاروخ ، ومن أطرف رباعياته : رباعية استفتاء . التى يقول فى مطلعها :

قاضى « النهود » ألا تجيب معذبا يشكو إليك الفاتنات الغيدا

- ٧ -

والديوان لا يوجد فيه من شعر المناسبات إلا قصيدة واحدة عنوانها ، « عودة الفيصل » وتلك حسنة لديوان شاعر حجازى ألا يحتوى إلا على قصيدة واحدة من شعر المناسبات ،

وفى ديوان الشاعر قصيدتان ذاتا مغزى اجتماعى جليل ، أولاهما « فى العيد » والثانية : « على لسان سائل » ، وهما من القصائد ذات المضمون الاجتماعى النبيل بل هما حسنة من حسنات الديوان وصاحبه ،

- ٨ -

فاذا أردنا أن نتخذ قصيدة لتكون صورة واضحة لشاعرية الشاعر ومداها

فلتكن هى قصيدته فى أواخر الديوان : « ربوة الذكريات » . . . التى يقول فيها الشاعر :

ربوة الذكريات يا بلسم الآمال يا بسمة الأمانى الوضاء
أترى تذكرين أمسى الذى أغفى وما زال نابضا بدمائى
وائن كان فى جوانبك الخرساء وميض لفن وميض رجائى
أن تعيدى لى الليالى كما كانت لألاقى لديك بعض عزائى
سائلونى بماذا أحس ؟ لماذا فى سكون الدجى أفر إليك
وخطى الدهر فى انطلاقته العمياء تلقى الوجوم بين يديك
ونباح الكلاب فى قمة التل نواح يرن فى أذنيك
وقطيع الأغنام فى أفقك الراعب صرعى مكبلين لديك

إلى آخر هـــذه القصيدة التى تنم عن فنان أصيل ، وشاعر موهوب ، وشاعرية محلقة .

— ٩ —

إن « أغاريد الصحراء » انطلاقة جديدة فى الشعر الحجازى ، وفيه تأثرات عدة بشعر المهجر . . ولكن ما أروع ماحلق « زمخشرى » فى ديوانه هذا تحليق العبقريين . . وأصحاب الفن الأصيل .

إنى لا أحب أن ينسى الناس فى الحجاز ديوان أغاريد الصحراء ، فيه الحرمان والحب والأمل والكفاح ، والانتصار للحرية والترقب لمستقبل مشرق ، وفيه صور رفيعة من الفن الأصيل لشاعر اجتاز كل الخطى ، ودلف إلى ساحة الهيكل ، وشرب من النبع الخالد ، نبع الشاعرية المتفوقة المحلقة .

وزمخشرى الذى لم أطرب كثيرا لدواوينه السالفة جدير بأن يطرب النقاد والدارسون لديوانه الأخير « أغاريد الصحراء » لأن فيه من ألق الفن ووهج الشاعرية الشىء الكثير . . مما يدعونا إلى الاعتراف بشاعرية زمخشرى ووضعها فى موضعها الصحيح من التفوق والعبقرية .

أين نحن اليوم

- ١ -

ونعود إلى الفلالى الشاعر الحجازى المبدع لا فى ديوان جديد من دواوينه، ولكن فى كتاب بديع يحمل طابع تفكيره الحر، ورسالته الجريئة، ودعواته القومية النبيلة.

لقد عرفنا الفلالى الشاعر فى «ألحانى»، و«صدى الألحان» شاعراً متفوقاً موهوباً أنيقاً فى تعابيره وصوره ومعانيه وأخيلته... يتأثر على محمود طه، وإبراهيم ناجى فى شعره... ثم عرفناه فى «المرصاد» ناقداً جريئاً ذا ذوق مرهف، وإحساس قوى، وشعور دقيق بالجمال ومواطن البلاغة.. وعرفناه أخيراً فى كتابه «أين نحن اليوم؟» وطنياً حر الرأى والضمير (١).

وفى مقدمة هذا الكتاب يبدو إيمان الشاعر ببلاده بالحجاز موطن الإسلام ومهبط النبوة، وإيمان الفلالى ببلاده يدفعه إلى أن ينشد لها الحرية والأمن والسلام والعدالة والديمقراطية الصحيحة، ومن أجل ذلك فهو يخاطب أبناء الحجاز يدعوهم إلى حمل المشاعل، وغرس بذور الحرية والوطنية.

يحتوى «أين نحن اليوم» على بحوث جديدة عميقة عن «أين نحن اليوم» ويحتوى على تفصيل لرأى الشاعر فى موقف الإسلام من الكتل الدولية المتصارعة، وعن «سمعة الإسلام»، «والإسلام دين العمل».. وعن الرسول حياته صلى الله عليه وسلم، وعن مصر والعرب والإسلام، وعن الحجاز وأثره فى الحضارة الإسلامية».

كما يحتوى على خواطر وأفكار جريئة حرة معبرة، ومن بينها: لم خلقنا، لا تقف على الحافة. ألوان التعبير، كيف نحتفظ بعروبتنا، شخصية الأمة

---

(١) راجع الشعر والتجديد ص ١٢٩ - ١٣٥، ١٨٣ - ١٨٧ تأليف الخفاجى.

العربية ومقوماتها بعد الإسلام .. وهي بحوث دعا فيها الشاعر منذ خمس سنوات إلى القومية العربية دعوة جريئة صريحة .

والبحث الأخير هو عن شاعر الحجاز عمر بن أبي ربيعة ، وهو بحث جديد يكشف عن شخصيه عمر وشاعريته وحياته .

والكلمة الأخيرة في الكتاب عنوانها « ليتنا نفهم » نفهم أننا نعيش في عصر الشعوب لا في عصر الحاكمين .

— ٣ —

وفي هذا الكتاب حقا لون من أدب الحجاز ومن اتجاه الفكر في الحجاز . وقد عرض المؤلف آراءه وبحوثه بأسلوب جريء جذاب مشرق .

والفلالي في كتابه هذا وفي كتابه الآخر « رجالات الحجاز » .. من أكثر الناس إيمانا بموطن العروبة والإسلام « الحجاز » ودفاعا عنه وعن حاضره ومستقبله .

وهذا الكتاب ثمرة ناضجة من التفكير الحجازي المعاصر .. وحرى بشباب الحجاز أن يقرأوا أدب الفلالي ويفهموه ويحاولوا التأثر بتياره .

ومن أعماق قلوبنا نحيي الفلالي الكاتب المتحرر ، المؤمن بدينه وبلاده وعروبته إيمانا عميقا لا يتزلزل مهما اصطلحت عليه الخطوب والأحداث .

قصص مختارة

— ١ —

مجموعة جديدة ، عنوانها « قصص مختارة » ، ومؤلفها أديب حجازى موهوب ، مؤمن بالأدب ، وتعد كتاباته أنموذجا جديدا رائعا لفن الأسلوب ، فله طابع خاص مستقل فى تصوره وتصويره وتعبيره ، وله شخصية فنية متميزة تحب الأناقة وخاصة فى الأسلوب ، وتعاف المعانى المبتذلة وتكاد تتخذ الأسلوب فنا ، وتحيل الموهبة إلى جمال خالص ، وإشراق متلألىء وضوء يكاد يأخذ بالألباب والأبصار .

واشهد انى سيء الظن بالأدب الحجازى المعاصر ، أعتقد أنه متأخر كل التأخر فى فن المسرحية والقصة ، ولما قابلنى محمد عالم الأفغانى ، وعرفنى بنفسه ، كأديب من الحجاز ، من المدينة المنورة ، يزور القاهرة ، ويريد أن يخرج مجموعة من القصص والمسرحيات بعنوان اختاره لها وهو « قصص مختارة » قابلته بابتسامة ساخرة ، وقلت لنفسى وماذا يستطيع هذا الإنسان أن يقول ، وإلى أى مدى يمكنه أن يبلغ حد الجودة فى قصصه ومسرحياته ؟ .

ومضت أيام وأسابيع ، وعاد بعدها الأفغانى ، يهدى إلى مجموعته « قصص مختارة » ، وبدأت فى تلاوتها ، وما كدت أبدأ حتى انقلب إشفاقى على هذا الأديب المتواضع الحيى إلى تقدير ، وأخذت أعيد ما أقرأ ، وأتمثل هذا الأديب فى أسلوبه الساحر ، وبيانه المشرق ، وطبعه المطبوع ، وفنه الموهوب ، وأقول : لقد ظلمته ، ولو أن بيئته تقدر حق الأدب والأدباء لاتخذت من هذه المجموعة الصغيرة مادة للكتابة عن الشخصية الحجازية فى الأدب ، وعن خصائص هذه الشخصية فى فن القصة والمسرحية ، ولكرمته تكريما يليق بموهبته ويؤدى حق هذا الرجل على بلاده .

— ٢ —

تتكون هذه المجموعة من مسرحية طويلة ، جعل الأفغانى عنوانها « [illegible]

السلام » ، ومن قصة قصيرة عنوانها « أسطورة المصباح السحرى » والمسرحية الأولى تمتاز برمزيتها البعيدة فهى وإن اتخذت موضوعهـا من التاريخ ، ورجعت بحوادثها إلى القرن الثالث الهجرى ، فانها تحاول فى جهد وإشفاق أن تتنصل من أفكارها الجديدة المؤمنة بالنور والسلام ، وبالعدالة والحرية ، وبالخير لبنى الإنسان عامة ، وأن تنحل القرن الثالث هذه الأفكار والآراء والمعتقدات ... والأفغانى وهو يكتب هذه المسرحية يصل إلى حد الجودة فى أدائه البيانى وفى أسلوبه الرصين وتعابيره القوية ، وفنه البلاغى الأخاذ وأشهد له بالتفوق فى الخيال وملكة التصوير .

وسألت الأفغانى : بمن تأثرت من الأدباء والأدب فى القديم والحديث ؟ فرد على بقوله : إننى لم أترك كتابا إلا قرأته ولا أديبا إلا أمعنت القراءة فى أدبه ، وسألته : وابن المقفع ؟ فرد قائلا : وابن المقفع كذلك قرأته فيمن قرأتهم من الأدباء والشعراء والمفكرين .

وتمثيلية « طريق السلام » التى تقع فى ثلاثة عشر منظرا ، وتمثل قصة حب وخصومة سياسية بين ملكين كبيرين من ملوك القرن الثالث ، وتنتهى أحداثها بنهاية مؤلمة دامية ، على الرغم من سعى بعض المفكرين والحكماء لإصلاح ذات البين بينهما .

و « طريق السلام » تعد أروع مسرحية تتحدث عن الحرية والشعب والسلام ومبادىء الديموقراطية . وحديثها عن الوحدة بين شعبين شقيقين حديث كله عبرة وعظة بالغة ، والرمزية السائدة فى المسرحية وأسلوبها المونق الجميل مما يحبب قراءتها مرة ومرات ، والشوق إلى تكرارها والإفادة بما فيها من نظرات حكيمة وأفكار عميقة وآراء صائبة . .

أما القصة الأخيرة قصة « أسطورة المصباح السحرى » فلا تبعد عن زميلتها مسرحية « طريق السلام » كثيرا فى خصائص أسلوبها ، وفى الروح التى كتبت بها ، وهى من هذا النبع الفياض المتدفق ، الذى ينبع من عقل الأفغانى وقلبه ، ومن عاطفته الحارة ، ومشاعره النبيلة ، وإحساسه الحى ، وإيمانه بمبادىء السلام والعدالة والحرية ، والديموقراطيـــة ، وأثرها

فى توحيد الشعب العربى فى هذه الساعات الحاسمة ، وفى تاريخ الشعوب ، وفى مصير الإنسانية .

— ٢ —

وحول هذه الفكرة كتب الأفغانى فى صحيفة المدينة المنورة عدد ٥ سبتمبر ١٩٥٩ بعنوان « النقد والنقاد فى بلادنا » يقول :

لا يكسب الناقد العظيم ذوقه الفنى الرائع المتكامل إلا بالثقافة المحلقة العليا وبالتأمل الدائم المستمر فى أعمال الخالدين من الأدباء الممتازين والفنانين العمالقة الكبار . . ومهمة النقد هى هدم وبناء . . والناقد الكبير هو الذى يهدى الضالين من الفنانين والادباء إذا ما ادلهمت حول أقدامهم غبار الانواء أو التخبط فى قول اين كريم » .

فاذا استثنينا الرواد الأول للنقد فى بلادنا . . نجد على رأس النقاد المثاليين الشبان الشيخ عبد العزيز الرفاعى وهو بثقافته العليا مشعل من مشاعل الهداية النيرة . . ومن النقاد الشبان ذوى الموهبة الادبية الممتازة والعلم الوفير . . الاديب عبد العزيز أحمد ساب . . ولا يسعنى إلا أن أعترف بأن الاديب محمد عبد الله المليبارى من ذوى ثقافة نقدية متكاملة . . وأعتز بآرائه ونقده أشد اعتزاز . . وأعتقد أن الخلاف الناشب بين الاستاذ المليبارى وبين الرائد العربى الكبير محمد عبد المنعم خفاجى إنما هو من قبيل سوء التفاهم .

وأعود فأقول بأننى أعتز أشد الاعتزاز بنقد الاستاذ عبد العزيز أحمد ساب شفهيا ، والاستاذ المليبارى كتابيا ، وإن كنت أخالف الاستاذين الاديبين فى أنه ينبغى أن يكون الحوار مكثفا ، وأن يكون شعراً منثورا أو منظوما إذا كان المجال مجال حب أو عاطفة وأن يكون حماسيا إذا اقتضى المقام ذلك الحماس وأن يكون خطابيا إذا كان الموقف موقف إقناع وتأثير .

ولا يغيب على الاستاذين الصديقين ما أبديه من نقد حول حوار برناردشو

فى مسرحياته فأخذ عليه نقاد معروفون بأنه يطيل الحوار على ألسنة أبطاله إطالة مملة وأنه يصبغ جميع أبطاله بصبغته الفكرية ، وإننى أنقل اليك ماذكره الاستاذ الاديب محمد أمين حسونة فى دراسته الادبية الشاملة عن الكاتب الإيطالى الكبير براندللو المنشورة فى سلسلة اقرأ عدد ٧٩ عن برناردشو زعيم المذهب الواقعى المعروف « . إن شو يلقن بطلاته وأبطاله تعلـيما عصريا راقيا » .

ودهش الاستاذ المليبارى حينما قلت بأن مسرحيتى هى رمزية وهى واقعية مبنى وكلاسيكية حوارا .

لقد جمع من قبل إبسن أستاذ برناردشو الأول .. بين كلاسيكية الاغريق القديمة فى البناء المسرحى فحافظ على وحدة الزمان والمكان التى تحرر منها شكسبير ، وإنى لأنقل اليك ما قاله نفس المؤلف فى مؤلفه هذا حرفيا :

ومن هذا الطراز إبسن العملاق الذى كأنه انحدر من صلب شكسبير ويمضى المؤلف بعد ذلك قائلا :

(لقد رفع إبسن من شأن الدرامة وأعاد إلى الذاكرة المآسى الاغريقية بروعتها وجمالها ولزوم وحدة الزمان والمكان) .

إذن فقد اجتمعت فى أعمال إبسن الواقعى الأول كلاسيكية اليونان القديمة وكلاسيكية شكسبير المتحررة والمذهب الواقعى الحديث ،ولم نذهب بعيداً فشعر حمزة شحاته كلاسيكى ورومانتيكى معا ، وشعر حسين عرب رومانتيكى وكلاسيكى معا ، وشعر الرفه كلاسيكى وواقعى معا .

وإننى أنقل الآن اليك نصا يقع فى الصفحة الواحدة والعشرين من كتاب بعنوان (التوجيه الأدبى) تأليف الدكتور طه حسين وأحمد أمين وعبد الوهاب عزام ومحمد عوض محمد عن مذاهب القصة الغربية فى صفحة ٢٢ من نفس الكتاب : (ومع هذا نرى كثيرا من الروايات تشتمل على اتجاهين أو أكثر مما ذكرنا) .

أخذ هل الأستاذ المليبارى أننى أطيل الحوار وأكلف أبطالى مالا يطيقون من فلسفة وبلاغة .. وإننى لأنقل حوارا عن معجزة برناردشو الخالدة (جان دارك) وهو كما يعلم زعيم المذهب الواقعى الحديث :. وجان هى فتاة فى حكم الجاهلة الأمية :. حينما نصحت بالاوبة إلى أهلها وذويها :

(لو أننى اتبعت مثل هذا الحق بالامس .. فالى أى حد كنتم تصيرون ؟ إنكم لاعون لى فيكم ولا نصيحة .. نعم أنا فى هذه الدنيا وحيدة .. وقد كنت فيها أبدا وحيدة .. تركت أبى لاسعف بلادى .. فطاب إلى إخوتى أن يغرقونى فى البحر إذا لم أطرق قارعى غنمه بينما فرنسا تجرى دماؤها على الأرض سفحا) :

أما كان هذا الجواب بفى بالغرض المؤدى المطلوب إلا أن قلم برناردشو الخالد ظل يغرقنا فى ثلاثة وعشرين سطرا من فلسفته العالية المنتقاة وبيانه الرائع الرفيع مما لا يصح أبدا أن تتقول به فتاة أمية جاهلة .

الفصل الأخير

الشيخ عبد الله بن تركي



من أشهر علماء قطر وأدبائها ، وفى الطليعة من مفكريها ، عمل مدة طويلة مفتشا لمعارف إمارة قطر ، هذه الامارة العربية الفتية ، وترك آثارا كبيرة فى الحياة العقلية والثقافية فى هذه البلاد الناشئة .

ولد الشيخ عام ١٣٢٣ ه فى قطر ، من أسرة عريقة فى العلم والمعرفة ، ونشأ نشأة دينية خالصة ، وجد فى طلب العلوم والآداب وتحصيل الثقافات وما أن بلغ الخامسة والعشرين حتى ظهر تفوقه العلمى والأدبى .

تولى مناصب عدة كبيرة ، واشتهر بفصاحة اللسان ، وقوة البيان ، وحضور البديهة ، وبيته ندوة علمية كبيرة يؤمها الأدباء والشعراء والمثقفون ، وتوجيهه للذين يعملون فى المحيط الثقافى فى قطر ظاهر الأثر فى حياة هذا القطر الشقيق .

نوهت به الصحف والمجلات العربية فى مناسبات عديدة مختلفة ، وكتبت عنه مقالات كثيرة(١) .

وهو كذلك من الذين يعملون باخلاص لخدمة العروبة والإسلام ، وتقوية أواصر الوحدة والأخوة بين البلاد العربية ، وقد أسهم بجهود كبيرة فى خدمة

---

(١) راجع صحيفة الوادى عدد ٥٠٠٤ الصادر فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٥٩ - مقالة عن ابن تركى .

الثقافة العربية التي يحبها ويتذوقها . . وله منزلته العالية في قلوب شيوخ قطر وأمرائها ، وخاصة صاحب السمو الحاكم الشيخ علي آل ثاني المعظم ، وسمو ولي عهده ، وسمو الشيخ جاسم وزير المعارف .

وطالما استمع إليه الشعب العربي في المناسبات الكثيرة محاضرا ومحدثا لبقا . فقد دعته إذاعة الجمهورية العربية المتحدة لإذاعة بعض المحاضرات في صوت العرب عام ١٩٥٨ فألقى أكثر من محاضرة .

ولما زار القاهرة للمرة الثانية عام ١٩٥٩ بمناسبة حضوره لاختيار البعثات الأزهرية ، دعته الإذاعة مرة أخرى ليحاضر في صوت العرب فأذاع محاضرة بعنوان « النهضة التعليمية في قطر » ، وأخرى بعنوان « تقدم الوعي الوطني في قطر » وألم بالموضوعات التي حاضر فيها إلماما دقيقا دل على العمق ورسوخ القدم في العلم والمعرفة والأدب .

وهو حجة في علوم الدين واللغة ، عدا إحاطته الشاملة بعلم الاجتماع ، وفهمه العميق لتطور النهضات في الشرق والغرب .

تطور الأدب العربي

— ١ —

كان الأدب العربي منذ نشأته حافلا بألوان البلاغة والتعبير عن النفس الإنسانية فى صدق وإخلاص زاخرا بشتى الأحاسيس النبيلة ، والعواطف السامية كان صورة لبيئة العرب الاجتماعية ولحياتهم العقلية ، وكان مظهرا جليلا لأيامهم ولعاداتهم ولثقافتهم الفطرية السهلة ، تمثل فى العصر الجاهلى فى هذه الألوان الغنائية الجميلة من الشعر ، التى كانت تنبع من نفس الشاعر ، وتعبر عن ذاته وعاطفته ، وتتحدث عن حياته ومجتمعه وملامح بيئته . . كما تمثل فيما عرفه العرب من حكمة ومثل وسجع ومن خطابة نبغوا فيها ، وجعلوها كالشعر ناطقة بمحامدهم ومفاخرهم وأيامهم ومجدهم :

وجاء الإسلام ونزل الوحى على محمد بن عبد الله بالقرآن ، كتاب البشرية الخالد ، ومعجزة الإسلام الجليلة ، فأخرس البلغاء ، وأسكت الفصحاء ، وبهر الأدباء والخطباء والحكماء والشعراء . . وأخذ الماجنون والفاخرون والهجاءون والمداحون يتحولون عن هذه الألوان الضيقة من الأدب إلى الإنسانية فى أوسع حدودها التى مثلها ودعا إليها القرآن الكريم ، . نخفت أدب الهجاء والفخر والمدح والمبالغة والكذب ، وانتهى عهد المجون واللهو .

وتحول الأدب العربى إلى أدب ثورى روحى ، يدعو إلى التحرر والثورة ، وإلى التوحيد المطلق . وإلى القضاء على كل مظهر من مظاهر الضعف الإنسانى ، ويدعو إلى السمو النفسى والروحى ، وإلى الأدب الصادق الهادف وإلى كل ما من شأنه إعزاز الإنسان وكرامته فى الحياة .

ولكن العصبية الجاهلية التى سكنت فى صدر الإسلام عادت قوية جذعة فى العصر الأموى ، فظهرت الأحزاب ، وتعددت العصبيات وتنوعت الطوائف

وعاد فن الهجاء والفخر والمدح والمجون كما كان . ولكن ألوانا جديدة من الأدب بدأت تظهر كأدب الرسائل وأدب الزهد ، وأدب الحكمة ، وأدب الارجوزة وكالغزل القصصي والعذري ،

ثم جاء العصر العباسي بحضاراته وثقافاته وامتزاج العناصر فيه ، وبدولته الناشئة وبمدنه ومعاهده وجامعاته الزاهرة ، فقامت للأدب سوق رائجة ، وتعددت الوانه وازدهرت فنونه ، ونشأ فن المقامة ، وأدب الطبيعة ، والأدب الصوفي ، والادب الفلسفي ، والادب القصصي وأدب الحرب ، وألوان أخرى ، وفي آخر العصر العباسي كان العالم الإسلامي قد أعياه الكفاح . وكانت الثقافة الإسلامية قد بدأت الشيخوخة تدب اليها ، وكان الفكر الاسلامي قد اعتراه الكلال والجمود ، وأثر ذلك تأثيرا كبيرا على الملكات وعلى الفطرة الادبية ، وعلى فنون الادب تأثيرا كبيرا استمر صداه في العصر التركي والعثماني وجانب كبير من العصر الحديث .

— ٢ —

وأشرق النور من جديد على العالم العربي في أواخر القرن التاسع عشر ، فكثر المفكرون ، ودعاة القومية ، وزعماء الوطنية ، وتعددت الثورات ضد الاستبداد والطغيان السياسي ، وبدأت مصر تعني باحياء التراث الادبي القديم وذاعت الصحافة ، وكثرت المطابع ، وبدأت الثقافة الغربية تفد على عواصم العالم العربي وتغزو معاهده وجامعاته ، عن طريق أعضاء البعثات الموفدة إلى أوربا ، والمدارس الاوربية التي أنشئت في كثير من المدن والعواصم العربية ، وعن طريق الاختلاط بين العرب والاوربيين في كل مكان . ، وكان لذلك صداه البعيد ، وأثره القوي على الادب ، فأخذ الادب يتحرر من الضعف والمبالغة والكذب ، ومن العي واللكنة ومن الصور الباهتة ، والعواطف الزائفة ، ومن كل ما يتنافى مع الفطرة والطبع والموهبة الادبية الصادقة ، وهجر الناس السجع المتكلف والزخارف اللفظية ، وكان لجمال الدين الافغاني ومحمد عبده والبارودي ومصطفى كامل وسعد زغلول ولطفي السيد أثر ضخم في تطور الادب وتحرره من قيود الادب القديم ، وتطلعه إلى كل جديد ، وإلى التعبير عن النفس الانسانية في صدق وإخلاص وقوة .

وظهر الادب القومى ، والادب الوطنى ، والادب الثورى ، ونهأ فن القصة التاريخية . وتنوعت ضروب الادب ، فبعد أن كانت السمة الغنائية غالبة عليه ، تنوع إلى أدب قصصى وتمثيلى وغنائى وظهرت المسرحية الشعرية قوية رائعة على يد شوق وأبى شادى وأضرابهما ، ونبغ فن الخطابة السياسة والقضائية والتمثيلية وذاع أدب المحاضرة والمناظرة ، وازدهر أدب الطبيعة .

وبعد أن كان الاتجاه الكلاسيكى سائدا فى الادب ظهرت النزعة الرومانسية التى حملت لواءها مدرسة أبولو ، ثم ظهر الاتجاه الواقعى والسريالى والرمزى فى الادب شعره ونثره .

ومن الجدير بالذكر أن الثورة العرابية وحركة مصطفى كامل ومحمد فريد الوطنية وثورة عام ١٩١٩ ، كان لها أثر كبير ودوى بعيد فى الادب .

وقامت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ فطبعت الادب العربى بطابع كفاحى متميز . وأخذ الادب يتغنى بمفاخر مصر وبطولات العرب ويدعو إلى الوحدة العربية والقومية العربية ، ويهيب بالعرب أن يهبوا إلى مكافحة الاستعمار والصهيونية والشيوعية والدخلاء ، وأن يتجهوا اتجاها قوميا فى أدبهم ، وأن يعنوا بمشكلات المجتمع العربى وتصويرها ، وأن يعملوا على وسعهم لبعث الايمان بالوطن والحرية فى قلب كل عربى يعيش فى بلاد العروبة شمالا وجنوبا وشرقا وغربا .

واتجه الادب إلى البساطة وإلى نبذ كل القيود ، ونشأت عن ذلك مذاهب منحرفة تحاربها بكل ما أوتينا من قوة ومنها الدعوة إلى العامية فى الادب وما سموه الشعر الحر والشعر المرسل ، ولقد انحرف دعاة الواقعية فى الادب ، فتركوا البلاغة العربية فى صورها الرائعة جملة ، وأخذوا يهذرون بألوان من التعابير العامية الممقوتة التى نحاربها ونحارب الداعين اليها وندعو إلى نبذها لأنها حرب على الاخلاق والعقائد الصالحة وعلى التحرر والجمال وعلى الاصالة وعلى دعوة القومية التى يهتف بها العرب فى كل مكان .

— ٣ —

إن الأدب يجب أن يكون حارسا للقومية العربية ولأمجاد العرب وتراثهم ، وماضيهم وحاضرهم ، لأنه صوت الحرية والنصر .

ولما انعقد مؤتمر الأدباء العرب فى القاهرة عام ١٩٥٧ كان من توصياته :

ا - أن القومية العربية المعتزة بتراثها الأدبى تريد لأدبها أن يكون حارسا للقومية العربية وموجها لها ، يسمو بها إلى ما يغنى الفكر ويرهف الشعور ، ويدفع إلى عمل .

ولذلك يحرص المؤتمر على أن يتواصى الأدباء بالعمل على :

١ - التعبير الصادق عن تجارب أمتهم ومواطنيهم تعبيرا يبرز خصائصهم القومية ويصور حياتهم وما يختلج فيها من آلام وآمال ويغذى وجدانهم بالقيم القومية والإنسانية ، ويردد نضالهم فى سبيل الوحـــدة الشاملة ، والتحرر الكامل .

٢ - الحرص على أن تكون عناية الأديب بماضيه وحاضره سبيلا إلى مستقبل أفضل لوطنه وقومه .

٣ - الحرص على أن تتوفر فى الآثار الأدبية القيم الفنية والجمالية .

ب - ولما كان الشعر إرثا قوميا ثمينا ، ويجب أن يأخذ هذا الإرث مكانة فى الثقافة الأدبية العامة وفى ثقافة الشعراء بوجه خاص . فقد أوصى المؤتمر :

١ - العناية بهذا التراث والاستفادة منه وكسب التجارب الجديدة له حتى يمكن من التعبير عن حياتنا القومية المتطلعة المتطورة .

٢ - العمل على نشر ما لم ينشر من هذا التراث .

٣ - العمل على إعادة نشر ما يتعذر الحصول عليه .

٤ - تيسير التعريف به عن طريق العرض والشرح والتقريب .

٥ - تأكيد أهمية هذا الشعر فى برامج الدراسة المختلفة .

٦ - نشر مجموعات مختارة من الشعر القومى .

جـ ـ والنثر العربى بما توافر له من وسائل النشر والإذاعة وبتنوع الأشكال الجديدة التى اتخذها فى القصة والرواية والمسرحية والمقالة والتأليف على اختلاف موضوعاته أثر بليغ فى توجيه حياة الشعوب وفى تكوين الأجيال الفتية الناشئة ، ولذلك يوصى المؤتمر بالآتى :

١ ـ أن تعنى الآثار النثرية بتقوية الوعى القومى وإرهاف الشعور واستشراف الغايات الإنسانية واستلهام القيم الروحية السامية وإيثار الخير العام مع الحرص على الإتقان والإجادة الفنية ؛

٢ ـ أن يعنى الناثرون بإبراز السمات الإيجابية فى الشخصيات والنماذج التى يصورونها وبخاصة تلك التى تعبر عن القيم العربية .

٣ ـ أن تكون اللغة العربية الفصيحة هى أداة هذا النثر بكل أشكاله .

د ـ ويستطيع الناقد فى المرحلة الحاضرة من حياة الأمة العربية أن يشارك مشاركة فعالة فى التوجيه القومى بتجلية القيم الفنية والإشادة بالخصائص القومية والمثل الإنسانية وتعريف القراء بها ، ولذلك يوصى المؤتمر بالآتى :

١ ـ أن يأخذ الناقدون أنفسهم بالجد فى أداء مهمتهم فى عمق ونزاهة ،

٢ ـ ترجمة الآثار النقدية القيمة .

– ٤ –

هذا وقد حاول الإنجليز أيام الاحتلال القضاء على اللغة العربية فى مصر ، وإحلال العامية محلها ، فشنوا على العربية حملة شعواء ، وراحوا يدعون أن سبب تأخر المصريين هو اللغة التى يتمسكون بها(١) .

وفى ذلك يقول حافظ إبراهيم قصيدته على لسان اللغة العربية :

رمونى بعقم فى الشباب وليتنى   عقمت فلم أجزع لقول عداتى

إلى آخر هذه القصيدة .

---

(١) راجع الهلال عدد ١٥ مايو ١٩٠٢ ـ من مقال لإسكندر معلوف .

وهاجم الرافعي دعاة العامية ودعوتها ، ورأى أن اللغة العربية مرتبطة بالقرآن ، ولا بد أن تبقى لغة القرآن كما هي(١) ،

وأما المستشرقون ومن بينهم : ولهم ورل ، وجرجير . فهم يحبذون استعمال العامية(٢) ، ويتابعهم في ذلك سلامة موسى(٣) ، ويؤيد ميخائيل نعيمة استعمال العامية في الروايات والتمثيليات(٤) .

ويرى أنطون الجميل أن نشر التعليم يضيق الهوة بين العامية والفصحى(٥) ، ورأى أحمد الهايب أن تبسيط اللغة العربية يقرب المسافة بينها وبين العامية (٦) ،

ويذهب حسين مروة مذهب الجميل فيقول : إن التباعد بين الفصحى والعامية سيقضى عليه لا محالة يوم تزول الأمية ويزول الجهل من بلادنا ،

وينقد أمين نخلة رأى الذين يقولون بالكتابة الوسط إذ لا يرى واسطة بين العامية والفصحى ، وهو يسخر من كل محاولة لاتخاذ سبيل وسط بين الفصاحة والفهاهة .

ومن دعاة العامية الآن : إحسان عبدالقدوس ويوسف السباعي وسواهما ، وكان تيمور يكتب بالعامية ثم تركها إلى الفصحى . . ويكتب توفيق الحكيم ومارون عبود بلغة وسط .

---

(١) الهلال فبراير ١٩٢٠ ص ٢٩٩ (٢) الهلال عدد ديسمبر ١٩١٩ ص ٢٠٦
(٣) الهلال يوليو ١٩٢٦ ص ١٠٧٤ (٤) الغربال ص ٢٧
(٥) الهلال ابريل ١٩٢٠ ص ٥٨٧ (٦) أبحاث ومقالات ص ١٨٧

السحرتى وجماعة أبولو

- ١ -

عندما قامت جماعة أبولو عام ١٩٣٢ ، للسمو بالشعر العربى ، وتوجيه جهود الشعراء توجيها شريفا ، ولمناصرة النهضات الفنية فى عالم الشعر ، وترقية مستوى الشعراء أدبيا وماديا واجتماعيا والدفاع عن كرامتهم ، وتلتها مجلة أبولو التى ظهر العدد الأول منها فى سبتمبر عام ١٩٣٢ .. أحدث ذلك نهضة حقيقية للشعر المعاصر ، تجلت فى بحوث المجلة وقصائدها ، وفى دواوين الشعر وبحوث النقد التى نشرها الدكتور أبو شادى له ولأعضاء الجماعة ، ومن بينها : أطياف الربيع وعودة الراعى وفوق العباب لأبى شادى ، والألحان الضائعة لحسن كامل الصيرفى ، ورواد الشعر فى مصر لمختار الوكيل ، ودواوين عتيق وناجى وجودت ومختار الوكيل وسواهم من الشعراء .

وكان السحرتى فى بدء قيام الجماعة محاميا فى ميت غمر ، تنشر له الصحف والمجلات بحوثه ومقالاته ، ومن بينها مجلة السياسة الأسبوعية .. ثم اتصل بالدكتور أبى شادى فى ربيع عام ١٩٣٤ ، وزاره فى مقر جماعة أبولو فى بيت رومانتيكى متواضع فى حى السيدة زينب ، حيث اتخذه ندوة أدبية وجعل منه ركنا لمطبعته ومؤلفاته ومجلاته وكتب أصدقائه والحافين من حوله .. وكان واسطة عقد التعارف هو عبد العزيز عتيق .. وفى هذه الزيارة تعرف السحرتى بأدباء الجماعة وشعرائها ، ومن بينهم : ناجى وزكى مبارك والصيرفى وصالح جودت ومختار الوكيل ، وسواهم من أدباء الحركة الابتداعية فى مصر .

وكان السحرتى يتطلع بين الفترة والفترة إلى بيت من شعر أبى شادى كتبه وعلقه فى ركن قصى من أركان البيت ، لأنه يجد فى هذا البيت تفسيرا حقيقيا لنفس أبى شادى المسالمة المتصوفة ، وهو :

علام اقتتال الناس والدهر ضاحك
علیهم وكل كالجريح بلا أسى ؟

وعاد السحرتي إلى ميت غمر وقلبه يحن إلى الندوة والجماعة وزعيمها، وأدبائها وشعرائها .. وتوالت الرسائل بينه وبين أبي شادي، تعبر عن التقاء فكرين، وتآخي عقلين، وصداقة روحين .. وصار السحرتي عضوا عاملا في جماعة أبولو يسهم في نشاطها، ويكتب في مجلتها « أبولو » التي كانت لسانا لدعوة أبي شادي، ويدبر مع أبي شادي وتلاميذه أمورها .. وزار أبو شادي ميت غمر، وقضى مع السحرتي يوما ينعم فيه بأفياء ظلالها، وبجمال الطبيعة وسحرها على ضفاف النيل الوادعة .. ونظم في هذه الفترة القصيرة أربع قصائد بارعة منها : الغراب، والصنوبر الكاذب، وقد ضمنها ديوانه « فوق العباب » الذي أخرجه عام ١٩٣٥ :

وصارت من يومئذ آراء أبي شادي التقدمية مصدر الالهام للسحرتي، كما كانت مقالاته، وكتاباته النثرية المركزة من العوامل التي دعمت الصداقة بينهما .

وقرأ الناس السحرتي آراء جديدة في الأدب والنقد في « أبولو » .. وأخذ يختلف إلى مسكن أبي شادي في المطرية وكان أبو شادي يذهب في الصباح إلى مكتبه الحكومي، ومنه يخرج إلى ندوته الأدبية، فيظل هناك حتى الغروب مكبا على أعماله الأدبية، فاذا ما اكتست السماء رداء الشفق حمل كتبه وعاد إلى منزله مسرعا مع بعض أصدقائه يحادثهم في الأدب والشعر .

فاذا ما وصل إلى المنزل قبل طفلتيه صفية وهدى، وداعب ابنه رمزي، وتناول الطعام، ثم يداف إلى مكتبته يسهر فيها بين الكتب والمراجع، وكثيرا ما كانت تستيقظ زوجه فتجده عاكفا على القراءة والكتابة، فتتسلل إلى حجرة مكتبته وتطفىء نور المصباح، فيقوم ويأوى إلى فراشه مضطرا لا مختارا .

- ٢ -

وقضت الوظيفة على أبي شادي أن ينتقل إلى الاسكندرية في مثل وظيفته وكان ذلك في أواخر عام ١٩٣٥ ، فودع العاصمة بعد أن ترك وراءه تراثا أدبيا غاليا ، دواوينه أطياف الربيع ، وفوق العباب ، والكائن الثاني ، ومجلته الاثيرة لديه « أبولو » التي توقفت بعد ثلاث سنوات من الكفاح والدؤوب . وذكرياته العزيزة بالمطرية ، ومسكنه الرومانسي فيها ، وحقولها ونخيلها وقرها الهادىء ، وترعتها الملهمة ، وطريقها الموحي ، وأصدقاءه الأعزاء وسوى ذلك ، مما سجله في شعره ، وخاصة في قصائده : في ضاحية المطرية ، على حافة الترعة ، المرآة العميقة . في الطريق الحزين ، وهكذا اضطر أبو شادي إلى إلى مفارقة ندوته وأصدقائه ، والذكريات ترف عليه رفيف النسيم على الروض العبق ، وكان عليه أن ينقل مجلاته ومطبعته إلى ثغر الاسكندرية ، وفي الثغر استمر في إصدار « الإمام » وكان يرأس تحريرها الاستاذ السحرتي ، واصطفى أبو شادي بعض أدباء الثغر . ومن بينهم : الشورباشي والنشار وعثمان حلمي ، والبحراوي وخليل شيبوب والجهني وسواهم ، واضطر أبو شادي أخيرا إلى وقف مجلة الإمام عام ١٩٣٧ كما أوقف من قبل مجلة أبولو في آخر عام ١٩٣٤ .

- ٣ -

ونظم السحرتي الشعر متأثرا بأبي شادي الذي حببه فيه ،

وفي يناير عام ١٩٤٣ ظهر للسحرتي ديوانه « أزهار الذكرى » الذي جمع شعره من عام ١٩٣٤ حتى آخر عام ١٩٤٢ . . وصدره أبو شادي بكلمة جامعة جاء فيها قوله : « إن أول ما يلحظ الناقد من شعر السحرتي هو أنه شاعر مفكر ذو رسالة رفيعة ، وهي رسالة الإنسانية التي يؤمن بحقها الأول عليه إيمانا عميقا ، وثاني ما نلمسه في شعره تهالكه التصوفي على الطبيعة في سذاجة لطيفة . . ثم يقول :

إن السحرتي شاعر رومانسي أحب الريف والطبيعة حبا غاليا . ويقول

: فانا إذا أتناول شعره بالعرض إنما أمازج الفسه الحلوة وفكره الناضج ومواهبه المتالقة التى طالما جذبتنى إليها فنهلت من عذوبتها وقبست من إشراقها .

وقبل ذلك فى عام ١٩٣٧ يصدر السحرتى كتابه أدب الطبيعة فيصدره ، أبو شادى بدراسة يقول فيها عن هذا الكتاب المدرسى البديع : إن الكتاب عرض جميل لآداب مأثورة عند العرب والانجليز والفرنسيين والامريكان قديما وحديثا إلى جانب روائع الأدب المصرى القديم .

وهكذا نجد السحرتى قد تجلت طاقته الأدبية فى أفياء جماعة أبولو ، كتب فى مجلة أبولو ، وراس تحرير الإمام ، وكتب فيها مقالاته وبحوثه الرائعة ومن بينها تحليله لكتاب « ابن الرومى للعقاد ، وسعد العظيم ، وسواهما وأسهم مع الدكتور إسماعيل أدهم فى تحرير « أدبى » التى اقتصرت بحوثها على دراسة أدب أبى شادى ومدرسته .

ويبدو تأثير جماعة أبولو فى السحرتى أخيرا فى كتابه الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ، الذى يعد أعمق دراسة للشعر المعاصر ، وقد ظهر عام ١٩٤٨ بعد هجرة أبى شادى إلى أمريكا .

— ٤ —

لقد أخذ السحرتى عن أبى شادى وجماعة ابولو الاهتمام بالنقد الأدبى وصار يرى أن مهمة الناقد عسيرة شاقة ومسئولية خطيرة أمام نفسه وفنه ومجتمعه . .

ولاشك أن مدرسة أبولو كانت أول مدرسة أدبية حرة مجددة عرفها الشعر المصرى الحديث ، كما كانت مدرسة بكل ما فى هذه الكلمة من معان . فلها آراؤها فى الأدب والنقد والشعر وفى التجديد ، ولها مجلاتها ومؤلفاتها ودواوينها . ولها من الحيوية وقوة المثابرة ما كان يدعو إلى العجب ؛ وهى التى أشاعت روح التجديد فى الشعر المعاصر ، وحولته من كلاسيكية بالية إلى رومانسية ابتداعية وإلى ألوان جديدة خصبة من الرمزية والسريالية . لا تعادى الكلاسيكية وإنما تؤاخيها .. إن جماعة ابولو قد أدت إلى ذلك التفاعل الكبير

وتلك الثورة الشعرية التي أغنت شعرنا المصرى المعاصر بعدة اتجاهات ، وكان الفضل في ذلك راجعا إلى أبي شادي والسحرتي فهما أبرز أعضاء الجماعة وأدبائها ونقادها ومفلسفي رسالتها . . ولقد استمر السحرتي وفيا لرسالته ، مؤمنا بمذهبه واتجاهه ، لايحيد يمنة ـ ولا يسرة ، فاذا كان هناك ممثل اليوم لأبولو القديمة فهو السحرتي بعبقريته الناقدة ، وألمعيته الدارسة ، وآرائه التجديدية الحرة في الأدب والنقد .

وفي الذكرى الخامسة لأبي شادي نذكر السحرتي ،مقدرين جهاده في سبيل رسالته الأدبية ، وإيمانه الفكري بقوميته وبوطنه وبأدب أمته العريق في المجد والتاريخ .

ومنوهين بذهنه الحاد ، وفطرته الأصيلة ، وملكاته الموهوبة ، وتآليفه الجديدة الجامعة ، مثل : أيديولوجية عربية جديدة ، وشعر اليوم ، وشعراء مجددون ، وسواها .

ونتمنى أن يظل السحرتي مشعلا وهاجا لحرية الفكر ، ونبل الهدف ، وسمو المشاعر ، وحامل رسالة أبولو في قديمها وجديدها ، رسالة الحرية والإخاء والسلام في الأدب ، ورسالة الإيمان بالتطور والتجديد والاصالة في الإنتاج ، ولسوف نظل نلتقي مع السحرتي وأدبه دائما التقاء الفكر الحر مع الفكر الحر .